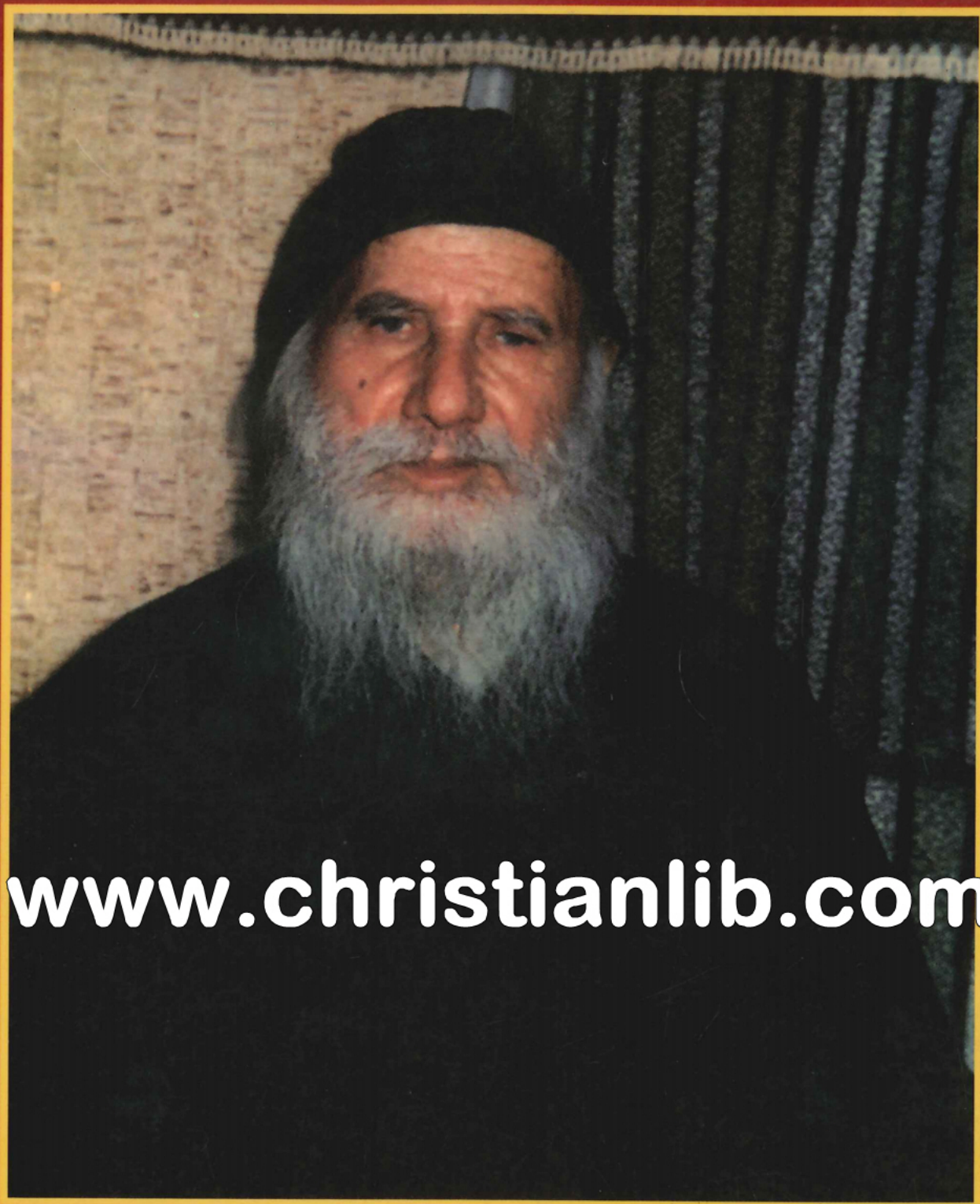


بالقرب من الشيخ بورفيرIOS

(ذكرياتُ ابنِ رُوحِيّ)



www.christianlib.com

ΚΟΝΤΑ
ΣΤΟ ΓΕΡΟΝΤΑ ΠΟΡΦΥΡΙΟ
(ΕΝΑ ΠΝΕΥΜΑΤΙΚΟΠΑΙΔΙ ΤΟΥ ΘΕΟΥ)

بالقرب من الشيخ بورفيرْيوس ذكریات ابن رُوحی

KONTA
ΣΤΟ ΓΕΡΟΝΤΑ ΠΟΡΦΥΡΙΟ
(ΕΝΑ ΠΝΕΥΜΑΤΙΚΟ ΠΑΙΔΙ ΤΟΥ ΘΥΜΑΤΑΙ)

بالقرب من الشيخ بورفيريوس ذكرياتُ ابنِ رُوحِيّ

المؤلف
قسطنطين يانّيتسيوتيس

نقلته إلى العربية
الراهبة ماريّا شقير

مكتبة البشارة
بانياس
2011

منشورات

مكتبة البشارة - بانيناس

00963 (0) 43 710 383 | تلفون

00963 (0) 43 710 612

00963 (0) 43 719 402 | فاكس

logos@scs-net.org | البريد الالكتروني

جميع الحقوق محفوظة

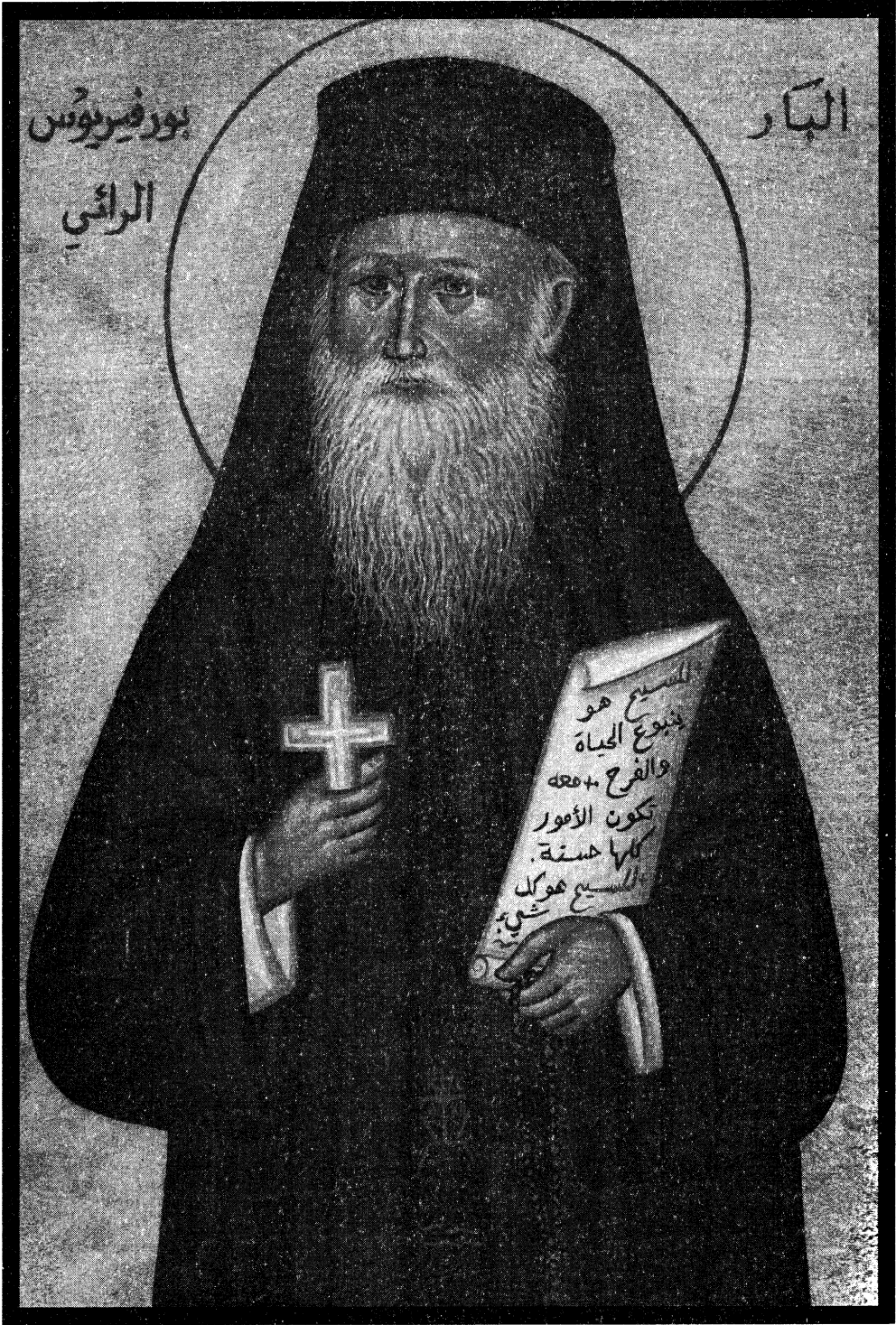
طبعة أولى

2011

الطباعة

مطابع الف باء - الأديب

دمشق





الإهداء

إلى أبي الجليل

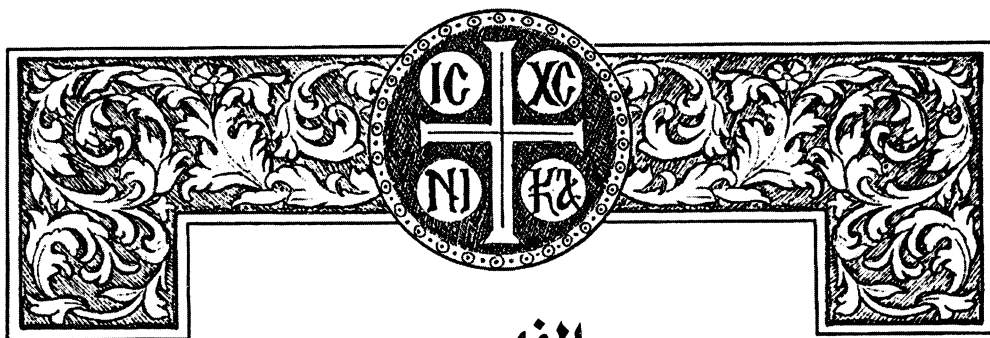
سيادة الميتروبوليت كيريوس كيريوس أفرام (كرياكوس)

وأخويته في دير مار ميخائيل - نهر بسكنتا.

والشكر لكل من ساعدني في تصحيح وتنقيح الكتاب،

وعمل على إخراجه.

المترجم



الفهرس

9 الفهرس
11 إذن تعريب ونشر الكتاب
13 إذن تعريب ونشر الكتاب
15 كلمة واجبة
17 مقدمة الناشر
21 رسالة الشيخ بورفيرىوس إلى أبنائه الروحيين
25 مقدمة المؤلف
29 اللقاء الأول
34 اللقاء الثاني
36 معاينة أعماق النفس
40 العلاقات الشخصية
45 المحبة البشرية عبر العشق الإلهي
49 الصلاة
62 التعليق الأول للناشر
64 الراهب باييسيوس

68 المحبة والعنف
73 موهبة البصيرة والرؤية
105 الملحق الثاني للناشر
109 بشأن رئيسة الدير
114 عن التكلم بالألسنة
119 موهبة الشفاء
129 الشيخ بوصفه طبيبي
138 الشيخ طبيب الناس
155 الملحق الثالث للناشر
164 آلام الشهداء وآلام الشيخ
167 الملحق الرابع للناشر
179 موهبة الرعاية
218 التواضع
231 التمييز
240 ضحكة المحبة
245 مواضيع إقتصادية
250 العلاقات بين الجنسين
263 مواهب متنوعة
321 نحو الأبدية
329 شبه خاتمة

ΙΕΡΑ ΑΡΧΙΕΠΙΣΚΟΠΗ ΑΘΗΝΩΝ
ΙΕΡΟΝ ΓΥΝΑΙΚΕΙΟΝ ΗΣΥΧΑΣΤΗΡΙΟΝ
Η ΜΕΤΑΜΟΡΦΩΣΙΣ ΤΟΥ ΣΩΤΗΡΟΣ
ΕΔΡΑ: ΦΙΛ. ΠΛΥΤΑ 47 ΚΑΙ ΑΡΑΚΛΩΒΟΥ 7
115 22 ΑΘΗΝΑΙ
ΜΕΤΟΧΙΟΝ: ΜΗΛΕΣΙ, 190 15 ΝΕΑ ΠΑΛΑΤΙΑ
ΤΗΛ. 02950-98261,...-98262,...-98515
ΤΗΛΟΜΟΙΟΥΤΥΠΟΝ 02950-98074

Ἀριθμ. πρωτ. 822

Ἐν Ἀθήναις τῇ 2-6-2002

Πρός
τὴν ὁσιωτάτην ἀδελφὴν Μαρίαν Shoucair

- Beyrouth
LIBAN

Ἀγαπητὴ ἐν Χριστῷ ἀδελφὴ Μαρία,

Χριστὸς Ἀνέστη,

Μέ μεγάλην χαράν ἀνεγνώσαμε τό γράμμα σου μέ τό ὅποϊον μᾶς
ζητεῖς τὴν ἄδεια νὰ μεταφράσεις καί ἐκδώσεις εἰς τὴν ἀραβικὴν
γλῶσσαν, πρὸς πνευματικὴν ὠφέλειαν τῶν ἀραβοφώνων χριστιανῶν,
τό βιβλίον τοῦ Κωνσταντίνου Γιαννιτσιώτη *Κοντά στόν Γέροντα
Πορφύριο, ἓνα πνευματικοπαίδι του θυμᾶται*, τό ὅποϊον ἔχομεν
ἐκδώσει. Εἰς ἀπάντησιν σοῦ γνωρίζομε ὅτι εὐχαρίστως παρέχομε
τὴν ἄδειαν αὐτὴν καί σέ συγχαίρομε διὰ τὴν ὡραίαν πρωτοβουλίαν.
Εὐχόμεθα δέ νά φέρεις σύντομα καί μέ ἐπιτυχίαν εἰς πέρας τὴν
μετάφρασιν καί νὰ κυκλοφορήσῃ σύντομα τό βιβλίον εἰς τὴν
ἀραβικὴν γλῶσσαν πρὸς ὠφέλειαν τῶν ἀραβοφώνων χριστιανῶν καί
ὅλων τῶν ἀνθρώπων καλῆς θελήσεως. Εἴθε οἱ εὐχές του Γέροντος
Πορφυρίου νά σέ στηρίζουν καί νά σέ φωτίζουν νά ἀποδώσεις σωστά
τά νοήματα τῶν λόγων του.

Μέ πολλήν ἀγάπην ἐν Χριστῷ
Ἡ ἡγουμένη

Φεβρωνία Μ



Φεβρωνία Μοναχὴ καί αἱ σὺν ἐμοὶ ἐν Χριστῷ ἀδελφαί

إذن تعريب ونشر الكتاب

رئاسة أساقفة أثينا

دير تجليّ المخلص للرهبنة النسائية

أثينا 2002/6/2

إلى الأخت الجزيل برّها ماريّا شقير

بيروت - لبنان

الأخت العزيزة في الرب ماريّا

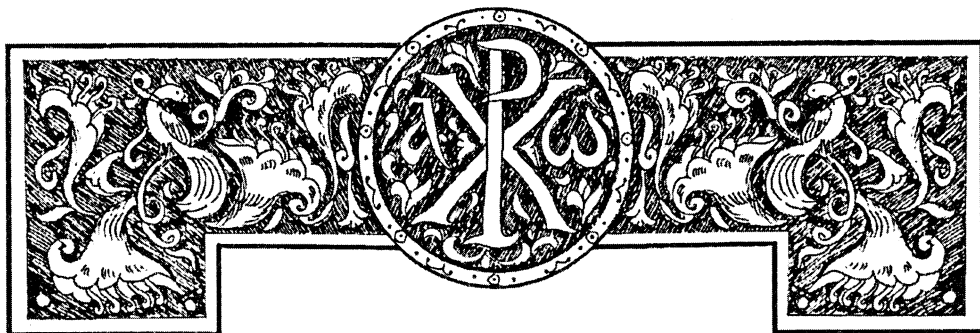
المسيح قام

قرأنا، بسرور بالغ، رسالتك التي تطلبين فيها الإذن بتعريب ونشر كتاب السيّد قسطنطين يانّيتسيوتيس (بالقرب من الشيخ بورفيريوس، ذكريات ابنٍ روحيّ) الذي قام ديرنا المقدّس بنشره. وبناءً عليه نمحك هذا الإذن بسرور ونهنئك على هذه المبادرة الرائعة. هذا ونرجو أن تتمكّني من إنجاز التعريب ونشر الكتاب بأسرع وقتٍ ممكنٍ، بهدف منفعة المسيحيين الناطقين بالعربية وفائدة جميع البشر من ذوي النوايا الصالحة. ولا يسعنا، في النهاية، إلا أن نطلب من الشيخ بورفيريوس أن يعضدك بصلواته وينير ذهنك لنقل المعاني الصحيحة لكلماته وأقواله.

مع محبتي الكبيرة في المسيح

رئيسة الدير

فبرونيّا وأخويتي في المسيح



كلمة واجبة

وجه الأب بورفيروس يتراءى وراء كلماته العذبة. إنسان يجمع بين الجانب النسكيّ، الآثوسيّ، وبين الخبرة الروحيّة العمليّة وسط العالم. يتوّج الجانبين مسحةً مواهبيّة إلهيّة واضحة وكأنه وجه سماويّ منير في جسد ترابيّ ضعيف بمثابة أيقونة حيّة.

عجبٌ كيف يستطيع أن ينقل العمليّات الجهاديّة الصعبة، كالصلاة وطريق القداسة، بمتناول الإنسان العاديّ الذي يعيش في وسط العالم. الصلاة الحارّة والمستمرّة من القلب تشكّل بالنسبة إليه أفضل دواء للمشاكل البيتيّة والاجتماعية.

هذا الكتاب الذي بين أيديكم ألفه ابنٌ روحيّ له وصديقٌ حميمٌ رافقه فترةً طويلةً في كيليسيا وفي دير التجلّي الذي شيّده ليكون مركز إنقاذ ونجدة للإنسان الذي يعيش في محيط أثينا وذلك إستنادًا إلى أداة الصلاة والإرشاد الروحي. هو عبارة عن

مجموعة أحاديث وقصص وكلمات مختارة جمعها المؤلف شاهد
عيان، تبعث الفرح والرجاء لكلّ إنسان مسيحيّ يعشق مثل هذه
البساطة التي ليس فيها لا لاهوت ولا تعقيد بل حِكْمٌ عمليّة نابعة
من خبرة القديّسين واستنارة إلهيّة.

الراهبة ماريّا التي تكتب أيقونات جميلة مميّزة هي التي نقلت
إلينا الكتاب من لغته اليونانيّة الى اللغة العربيّة.

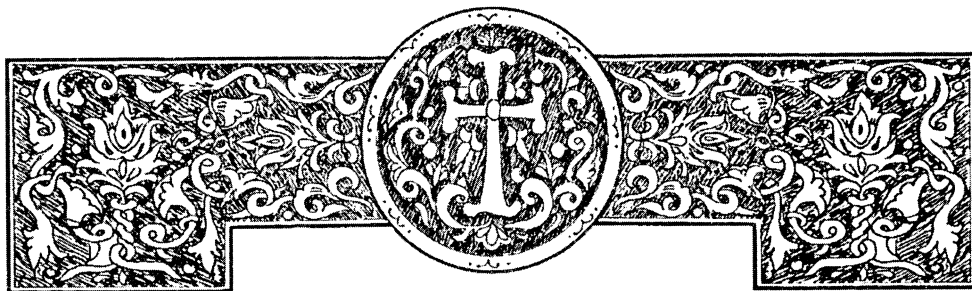
أشكر الربّ على عطاياه في قديّسيه وأشكر كلّ من ساهم في
نقل مثل هذه العطايا لنا جميعًا.



المطران

أفرام كريكوس

مطران طرابلس والكورة وتوابعهما



مقدمة الناشر

إن الذين اختاروا قضاء حياتهم في دير هدوئيّ، يؤثرون الصّمت. فالصّمت كنز ثمين، وبقدر ما يصعب اقتناؤه يسهل فقدانه. ومن دون الصمت لا نستطيع أن نسمع التّمجيد المستمرّ الذي ترفعه الطّبيعة كلّها إلى الله، من الزّهرة الوضيعة إلى النّسر المحلّق، من البحيرة الهادئة إلى البحر الهائج، من الشّمس المشّعة إلى النّجوم الّتي لا تحصى، من النّاسك المتّوحد إلى أجناد القوّات العلويّة، من مناغاة الرّضيع إلى تأمل المفكّر العميق... والأهمّ من ذلك هو أنّنا لا يمكننا أن نصغي (بانتهاء) إلى همس ضميرنا، صوت الله في داخلنا الذي يهبّ كالنّسيم اللّطيف فيكشف فقرنا ويجعلنا نشتهي غنى أبينا الصّالح الذي ينتظر عودتنا إلى حضنه.

ولكن، في بعض الأحيان، يضطرّ من اختار طريق الصّمت إلى التكلّم؛ فالمسيحيّ عندما يجد المسيح ويتعرّف إليه ويشعر به

يتغلغل في أعماق نفسه يرغب في أن ينادي به ويتحدث عنه في كل مكان. فهو يرغب في أن يتكلم على المسيح، على ماهيته، يريد أن يقول للكل: "أحبوا المسيح ولا تفضّلوا شيئاً على محبته. المسيح هو الكل، إنه ينبوع الحياة، إنه غاية الأمان، إنه كل شيء. في المسيح يكمن كل جمال".

لعلها جسارة أن ندعي أننا خرجنا على صمتنا لأننا عرفنا المسيح. إلا أن الله، بسبب عظم رحمته لنا، نحن خرافه الضالة، سرّ أن نتعرّف إلى صاحب هذا الكلام، الشيخ المغبوط بورفيروس، القائل أيضاً: "حتى في صمتي وفي كل مكان أحاول أن أحيي ذلك. لست أحييه ولكنني... أحاول". وبما أننا ندرك أننا لم نتعرّف كما يجب إلى الشيخ، على الرغم من أننا عشنا بالقرب منه سنين عديدة، فقد رجونا، بعد رقاد، الأصدقاء والمعارف، أن يكتبوا لنا كل ما يتذكرونه عنه. والآن، نطلب منكم، من أجل "الذكرى"، أن تكتبوا لنا كل ما تتذكرونه عن علاقتكم به حتى نجمعها، ونفتح قلوبنا المغلقة وعيوننا العمياء ونرى، من خلالها، كيف توصّل هذا الشيخ إلى العبور من هذه الحياة إلى كنيسة المسيح غير المخلوقة؛ لعلنا نحرك إرادتنا اللامبالية وقلوبنا الفاتر نحو محبة المسيح، ونفتح له باب أنفسنا فيرضى أن يأتي ويسكن في داخلنا.

لقد لبّى كثيرون دعوتنا هذه، فأحضر لنا بعضهم رواياته مسجلة على أشرطة، وبعضهم الآخر ذكرياته مكتوبة، وآخرون

أخبرونا شخصيًا بما عندهم، أو عبر الهاتف، وكثيرون لا يزالون ينتظرون دورهم.

ومن بين هؤلاء حبيبنا قسطنطين، الموجود الآن في السماء، فقد أحضر لنا، في صيف العام 1993، بدلاً من بعض الملاحظات، الكتاب بأكمله الذي بين أيديكم الآن، وأعطانا صلاحية التصرف به بحسب ما نراه مناسباً، وحسبنا أن يرضى الأب بورفيروس عن هذا العمل فتستفيد النفوس ويتمجد اسم المسيح.

بعد دراسته، رأينا أنّ من الأفضل أن نقدّمه لكم مطبوعاً بأكمله، مع بعض التعديلات والتحسينات الطفيفة، حتى تستفيدوا روحياً أنتم أيضاً، وتمجدوا معنا الله العجيب في قديسيه؛ وهكذا، يُسرّ الشّيخ بورفيروس برؤيته محبّتنا للمسيح تزداد.

إذاً، من شدة فرحنا خرجنا هذه المرّة أيضاً عن صمتنا، لأننا وجدنا في هذا النصّ إشارات إلى الطريق الذي يؤدي إلى هدف حياتنا الأخير، إلى مسيحنا الذي نتوق إليه حقاً. وكما في كلّ أعمال البشريّة، من الطبيعي أن يجد القارئ في هذا الكتاب أسلوب الكاتب ومفاهيمه، ويراه يشدّد على آراء معيّنة في بعض مواضيع ويقلّل من أهميّة بعضها الآخر. إلا أنّ هذا لا بدّ منه، وهو فضل من الصّمت التّام. ولذلك نرجو أن تفعل نعمة الرّوح خمس في القراء، حتّى يفهم كلّ واحد "بلغته الخاصّة"، تماماً كما

حصل مع الذين أصغوا إلى الرّسل يوم العنصرة (أع2: 6-8)، ما يحتاج إليه للخلاص فلا يعثر.

كما نتمنى أن يريح الرّب نفس الكاتب في بلدة الأحياء، بالقرب من الشّيخ بورفيرْيوس، وأن يؤهّلنا جميعاً أن نلتقي بهما يوماً، بعد أن نعبر، بفضل نصائحهما، لجة الحياة ونصل بصلواتهما إلى الميناء الأبديّ في أورشليم العلويّة. ونشكر كلّ الذين تعبوا من أجل تقديم هذا الكتاب الجميل لنا، ورفضوا بسبب تواضعهم أن نذكر أسماءهم.

دير التجليّ للراهبات
ميلسي 5 آذار 1994م
سبت الأموات



رسالة الشيخ بورفيريوس إلى أبنائه الرّوحيين

أبنائي الرّوحيين الأحباء:

أريد أن أقول لكم بعض النّصائح، وأنا بعدُ في وعي الكامل. منذ صغري وأنا في الخطايا. كانت أمّي ترسلني إلى الجبل لأرعى المواشي - لأنّ أبي كان قد ذهب إلى أميركا ليعمل في قناة باناما من أجلنا نحن أولاده، إذ كنّا فقراء - وهناك وأنا أرعى المواشي قرأت متهمجياً قصّة القديس يوحنا الكوخي وأحببته كثيراً، ولست أذكر متى - بين الثّانية عشرة والخامسة عشرة من عمري - كنت كطفل أصلي كثيراً. وأردت أن أقلّد القديس، فذهبت خفية عن أهلي، وبجهد كبير، إلى الكافسوكاليفيا، في الجبل المقدّس آثوس. وهناك تتلمذت على شيخين أخوين هما بندلايمون واوانيكوس. وقد حالفني الحظّ أنّهما كانا تقيّين جدّاً وفاضلين فأحببتهما كثيراً، ولذا

بصلواتهما، توصّبت إلى إطاعتها طاعة مطلقة. ولقد ساعدني هذا كثيراً، فأحسست أيضاً بمحبّة عظيمة نحو الله، وعشت بأحسن حال. ولكن، بسماح من الله، من أجل خطايي، مرضت مرضاً شديداً فأرسلني شيعي إلى أهلي في بلدة القديس يوحنا في إيفيا.

ولأنّني، منذ صغري، كنت أقترف خطايا كثيرة، لما عدت إلى العالم استمرّيت في فعل الخطايا التي أضحت كثيرة جداً اليوم. إلا أنّ الناس كانوا يعتبروني صالحاً وهم جميعهم يسمونني "قديس". فيما كنت أشعر بأنني أكبر خاطئ في العالم. وطبعاً اعترفت بكلّ ما تذكّرت. وأعرف أنّ كلّ ما اعترفت به سامحني عنه الله، إلا أنّه عندي شعور الآن بأنّ خطايي الرّوحية هي كثيرة جداً، وأرجو منكم أنتم الذين عرفتموني أن تُصلّوا من أجلي، لأنّني، وأنا في الحياة، كنت بكلّ تواضع أصلي من أجلكم. غير أنّني، الآن، وأنا ذاهب إلى السّماء، أشعر بأنّ الله سيقول لي: ماذا تريد أنت هنا؟ وأنا ليس عندي إلّا شيء واحد أقوله له: أنا يا ربّ لست مستحقّاً لهذا المكان، ولكن فلتفعل محبّتك بي ما تريده. ومن هناك فصاعداً، لست أدري ماذا سيحصل. إلا أنّني أتمنّى أن تفعل محبة الله.

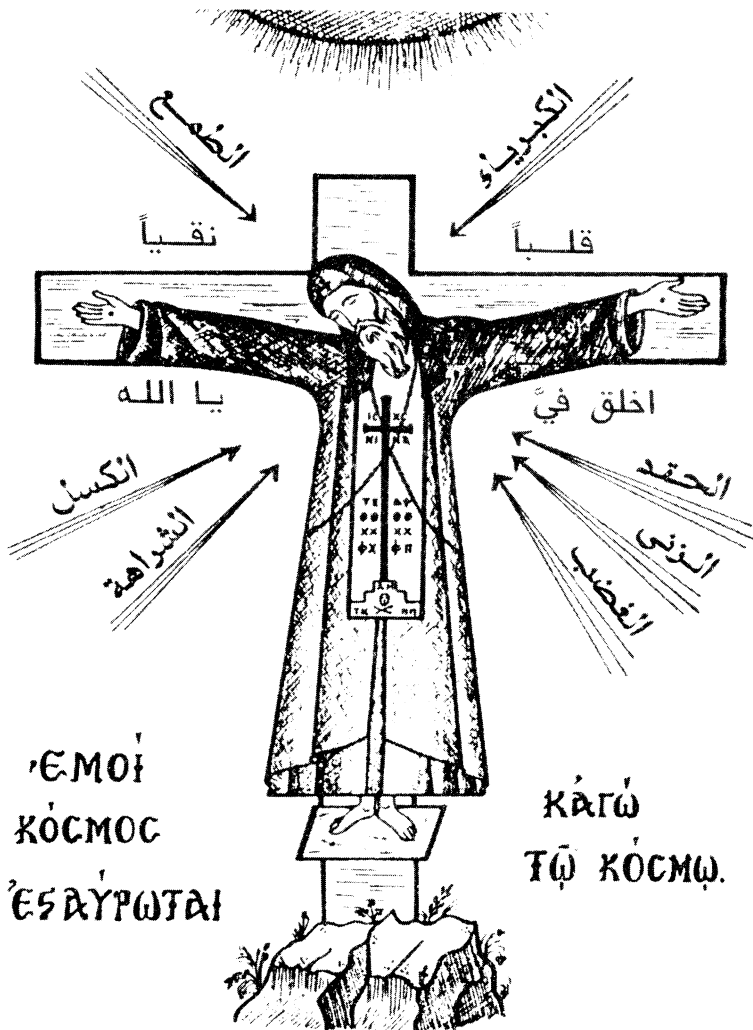
وأتمنّى دائماً أن يحبّ أبناي الرّوحيون الله الذي هو كلّ شيء، لكي يجعلنا مستحقين لدخول كنيسته الأرضية غير المخلوقة. لأنّه من هنا يجب أن نبدأ. وأنا حاولت دائماً أن أصلي وأن أقرأ تسابيح

الكنيسة، والكتب المقدسة، وسير قدسينا، وأتمنى أن تقوموا أنتم
أيضاً بالشيء نفسه. وأنا كنت دائماً أحاول بنعمة الله أن أتقرب
من الله وأتمنى أن تفعلوا أنتم أيضاً هكذا.

وأرجوكم جميعاً أن تسامحوني على كل ما أحتزنكم به.

الكاهن المتوحد بورفيرىوس

كافسوكاليفيا 17 حزيران 1991م

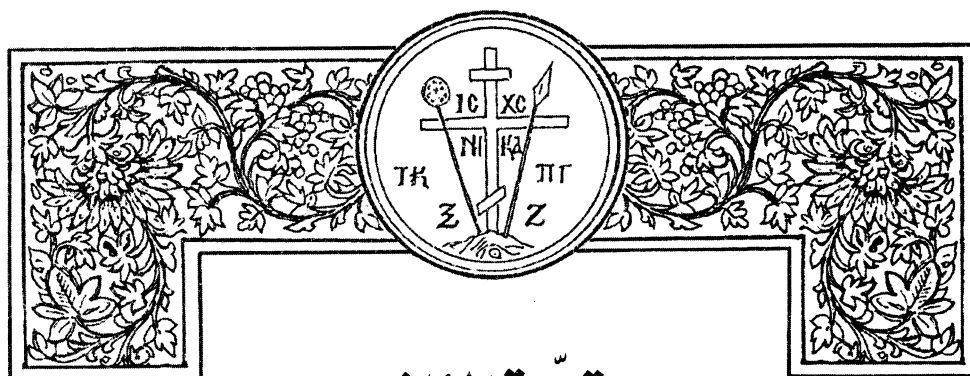


Ὁ Ἐσαυρώμενος Μοναχός

صَلَبِ الْعَالَمِ لِي وَأَنَا لِلْعَالَمِ

أيقونة الراهب المصلوب

الروح القدس يدعو الرهبان إلى السيرة الملائكية ويرشدهم في مسيرتهم من العيشة المشتركة إلى الحياة الروحية. يشكل هجران العالم والغربة بدءاً ارتقائهم إلى جبل الرب. الرسامة الرهبانية تؤكد استجابتهم الايجابية على دعوة الله وتختتمها، بموجب قول الرب: "من أراد أن يتبعني فليترك نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني" (لوقا ٩: ٢٣)



مقدمة المؤلف

"هناك أشياء مهمة أقولها لك، ولكن المشكلة أنك تدوّنهما، ثم تتحدّث عنها وتقولها. لا تفعل هذا يا بني". لا يزال يطنّ في أذني توبيخ لطيف وجهه إليّ الشّيخ في بداية تعارفنا، وعلى إثره، حاولت لسيطرة على حماسي بتخفيف الكتابة والكلام حتّى أتمكّن من إصغاء أكثر. والآن، وبعد سنوات كثيرة، عندما أتناول القلم لأكتب عن الشّيخ، أشعر بشيء من الخشية، إذ يهَيّأ لي بأني سأسمع صوته من جديد يؤنّبني كما في الماضي. ولكن، من المؤكّد أنّه. في هذه المرّة، لن يمنعني من الكتابة، بل سيشجّعني، كما سبق وفعل في رسالته الوداعيّة إذ تمّنى علينا، نحن أبناءه نرّوحين، قبل رقاذه بقليل أن نقرأ "تسابيح الكنيسة والكتاب منسّ وسير القديسين". ولكن كيف كنّا سنقرأ سير القديسين، لو كان هناك أشخاص كتبوا عن حياتهم وتعاليمهم؟ لذا، من رحي. أنا أيضًا، أن أقدم معلومات وافرة بقدر المستطاع. ولكن،

أيمكنني الإكتفاء بالملاحظات القليلة المدوّنة؟ فمن أين أعود بتلك الملاحظات التي محتها الذاكرة، ولكيّ ساعتمد على بعض رواياتي المتحفّظة لأصدقائي، التي تمّت ببركة الشّيح غير المباشرة، إذ إنّّه قد منعني عن تدوينها والتحدّث عنها. ولذلك، في أحد الأيام، في كاليسيا، أبديت اعتراضي للأُمّ رئيسة الدّير قائلاً: "لماذا لا يسمح لي الشّيح بتدوين الملاحظات والتحدّث عنها؟ فأنا أكتب القليل لذاتي وأحدّث به فقط أصدقائي الذين يهتمّون بالأُمور الرّوحية، وأجد أنّهم يستفيدون؟" فأجابني الأُمّ: "لا تنتظر أن يقول لك الشّيح اكتب وتكلّم. فإن كنت تظنّ أنّهم يستفيدون، كلّمهم".

فلو أنّ الشّيح سمح لي بتدوين الملاحظات، لكان في حوزتي الآن مواد كثيرة. لكن، كما يبدو، منعه سبب ما من السّماح لي بذلك. كما وأشعر بأنّه لو لم يضع لي ضابطاً، لكنت سبّبت بحماسي المفرطة أخطاراً روحية له وللسامعين ولنفسيّ أيضاً. وأمّا الآن، فقد زالت تلك الأخطار، إذ إنّ سهام تجربة الكبرياء لن تطال الشّيح حيث هو، ولن يحسده أحد أو يتعثّر من كشف مواهبه الإلهية، بل على العكس، سينتفع كثيرون وأولهم أنا الخاطئ، الذي اهتمّ الشّيح بخلاصه ولا يزال. ولهذا أرجو من الشّيح أن ينعش ذاكرتي بشفاعاته عند الرّبّ.

قسطنطين يانّيتسيوتيس



اللقاء الأول

في إحدى الفترات، مررت بتجربة شخصية لم يسبق لها مثيل، إذ إنَّ محنةً طويلة الأمد وتوترًا بالغًا ألما بي، وكنا يهددان بانهيار نفسيًا وجسديًا وأنا غير محصّن. الصدمة أتت من حيث كنت أنتظر المعونة أو على الأقل التفهم، وإذا بي وسط طريق مسدود لا أدري ماذا أعمل، لأنني كنت عاجزًا عن إيجاد حلٍّ لمشكلتي. وكنت قد سمعت بالأب بورفيرْيوس الكاهن الراهب الذي يتمتع بموهبة الرؤيا ويحضر غالبًا إلى "كاليسيا بندلي". فطلبت إذنًا من عملي، وبركة من أبي الرّوحِي لرؤية الشّيخ، ووصلت بالباص إلى حيث تابعت السّير على الأقدام وسط الغابة. كنت وحدي بدون مرشد يرافقني، والطريق متفرّعة، فلم أتمكن من العثور على الدّير فعدت خائبًا. وفي الأيّام اللاحقة أخذت مشكلتي تتفاقم حتّى تمثّلت في حادثة لم أكن أعلم إن كانت صادرة عن الله أو عن الشّيطان. فالتقيت بأبي الرّوحِي وأخبرته بحالي مظهرًا استعدادًا لتقبّل المشكلة مهما كلّفني ذلك إن كانت من الله، وأمّا إن كانت من الشّيطان، فقد قرّرت مقاومتها حتّى النهاية. وكان أبي الرّوحِي إنسانًا ذا فطنة نادرة وتواضع ومحبة، فأظهر تسامحًا تجاه من سبّبوا لي المشكلة، ولكن، وعلى الرّغم من أنّه، ومنذ اللحظة الأولى، قد نصّحتني بما عليّ فعله، فقد بقي عاجزًا أمام مصيبي لأنني وجدت الحلّ صعبًا. عندئذٍ نصّحتني بالبحث عن الأب بورفيرْيوس لأنّه الوحيد القادر على مساعدتي، ومن ثمّ أعود إليه لمناقشة الأمر. ولكنني أبدت تخوفًا من أن يقيّد الأب بورفيرْيوس حرّيتي. فطمأنني قائلاً إنّ الأب بورفيرْيوس يتمتع بموهبة التّمييز ولا يقيّد حرّية الآخرين. ثم أعطاني أرقام هاتف ثلاثة أشخاص يعرفونه.

ومنذ تلك السّاعة، بدأت بالبحث عن الأب بورفيرْيوس، الذي لم يكن، في ذلك الحين، يقيم في مكان ثابت؛ فاتّصلت باثنين من المقرّبين إليه ولم أجدهما، إلّا أنّي، ولحسن الحظّ، وجدت الثالث فأبدى استعدادًا لأنّ يؤمّن

لقائي بالشيخ حالما يستطيع ذلك. وبقيت على اتصال بهذا الشخص أيامًا عدة؛ ولكن، من دون جدوى لأنه لم يتمكن من معرفة المكان الذي كان يتواجد فيه الشيخ.

وفي عصر أحد الأيام، بينما كنت عائداً من عملي إلى البيت سيراً على الأقدام، غارقاً في حزن شديد، فإذا بي أشعر فجأة بسحب الحزن تتبدد، وراحة وضاءة تعزي نفسي؛ فأحسست برغبة في الغناء.

رسمت إشارة الصليب مستغنياً وقائلاً: يا رب ارحم! إنني أعرف نفسي جيداً؛ فمشاكلي تستغرق وقتاً كي تزول والحزن يلزمني فترات طويلة؛ ما معنى هذا التحوّل المفاجئ من الحزن إلى الفرح، وأنا غارق في محنة شديدة؟! ولكن، بعد قليل اختفى هذا الفرح فجأة كما سبق وظهر، وعاد إليّ الحزن من جديد. وقد تكرر هذا الأمر الغريب في الأيام التالية أيضاً. لكنّ اللغز قد حلّ عندما علمت، بعد فترة، أنّ الشخص المجهول، الذي أصبح فيما بعد من أصدقائي الأخيار، استطاع أن يتصل بالشيخ، ويعطيه إسمي ليصبح على لائحة الأسماء التي كان يصلي من أجلها.

في هذا الوقت، كنت أنتظر بفارغ الصبر لقائي بالشيخ. وأخيراً في صباح يوم ربيعي سمعت عبر الهاتف صوت سيّدة - وكانت المسؤولة في كنيسة القديس جراسيموس "البوليكلينيكي" - تعلمني أنّ الأب بورفيروس يمكنه أن يستقبلني عند الساعة العاشرة في تلك الكنيسة الصغيرة. وللحال نزلت إلى "أومونيا"، وفي الطريق، اعترتني مشاعر متنوعة: توقّعات، وقلق، وفضول، وحذر؛ ترى، كيف يمكن لراهبٍ مسنٍّ وقليل العلم أن يحلّ مشكلتي؟

وصلت إلى الكنيسة الصغيرة وانتظرت. ولما حان دوري، صعدت إلى غرفة الاعتراف. كان هناك شيخ ينتظرنني وهو ذو قامة صغيرة وطلعة لطيفة مألوفة. وأخذتُ أتأثر به حالما اقتربت منه وقبّلت يده وجلست قبالة. نظر إليّ من وراء نظاراته بعينين هادئتين وحادثتين. وفي تلك اللحظة، شعرت بأنّ نظراته

^١ أومونيا هي منطقة في وسط العاصمة أثينا وتعرف باسم ساحة أومونيا.

قد اخترقت نفسي، وبأنّ هذا الإنسان يعرفني من قبل. وفي الوقت عينه، لاحظت أنّ شفّتيه تتمتّعان كلامًا ما، وفهمت أنّه يصلّي باستمرار. كان يوحي بأنّه حاضر وغير حاضر، وبحيا هنا وفي مكان آخر في الوقت عينه.

تكلّم فسمعت صوته للمرّة الأولى، إنّهُ صوت ناعم وهادئ وجذاب. قال لي: "هيا، ماذا تريد أن تقول لي؟"

تذكّرت وصيّة أبي الرّوحي، فعرضت عليه مشكلتي باختصار، بما لا يزيد عن خمس دقائق، ثمّ صمتُ. كان الشّيخ يسمع مفكّرًا، ويتنّهّد بين الحين والآخر؛ فأحسست بأنّه يتألّم لأجلي أكثر ممّي. عندها بدأ بالنسبة إلّي سيلّ من المفاجآت المذهلة: بكلّ بساطة، حلّل الشّيخ طباعي، وصف مزايي ونقائصي وفسّرها بدقة لا يستطيع أهلي أنفسهم أن يتوصّلوا إليها. ولأوّل مرّة في حياتي عاينت ذاتي كما هي في الواقع وليس كما أتمنّى أن تكون. ومعرفة الذات هذه كوّنت بالنسبة إلّي خبرة مؤثّرة جعلتني أشعر بأنّي ولدت في تلك اللّحظة أو بالأحرى ولدت من جديد. بعدئذ، تطرّق الشّيخ إلى مشكلتي؛ فأوضحها وشرحها من كلّ جوانبها: من جانبي كما من جانب الأشخاص الآخرين المتورّطين فيها. وعلّق بكلّ لطف على تصرّفاتِي الصّحيحة والخطئة، وتصرّفات الأشخاص الآخرين ذوي العلاقة، بالإضافة إلى وصفه طباعهم. ومن ثمّ، أكّد لي أنّ الأمر الذي قادني إلى هذه المحنة، الّتي لا مخرج لها هو تجربة من فعل الشّيطان، وقد اقترح عليّ طريقة مواجهتها وكانت هي الطّريقة عينها الّتي اقترحها أبي الرّوحي.

بعدئذ، أمسك بيدي، وأخذ يسمع نبضي، وحدّد لي أمراض الجسديّة بدقة. وشمل تشخيصه هذا كلّ الأمراض وأسبابها الّتي كان الأطبّاء قد تحقّقوا منها منذ سنين خلت. وأخيرًا، باركني وهو يرسم إشارة الصّليب على رأسي، وقال لي بكلّ محبة: "اذهب الآن، وسنتكلّم من جديد عندما نلتقي في المرّة المقبلة."

نهضت وقبّلْتُ يده، وشكرته، ثمّ اتجهت نحو الباب وقد اكتنفتني مشاعر من الدّهشة والهدوء والفرح. توقّفت هناك، والتفتُ خلفي وبقيت بلا حراك أنظر إليه باستغراب محاولاً أن أفهم كلّ ما جرى قبل قليل من أمور لا تصدق والّتي شكّلت تحدّيًا لعدم إيماني الفطريّ ولعقلانيّتي. نظر إليّ الشّيخ

مبتسمًا، وقال لي: لماذا توقفت؟ اعمل بما قلته لك". إذًاك أجبتة: "أيها الشيخ، لم أتوقف لأتّي أشعر بصعوبة في إتمام ما قلته لي، وإنّما لأعبر عن دهشتي. إنّ ما قلته لي هو نفسه ما قاله لي أبي الرّوحّي. وكنت قد شعرت بصعوبة كبيرة في الماضي قدمًا، بينما الآن، وبعد أن شرحت لي مشكلتي، لم أعد أشعر بأيّة صعوبة قلبية كانت أم إرادية، أم فكرية. وأصبحت أشعر بأنني لن أقبل بأيّ حلٍّ آخر غير هذا الحلّ لأنّه يوافقني تمامًا وسأتبعه بكلّ امتنان." بعد أن أنهيت كلامي هذا، إذا بضحكة عريضة تضيء وجهه الذي أشرق من الفرح فقال لي: "هيا اذهب الآن". فأنحيت له احترامًا وذهبت، وبينما كنت أمشي في طريقي، وأنا مأخوذ روحياً من جراء إكتشاف ستارتس^٢ حقيقياً، كشف لي أشياء مدهشة، فكّرت في ما هو أكثر عجباً: إنّ الشيخ بمهارة رعائية لا توصف، استطاع خلال وقت قصير أن يهدئ نفسيّ الثائرة، ويجعلني أرغب بسرور في تطبيق مشيئة الله في مشكلتي المعقدة، وهو ما كنت أرفضه من قبل. لا أعلم إن كان هناك شيء أسى من أن تتمي توحيد إرادتك بإرادة الله، وأن تكتشف في حياتك شيئاً قديساً، يجعلك تحقق أمنيّتك هذه. فمن خلال معرفتي الشيخ بورفيريوس، عرفت لأول مرّة مسيحاً جديداً جذاباً مدهشاً وذلك بعد مسيرة ثلاثين عاماً استمعت فيها إلى كثيرين كانوا يحدّثونني عن المسيح.

عبرتُ الطرقات التي تضجّ بالنّاس في قلب العاصمة وأنا مأخوذ بأفكار وأحاسيس وقرارات جديدة، فوصلت إلى مكان عملي من دون أن أشعر بذلك. وما إن دخلت المكتب، شعرت بالحاجة إلى تدوين ذاك الحديث الرّائع مع الشيخ؛ فرحت أكتب بيسر شديد ذاك الفيض من الذّكريات حتّى أتممت كلّ الحديث. وفي عصر ذلك اليوم، قرأت لأبي الرّوحّي ما كتبته، وقد سرّ عندما علم أنّ نصيحة الأب بورفيريوس تتوافق مع نصيحته وتعجّب من موهبة الرّؤيا لديه. وسألته عن رأيه في ما يتعلق بمسيرتي اللاحقة، فأجابني: "ليس عندي أيّة كلمة أضيفها إلى ما قاله الأب بورفيريوس. اعمل بما نصحك به، فهو يفوقني موهبة

^٢ الستارتس هو الشيخ الرّوحّي.

وقدرة على معالجة مشكلتك. وأنا غير مستحقّ أن أحلّ سير حذائه. وكلّما استطعتَ قم بزيارته، لأنّ ذلك يفيدك كثيرًا. وفيما يتعلّق بما أقوله لك، فإنّه يبقى فاعلاً إلى أن يقول لك الأب بورفيرْيوس شيئاً مختلفاً في الموضوع نفسه. عندها، تعمل بحسب نصيحته". لقد أذهلني تواضع أبي الرّوحيّ ونبالته الرّوحية، وأراحتني كلماته كثيرًا، لأنّها قد مهّدت لي لقاءات جديدة مع الأب بورفيرْيوس.

اللقاء الثاني

على الرّغم من أنّ الشّيخ نفسه أكّد لي أنّنا سنتحدّث ثانية، وعلى الرّغم من مع أنّي لمست موهبة الرّؤيا لديه، فقد تركت الشكّ يتأجّج في داخلي: إن كان لقائنا الأول قد احتاج إلى عدّة أشهر لترتيبه، وبما أنّ ليس للشّيخ مكان إقامة محدّد، والكثير من النّاس الآخرين يطلبونه، فمن يدري متى سأحظى بلقائه مرّة ثانية. ربّما لن يحدث هذا أبداً. أخذ الوقت يمرّ، وبدأت "بطارياتي" الرّوحية التي ملأها الشّيخ تفرّغ شيئاً فشيئاً، وكنت، من حين إلى آخر أتصل بذلك الشّخص المجهول، وأسأله إن كان الشّيخ قد ظهر في مكان ما كي أزوره. وكان هو يجيبني: لا، ليس بعد، إنّما لا تقلق، فلدى الشّيخ "تلفازٌ روحيّ"، وحالما "يرى" أنّ الوقت قد حان سيظهر، وسنعلم بالأمر.

تعايير جديدة دخلت في حياتي: "تلفاز روحيّ" "يرى" الشّيخ من خلاله. لقد سرّني ذلك، لكنّه سبّب لي تساؤلات أوجبت على الشّيخ أن يحلّها تدريجيّاً. وبالفعل، بعد شهر تقريباً، بُلّغت أنّ الشّيخ موجود في كاليسيا. فانطلقت مع صديق لي في سيارته إلى هناك. وبعد السّؤال، وجدنا الطّريق. ومنذ ذلك الحين، ترتّب الزّيارات اللاحقة من خلال الاتّصالات الهاتفية بأولاد الشّيخ الرّوحيين. وصلنا إلى دير القديس نيقولاوس، وهو عبارة عن كنيسة صغيرة حجريّة بيزنطيّة قديمة، فيها رسومات جدارية قد امّحى نصفها، وهي مضاءة بالشموع، وإلى جانبها قلايتان صغيرتان، وغرفة استقبال بسيطة الأثاث لخدمة حاجات الشّيخ وزوّاره الذين كان معظمهم ينتظر خارجاً في السّاحة بسبب ضيق المكان.

حالما دخلنا الدّير، لاحظنا أنّ الشّيخ كان وحده وهو يستعدّ للرّحيل إلى أثينا. عرضنا عليه أن نقلّه، فوافق. كان ذلك نعمة كبيرة من الله. وفي سيرنا وسط الغابة، ارتأى أن نرافقه أنا نصف الطّريق وصديقي النّصف الآخر، إلى

أن نصل إلى الطريق العام حيث كانت السيّارة، وذلك كي يقدم لنا خدمة نحن الاثنين.

كان موضوع حديثنا يدور حول كيفية التّقدم في مواجهة مشكلتي. وفيما نحن سائرون، تعب الشيخ، فجلس على صخرة بجانب بناء قديم مهّدم، وجلست أنا أيضًا إلى جانبه. وهناك أجرى لي تحليلًا نفسيًا، وكشف لي أنّ سبب ظهور مشكلتي الحاليّة يرتكز على خبرة جارحة عميقة عشتها منذ عشر سنوات وكنت قد خزّنتها في اللاوعي. وقد استطاع الشيخ، ببصيرته المذهلة، أن يعيدها إلى الظهور في وعيي، ويربط ماضي غير المنظور بحاضري المنظور، من خلال علاقة السّبب بالنتيجة. في تلك اللّحظة الّتي لا تُنسى، شعرت بأنّ ما من أحد كان بإمكانه أن يفهمني بهذا العمق ويكشف ما في داخلي أكثر مما فعل الشيخ. (وعندما أجرى لي، بعد خمس سنوات تقريبًا، معاينة داخلية في غابة كاليسيا ذكرته بذلك، فنظر إليّ وهو يبتسم قائلاً: "تذكّر كلّ شيء في لقائنا ذاك، أتعلم لماذا؟ لأنّني، في تلك اللّحظة، كشفت ما هو أكثر حساسيّة في نفسك وما أثر في حياتك اللاحقة كلّها حتّى هذه السّاعة الّتي نتكلّم فيها").

في تلك العشيّة، تابعنا سيرنا في الغابة، وقد تطرّق الشيخ إلى لقائنا الأول؛ فأخبرته بأنّني لم أنسه، لأنّني دوّنت كلّ شيء، ولأنّّه أصبح بالنسبة إليّ أساسًا لحياة جديدة. وسألته إن كان يودّ أن أقرأ له ما دوّنت، فأجابني بالإيجاب. ففعلت. وعندما انتهيت، قال لي برضى: "سامحك الله يا بني، لقد دوّنت كلّ شيء، تمامًا كما قلته لك. أتعلم، هذا هو الواقع بالنسبة إليك، كما قلته لك". غير أنّني خفت أن يكون ما كتبته أحد الأسباب الّتي لأجلها بقي الشيخ لفترة طويلة يردّد لي: "لا تكتب ما أقول، ولا تتحدّث عنه". ويظهر أنّه كان على يقين بأنّه لو سمح لي بتدوين كلّ أحاديثنا في اليوم ذاته، لكنت عملت بالقرب منه كآلة تسجيل.

معاينة أعماق النفس

في بداية معرفتي بالشَّيخ، هالتي السَّهولة التي يكشف بها لي حقائق ذاتية، كنت أنا وحدي أعلمها، حقائق تكوّن أسرار نفسيّ، لا يمكن لأحد أن يعلم بها سوى الله عالم القلوب. لقد كان الشَّيخ عارفاً تماماً مكان الوعي في نفسيّ. لكن، مع مرور الوقت وتكرّر هذا النوع من الكشوفات، بدأتُ تبدو لي روتينيّة شيئاً فشيئاً. أمّا الآن فإن ما يؤثر فيّ هو أنّ الشَّيخ يكشف لي، بالسَّهولة نفسها، حقائق ذاتيّة كنت، أنا نفسي، أجهلها. كان واضحاً أنّ الشَّيخ، كالغطّاس، يسبر أعماق نفسيّ اللاّواعية؛ حيث يضيء بموهبته، كالبرق وسط اللّيل، ثنايا نفسيّ غير المنظورة على الرّغم من دورها الحاسم في تشكيل حياتي.

أول تذوّق لكشوفاته كان في كاليسيا، في القرب من البناء المهذّم. ولا يسعني القول إلّا، بتشخيصه لأعماقي، حصلت على معرفة كافية لذاتي -لأنّه في هذه الحال يصحّ القول الأبائيّ "أعطِ دماً وخذ روحاً"- وإنّما بكلّ تأكيد ساعدني ذلك على أن أقوم بخطوات خجولة نحو معرفة الذات. خجولة، لأنّ عمقها المظلم أخافني، كما أقلقني ما رافقها من مفاجآت مؤلمة.

لقد خبرت إحدى هذه المفاجآت، عندما زرته في شقّة في مجمّع سكني كبير، حيث كان يمضي فترة نقاهة بعد جراحة قلبية خطيرة، في ضيافة إحدى بناته الرّوحانيّات، متحاشياً كثرة الزوّار. كان يتقبّل القليل من الزيارات، وذلك بعد اتّصالات هاتفيّة معقّدة لمعرفة مكان إقامته المؤقت. وبسبب عدم صبري في انتظار رؤية الشَّيخ، أسرع في تسجيل اسم الشّارع ورقم البناء، ولم أسجل رقم الطّابق. ولذلك، حالما وصلت إلى مدخل المبني، أخذت أبحث بين أسماء سكّانها عن اسم المضيّفة، لكنّ الغريب أنّي لم أجده.

انزعجت، لكنّي لم أستسلم. وطلبت المعونة من الله بصلوات الشَّيخ، وبدأت بقراءة أسماء المستأجرين طابقيّاً بعد الآخر، بدءاً بالأوّل وصولاً إلى

السَّابِعَ والعكس، لكنني لم أجد الاسم الذي أبحث عنه، ولاحظت أن شقًا كثيرة ليس عليها أسماء. ألا أني لم أود إزعاج السَّكَّان الذين لا أعرفهم بسؤال. شعرت بخيبة، بعد أن تعبت بلا جدوى، وتوجَّهت إلى المخرج، وأنا أفكر في أن الشيخ ربَّما لا يرغب في زيارتي هذه. لكن، فجأة، إذا بي أشعر، في تلك اللحظة، بدافع داخلي لا يفسَّر، يحثني على العودة. وبغته، تولدت عندي رغبة غريبة غير منطقية في صعود السلم حتَّى الطَّابق السَّابع من دون متابعة لتفتيش بين الأسماء. وصعدت متملِّلاً إلى الطَّابق الأوَّل، ثمَّ الثَّاني، وحالما وصلت إلى الطَّابق الثَّالث، رأيت الشيخ يقف أمام باب إحدى الشُّقق ينتظرني مبتسماً وهو يقول لي: "هيا، هيا، ادخل". (وقد تحقَّقت فيما بعد، وأنا اغادر، من أن الشُّقة كانت من دون اسم).

حدث كلَّ ذلك بشكل عفويَّ جدًّا. لكنني أدركت أن كلَّ ما حصل يفوق لمنطق، تمتت: "عجيب هو الله في قدسيه"، ثمَّ دخلت المنزل ومعني علبة حلوى وضعتها جانباً وجلست، وأنا مسرور جدًّا، قباله الشيخ الذي كان وحده في شُّقة، في تلك السَّاعة. كان ذلك في أحد أيَّام الصَّيف الحارَّة جدًّا، وقد وضعت على الطاولة مروحة كانت تزعج الشيخ كلَّما توجَّهت نحوه لأنَّه كان يتصبَّب عرقاً. فقال لي: "ثبَّتْها من فضلك، لأنَّها تسبَّب لي البرد، وهذا لا يوافقني". حاولت البحث عن الزَّر المناسب، فلم أفلح. فدنا مني الشيخ وقال لي ببساطة محبِّبة: "دعني أثبَّتْها أنا لأنِّي أعرف مزاجها". وحالما ثبَّتْها، ذهب وجلس في سريره وتابع عمله. كان يقصَّ أيقونات بيزنطية من بعض الرُّوزنَّامات. قال لي: "يطيب لي كثيراً قصَّ أيقونات من ورق ولصقها على الخشب. تبدو وكأنَّها حقيقة. إنَّها جميلة جدًّا. ثمَّ أضاف: "ماذا تريد أن تقول لي؟".

بدأت أحدثه عن مشاكل شخصيَّة مختلفة كنت قد دوَّنت رؤوس أقلام عنها على ورقة، منتظرًا أجوبته. أخيراً، وفي محاولة لتخطي ذاتي، أكَّدت له، مناجياً نفسيّ) أنَّ ما أتمنَّاه، عن وعي في عمق نفسيّ. هو أن أضع جانباً كلَّ مشاكلنا الذاتيَّة هذه، كي أعيش حياة أسمى. واهباً ذاتي للمسيح وإخوتي البشر. وعرضت ميَّزات حياة العشق الإلهيِّ.

كان الشَّيْخ صامِتًا منحنياً خلال فترة تكلمي البليغ على القداسة، وبدا مأخوذاً كلياً بقصّ الأيقونات، مثل طفلٍ متعلّق بألعابه، وغير مبالي بما يقول الكبار من حوله. لقد ساورني شعور بأنني وحدي عالجت مشكلتي، ووحدي اكتشفت الحلّ. لكنني أعترف بأنّ هذا لم يشعل فيّ الحماسة. والأغرب من ذلك، أنّ الشَّيْخ وكأنّه لم يكتفِ بما سبق، يوقف عمل يديه، وينظر إليّ مبتسماً، ويقول: "حسناً، هيّا الآن، اذهب بسلام". نهضت وقبّلت يده وأنا أشعر بالخيبة نتيجة تسرّعي في الكلام، وتضايقت بعض الشيء لأنّ الشَّيْخ لم يعرني انتباهه، ويقدر تحليلي لذاتي الصّادر من أعماقي. ومع ذلك، لم أفصح له عمّا يدور في خلدي. وقد رافقني إلى الباب مودّعاً.

وقبل أن أدخل المصعد، إذا بسيّدة المنزل تظهر على السّلم. وحالما شاهدتني، سألتني إن كنت قد تناولت القهوة. شكرتها وقلت لها إنّ ذلك لا لزوم له، وفتحت باب المصعد. في تلك اللّحظة، سمعت صوت الشَّيْخ يقول لي: "هيّا! عد الآن لتناول القهوة". وإذ لم أكن بحاجة إلى إلحاح شديد كي أكون بقربه، اتّخذت من القهوة حجةً لأعود.

بعد قليل، وبينما كنت جالساً على الكرسيّ والقهوة إلى جانبي، سمعت الشَّيْخ وقد ترك المقصّ، يقول لي: "أتعلم ماذا رأيت من خلال كلّ تلك الأمور المقدّسة التي كنت تكلمني عنها، طوال ذلك الوقت، وتخبرني بأنك تتمنّاها؟" (وأوردها لي جميعها بإيجاز). فسألته والفضول يملأني: "ماذا رأيت أيّها الشَّيْخ؟" أجابني بكلّ صراحة: "رأيت العكس، كما رأيت أشياء أخرى أيضاً، لكنّي لن أخبرك بها".

جمدْتُ في مكاني ورحت أنظر إليه بارتباك كممثلٍ مسرحيٍّ استعدّ لتأدية دور الملك فإذا بهم يتزعون عنه فجأة الرّداء القرمزي. وتابع الشَّيْخ: "سامحني، إذ قلت لك هذا بشكل فظّ. ولكن، فكّر بعمق أكبر، وغص أكثر في عمق نفسك، ألا تجد أنّ ما قلته لك صحيح؟".

صليتُ بصمت، وحاولت أن أكون أكثر صدقاً مع نفسيّ ومع الشَّيْخ ومع الله، وتساءلت من أكون في الحقيقة، لا من أتمنى ان أكون، واعترفت قائلاً:

"إِنَّكَ عَلَى حَقِّ أَهْلِ الشَّيْخِ، وما أَخْبَرْتُكَ بِهِ وَبِأَنِّي أَتَمَنَّاهُ إِنَّمَا يَكْمُنُ فِي سَطْحِ نَفْسِي الْمَشْعُ، بَيْنَمَا مَا أَشْعُرُ بِأَنَّهُ يَنْبَغُ مِنْ أَعْمَاقِي، فَكَلَّهْ مَظْلَمٌ وَخَاطِئٌ وَمَرْعَبٌ". فَأَرْدَفَ الشَّيْخُ قَائِلًا: "لَقَدْ رَأَيْتُ كُلَّ هَذَا بَوْضُوحٍ بَيْنَمَا كُنْتُ أَقْصَى الْأَيْقُونَاتِ، لَكِنِّي فَضَّلْتُ أَلَّا أَخْبِرَكَ بِذَلِكَ كَيْ لَا أَحْزَنُكَ. لَكِنْ، عِنْدَمَا هَمَمْتُ بِالْإِنْصِرَافِ، ثُمَّ التَقْتُ سَيِّدَةَ الْمَنْزِلِ وَعَدْتُ بِسَبَبِ الْقَهْوَةِ، فَكَّرْتُ فِي أَنَّ هَذَا مِنْ تَدْبِيرِ اللَّهِ لِكَيْ أَخْبِرَكَ. وَهِيَ قَدْ فَعَلَتْ". وَإِذْ رَأَيْتُ عَابِسًا أَضَافُ: "لَا تَحْزَنْ، ثَمَّةَ حَاجَةٌ إِلَى عَمَلٍ كَثِيرٍ".

بَعْدَ لِقَائِي الْأَوَّلِ بِالشَّيْخِ، قُلْتُ لِأَصْدِقَائِي: "ثَلَاثُونَ سَنَةً وَأَنَا أَسْمَعُ النَّاسَ يَكْلِمُونَنِي عَلَى الْمَسِيحِ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي تَعَلَّمْتُ شَيْئًا. أَمَّا الْآنَ، وَقَدْ تَعَرَّفْتُ إِلَى الشَّيْخِ، فَأَشْعُرُ وَكَأَنِّي خَرِيجُ حَضَانَةِ الْأَطْفَالِ". وَبَعْدَ لِقَاءِ الْجَدِيدَةِ اللَّاحِقَةِ بِهِ قُلْتُ لَهُمْ: "أَشْعُرُ الْآنَ وَكَأَنِّي طِفْلٌ تَقْدَمُ بِطَلْبِ خَطِيٍّ لِيَتَسَجَّلَ فِي حَضَانَةِ الْحَيَاةِ الْمَسِيحِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ".

العلاقات الشخصية

لقد جذبتني الحياة كما كان يعيشها الشيخ ويعلم عنها، وكنت أحاول التمثل بها، ولكنني، بعد كل كشف منه، كنت أتحمق كم أنا بعيد عن مقاربتها. إن التجارب الجارحة الدفينة فيّ، التي كنت أعانيها، من حين إلى آخر، بسبب ظلم الآخرين، كانت تؤثر فيّ سلبيًا من دون أن أدري. كنت أظنّ أنني قد تجاوزتها، ولكنّها بقيت حقّدًا دفينًا غير ظاهر. لذلك فهي خطيرة جدًّا. كانت تبدو كشكوى مبرّرة، ومرارة، وتكدر، وقد بقيت مخفية لأسباب واجبة. وكان مفهوم القول الأبائي "أحبّ الخاطئ وابغض الخطيئة" مشوّهاً في داخلي، من دون أن أعلم، ففكره لخطيئة الآخر كان يهدّد بالامتداد نحو الخاطئ. وقد أبدى الشيخ ملاحظته لهذا الخطر وأعطاني الدّواء المناسب وذلك، بحسب عاداته، من خلال قصّة بسيطة على شكل مثّل ذي معنى عميق.

❖ يجب أن تشفق على الإنسان الذي يجرحه الشرير



وبدأ يقول لي: "إن كنت يومًا تسير بهدوء في طريقك، ورأيت أخاك يتقدّمك بهدوء أيضًا، وفجأة رأيت إنسانًا شريرًا يظهر من طريق جانبي وفي يده سكين، فينقضّ على أخيك، ويضربه، ويجرّه بشعره، ويجرحه، ويرميه أرضًا، ويدوسه. فهل ستغضب على أخيك، أم ستحزن عليه؟

استغربت سؤال الشيخ، وسألته بدوري: "كيف يمكن أن أغضب على أخي المجروح الذي وقع فريسة فاعل الشرّ؟ لا يمكن أن تخطر في ذهني فكرة كهذه، من المؤكّد أنّي سأحزن وسأحاول أن أساعده بقدر استطاعتي. فتابع الشيخ: "هكذا، كلّ إنسان يهينك، ويؤذيك، وينمّ عليك أو يظلمك بأيّة طريقة كانت، هو أخ لك، وقد وقع في يدي الشيطان فاعل الشرّ. لذلك، ماذا عليك أن

تفعل حين عندما ترى أخاك يظلمك؟ عليك أن تحزن من أجله كثيرًا، وتشفق عليه، وتتوسّل إلى الله بحرارة وصمت كي يشدّدك في أوان تجربتك الصّعبة هذه، ويرحم أخاك الذي وقع فريسة الشّيطان اللّص. والله سيساعدك أنت وأخاك. أمّا إن فعلت عكس ذلك، وغضبت على أخيك، وقاومت عداوته بهجوم مضاد، فإنّ الشّيطان الممسك بعنق أخيك سيقفز إلى عنقك أنت أيضًا، وسيجعلكما أنتم الاثنين ألعوبة بين يديه".

وقفت منذها أمام قوّة تعبير هذا المثل ووضوحه. وهذه المرّة أيضًا فضح الشّيوخ عدم اطلاعي الفعليّ، فيما كان آخرون يعتبرونني مطلعًا على المسائل الدّينيّة. وكان المغزى واضحًا جدًّا: إنّ النّاس الذين ظلموني كانوا واقعين فريسة الشّيطان فاعل الشرّ، أمّا أنا، فقد كنت أرى الصّورة الطّبيعيّة لا لروحيّة. لهذا، كانت النتيجة أنّي سخطت عليهم، وإذ بالشّيطان الذي كان ممسكًا بعنقهم، يقفز إليّ أيضًا. وهكذا أصبحنا كلنا ضحيّته، على الرّغم من ظلّنا أنّنا نحن من نقوم بتقديم الضّحيّة، نسير جماعيًّا في مصفّه الشّيطاني من دون وعي.

إنّ مثّل الشّيوخ هذا ينطبق على كلّ علاقاتي الشّخصيّة، ويمكن تطبيقه كقانون روحيّ عام. لم يمرّ يوم من دون أن أتذكّره، فيما المصفّ الشّيطانيّ ذاته كان، من وقت إلى آخر، يظهر أمامي كمنذر أو كواقع. ولكوننا نعيش في عصر توتّر وامتداد للعدائيّة في كلّ أشكالها، وعلى اختلاف مستوياتها، كنت أشعر بأنّ ملاحظة الشّيوخ تكتسب طابعًا أنيًّا مباشرًا ومنهجيًّا. إنّ مواجهة الشرّ تحتاج إلى تمييز وتأهّب جماعيّ للصّلاة. وقد تأثّر أصدقائي الذين يعانون مشاكل روحيّة، حين سمعوا هذا المثل.

❖ يجب تقويم الشرّ لا إدانته

لقد برهن الشيخ أنه محلّ للنفس البشريّة وشاف لها، كما وللعلاقات النفسيّة الإنسانيّة أيضًا. قال لي في هذا الموضوع: "ليس هدفنا إدانة الشرّ، بل تقويمه. فبالإدانة يمكن للإنسان أن يضيع، أمّا بالتّفهم والمساعدة فيخلص. تجب مواجهة الخاطئ بالمحبّة واحترام حرّيته. عادةً نغضب عندما يوقع أحد أفراد عائلتنا مزهريّة عن الطاولة ويكسرها، في حين أنّنا لو أبدينا، في مثل تلك اللّحظة الحرجة، تفهّمًا وبرّنا الخسارة، بحركة تسامٍ للنفس، لربحنا نفسنا ونفس أختنا. هذه هي كلّ حياتنا الرّوحيّة: حركة تسامٍ خلال تجارب الأحزان. نتجاوز الغضب المتأّتي من الأنانيّة لنصل إلى التّفهم الناتج عن المحبّة.

❖ الأفكار السيّئة خطرة

ينطلق هذا التّسامي، بحسب الشيخ، من عمل جذريّ في العمق. في أحد الأيّام، وفيما اكتنفتني أفكار مُرّة بسبب أناس كانوا يدينوني جورًا، دقّ الشيخ ناقوس الخطر بسبب حالتي العدائيّة، على حدّ تعبيره. أبديت اعتراضًا على أنّي لم أقل أو أفعل أيّ شيء ضدّ منتقديّ، لكنني، فكّرت سلبيًا من دون أن أظهر ذلك ومن دون أن أؤذي أحدًا. إذًا كشف لي سرًّا عن الجهاد الرّوحيّ، قائلاً: لا تسخط حيال أيّ انتقاد جائر بحقّك، ولا حتّى في داخلك، هذا سيّئ، فالشرّ يبدأ من الأفكار السيّئة. عندما تتمرر وتسخط حتّى ولو بالفكر فقط، فإنّك تفسد الجوّ الرّوحيّ، إنّك تعيق عمل الرّوح القدس، وتفسح المجال أمام الشّيطان لأن يزيد الشرّ. عليك دائمًا أن تصلّي، وتحبّ، وتسامح، طاردًا من داخلك كلّ فكر شرير".

هكذا، فقد علّمنا الشيخ بورفيريوس أنّ فكرنا السيّئ تجاه أحد إخوتنا البشر، من جهة يدنّس أنفسنا بوصفه خطيئة، ومن جهة أخرى، يمكن أن

يسبب الأذى لأخينا. إنَّ الفكر السيِّئ يبتَّ قوَّة شريرة تؤثر في الآخر، بينما الصَّلاة تساعد. بالطبع يجب أن يُفهم هذا بشكل صحيح ضمن تعاليم الكنيسة، عن وجود الأرواح الشرِّيرة والأرواح الصَّالحة وعملها؛ فمن جهة الأرواح الشرِّيرة، فعملها هو الإفتراء والكذب والإضطراب والشَّقاق إلخ... أمَّا من جهة الأرواح الصَّالحة، فعملها هو خدمة أولئك المزمعين أن يرثوا ملكوت الله. الفكر السيِّئ لا يخفى، وهو يؤثر سلبيًا في مَنْ نفكر فيه بالسوء، وإن كنَّا بعيدين عنه، حتَّى لو لم يدرك هذا الإنسان السَّبب الَّذي جعله في تعارضٍ معنا. ينبغي لنا إذًا أن نكون "أنقياء القلب"، أنقياء لا من الأعمال السيئة وحسب، بل من الأفكار السيئة أيضًا، وخصوصًا من الحقد والمرارة.

❖ ساحوا النَّاس

يرى الشَّيخ أنَّ مسامحتنا كلَّ مَنْ أساء إلينا أمر أساسي جدًّا. وكان يكرِّر مرارًا كثيرة الصَّلاة التَّالية: "تصالح أولًا مع الَّذِينَ أحزنوك". وكان يعطي أهمية خاصَّة، أثناء الاعتراف، لهذه الخطيئة الرُّوحية: أن نتذكَّر الشرَّ الَّذي سبَّبه لنا أحدهم ونضمِّر له السَّوء أو المرارة أو العداوة. أراد أن تكون نفوسنا بعيدة عن الحقد وملأى بالتَّسامح واللَّطف.

❖ لا تطلب أن يحبَّكَ الآخرون

ذات يوم، كنت حزينًا لأنَّ بعض الأشخاص لم يبادلوني المحبة. قال لي الشَّيخ: "يطلب النَّاس اليوم أن يكونوا محبوبين ولذلك يخيبون. والصحيح هو

ألاّ تبالي بمحبّة الآخرين لك، بل بمحبّتك أنت للمسيح والنّاس؛ هكذا فقط تمتلئ النّفس".

❖ أحبب الجميع



لم تكن لمحبة الشّيخ حدود. كانت مطلقة، تشمل كلّ أبناء الله، كلّ النّاس، الأصدقاء والأعداء. كان يقول لي: "إن إكليل محبّتنا للأصدقاء تشوبه شوائب كثيرة (حسابات، رد جميل، غرور، ضعف عاطفيّ، تعاطف أهوائي)، بينما إكليل محبّتنا لأعدائنا نقيّ". وأيضاً: "يجب أن تطل محبّتنا في المسيح كلّ مكان، حتّى الهيبيين في "ماتالا". تمنيت كثيراً أن أذهب إلى هناك، لا لأعظهم أو أنتقدهم، بل لأعيش معهم "بلا خطيئة"، وأدع محبة المسيح، التي تغيّر جذريّاً، تتكلّم من ذاتها. قد شاهدتُ الهيبيين فأشفقت عليهم، كانوا "كخراف لا راعي (راعٍ) لها".

وفي موضوع علاقاتي الاجتماعيّة، كان ينصّحني قائلاً: "يجب ألاّ تقوم بجهدك المسيحيّ بالعظّات والمقاضاة، وإنّما بالمحبّة الفعلية السّريّة. عندما نقاضي بيدي الآخرون ردّة فعل سلبية، أمّا عندما نحبّهم، فيتأثّرون إيجاباً فنريحهم. عندما نحبّ، نظنّ أنّنا نعطي الآخرين، بينما، في الواقع، نحن نعطي ذواتنا أولاً. المحبة تتطلّب تضحيات. فلنضجّ بتواضع بما يخصّنا، وهو في الواقع يخصّ الله".

المحبة البشرية عبر العشق الإلهي

كان الشيخ يعتبر أن محبة المسيح هي الشرط الأساسي لمحبة الناس. بها محبة تشمل كل كياناتنا، "من كل قلوبنا ومن كل نفوسنا ومن كل نيّاتنا ومن كل قدرتنا"، أبدية وغير محدودة مثل المسيح المحب، محبة تسمو إلى العشق الإلهي.

❖ عشق الرّاعية وعشق المسيح

عصر أحد الأيّام كنت في كاليسيا مع الشيخ، الذي كان قد أُعْلِمَ بوصول أحد رؤساء أديرة "الجبل المقدس" إلى أثينا لإلقاء محاضرة. قال لي إنه يتمنى كثيرًا أن يتنشق هواء "الجبل المقدس"، وكان يقصد بذلك حديثًا من الجبل. نزلنا إلى القديس نيقولاوس (شارع أو كنيسة؟) على طريق منطقة أسكليبيوس في سيارة أحد الأصدقاء. كانت القاعة تغطى بالحضور، لا سيما الطلاب والطالبات. تكلم أولاً أحد اللاهوتيين فشرح جيدًا بعض المواقف الأبائية من المشاكل المعاصرة. بعدها أعطيت الكلمة لرئيس الدّير الأثوسي الذي رفع، بحديثه، الجوّ الروحيّ إلى ذروته.

وعندما انتهى، ألهم أحد الطلاب ليطلب إلى الأب بورفيروس الكلام، وذلك بعد أن لحظه جالسًا منحنياً في إحدى الزوايا، وأيد كثيرون هذا الطلب. بدا الأب بورفيروس منزعجًا وقال إنه لا يتكلم في تجمّعات عامة، ولكن أمام إلحاح الناس، اضطر أن يجيب بصوت خافت جدًا: "أنا لا أتكلّم، إنّما أسأل الله أن ينير تلميذي (وكان يعني رئيس الدّير) ليتكلّم جيدًا." غير أنّ الشّباب لم يكتفوا بذلك، بل ألحوا عليه بالكلام.

إِذًاك، سأل الأب بورفيرْيوس: "ماذا تريدون أن أقول لكم؟" أجابوه: "كيف نستطيع أن نعيش اليوم الحياة المسيحية الحقيقية؟" بدأ الأب بورفيرْيوس بالكلام على مهل: "يقول الكثيرون إنَّ الحياة المسيحية مزعجة وصعبة، وأنا أقول إنها ممتعة وسهلة، لكنَّها تتطلب أمرين: التواضع والمحبة". فسأل الشَّباب الذين كان معظمهم يدوّن ملاحظات: "كيف نستطيع أيُّها الشَّيخ أن نقتني التواضع والمحبة؟"

عندها أجاب الشَّيخ بقصة، وهو الذي يمتنع بموهبة فريدة في سرد القصص: "سأخبركم أيُّها الأولاد (الشَّباب) قصة. كان هناك راعية شابة تعيش في الجبل وترعى الأغنام. كانت تتعب طوال النهار في رعايتها الجيدة للأغنام، فتسقيها وتحرسها من الوحوش، وفي المساء تعيدها إلى الحظيرة، حيث تحلبها وترتب أمورها. وعندما كان الليل يحلّ وينام أهلها، كانت، على الرّغم من تعبها وتضحياتها، تقفز سرّاً من فوق سياج الحظيرة، وتركض في الظلمة وسط الصّخور والأشواك وصولاً إلى القمة المقابلة لتلتقي الراعي الذي تحبه. وعندما تلتقيه كانت تفرح جداً، على الرّغم من كلّ تعبها وتضحياتها، ولأنّ لقاءها بالحبّيب كان يكبدها تعباً وتضحيات أكثر، كان فرحها يزداد. أسألكم أن تعذروني، لأنّي وأنا راهب أحدثكم عن العشاق، ولكّني أفعل هذا كي يسهل عليكم فهم ما أريد قوله أكثر. وهكذا لنُسرّ النّفس عليها أن تعشق المسيح كما عشقت الرّاعية الراعي. وأيّ قيمة للعشق البشريّ أمام العشق الإلهيّ؟ إنه زائل وخداع، بينما العشق الإلهيّ أبديّ وحقيقيّ. إنّ النّفس العاشقة المسيح فرحة وسعيدة على الدوام، مهما جرى لها، وكلّفها عشقها الإلهيّ من أتعاب وتضحيات. وهي بقدر ما تتعب وتضجّ من أجل المسيح حبّيبها، تشعر بالسّعادة أكثر. إنّ النّفس تعشق المسيح عندما تعرف وصاياها وتتممها. وعندما تعشق النّفسُ المسيح، تحبّ النّاس ولا تستطيع أن تبغضهم. لا يستطيع الشّيطان أن يدخل نفساً تعشق المسيح، كما هو الحال الآن في هذه القاعة حيث نحن. فلنفترض أنّنا كلّنا صالحون. إن ظهر، في لحظة ما، بعض الأشرار على الباب وأرادوا الدخول، فلن يستطيعوا لأنّ القاعة مليئة بنا. هذا هو حال النّفس التي

استحوذ المسيح على كل مكان فيها. فمهما حاول الشيطان، لن يستطيع أن يدخل ويسكنها. لأنّ ليس له فيها مكان فارغ يسعه. بهذه الطريقة نستطيع أن نحيا الحياة المسيحية الحقيقية".

تأثر الشباب بتعليم الشيخ البسيط والغني بإيحاءاته في آن. وبعد عدة أيام، زرتة في كاليسيا. وخلال الحديث أخبرته كم سرّ الشباب بتعليمه ذلك عن الرّاعية، وكلّ من أخبر بها من خلالهم. فرح الشيخ وقال: "ليسمح الله الشباب، يا بني، أنا لا أتكلّم في قاعات أمام النّاس؛ لقد أجبرني هؤلاء. هل تعلم أن هذه الرّاعية كانت تأتي إليّ وتعترف؟ لقد حدثت الأمور كما رويتها". فقلت له "إدّا أيّها الشيخ قصّة الرّاعية هذه حقيقية؟" أجاب: "نعم، إنّها حقيقة". لقد أثر في مدى نجاح الشيخ في استخدام أحداث من الحياة اليومية، رمزياً، وتحويلها لكي يوضح من خلالها الحياة الأبدية.

كان للشيخ في حديثه عن العشق الإلهي والمحبة للبشر تمييز يجنبه ساعة فصل الواحد عن الآخر. فهو لم يتكلّم على العشق الإلهي وحده أو على محبة البشرية وحدها. ففي الحالة الأولى، قد نصل إلى تغرّب فعّال في لروحانية عن الإنسان، وبالتالي عن الله. أمّا في الحالة الثانية فقد نصل إلى تغرّب، الذي يقول به المذهب الإنسانيّ، عن الله، وبالتالي عن الإنسان. لقد كن الشيخ يشدّد دوماً على الرّبط الأرثوذكسيّ فيما بينهما، مع الاحتفاظ خاصية كلّ منهما. ومستخدمًا صورة المحبة في جسم الكنيسة، هذه المحبة التي تشبه الصليب ببعديه العامودي والأفقي. وهو كان يقوم بهذا لا على نحو وعظيّ تجريديّ، بل في شكل تحديديّ وحواريّ، وذلك بوساطة أحداثٍ أنية مستمدّة من الحياة الشخصية لكل فرد.



❖ إِنَّكَ مَتَّحِدٌ بِكُلِّ أَعْضَاءِ الْكَنِيسَةِ

تأثرت جداً بالمحبة الكبيرة التي أظهرها نحوي أحد الإخوة في المسيح، وكنت قد تعرّفت إليه للتوّ بوساطة الشيخ. وفي أحد الأيام، وأنا أتحدّث مع الشيخ، قلت له إنّي أشعر كم أنا مدين لهذا الإنسان. وإذا به يفاجئني بسؤاله: "ولماذا تشعر بذلك؟ هل فعل ذلك من أجلك فقط؟" أجبت: "نعم، لقد فعل ذلك من أجلي فقط ومن دون أيّ مقابل. لقد تكبّد في سبيل تلك الخدمة، التي قدّمها لي، تعباً ووقتاً ومالاً وانتقالاً من منطقة سكنه، من دون أن يحصل على أيّ منفعة شخصية".

عاد الشيخ وسألني: "لماذا تميّز ذاتك؟" سألت: "كيف أُميّز ذاتي، أيّها الشيخ؟ إنّي لا أفهم هذا الأمر." أجاب: "ألم تقرأ قط أنّه إن تألم عضو من الجسد تألمت معه سائر الأعضاء، وأنّه عندما يتمجّد أحد الأعضاء تفرح معه سائر الأعضاء؟ ألم تدرك بعد أنّك إن بقيت مسيحياً منعزلاً ولم تشعر في العمق بأنّك عضو ممتّحِد بشكل حيّ بأعضاء جسد المسيح السريّ الأخرى، أي كنيسته، بعلاقة محبة دائمة، فلن تكون مسيحياً حقيقياً؟" فهمت ماذا كان يعني وصمتُ. ماذا أقول له؟ إنّ ما يقوله لي أعرفه نظريّاً؟ وما نفع النّظرية من دون العمل؟ وقد أوضح الشيخ بتعليمه النّابع من حياته وخبراته، ما كُتب في مكان ما: "إنّه لحقيقة أنّك من دون أن تحبّ النّاس لا تستطيع أن تحبّ الله. ولكن، مما لا شكّ فيه أيضاً، أنّك فقط عبر محبة الله تستطيع أن تحبّ النّاس حقيقة".

الصَّلَاة

إنَّ الوسيلة الَّتِي بوساطتها كان الشَّيْخ يعيش العشق الإلهيَّ والمحبة الإنسانية في المسيح، كعضوٍ حيٍّ في جسد المسيح، أي كنيسته، كانت الصَّلَاة، صلاة يسوع الطوعية والحارة والذهنية وغير المنقطعة. كانت كلمات "يا ربِّي يسوع المسيح ارحمني" كزهرة فردوسية تزهر على شفثيه شتاءً وصيفاً، ليلاً ونهاراً. كانت صلاته تستمرّ باستمرار تنفسه، سواء كان صاحباً أم نائماً، كما جاء في الكتاب: "أنا نائمة ولكن قلبي مستيقظ".

❖ تعليم عمليّ عن الصَّلَاة

عصر أحد الأيام انطلقنا مجموعةً من الأصحاب إلى كاليسيا. وإذا بنا نلتقي جمعاً من الزوّار في الباحة، خارج قلّاية الشَّيْخ. كنّا الأخيرين، وعندما حان دورنا، كان اللَّيل قد حلّ، فقابلناه كلّ واحد في دوره. وعندما انتهينا، رافقنا الشَّيْخ حتّى خارج الدَّير، وأبدى انشراحاً على الرِّغم من كونه منهكاً. كانت ليلة صيف جميلة، والنَّسيم يهبّ بلطفٍ، وقد ظهر البدر من وراء التلال المقابلة الَّتِي تكسوها أشجار الصَّنوبر.

وسط هذا الجوِّ المبارك الهادئ السَّلامي، الَّذِي ألقى عليه ضوء القمر أشعته الفضيّة وجعله متجلّياً، رأى الشَّيْخ الوقت مناسباً كي يكلّمنا على الصَّلَاة. لم يحدثنا نظريّاً، بل عمليّاً، لأنّه كان دائماً يقرن التَّعليم بالعمل. كنّا أربعة رفاق وهو الخامس. أوقفنا متّجهين بوجوهنا نحو الشَّرْق، اثنين عن يمينه، واثنين عن يساره، وقال لنا:

"سنصلي الآن صلاة ذهنيّة. سأبدأ أنا أولاً، وثمّ تردّدونها أنتم. ولكن انتبهوا، ستقولونها من دون ضغط أو قلق، بهدوء واتّضاع، ومحبة وحلاوة".

بدأ الشَّيْخ يردّد بصوته النَّاعم الحنون المعبّر: "يا ربِّي يسوع المسيح ارحمني". كان يقولها ببطء، كلمة كلمة، من دون أيّ ضغط، وكأنّ المسيح أمامه وهو يتضرّع إليه، متوقّفاً مدّة أطول عند كلمة "المسيح" ومعبراً بتوسّل عند كلمة "ارحمي". ونحن بدورنا، كنّا نردّد الصّلاة محاولين أن نقتدي بتصرّفه وتعبير صوته، وإن أمكن طويّة نفسه أيضاً. وفي لحظة ما، توقّف الشَّيْخ عن ترداد الصّلاة بصوتٍ عالٍ، بينما استمرت شفتاه تتمتماها. وعملنا نحن الشَّيء ذاته. كم دامت صلاتنا تلك اللّيلة؟ لا أذكر. كلّ ما أذكره أنّ الشَّيْخ نقل إلّي، شيئاً فشيئاً، إحساساً لا أستطيع التّعبير عنه بكلام بشريّ.

ثم قطع الشَّيْخ ذلك الصّمت المقدّس قائلاً: "لنوقف الصّلاة المشتركة هنا، تابعوها وحدكم، هيّا الآن، اذهبوا بسلام إلى بيوتكم". وفيما نحن نبتعد، أدّرت رأسي، وإذا بي أرى في ضوء القمر، قامة الشَّيْخ الموقرة، الّذي كان يقف منتصباً أمام الصّخور، يرفع يده مباركاً إيّانا.

❖ أنت وأنا واحد



غالبًا ما كان الزوّار يطلبون إلى الشَّيْخ أن يصلّي من أجلهم ومن أجل أشخاص يحبّونهم. وكان هو دائماً يعدّهم بأنّه سيفعل ذلك. وتولّد عندي سؤال محير: كيف يستطيع الشَّيْخ أن يتذكّر مئات الأسماء؟ وفي أحد الأيّام، فيما كنّا نتحدّث عن الصّلاة، استدار فجأة وقال لي: "ربّما تتساءل كيف أتذكّر كلّ هذه الأسماء في صلاتي؟ أنا إنسان خاطئ وضعيف، أقول: يا ربّ ارحم جورج، نيكوس، ماريّا، كاترينا، - بقدر ما أتذكّر من الأسماء- وارحم كلّ من طلبوا إليّ أن أصلّي من أجلهم ونسيت أسماءهم. وبما أنّ الله ليس الأب بورفيرْيوس كي ينسى، بل يتذكّر كلّ الأسماء، يحضر في الحال ويرحم الكلّ".

تعجّبت من استنارته الإلهيّة وسألته: "وماذا تقول أيّها الشَّيْخ في صلاتك من أجل كلّ هؤلاء النّاس؟" أجابني وبطريقة طبيعيّة جدّاً: "حسنًا، أقول أولاً، يا

رَبِّي يسوع المسيح ارحمني". واعترضت بتعجب: "تقول ارحمني؟ ولكن، هؤلاء طلبوا إليك أن تصلي من أجلهم وليس من أجل نفسك". وفاجاني الشيخ مرة أخرى بالقول: "حسنًا، ألا تعلم أن الله إن لم يرحمني، لا يرحمك أنت أيضًا؟ ألا تعلم أننا أنا وأنت واحد؟" كلمات بسيطة ولكنها عميقة جدًا، عميقة إلى حد أن الشيخ، في حديث آخر له، قال إنَّ في شعورنا بالاتحاد مع الآخر هذا، يكمن سر الحياة الروحية في المسيح.

وفيما بعد، وأنا أقرأ كتبًا آباءية، رأيت أن أكبر عمل إحسان نستطيع تقديمه للآخرين هو في قداستنا الشخصية. وتذكرت كلام الأب بورفيريوس عندما قرأت حياة القديس سيرافيم ساروفسكي الذي يقول: "اقتني سلام الله داخلك، فيخلص آلاف الناس حولك". أوليس هذا ما حدث مع الأب بورفيريوس؟ فأنا أؤمن أن ما قاله: "أنا وأنت واحد"، والذي سبب لي الدهشة، ينطبق بالقوة والفعل عليه إذ إنه حقق بحياته صلاة الرب الكهنوتية "ليكون لجميع واحدًا". أمّا بالنسبة إليّ فهو، بسبب تهاوني، ينطبق بالقوة فقط، وذلك بفضل ذبيحة المسيح وقداسة الشيخ.

❖ عظيمة معونة الصلاة الليلية – السهرانيات

في إحدى زياراتي للشيخ، تذكرت مقطعًا من عظة للذهبي الفم عن لصلاة، وأوردته له: "كما أن صلاة بولس وسيلا الليلية فتحت لهما أبواب لسجن، هكذا فإن صلاة المسيحيين الليلية تفتح أبواب السماء". وحالما سمعته لشيخ تأثر جدًا وقال بفرح: "هذا جميل جدًا. أين وجدت هذا الكلام يا بني؟ نسخه وأخضره لي كاملاً. حقًا، هكذا هو الأمر بالفعل، وهذا ما يحصل في لصلوات الليلية والسهرانيات، كما يقول القديس الذهبي الفم. فعندما تصحو في الليل، لا تستدر على جنبك الآخر كي تغفو من جديد، بل انهض واركع أمام مصلوب والقديسين، وصلّ باتضاع ومحبة بقدر ما تستطيع : نصف ساعة، أو

ربع ساعة، أو عشر دقائق أو خمس دقائق. ستجد عونًا كبيرًا. واذهب أيضًا إلى السهرانيات".

لم يقل لي الشيخ شيئًا يختص به عن هذا الامر، ولكنني علمت من المقرّبين إليه أنّه كان يطبّقه عمليًا كلّ ليلة، مع أنّه لم يقرأ عظة الذهبيّ الفمّ تلك. وأكثر من ذلك، فإنّ الشيخ، بالاتفاق مع كثير من أبنائه الرّوحيين، كوّن حلقة واسعة من الذين يصلّون معًا في ساعة محدّدة كلّ مساء. هذه الوحدة في الصّلاة بين الشيخ وأبنائه جعلتهم متّحدين سرّيًا بالمسيح وبيعضهم بعضًا، وساعدتهم كثيرًا في حياتهم.

❖ حلم بمستشفى - دير مداوم

في إحدى الأمسيات في كاليسيا، سألي الشيخ قائلاً: "قل لي، عندما يمرض إنسان، هل يسأل كم السّاعة ليذهب إلى المستشفى؟" تعجّبت من سؤاله الغريب، وأجبت: "لماذا ينظر إلى السّاعة؟ سيذهب حالاً إلى المستشفى مهما كان الوقت الذي يمرض فيه". قال: "حتّى ولو كان الوقت ليلاً أو بعد منتصف اللّيل؟" أجبت: "حتماً". عندها تابع قائلاً: "قل لي، هل تظنّ أنّ الإنسان يكون في خطر أقل عندما يعاني الأمراض الرّوحية والخطايا؟" أجبت: "يكون في خطر أكثر من دون شكّ". تابع: "أتعلم كم من النّاس يكونون في خطر فقدان حياتهم الوقتية والأبدية بسبب خطاياهم، وكم من النّاس ييأسون ويصلّون إلى عتبات الانتحار؟ لنفترض أنّ هذا حصل لهم في السّاعة الثّانية بعد منتصف اللّيل ويريدون في تلك السّاعة أن يجدوا كنيسة مفتوحة كي يصلّوا، وأباً روحياً كي يعترفوا، هل سيتمكنون من ذلك؟" أجبت: "حتماً لا"، وقد وصلت إلى قمة الفضول لأعرف ماذا يريد الشيخ أن يقول في الثّاية. وانتهى إلى القول: "إذاً، ألن يكون حسناً وجود دير خارج أثينا، من دون أن يكون بعيداً عنها، تقام في كنيسة الخدم الطّقسية، والاعترافات على مدار السّاعة، أمام كهنة من

لرهبان المناوبين، مثل الأطباء في المستشفيات المداومة، فيستطيع الأشخاص مُعذَّبون بالخطيئة اللّجوء إليه في أيّ ساعة من النّهار أو اللّيل؟" حينئذٍ، فهمت ما كان يعني، وأجبتّه بأنّه من الرّائع وجود دير كهذا، بيد أنّه غير موجود. هزّ لشيخ رأسه بأسف، ثمّ ابتسم بطريقة تثير الفضول. بدت لي أحلامه جريئة جدًّا لي حدّ أنّها شبه مستحيلة.

❖ بدء تحقيق الحلم

مرّت أعوام منذ ذلك الحين، واستمرّت لقاءاتنا كالعادة. وعرفتُ، بشكل مهم، أنّ الشيخ يفتش عن قطعة أرض خارج أثينا. وذات يوم، علمتُ من أحد أبنائه الرّوحيين أنّه اشترى أخيرًا قطعة أرض قرب "ميلييسي أوروبو"، واستقرّ هناك مقيمًا داخل بيت نَقال. في أوّل فرصة، زرته مع أحد الأصدقاء في مسكنه الجديد. استقبلنا بفرح كبير، وحَدَّثنا بمحبّة فائقة عن "دير تجلّي الرّب" الَّذي سيبنيه. ولما خيم اللّيل، قادنا وسط الغابة إلى مطلّ. وهناك ظهرت أضواء "إيفيا" و"أوروبو" الكثيرة لامعة. إذّاك، تأثّر الشيخ، وبسط يديه الاثنتين نحونا وقال: "كم هو جميل أننا سنبنّي هنا ديرًا، وسيأتي النّاس ليطلبوا تعزية في صلواتنا!".

في تلك اللّحظة، تذكّرت كلام الشيخ الَّذي قاله قبل أعوام في "كاليسيا" خلال حديثنا المسائي حين كشف لي حلمه الَّذي بدا لي غير واقعي في ذلك الحين. كم كان الشيخ يرى بعيدًا بوساطة نعمة "الرّؤيا" الّتي نهلها من صلواته المستمرة في المسيح، وكم كنت أنا قصير النظر بمنطقي الفقير. ومع الوقت، عندما انتقل لشيخ من البيت النقال إلى غرفة القرميد، ثمّ إلى قلايته في المبنى الَّذي كان يرتفع بناؤه ببطء ولكن بثبات، تحقّقت من أنّه كشف لي، في ذلك المساء في "كاليسيا"، حقائق مستقبلية، تعتبر حاضرة بالنسبة إلى الله والقديسين.

في أحد الأيام، كان الشَّيخ في قلاية القرميد، فحدثني، وهو في حالة رقيّ روحيّ، بصوت خافت، عن محبّته الكبيرة لكنيسة الدّير الّتي ستبنى في المستقبل: "ستكون هيكلاً جميلاً جدّاً. هل ذهبتَ إلى غرفة الرّسم الهندسيّ لترى الخرائط الجميلة الّتي أعدّها لنا المهندسون؟ اذهب لترّاها. سنقيم كنائس صغيرة أيضاً تحت الأرض. تُضاء بأنوار غير ظاهرة. ويأتي إليها آباء متقدّمون في الحياة الرّوحية من الجبل المقدّس لممارسة الصّلاة الدّهنية وتعليمها. سيكون هذا في غاية الأهميّة. لأنّ صلاة يسوع تتضمّن كلّ الصّلوات الأخرى وتصنع العجائب."

لقد ركّز الشَّيخ في صلاته على كلّ هذا المجهود السّري من أجل بناء الدّير. وبالصّلاة تصوّر الدّير وتجمّعت الأموال، وارتفعت الأبنية، ووُضعت أساسات الكنيسة، وكلّ ذلك كان تطلّعاً إلى هدف واحد: ممارسة الصّلاة الدّهنية على صعيد عالٍ وواسع وقويّ. وسيعمل الدّير في المسيح من أجل العالم، ويعمل العالم من أجل الدّير. قال لي مرّة: "ليس النّسك الأرثوذكسيّ خاصّاً بالأديرة فقط، إنّما هو من أجل العالم أيضاً. إنّ الصّلاة في الكنيسة، والخدم الطويلة، وتمجيد الله بروح المحبة، لبركة عظيمة. يجب أن تعلم كم تتعذّب النفوس بسبب الأهواء، وكم ترتاح بقرب المسيح. لقد كنت أفضل الانسحاب إلى "الجبل المقدّس"، إلى إسقيط توبتي، وهناك في القفر أمجد الله".

❖ أساعدك أكثر بصلواتي

في بدء معرفتي له، كان عندي قلق وعدم صبر، لرؤية الشَّيخ وسماع أجوبته عن أسئلتني الكثيرة. كنت أشعر بفراغ نفسيّ عندما كان يتغيّب عن كاليسيا، أو يكون هناك، ولكنّه لا يستطيع استقبال أحد بسبب المرض، أو يكتفي بإعطاء البركة بصمت. وقد خلّصني الشَّيخ من هذا القلق تدريجيّاً. قال لي يوماً: "أتعلم، أشعر بأنّي أساعدك أكثر بصلواتي". قلت له: "أنا سعيد بسماعي

هذا منك، لأنّي أنا أيضًا أشعر بها، إنّي أشكرك كثيرًا وأرجوك ألا تكفّ عن صلاة من أجلي. وأعترف لك أنّي دائمًا، ولا سيّما عندما أمرّ في أوقات ضيق، أطلب معونة المسيح بصلواتك، وأشعر دائمًا أنّي أتمدّد. أشرق وجه الشيخ من الفرح، وقال لي: "ما الذي تقوله يا بنيّ، أهذا ما تفعله؟ أنا أيضًا أشعر به".

في يوم آخر قال لي: "أتعلم ماذا أرى؟ إنّني أساعدك بصلواتي أكثر من كلامي. إنّني أذكرك دائمًا في صلواتي. وأنت أيضًا صلّ من أجلي أنا الخاطئ". شكّلت كلماته هذه ضربة قاضية لعدم صبري لرؤيته والتحدّث إليه. فقلت له: "أشكرك كثيرًا أيّها الشيخ. لقد خلّصتني الآن من كابوس أنهكني أكثر لأنّي قد تعبته. من الآن وصاعدًا، لن أحزن عندما لا أتمكن من رؤيتك أو سماعك. يكفيني أنّك تصلّي من أجلي، فهكذا، أنال من المسيح معونة أقوى وأكبر. أمّا بالنسبة إلى صلاتي أنا من أجلك أنت "الخطئ"، كما قلت، فماذا أقول عن حالتي الخاطئة، وكيف أتجرأ أنا الشقي على أن أصلّي من أجلك؟" فقال الشيخ وهو يبتسم: "صلّ، صلّ أيضًا من أجلي، إنّ الله يسمع لنا كثيرًا نحن الخطاة التائبين".

❖ تقبيل اليد مع صلاة

مع الوقت، بدأت أدرك، بشكل أعمق، المكانة العليا التي تحتلّها الصلّاة في مجمل حياة الشيخ، وأصبحت كلّما التقيته لا أكلمه فورًا، بل بعد "بصلوات آبائنا القديسين..." كنت أسجد أمام أيقونة والدة الإله الكبيرة في قلايته، ثم أركع أمامه، أقبل يده، وأسند إليها جبهتي، وأصلّي بصمت. كان الشيخ يدرك هذا للحال، ويصلّي هو أيضًا برضى واضح. وكانت هذه الصلّاة المشتركة تدوم وقتًا غير محدد، إلى أن يبدأ الشيخ بالتكلّم معي. وقد لاحظت أنّ أهمّ كشوفاته لي كانت تتمّ بعد صلاة مشتركة صامتة.

كان واضحًا أنّ الله يكلمه مباشرة في لحظات الصّمت المقدّسة هذه،
وبعدها كان الشّيخ ينقل كلام الله.

❖ لا تتعب من الصّلاة

لقد نصّحني الشّيخ بأن أواجه كلّ مشاكلتي بالصّلاة إلى أن تُحلّ. قال لي:
"صلّ من دون اضطراب، بهدوء، وبثقة بمحبّة الله وعنايته. لا تتعب من
الصّلاة".

وطلب إليّ أن أصليّ كي يهبّه الله صبرًا على أمراضه الّتي كان يعاني منها
كثيرًا.

❖ المداعبة الروحيّة عبر الصّلاة

في كلّ مرّة كان يتحدّث فيها الشّيخ عن الصّلاة، كنت أدرك أنّه لا يعني
محاولة سطحيّة مرحليّة، بل محاولة عميقة ودائمة. ذات مرة، بحثت معه
مشكلة أحد الأولاد مع أمّه، الّتي كنا نعرفها كلانا، وقد طلبتُ إليّ أن أسأله عن
هذا الشأن. فقال لي: "يعاني الولد مشكلة داخلية تجعله يتصرّف هكذا. إنّهُ
طيّب، ولا يريد هذا الّذي يفعله، ولكنّه مرغم، ويقيده شيء ما؛ فهو لا يتقوّم
بالمنطق ولا تستطيع إقناعه بالتّصائح، ولا إجباره بالوعيد، لأنّه سيفعل
العكس، ومن الممكن أن يصير أسوأ، أو أن يبقى على حاله، ومن الممكن أيضًا
أن يتخلّص من هذا، لذلك على أمّه أن تتقدّس. فتحريره من قيده يستلزم
وجود إنسان قدّيس بقربه ذي محبة كبيرة، لا يلقي عليه دروسًا ولا يخيفه، بل
يعيش بقداسة، وعندما يراه سيغار منه ويقتدي به. يحتاج الولد خصوصًا إلى
إنسان يصليّ كثيرًا وبحرارة إلى جانبه. الصّلاة تصنع العجائب. يجب ألاّ تكتفي

الأم بمداعبة ولدها حسيًا، بل عليها أن تتمرس أيضًا بالمداعبة الروحية عبر الصلاة، لأنها عندما تحاول مداعبته بلا صلاة، سيمد يديه بعنف ويدفعها عنه. أما عندما تصلي سرًا بحرارة من أجله، فمن دون أن تداعبه، سيشعر في نفسه بمداعبة روحية لا تُفسر تجذبه إلى أمه. وعلى الوالدة أيضًا أن تذوب كالشمعة في صلاتها، عليها أن تصلي بصمت، أن ترفع يديها عاليًا نحو المسيح، أن تحضن ولدها سرًا، وعندها سيجري ما حدث مع ماريًا وديميتري وجورج. سألته: "ماذا جرى مع ماريًا، أيها الشيخ؟" أجابني: "ألم أخبرك تلك القصة؟ إذا سأروها لك:

❖ قصة ماريًا وديميتري وجورج

ماريًا وديميتري أخوان. كان لديميتري صديق طبيب اسمه جورج، وكان جورج يزور ديميتري في منزله. بعد فترة، أطلعت ماريًا أخاها على سرها: كانت قد وقعت في حب جورج وبدأت تعاني بسبب ذلك، ففي كل مرة تراه يتوجع قلبها، وترتجف يداها ورجلاها وتببل بعرقها. لهذا، طلبت إلى أخيها ألا يحضر جورج إلى منزلها بعد اليوم، كي لا تعاني عبثًا، فعائلة جورج غنية وأرفع مستوى اجتماعيًا من عائلتها ولن تقبل ماريًا الفقيرة البسيطة عروسًا له. منذ ذلك الحين، أخذ ديميتري يتجنب دعوة جورج إلى منزلها، متعللاً بأسباب مختلفة، وكان يلتقيه خارجًا في الحديقة. وفي أحد الأيام، زارتني ماريًا وفتحت لي قلبها وحدثتني عن هواها، وقد نصحتها أن تصلي بحرارة، خصوصًا عند السحر باكرًا، قبل بزوغ الفجر، وأن ترفع يديها إلى الله متوسلة إليه أن تتم مشيئته. وعملت ماريًا بنصيحتي بأمانة. ولم يمض وقت طويل حتى أبدى جورج اعتراضه على تغيير موقف ديميتري حياله من دون مبرر وتهرب من استقباله في منزله. فكشف له ديميتري السبب مبيّنًا مشكلة أخته. عندها، انفجر جورج بالبكاء واعترف له أنه هو أيضًا يعاني من المشكلة عينها ويحب ماريًا كثيرًا وأنه بدأ منذ فترة، في كل

صباح، يستفيق باكراً جداً من حلم يرى فيه ماريًا أمام عينيه. كان ذلك يحدث في الوقت الذي كانت ماريًا تصلي فيه كما نصحتها. وهكذا، بالصلاة الحارة، انكشف الشعور الخفي للشابين الطيبين. وأخيرًا، تزوجا رغم معارضة أهل جورج في البداية.

تحتاج أمّ الولد الذي كنّا نتحدّث عنه إلى مثل هذه الصلاة، صلاة حارة دائمة ولجوجة، والله سيصنع عجيبته ويحرّر الولد مما يقيده. بقداسة الأمّ سيجد الولد الطريق الصحيح".

❖ الصلاة تفيدنا في كلّ شيء

كان الشيخ ينصح بالصلاة في سبيل مواجهة كلّ المشاكل بنجاح. شكّا له أحدهم أنّه يعاني من أرقًا مزمنًا، فوصف له الشيخ الدواء، ألا وهو الصلاة. واتباعه هذه الوصفة، شفي أخيرًا من أرقه، وفي الوقت ذاته، ربح شيئًا أهم بكثير: تعلّم أن يصلي من أجل كلّ مشاكله.

في أحد لقاءاتنا قال لي: "لماذا يوصينا الله أن نصلي بلا انقطاع؟^٢ هل لأنّه يريدنا أن نقف أمامه بتدليل؟ لا، لا يريد الله هذا، بل يريدنا أن ننتفع. هو يعلم أنّ نفوسنا ترتاح حقًا عندما نمجّده باستمرار بإرادتنا الحرة، نهارًا وليلاً، كما يفعل الملائكة، لأنّنا بهذا نجد فائدتنا الحقيقية".

^٢ - افرحوا في كل حين، صلّوا بلا انقطاع، اشكروا في كلّ شيء" (١ تس ٥: ١٦ -

❖ لنطلب أن نكون مستحقين محبة الله

مرة سألته: "ما هو أفضل ما أطلبه في صلاتي؟" أجابني: "لا شيء. إن الله يعرف أكثر منك ما تحتاج إليه. قل باستمرار صلاة يسوع".

وفي مرة أخرى، وقد نسيْتُ جوابه هذا، عدتُ فطرحْتُ عليه السؤال نفسه. فقال لي: "أن تسأل الله أن يجعلك مستحقًا لمحبتِهِ". وفهمتُ أن في هذين الجوابين الموجزين معاني مهمة جدًا: يكفي أن أصلي باستمرار، من دون أن أقلق لما سأطلبه في صلاتي. تكفي صلاة يسوع. لا يحتاج الله إلى أن أعلمه بحاجاتي، كونه يعرفها أكثر ممّي بكثير، ومهتمٌ بإتمامها لأنه يحبّني. مشكلتي ليست في أن أبلغ الله طالبًا إليه أن يظهر لي محبّته، فهذه معطاة في أيّ حال. مشكلتي هي أن أقابل محبة الله بمحبّتي له، وهكذا، تُحلُّ كلُّ مشاكلي. ليس هناك مشكلة من جهة المانح، بل من جهة المقتبل، الذي عليه أن يطبّق قول المسيح: "من عنده وصاياي ويحفظها، هذا هو الذي يحبّني".

قال لي مرة: "عليك أن تصلّي دائمًا إلى الله. إن كلّ صلاح يأتي من لدنه: الرغبة في الصلّاة والمحبة والتّواضع والاعتراف وكلّ ما هو حسن. ففي كلّ مرة تشعر في نفسك برغبة في الاعتراف، اذهب إلى أبيك الرّوحيّ، إنّه جيّد جدًا". ومن كلامه انتهيت إلى الخلاصة التّالية: إنّ كل صلاح، لي وللآخرين، يجب أن أنتظره من الله فقط بوساطة الصلّاة.

وقال لي أيضًا: "اطلب إلى الله في صلاتك أن تتمّ مشيئته بالنسبة إليك، فهذا ينفّعك كثيرًا".

❖ إعملوا مطانيات (سجدة)

كان ينصح بالركعات، بحسب القدرة، أثناء الصلّاة. كان يقول: "اعملوا مطانيات قدر استطاعتكم أثناء الصلّاة، حتّى ولو كان ذلك يتعبكم. عندما تكون الصلّاة مصحوبة بتضحية طوعية، تكون أكثر إرضاءً لله وأكثر فاعليّة.

❖ ساعدهم بصلاتك

أردتُ مرّة مساعدة بعض الأشخاص في مشكلة هامة كان الشّيخ قد لاحظها، فيما هم أنفسهم كانوا يجهلونها. إلا أنّني خشيت أن يسيئوا فهمي، فتكون النتيجة، في النهاية، خسارة روحية عوض المنفعة. كشفت أفكارني للشّيخ، فأجابني: "لا تواجههم بهذا الموضوع، سيسئون فهمك حتمًا، ويدينونك، وهكذا سيهلكون. لكن، لا تكن غير مبال تجاههم، ساعدهم من بعيد بصلاتك. وهكذا، سيتجنّبون الخسارة الروحية، وستفيدهم صلاتك أكثر من كلامك". وقد ارتحتُ لما عملتُ بنصيحة الشّيخ ذي التّمييز.

❖ الصلّاة حتّى خلال العمل

إن ما أثير فيّ بشكل خاص هو أنّ الشّيخ كان يخصّص وقته إمّا للصلّاة فقط، وإمّا للعمل وهو يصليّ. كنت أشاهده وهو يحدثني أو يتكلّم عبر الهاتف، وهو يأكل أو يشرب أو يشعل المدفأة، وهو يقوم بكلّ أعماله، فأدرك أنّه كان يصليّ في الوقت ذاته. إنّ ما كان يعلمه للآخرين عن الصلّاة كان يطبّقه هو أولاً.

قال لي يومًا: "في مكان ما، ثمة مَوْلِد للكهرباء، وفي الغرفة ضوء كهربائي. ولكن إن لم نُدِر الزر، فسنبقى في الظلام. هناك المسيح وهناك نفوسنا، لكننا إن لم نُدِر زَر الصلّاة، فلن نرى نفوسنا نور المسيح، وستبقى في ظلمة الشّيطان". كان واضحًا جدًّا أنّ نفس الشّيخ كانت تستنير بنور المسيح نهارًا

وليلاً، لأنَّ صلاته كانت تحفظ الاتِّصال الرُّوحِيَّ المستمرَّ بين المولِّد والضَّوء
الكهربائيِّ.

التعليق الأول للناشر

❖ تعاليم الشيخ بورفير يوس حول الصلّاة الذهنيّة، صلّاة يسوع

في ما يختصّ بما ذكره الكاتب أعلاه حول ما قاله له الشيخ: "قل صلاة يسوع باستمرار"، والذي هو طبعاً حقيقيّ، لقد ارتأينا، تحاشياً لسوء الفهم، أن نقوم بالايضاح الآتي.

إنّ الانشغال المنتظم بالصلّاة الذهنيّة يتطلّب أولاً، بحسب تعليم الأب بورفير يوس، شيخاً خبيراً يتابع المتدرّب. وثانياً، نفساً خالية من الأنانيّة والحقد والكراهية والمشيمة الدّاتيّة والمجد الباطل وما شابه ذلك. وقد شدّد كثيراً على ضرورة إتمام الخدم التقليديّة، وقراءة تسابيح كنيستنا؛ لهذا، فإنّ نصيحته للكاتب مفيدة لنا أيضاً، ولكن، بتمييز ومن دون نقض الخدم الكنسيّة أو الظنّ أنّنا إذا قلنا بعض المرّات "يا ربّي يسوع المسيح ارحمني"، نكون قد بلغنا مستوى ما.

وعندما كان الشيخ يرى أنّ بعضهم يؤدّ تعلّم "صلّاة يسوع" بدافع من الكبرياء كي يتباهى علناً أو سرّاً بأنّه يقوم بصلّاة رفيعة المستوى، كان ينصح هؤلاء بالألّا ينشغلوا بالصلّاة الذهنيّة. وقد أورد أمثالا عن أناس تعذّبوا، لأنّهم ضغطوا على أنفسهم بالصلّاة مع "برنامج" و"أسلوب" و"هدف" عوض أن يطلبوا باتّضاع أن يرحمهم الله. إنّ الصلّاة لا تُقاس ولكنّها تتدفّق. فالمصلّي لا يلاحظها، ولكنّها تفيض من دون أيّة محاولة متعمّدة، كما الدّموع في حالة التّأثّر. مع ذلك، تتطلّب الصلّاة عملاً ما، بلا غصبٍ ولا إرغام. يجب خلق جوٍّ ما: أن نقرأ شيئاً روحياً، نُبحّر، نُرتّل، نشعل القنديل، نركّز، نشكر، نمجّد، نبتهل، وكل هذه ببساطة بلا ضغط، "ببساطة قلب" (حكمة سليمان ١:١) لأنّ الأفكار الملتوية

(أَنَّا نمارس صلاة رفيعة المستوى) تفصلنا عن الله، وعندما يُجَرَّب الجَهْلُ
الَّذِينَ يودُّون أن يقيسوا صلاتهم) الله، فَإِنَّهُ بويّخهم.

يتّضح مما كتبه الكاتب في بداية هذا الفصل في فقرة "تعليم عملي" أَنَّ
الشَّيْخ كان قد رآه يصليّ "صلاة يسوع" واستنتج أَنَّهُ يستطيع قولها "ببساطة
قلب" لذا نصحه أن يردّها، من دون أن يشرح له، كي لا يثير عليه الأفكار.
طبعًا كان يقول الشَّيْء ذاته لكلّ مسيحي، باستثناء أولئك الَّذِينَ يريدون "تعلّم"
"أسرار" صلاة يسوع كي يتاجروا بالمعرفة ويتباهوا بها. لمثل هؤلاء ما من صلاة
مخلّصة. وبالتالي، نستنتج أَنَّا نستطيع كلّنا أن نصليّ "رَبِّي يسوع المسيح
ارحمني" من دون أن ندخل في أفكار خياليّة أو أن نجعل الصّلاة موضع نقاش،
بل نقولها فقط لمسيحنا "بهدهوء واتضاع وبساطة ومحبة وحلاوة"، بلا قياس
ومن دون اهمال صلوات كنيستنا التقليديّة قدر المستطاع.

الراهب باييسيوس

❖ إرشادات تختص بالصلاة

نرى من المفيد أن نضيف هنا مقطعاً يتعلّق بهذا الموضوع للدائم الذكر الراهب الأثوسيّ المعروف والخبير جدّاً باييسيوس، الراقِد بالربّ حديثاً بتاريخ ١٢ _ ٧ _ ١٩٩٤. كتب هذا النصّ حوالي العام ١٩٧٥، وهو عبارة عن رسالة أرسلها إلى شخص كان قد سأله عن هذا الأمر. وقد سلّم الرسالة مفتوحةً إلى أحد الزوّار ليوصلها، وسمح له بقراءتها ونسخها. فأعطانا الزائر هذه الرسالة، آمليْن ألا يكون لدى الشّيخ المغبوط باييسيوس أيُّ اعتراض على نشرها، وذلك من أجل منفعة نفوس كثيرين، ولنظهر أنّ الشيوخ الخبراء يتفقون على أن الصلاة لا تخضع لقياس أو إكراه.

❖ إرشادات تختص بالصلاة



"هناك طريقة بسيطة لممارسة الصلاة المستمرة، قد تساعد الأشخاص البسطاء الذين لا يستطيعون ولوج المعنى الفعليّ لهذه الصلاة، كما فهمه الآباء الهدوئيّون القديسون، مما قد يعرضهم لخطر الضلال.

من المؤسف أن بعض الأشخاص لا يضع، كهدف له، خلع الإنسان العتيق (عبر التوبة والتواضع والنسك كوسائل مساعدة لتقدّيس النفس) والإحساس العميق بخطيئته، لأنّه، إن فعل ذلك، سيُشعر تلقائيّاً بالحاجة الكبرى إلى رحمة الله، فيردّد مراراً بقلب موجد "يا ربّي يسوع المسيح ابن الله

ارحميني". عندها سيتذوّق في قلبه حلاوة التعزية الإلهية الآتية من يسوع الحلو جداً.

ولسوء الحظ، ثمة أشخاص (كما ذكرت)، يبدأون بممارسة نسك قاسي، ويسعون للذات وأنوار إلهية، ويضاعفون باستمرار عدد المسابح، معتقدين أنهم يتقدسون بحسب فكرهم الخاص، ويستنتجون "قداسهم" من عدد المسابح الكثيرة. هم يصنعون مقاعد صغيرة يقيسونها بالسنتيمترات تمامًا، ويقومون بالأشياء الأخرى كلها: إحناء الرأس نحو جهة القلب، ضبط إيقاع حركة التنفس، وكل ما كتبه القديسون الهدوييون كاليسستوس وغيغوريوس في الفيلوكاليا. وبعدها يتشكّل لديهم شعور كاذب بأنهم أضحووا في مستوى هؤلاء القديسين تقريبًا.

فور تصديقهم هذا الفكر، يحضر الشيطان، وينصب أمامهم تلافًا (بخيالاته)، ثم تتبع نبوءات ضلال شيطانية... لذلك، فالضمانة الوحيدة هي التوبة. وعليها فليتمّ كلّ بناء روحي، ولنطلب إلى الله التوبة باستمرار، ولا شيء آخر سواها.

يجب ألا نطلب أنوارًا أو عجائب أو نبوءات أو مواهب. لنطلب التوبة فقط. فالتوبة تجلب التواضع، والتواضع يجلب نعمة الله، لأنّ نعمة الله تحلّ تلقائيًا على المتواضعين. التوبة إذًا ضرورة لخلاصنا، وعندما نحصل عليها، تأتي نعمة الله وتعلّمنا ما يلزم عمله من أجل خلاصنا وخلص إخوتنا البشر.

إذًا، بحسب هذه الطريقة التي ذكرتها (أن نشعر بالحاجة الكبرى إلى رحمة الله)، سنردّد صلاة يسوع مرّات كثيرة، من كلّ قلبنا وسنشعر بحلاوة التعزية الإلهية، تعزية يسوع الحلو جدًا في قلبنا الذي سيضمّ، إذًا، بشدة، ذهننا وكلّ كياناتنا أيضًا. فلا تُتعبنا الصلّاة، بل تريحنا، لأننا ندخل في معناها. هكذا، نصلي من دون أن نضغط على ذواتنا، بل تدفعنا الهمة التي تمنحنا كلّ النشاط الروحي وخفقان القلب. حينها ينسحق القلب (مهما كان حجريًا) وتهمر الدموع من مآقينا نتيجة هذا الانسحاق (من دون القيام بمجهود لذرف الدموع عند الصلّاة).

هذه الحاجة إلى الصلّاة نشعر بها كما الرضيع الجائع، الذي يفتح فمه الصغير، ويهرع إلى حضن أمّه ليرضع، وليشعر، في الوقت ذاته، بالحنان الوالدي والأمان الكبير.

لا يشك أحد في أنّ العدو سيحاول محاربتنا عبر تشتيت فكرنا. لكن، إذا سبقت الصلّاة قراءةً أبائيّةً من كتاب الإفرياتيّنوس^٤ أو كتاب اليارونديكون^٥، حينئذٍ، يُغلق على الاهتمامات الكبيرة والصغيرة، ومشاكل النهار، وينتقل المرء إلى جوّ روحيّ آخرويصليّ بتركيز.

وإن حاربك العدو بأفكار تجديف (بسبب شرّه المعهود وحسده) فلا تضطرب، بل استعمل الشيطان كعامل عندك بالطريقة التالية، لا تضطرب، بل قلّ للعدوّ: حسنٌ أنّك جلبت لي هذه الأفكار لأردّد صلاة يسوع، لأنّي، بخلاف ذلك، أنسى أن أصليّ بلا انقطاع. إذاً ينسحب العدو حالاً، كونه معتاداً على فعل الشرّ فقط. قد ذكرت هذا لأنّ العدو يجلب أفكار التجديف للحساسين عادة كي يجعلهم أكثر حساسية ويزعجهم ويوقف صلاتهم.

ويحصل الشيء ذاته عند بعض الذين يجاهدون في السهرانية بكبرياء وفوق طاقتهم، فيجدون أنفسهم ضعفاء غير قادرين على طرد أفكار العدو، ظانين أنّ أفكار التجديف هذه منهم، فيما هي من العدو، وهكذا يتعذبون بلا سبب.

لذلك، يحتاج الشباب أن يجاهدوا بتواضع وتمييز في موضوع الصلّاة، وأن يتهيأوا لليل (منذ النهار) بعدم التشتت والقراءة والطعام القليل غير المالح بقدر الإمكان، كي يتجنّبوا الماء الكثير الذي يسبّب التّفخة، وهكذا تسهل على الإنسان الصلّاة.

وتساعد الوجبة المسائيّة الخفيفة قدر الإمكان، عندما تتمّ حوالى الرابعة بعد قراءة أبائيّة، أو أيّ شيء آخر يتبع وجبة الطعام بساعات ثلاث.

^٤ كتاب الإفرياتيّنوس مجموعة من أقوال الآباء صنفها بولس المعروف بالإفرياتيّنوس

^٥ كتاب اليارونديكون مجموعة من أقوال الآباء الشيوخ

وتساعد كثيرًا المطانيات الصغيرة والكبيرة التي ترافق صلاة المسبحة على نزع الجليد عن زيت الآلة، ومتى تعب المصلّي فليجلس ويردّد صلاة يسوع، محضرًا أمامه شقاوته وإحسانات الله العظيمة التي قدّمها له الإله الصّالح. عندها يتجمّع الدّهْن (وحده في القلب كما ذكرت)، ويطلب المصلّي رحمة الله من كلّ قلبه ومن كلّ نفسه ومن كلّ فكره، من دون أن يتكبّد تعبًا.

كذلك، تساعد كثيرًا السّاعات الثلاث التي تلي غروب الشّمس (إذ تكون قد قرّنت قبل الغروب كتب آبائية)، وكذلك السّاعات من منتصف اللّيل حتّى الشّروق. أمّا الشّباب، فجيّد أن يناموا ساعة بعد الغروب، مع القليل من الصّلاة، وأن ينهضوا بعد منتصف اللّيل، كما وأن يتجنّبوا أيضًا نوم الصّباح المعثّر.

طبعًا، هذا يتطلب تمييزًا ومتابعة من أبهم الزّوحي المرشد الذي لا غنى عنه.

انتهى التعليق

المحبة والعنف

كانت تشغلني دائماً المشكلة الشائكة في العلاقة بين المحبة والعنف. المحبة كما عاشها وعلمها المسيح وكل تلميذ حقيقي له من جهة، والعنف المتنوع الأشكال بين المواطنين أو بين الدول من جهة أخرى.

❖ اللص الذي أصبح راهباً وغلب اللصوص بالعنف

سألت الشيخ عن رأيه في هذا الموضوع. أجابني: "المسألة شائكة". وتابع وهو يروي مثلاً: "كان في الجبل دير يعيش فيه رهبان بسلام. ذات يوم، غزاهم اللصوص ودخلوا الكنيسة بوحشية، وطلب زعيمهم رئيس الدير. وإذا كان الرئيس في الهيكل، دخل أحد الرهبان وأعلمه بالأمر. فطلب إلى زعيم العصابة أن ينتظره قليلاً ريثما ينتهي من عمله. فسجد أمام المائدة المقدسة، وبدأ يصلي بحرارة إلى المسيح كي ينجمهم من هذا الخطر. في تلك الأثناء، انشغل رئيس العصابة بتفحص الأيقونات الجدارية في الكنيسة، ولأنه كان متوحشاً، لفتته أيقونة الدنونة، وخصوصاً التنين المخيف الذي ينفث ناراً من فمه الفاجر ويبتلع الهالكين. في تلك اللحظة، خرج رئيس الدير من الهيكل، وحالما رآه رئيس العصابة، قال له بحدة: "ستعطيني في الحال كل كنوز الدير، وإلا ذبحناكم. لكنني أريد أولاً أن تشرح لي ماذا تمثل هذه الصورة". وكان الرئيس لا يزال يتابع صلاته في عمق نفسه، فشرح له أنه من جهة هناك المسيح الذي يأخذ معه الصديقين إلى الفردوس، ومن الجهة الأخرى هناك الشيطان- التنين الذي يرمي الخطاة في أتون الجحيم". وسأل رئيس العصابة: "ومن هم هؤلاء الخطاة؟" أجابه رئيس الدير: "إنهم أولئك الذين يسرقون، ويشتمون، ويقتلون، ويعذبون، ويهينون. إنهم أولئك الذين يعملون كل شر". فسأل بقلق: "إذاً، هل سأذهب أنا

إلى الجحيم؟" فقال رئيس الدير: "كما يبدو، إنك صائر إلى هناك". وسأل: "ألا توجد طريقة لأنجو من الهلاك؟" أجابه الرئيس: "بلى". - "وما هي هذه الطريقة؟" - "أن تتوب عن كل خطاياك، وتعترف، وتتناول، ثم تجاهد لتتجنب الشر وتعمل الخير" - "وأين أستطيع أن أعمل هذا؟" - "هنا في الدير". حينئذ، التفت رئيس العصابة فجأة إلى اللصوص أتباعه، وقال لهم: "أنا سأبقى هنا". رحل اللصوص، وبقي رئيسهم واعترف لرئيس الدير الذي جعله راهبًا مبتدئًا. ووضع له قانونًا ألا يعمل شيئًا من دون أن يسأل راهبًا شيخًا عيّنهُ إلى جانبه ليقوم بخدمته.

ذات يوم، أرسله الرئيس مع الراهب مرافقه لقطع الحطب في الجبل وإحضاره إلى الدير للشتاء. انطلقا مع الحمار ووصلا إلى الجبل، قطعوا الحطب ووضعاه على الحمار، ولكن، قبل أن يهتما بالانطلاق للعودة، ظهر لهما لصوص، وأخذوا الحيوان مع الحطب بعدما ضربوهما بالعصي. فغضب الراهب (رئيس العصابة السابق)، ولكنّه، قبل أن يقوم بأيّة حركة، سأل مرافقه: "ماذا تقول الكتب عما يجب أن نعمله الآن؟" أجابه مرافقه: "لا شيء، فإنّ ناموس المسيح يقول إن لطمك أحد على خدك الأيمن فحوّل الخد الآخر". فذهب اللصوص مع المسروقات، وعاد الراهبان فارغين خائبين إلى الدير. وعندما رآهما الرئيس حزن، ولكنّه لم يقل لهما شيئًا. ثم، بعد عدّة أيّام، عاد وأرسلهما ثانية إلى الجبل من أجل الحطب، وأعطاهما حيوانًا آخر. فتكرر الشّيء ذاته تقريبًا. فتفكّر رئيس الدير وهو لا يدري ماذا يفعل. ولكن، بما أنّ البرد كان قد اشتد كثيرًا، وجد بعد جهد حيوانًا ثالثًا، فعاد وأرسلهما إلى الجبل. وفي حين استعدادهما للعودة مع الحيوان المحمّل بالحطب ظهر لهما اللصوص أنفسهم وأخذوا الحيوان وبدأوا بضربهما، فبلغ حنق الراهب - رئيس العصابة السابق ذروته، لكنّه، مع ذلك، سأل مرافقه ثانية: "جُد بسرعة ماذا تقول الكتب عما يجب أن نفعله". أجابه مرافقه أيضًا: "لا شيء، إنّ ناموس المسيح يوصي بالصبر ومحبة الأعداء". فلم يقتنع الراهب رئيس العصابة، وقال: "تذكّر جيدًا، ألا توجد كتب أخرى تقول شيئًا آخر؟" أجابه مرافقه: "يوجد العهد القديم وناموس موسى". - "وماذا يقول هذا الناموس؟" - "يقول العين بالعين والسن

بالسّن". فهتف الرّاهب - اللّص: " هذا ناموس جيّد". وناول أحد اللّصوص لكمةً فرماه أرضاً. فنظر إليه اللّصوص الآخرون مندهشين. عندها كشف الرّاهب جيبته عن صدره الكثيف الشّع، وقال للصوص المرتعبين: "أتعلمون من أكون؟ أنا رئيس العصابة الشّهير فلان الذي أصبح راهباً، فإن كنتم لا تريدون أن أقطّعكم إرباً إرباً، فدعوا هذا الحيوان المحمّل، وأسرعوا في جلب الحيوانات الأخرين اللّذين سرقتموهما محمّلين. فامتثل اللّصوص لأمره. وهكذا، عاد الرّاهبان ظافرين إلى الدّير، ومعهما ثلاثة حمير محمّلة. حالما رآهما رئيس الدّير، رسم إشارة الصّليب متعجباً، ومجّد الله. عندها قال له الرّاهب رئيس العصابة السّابق: "لا تمجّد المسيح أيّها الأب القدّيس، إنّما مجّد موسى، فإنّنا بناموس موسى أعدنا كلّ المسروقات، لأنّه لو بقينا على ناموس المسيح لعدنا فارغين ومضروبين".

❖ الرّاهب البسيط الذي غلب اللّصوص بالصّلاة

أثرت في تلك الرّواية التي رواها لي الشّيخ بظرافة فريدة، وكنت أحاول تفسيرها حين بدأ يروي لي قصّة ثانية: "كان هناك دير شاخ كلّ رهبانه وماتوا، لم يبقَ منهم سوى واحد يعيش فيه كناسك. كان راهباً أميّاً، لكنّه يتمتّع بإيمان قويّ وبسيط. وعندما كان يقوم بأعماله وبكلّ الخدم الطّقسيّة، كان يؤمن بأنّ المسيح والقدّيسين أحياء وهم في صحبته. لذا، كان يتحدّث معهم باستمرار كما يتحدّث واحدنا مع بشر أحياء. ذات يوم، خرج من الدّير، فدخله اللّصوص، وسرقوا كلّ ما وجدوه، وحملوه على دوابهم ورحلوا. لمّا عاد الرّاهب ووجد الدّير فارغاً اضطرب، وللحال أسرع إلى الكنيسة التي كانت مكرّسة على اسم القدّيس نيقولاوس، ووقف أمام القدّيس شفيع الدّير وبدأ يحتجّ: "يا قدّيسي نيقولاوس، ماذا جرى هنا في أثناء غيابي؟ قد أتى أناس أشرار وسرقوا الدّير، وأنت كنت تنظر إلهم ولم تحرك ساكناً؟ ماذا فعلت من أجل منع اللّصوص؟ أرى أنّك لم

تفعل شيئاً. إذًا، أنت لا تستحقّ هذا المكان الذي تشغله لأنك لم تحمِ الدّير، سأخرجك من هنا". وللحال، نزع الأيقونة من الإيقونسطاس، وحملها إلى خارج الدّير، ووضعها على صخرة، وعاد وأقفل الباب. لم تمض ساعة، حتّى سمع طرقات قويّة على الباب الخارجيّ. فتح الباب، وإذا به يرى اللّصوص مع الحيوانات المحمّلة بكلّ ما سرقوه. فقالوا له: "لقد سرقنا الدّير، وفيما كنّا ذاهبين كانت الحيوانات تسير بشكل عاديّ، وفي لحظة ما توقّفت ولم تعد تتقدّم. أخذنا نضربها ونجرّها، لكنّها بقيت من دون حراك، وثمّ استدارت إلى الخلف، وأخذت تجري. فقلنا يبدو أنّ الله يريدنا أن نعيد المسروقات، وها قد أحضرناها. أخذ الرّاهب الأغراض. وبعدما رحل اللّصوص شكر الله، وإدّاك تذكّر أيقونة القديس، فذهب إلى الصّخرة حيث وضعها وسجد لها وقال: "الآن، أعود وأقبلك أيّها القديس نيقولاوس. فأنت حامي الدّير". حمل أيقونة القديس باعتزاز، وأعادها إلى مكانها.

وحين ربطتُ القصّتين في فكري، استنتجتُ ما أراد الشّيخ قوله لي: إنّ تطبيق المحبّة وعدم العنف مع الأعداء يتطلّب قداسة، كما هي حال رئيس الدّير في القصّة الأولى والرّاهب البسيط في الثّانية. أمّا بالنسبة إلى الرّاهب - رئيس العصابة السّابق، الذي لم يكن قد اقتنى القداسة بعد، فاللّجوء إلى ناموس موسى صار شرّاً لا بدّ منه.

❖ مقاومة كلب الرّعيان بالصّلاة أم بالحجارة؟

في مساء أحد أيّام الصّيف، وبعد جلسة روحيّة مع الشّيخ في كاليسيا، كنت عائداً مع اثنين من أصدقائي سيراً على الأقدام، مأخوذين بكلام الشّيخ وبكلّ ما قرأناه عن حياة القديسين الذين وصلوا إلى مستوى رفيع من القداسة، بحيث لم تُعدّ ترعّجهم حتّى الوحوش الضارية. بل، على العكس، أصبحت تخضع لهم وتخدمهم. ورويتُ لهم قصّة رئيس الدّير والرّاهب البسيط اللّذين

بصلواتهما وإيمانهما الذي لا يتزعزع رؤّضا الوحوش البشريّة، أي اللّصوص. وفيما نحن سائرون، إذا بنباح كلبٍ قويّ يقطع هدوء الغابة اللّيليّ من الجهة المجاورة. وشيئاً فشيئاً، اشتدّ النباح، دلالة على أنّ الكلب كان يقترب منّا. عندها راودتني فكرة نيّرة. عرضت على صديقيّ أن نواجه الكلب المهاجم بالصّلاة، فوافقا. أخذنا نردّد معاً صلاة يسوع، ونحن نتابع سيرنا. إلّا أنّ الكلب كان يقترب منّا مهبطاً. وفي لحظة، أدركنا أنّه اقترب منا بحيث بات خطراً انقضاضه علينا بات وشيئاً، فانتفضنا كلّنا، وبحركة غريزيّة، انحنينا نلتقط ما استطعنا من حجارة، وأخذنا نرجمه. وتفاجأ الكلب بهجومنا المضاد بعد الحرّية الّتي تركناها له عندما كان يقترب منّا، وتوقّف عن تقدّمه، وكان يتبعنا وهو يعوي من بعيد إلى أن اختفى أخيراً وتركنا بسلام.

عندها، قلت لصديقيّ: يظهر، يا شباب، أنّنا لا نشبه لا رئيس الدّير ولا ذاك الرّاهب البسيط، وإنّما لا زلنا كمثّل الرّاهب – رئيس العصابة الّذي اضطرّ إلى اللّجوء إلى شريعة موسى. وعلى الأرجح، أنّ الأب بورفيرْيوس ساعدنا من بعيد بصلاته السّريّة لنذكر حاجتنا إلى التّمييز، حتّى نقوم بأعمال تناسب مستوانا الرّوحيّ. إنّ مواجهة الكلب بالصّلاة تفوق مستوانا، المتدنّي جدّاً بسبب بلادتنا الرّوحيّة. ومن يدري في أيّة تجربة غرور وكبرياء كنّا سنسقط لو استُجيبَت صلاتنا. وكَم كان الخطر كبيراً أن نؤمن بأنّه سيكون مباركاً لو طلبنا إلى الله أن ينفّذ لنا هذا، وهو قد أعطانا الطّريقة لتنفيذه بأنفسنا.

موهبة البصيرة والرؤية

منذ طفولته، قدّم الشيخ نفسه بكتبتها إلى الله بمحبّة وفرح "كذبحة حياة"، وقد منّ الله عليه بمواهب عجيبة في سن مبكرة.

❖ ماذا يرى صاحب البصيرة

إحدى هذه المواهب كانت موهبة البصيرة والرؤيا، التي بها يستطيع اختراق الحدود الطبيعيّة الإنسانيّة الضيّقة للزّمان والمكان. وصارت حواسه الروحيّة مرهفة، بحيث تفوّقت على الحواس الطبيعيّة المحدودة. كان سهلاً عليه أن يرى ما لا يُرى، ويسمع ما لا يُسمع طبيعيّاً. كان يرى الأسباب العميقة للأمور في الوجوه والأشياء، فيفسّرهما بشكل صحيح من دون أن ينخدع بالمظاهر التي تغشّ عادة. وقد تجاوز أيضاً التقسيم الطبيعيّ للوقت إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل، والتقسيم الطبيعيّ للمكان إلى هنا وهناك. وبحسب النعمة، كان يعيش اتّحاد الزّمن، في حاضرٍ أبديّ واحد، واتّحاد المكان في "هنا" غير محدود. هكذا، لم يكن مستغرباً أن يرى الشيخ النّفس الإنسانيّة حتّى في عمقها المظلم، والأحداث التي حدثت وتحدّثت وتحدّثت في حاضر مستمرّ، لا هنا فقط، بل في كلّ مكان. بالنسبة إلينا، طبعاً تُعتبر هذه الأشياء كلّها عجائب – إذ لا يمكن تفسيرها بالمنطق، فنحن لم نكن على مستوى الشيخ الرّوحيّ ولم نكن نفهمه، أمّا هو فكان يفهمنا. كان الشيخ، بنعمة الله التي كافأته على تقدمة ذاته لله بدافع المحبّة، يحيا في الدّهر العتيد منذ الآن، فيما نحن نعيش في الدّهر الحاضر.

❖ معرفة سابقة وصمت إلى أن حان الوقت

لقد التمتست موهبة الشيخ من أول لقاء معه، حين كشف لي، بدقة، حاضري وماضي. لقد عرف أيضًا مستقبلي، الذي كنت أنا أجهله بالطبع، ولم يكشفه لي لأسباب رعائية. بدت لي طريقة تصرفه بالنسبة إلى مستقبلي غريبة بعض الشيء، فبينما كانت تتخذ في البداية اتجاهًا معينًا، قبلته برضى، تغير مسيرها فيما بعد وأخذت اتجاهًا معاكسًا تحت تأثير أحداثٍ جديدة قبلته برضى أكبر في النهاية. لكن، تولّد عندي تساؤل: لماذا وقد انطلقنا باتجاهٍ ما، وصلنا إلى اتجاهٍ آخر؟ هل لأنّ الشيخ لم يعلم بالتغيرات المستقبلية؟ وفي أحد الأيام، بعد عشر سنوات على لقائنا الأول، أزال تساؤلي هذا إذ قال لي: أتعلم، لقد رأيت هذه النتيجة منذ اللحظة الأولى التي قابلتك فيها، ولكن لم يكن مناسبًا أن أكشفها لك في ذلك الحين، لأنك لم تكن بعد مستعدًا نفسيًا لقبولها. والآن أقولها لك بعدما أعدك الله لتقبلها عبر الأحداث التي جرت.

❖ هل هؤلاء أموات؟

جمعتُ مرّة في دفتر أسماء الراقدين والأحياء من الأقارب، ولمّا وصلت إلى الشيخ طلبت إليه أن يصليّ من أجل راحة نفوس الراقدين. بدأتُ بقراءة الأسماء، وكان هو يرسم إشارة الصليب ويصليّ. فجأة، توقّف عن الصلوة وسألني بحدة: "أموات هم هؤلاء الذين تقرأ أسماءهم لي الآن؟" ويا للعجب! فإنّني بعد انتهائي من قراءة أسماء الراقدين، انتقلت إلى أسماء الأحياء ناسيًا أن أعلمه. وللحال "رأى" الشيخ هذا بعينه الروحيتين وبدأ يصليّ من أجل الأحياء.

❖ اسم الدلال الطفولي

في إحدى زيارتي للشيخ، كنت حزيناً فحاول تعزيتي، منادياً إياي باسم دلال الذي كانت أمي تناديني به حينما كنت طفلاً. وهو اسم دلال غير عادي تماماً، كنت قد نسيته تقريباً. وقد انتقل الشيخ عشرات السنوات إلى الوراثة وسمع "أمي الدائمة الذكر تكلمني بحنان.

❖ سوف تتصل بك هاتفياً

طلبت إليّ سيّدة من معارفي أن أخذها إلى الشيخ، لأنّ ابنها كان مريضاً جداً. بعد ذلك، مرّت أشهر انقطعت فيها أخبارها. فسألت الشيخ إن كان عليّ أن أتصل بها من أجل مصلحة الطفل. أجاب بحدّة: "لا تتصل بها البتة، فهذا غير لائق، اللائق هو أن تريد هي أن تأتي. ولكن، لا تقلق، قريباً ستتصل بك." وبعد ثلاثة أيام اتّصلت بي. ولما قلت لها إنّني كنت أنتظر اتّصالها في هذه الأيام، تعجّبت وازداد تعجّبها بعدما أطلعتها على حديثي مع الشيخ. فقمنا بزيارته، ومنذ ذلك اليوم أصبحت السيّدة تزوره بانتظام.

❖ *استجابة في الصلّاة

طلبت إليّ يوماً السيّدة نفسها أن نذهب إلى الشيخ إذ كانت بحاجة ماسة إلى أن تراه. وصلنا إلى الدّير باكراً جداً وكان هناك أناس كثيرون ينتظرون خارج قلاية الشيخ، الذي كان متغيّباً لعمل ما في "أوروبو". انتظرنا حتّى الظهيرة، وعدنا خائبين. وفيما كنّا سائرين على الطّريق المتجه نحو أثينا لنذهب إلى محطة الباص، قلت للسيّدة اليائسة: لنصل إلى الله كي نرى الشيخ. بدت لها الفكرة

ضرباً من التهكم، إذ حتّى ولو عاد الشّيح في تلك اللّحظة، فلن نستطيع أن نراه على الطّريق الّتي نسلّكها (اتجاه طريق أوروبو عكس اتجاه طريق أثينا)، ومع ذلك، بدأت تصليّ، لأنّني قلت لها إنّ الشّيح يلتقط "براداره" الرّوحى الصّلوات المتألّمة، ويمكن أن يظهر حيث لا تنتظره. وفي لحظة ما، رأينا سيّارة خاصّة في الجهة المقابلة لنا آتية من جهة أثينا بسرعة فائقة. وما إن استطعت أن ألاحظ الشّيح داخلها حتّى صرخت بفرح: "ها الأب بورفيروس". لم تره السيّدة، ومع ذلك، تأثّرت من ظهوره غير المنتظر. عرضتُ عليها العودة إلى الدّير، فترددت، لأنّها فكّرت بعقلها أنّه حتّى ولو بدأ الأب باستقبال النّاس في قلايته، فعدد الزوّار المجتمعين كبير إلى درجة أنّنا لن نستطيع رؤيته، ولا حتّى عند منتصف اللّيل، لأنّنا خسّرنا دورنا. قلت لها: لنكثّف صلاتنا، لأنّ الله الصّانع العجيبة الأولى يقدر أن يصنع الثّانية. هكذا، سلّكنا طريق العودة إلى الدّير، وحالما وصلنا إلى أوّل التّلة رأينا سيّارة متوقفة على الطّريق التّرابي، وبعيداً عنها قليلاً، كان الشّيح يقطف البندورة في أحد الحقول. تقدّمت السيّدة منه بوجل، وهناك في الحقل كان لها معه حديث هادئ أراحها. ثم قابلته أنا أيضاً لوقت يسير. بعدها دخل السيّارة ومضى إلى الدّير حيث كان الجمع ينتظره. ومن شدّة فرحها لم تستطع أن تفسر منطقياً كلّ ما حدث، كان انطباعها أنّها تحلم.

❖ نصيحة تثبّتتها رؤية

أخيراً، قرّر أن يزورني أحد أصدقائي الأخيار، وهو لم يأت قطّ إلى بيتي من قبل. عندما أتى تباحثنا في مواضيع مشتركة تهّمنا كلينا، وقد ساعدني أيضاً في بعض الأعمال البيتية. بعد أيّام، التقيت الشّيح، وفيما كنّا نبحث في مشكلة شخصيّة تخصّني، عرض عليّ حلاً اعتبرته شبه مستحيل، فقال لي فجأة: "قد زارك صديقك فلان في بيتك وساعدك، أليس كذلك؟" وباندهال سألته: "هل أتى صديقي وقال لك ذلك؟ أجاب الشّيح بشكل طبيعيّ جداً: "لا، لم يأت". وتحول

نذهالي إلى تعجّب صامت، ولم أطرح عليه السّؤال البديهي: بما أنّ صديقي لم يأت، كيف علمت؟ لأنّني بقرّبه بدأت أدرك أنّه "حيث يشاء الإله، يُغلب نظام الطبيعة". إنّ "رؤيته" المذهلة لزيارة صديقي تشكّل فاتحة لفعاليّة الحلّ الذي عرضه عليّ. فهذه الطّريقة أكّد لي أنّه كما رأى زيارة صديقي، كذلك رأى فعاليّة الحلّ الذي عرضه عليّ.

❖ قد رأيْتُكَ، قد شاهدْتُكَ، وأُشاهد

في إحدى السنوات، احتفلت بعيد الفصح في أحد الأديرة. قال لي الشّيخ فيما بعد، بكلّ بساطة: "قد رأيْتُكَ يوم عيد الفصح في الدّير. وقد أقمتَ هناك مسروراً". حصل الشّيء ذاته مع إحدى الطالبات الّتي سبق إن ذهبت إلى الرّيف، ثمّ سمعته يقول لها: "قد شاهدْتُكَ بالقرب من البحر في الصّيف، حيث كنت تقرئين كتباً أبائيّة".

في إحدى زياراتي للشّيخ في قلّاية القرميد، ارتأى أن يبقيني وقتاً طويلاً للحديث. وفي لحظة ما، توقّف وقال لي: "لقد أبقيتك طويلاً، والنّساء اللّواتي ينتظرن خارجاً الآن قد اغتظنَ منك، ويتهمّنك بأنك لا يهتمّك سوى نفسك، ولا تكثر بالذين ينتظرون خارجاً، ويتهمّنني أنّي أفضل أناساً على آخرين".

ولما خرجت لاحظت وجوهاً عابسة. وقد أخبرتني إحداهنّ، وقد كانت من معارفي، بما كانت تقوله النّساء الأخريات عني وعن الشّيخ. كانت هي نفسها الكلمات الّتي ذكرها لي الشّيخ قبل قليل. ومن دون أن أكشف لهن أنّي أعلمت مرتين بما يقلّنه، قلت لهن إنّني تأخّرت في الخروج لأنّ الشّيخ قد أبقاني لسبب ما، ما يمكن أن يحصل مع أيّة واحدة منهن. وإذّاك هدأن.

❖ الصليب أمام الدّير

زاره رئيس دير يبعد ديره عن دير الشّيخ خمسمئة كيلومتراً. فوصف له الشّيخ ديره بكلّ دقة، من دون أن يكون قد ذهب إلى هناك قطّ. و"رأى" أيضاً أمام الدّير صليباً كبيراً وخلفه مغارة مخفية. كلّ هذا كشفه لي رئيس الدّير الذي كنت أعرفه. وحدث أن زرت الدّير فيما بعد ورأيت بعينيّ الجسديتين كلّ ما رآه الشّيخ بعينه الروحيتين. وعندما التقيت الشّيخ وأخبرته عن زيارتي لذلك الدّير، سرّ كثيراً وسألني "أذهبت إلى هناك يا بني؟ رأيت الدّير، والصليب الكبير أمامه؟ رأيت المغارة؟"

❖ ساحة البلدة

وصف لأحد طلاب اللاهوت ساحة بلده، التي لم يكن قد زارها قطّ، كما وصف أشجار الدلب الكبيرة وسط السّاحة. وقال له أيضاً إنّه لمّا كان طالباً ثانوياً، كان يذهب غالباً ويقرأ دروسه تحت أشجار الدلب تلك. وقد أكّد لي الطّالب أنّ الوصف كان "فوتوغرافياً".

❖ الوعظ المزعج

ذهبت إلى الشّيخ مع أحد أصدقائي في سيارته. وكانت خطيبته في صحبته. في الطّريق كنت أكلّمها على الحياة المسيحية التي لم تكن تهتمّ بها بشكل خاص. فعلتُ هذا كي أساعدها على فهم أفضل لعقليّة الشّيخ الذي ستقابله لأوّل مرّة. ولمّا وصلنا دخلت أنا أولاً إلى قلايته. وإلى جانب أمور أخرى، ذكرت له مع بعض العجب بالذّات عظمي خلال الطّريق. انتفض الشّيخ وقال لي:

"لا تفعل أشياء كهذه يا بني، فإن الفتاة ترتجف الآن، وتقول لخطيئتها: "هيا بنا نرحل، لأتي خائفة من مقابلة الشيخ ومن أن يفرض عليّ الالتزام بكلّ ما قاله لي صديقك في الطريق." ثمّ دخلت هي من بعدي إلى قلاية الشيخ، فأفشى لي صديقي ما كانت تقوله له بينما كنت أنا في الداخل. كانت كلمات الشيخ ذاتها. ولما خرجت من القلاية كانت تشعّ فرحًا. إذ إنّ الشيخ لم يرتكب الخطأ الذي ارتكبته أنا بحماستي المفرطة وغير المفيدة.

❖ حلّلي، فكّني، شرّحي.

كان كثيرون من الشبّان الذين عرفوا الشيخ يعبرون عن موهبته بتعابيرهم العصريّة. قال أحدهم لأصدقائه بعد خروجه من قلاية الشيخ: لقد حلّلي، لقد فكّني، لقد شرّحي.

- وقال آخرهم: بعلم النّفس: يا شباب، لقد فضّحتني، لقد كشف لي كلّ أسرار عقلي الواعي وعقلي اللاواعي.

- وقال ثالث وكان مرتابًا بطبعه يدرس الفيزياء والرياضيات: بلا شكّ إنّّه ظاهرة غريبة.

❖ أنا أعرفك أفضل

كنت أتحدّث معه مرّة، فقلت له بعفويّة: "اسمح لي، أيّها الشيخ، أن أكشف لك ذاتي العميقة." فقال مبتسمًا: "أيّ عمق تريد أن تكشفه يا بني، وأنا أعرفك أفضل مما تعرف أنت ذاتك." ففهمت كم هو على حقّ، وفضّلت أن يكشفني هو على أن أكشف له ذاتي بنفسيّ.

❖ اكتشاف مكان الخلوة (المخبأ)

عندما يكون الشيخ مريضاً، ويكون في استطاعته المشي قليلاً، يذهب، بقدر ما يسمح له الطقس، ويختبئ في الغابة لبضع ساعات حيث يرتاح. هناك، يزوره القليلون بعد أخذ البركة. في أحد أيام الصيف وصلت إلى الدير، وكان الشيخ في مخبئه. سألت الأخت الراهبة إن كان مباركاً أن أراه قليلاً بصورة استثنائية، وشرحت لها السبب. أعطني البركة، ووصفت لي الدرب الذي يجب أن أتبعه. دخلت الغابة، ولكّني بعد مسير نصف ساعة اكتشفت أنّي أضعت الطريق، وإذا بي في عمق واد صغير، أتصّبّب عرقاً تحت أشعة الشمس اللاهبة، وفي وسط غُلَيّيقٍ وأشواكٍ وطريقٍ مسدود. في تلك اللحظة الصعبة شعرت بالحاجة إلى الصلاة، فأخذت أتمتم: يا ربّي يسوع المسيح، بصلوات الشيخ بورفيربوس ارحمني. وحالما رفعت رأسي عاليًا، لاحظت في الجهة المقابلة قطعة قماش بيضاء معلقة على غصن شجرة يلاعها الهواء. فقلت بعفوية إنّ الشيخ هناك. وشكرت الربّ على مساعدته السريعة. إن جهاز الشيخ الرّوحيّ الحساس "التقط" في الوقت ذاته صلاتي وتشفّع بي. كنت قد أضعت الطريق ولكنني عدت فوجدت الهدف.

ومن دون أن أحول نظري عن تلك الشجرة، بدأت البحث فوجدت ممراً عسراً سرّاً فيه بصعوبة حتّى اقتربت من الشجرة، وعند انسداد طريقي وجد لي الشيخ المخرج. لدى وصولي إليه، سمعت حديثاً فتفاجأت. تقدّمت قليلاً فوجدت الشيخ جالساً على مقعد خشبيّ تحت شجرة صنوبر وقد علّق في أحد أغصانها قميصاً قطنياً أبيض، وإلى جانبه يجلس شخص لا أعرفه يتحدث معه. ابتعدت وانتظرت، ولما رحل الزائر اقتربت منه وعملت له مطانية. وحالما رأيي سرّاً قائلاً: "سامحك الله يا بنيّ، كيف اكتشفت وجودي هنا؟" فأخبرته بمغامرتي الصّغيرة، فابتسم برضى، وإذا بنسمة منعشة تخفف شدة الحرّ. تحدّثنا قليلاً في شأن موضوعي المألّف، ونلت بركة كبيرة. وما زلت أذكر تلك المقابلة الجميلة،

السريّة، وحدي مع الشّيخ، وسط الغابة. حيث يسود الهدوء الذي تقطعه الحفلة الموسيقيّة التي كان يقيمها الزيران من حولنا.

❖ العمليّة الجراحية التي لم تحدث

زرتُ الطّبيب بسبب وجع ألم بي، فنصحني بإجراء عمليّة جراحية بعد سنة، وكان عليه أن يفحصني من جديد قبل إجرائها. ذهبت إلى الشّيخ قلقاً، وأخبرته بالأمر. حالما سمع الخبر قال لي: "إذاً هذا هو الأمر؟ وكلّ هذه المدة وأنا أتساءل ما الذي يعذبك؟" ولمرة أخرى، أصاب الشّيخ في معرفة مشكلتي الشخصيّة، وسألني: "هل وضع الأطباء المشروط من جديد على هذا الموضوع؟" أجبت بالتّفي. عندها قال لي: "ولماذا ستخضع لهذه العمليّة؟ أنعلم أنّه، في بعض الأحيان، تهيّج هذه المواضع إذا أزعجتها؟ رأيي ألا تفعل، بل تقبّلها كشوكة في الجسد".

قررتُ أن أطيع مشورة الشّيخ. وبعد سنة ذهبت إلى الطّبيب لإجراء الفحص كما وعدته. بعد الفحص قال لي: "لم تتأزّم الحالة، بل ما زالت على ما كانت عليه، رأيي أن نؤجل العمليّة قدر المستطاع، فنجرّبها بعد فترة أطول، تعال بعد سنة لأراك. فكّرت في تلك اللّحظة في أنّ رأي الطّبيب، وبطريقة سريّة، تطابق مع رأي الشّيخ. لم أكشف له شيئاً بهذا الشأن، ورحلتُ مصمّماً على عدم زيارته من جديد. ولما انقضى العام لم أذهب لإجراء فحص جديد، ولكّني التقيت الطّبيب في أحد الاجتماعات الدينيّة، وفي المناسبة أعلمني أنّي لم أعد بحاجة إلى إجراء العمليّة، لأنّ دواء قد اكتُشف حديثاً في أميركا وسيتم تداوله قريباً في اليونان، وبوساطته يمكن شفاء ذلك المرض جذرياً. تذكّرت الشّيخ وشكرته في داخلي. ولكّني لم أستطع زيارته، لأنّه. في ذلك الوقت، كان قد رحل إلى المساكن السّماوية.

❖ العراقيل التي تقود إلى اللقاء

في عصر أحد الأيام كنت في كاليسيا بصحبة طالبين، وصديق لي طبيب مقيم في الخارج. والسبب الأساسي الذي جعل صديقي يتكبد سفرًا طويلًا كان رغبته الشديدة في أخذ إرشادات الشيخ في شأن مشاكله الملحة. إلا أن الشيخ كان غائبًا. تأسفنا لذلك، ولا سيما صديقي الطبيب. وقد تعزينا بعض الشيء بروايات عن الشيخ من بعض أولاده الروحانيين الذين التقيناهم في ساحة الدير. وعندما بدأ الظلام يخيم، فقدنا كل أمل بعودة الشيخ، فسلطنا طريق العودة بحزن. وكنت أنا الدليل لكوني أعرف المنطقة أكثر من الجميع.

ومع حلول الظلام، في تلك الليلة الملبدة بالغيوم، وفيما كنا نتحدث، لم أدرك أننا سلطنا طريقًا خاطئًا في الغابة. حين أدركت ذلك، توقفتُ وأشرتُ عليهم بالعودة إلى أن نجد الطريق الصحيح. وقلت لهم أيضًا إنه من الحسن أن نطلب وساطة الشيخ من خلال صلاتنا الذهنية كي لا نضيع كليًا وسط الغابة. وسرنا حوالي النصف ساعة، وعندما وصلنا إلى مفترق طرق تعرفت إلى الطريق الصحيح. في اللحظة ذاتها، بهرنا ضوء سيارة متجهة نحو الدير. توقفت السيارة، ولدهشنا رأينا الشيخ يخرج منها ويدعونا إليه. كان لقاءنا لا يُصدق لأننا، لو لم نضيع الطريق لكنا وصلنا إلى محطة الباص ورحلنا قبل أن يظهر الشيخ. لقد ترتب لقاءنا خلال لحظات. ولو أننا رتبناه مسبقًا لما كنا حصلنا على لقاء بهذا التوقيت الدقيق. في بعض الحالات المؤثرة تظهر جليًا عناية الله بالحكمة والمحبة للبشر. لم يتم لقاءنا صدفة، لأنه لو كان هناك صدفة لما كان الله موجودًا. ولم يحدث أيضًا كنتيجة نادرة الحصول ضمن قانون الممكن، لأننا نعلم أن وراءه تكمن صلاة الشيخ الذي رأى حاجة الصديق الماسة للقائه.

في الواقع، توجه الشيخ نحو الصديق مهملاً الباقين، وأصعده إلى السيارة، لأن الطقس كان باردًا، بينما خرج السائق، وكان إكليزيكيًا، وتركهما وحدهما يتحدثان براحة. وإذا بالشيخ يخاطبني قائلاً: "في هذه الأثناء، رافق أنت الأسقف". اقتربت منه وإذًاك ميّزت في الظلام أنه أسقف وهو أستاذ في الجامعة

في كلية اللاهوت. تحدّث معه عن اكتشافنا المتأخّر للشيخ المعاصرين ولتقديماتهم، التي لا تُقدّر، لشعب الله. وافق الأسقف على هذا، وزاد عليه. ولما انتهى الشيخ من حديثه مع صديقي خرج الأخير من السيّارة متأثراً. لقد أورد له الشيخ مشاكله المهمة قبل أن يعرضها هو، وقد أعطاه حلوّاً أراحته. صعد الأسقف إلى السيّارة، فقبّلنا يدي الإثنين، وتابعا طريقهما نحو الدّير. إنّ الأسقف - أستاذ الجامعة - يأتي ليتحدّث مع شيخ قليل العلم، لكنّه متعلم من الله.

❖ لا تخف أيّها المبارك، إني آت!

في عصر أحد أيام الشّتاء، كانت مجموعة من الزوّار تتحدّث مع الشيخ في كاليسيا. مرّ الوقت بسرعة، وبدأ الظلام يحلّ. تذكّر واحد من المجموعة أنّ عليه أن يكون في أثينا في وقت محدد. فنهض وغادر بسرعة. عندما وصل إلى الغابة الصّغيرة ودخل الطّريق التّرابيّة حيث تتشابك رؤوس الأشجار مسبّبة ظلاماً وصعوبة في المرور، فهم أنّه يحتاج إلى مصباح. لم يكن لديه الوقت ليعود ويأخذ واحداً، لذا قرّر متابعة الطّريق مثلما يفعل الأعلى. وفيما كان الحديث في الدّير يجري بهدوء، نهض الشيخ فجأة، وخرج متجهّاً نحو الغابة وهو يقول: "لا تخف أيّها المبارك، إني آت". وحين وصل مع مصباحه إلى الدّرب المظلمة، وجد زائره يرتجف من الخوف وقد اشتبك ببعض العليق. إذّاك أمسكه الشيخ بيده وأعاد بهدوء إلى الطّريق، فتابع رحلته براحة. إنّ "رادار" الشيخ الرّوحيّ التقط ضيق صدر زائره الذي أضاع الطّريق في الغابة المظلمة. وكم مرّة أضاع كُتُونا طريقهم وسط غابة مشاكلهم المظلمة. وكان الشيخ " يلتقط " معاناتنا سرّياً ويسارع، بصلواته، إلى إخراجنا من طريقنا المسدود؟

❖ أنت ستزوّج بصعوبة

وصلت مع اثنين من أصدقائي إلى كاليسيا في عصر أحد أيام الصيف. وقد تعطّف الله علينا، لأننا وجدنا الشيخ وحده وهو في حالة انشراح. تحدّث مع كلّ واحد منّا على انفراد. وفي النهاية تحدّث معنا سوياً. كان يجلس على صخرة ونحن حوله. وكان أصدقائي يواجهون مشكلة عدم استقرار عائليّ، فقال لأحدهم: "أنت ستزوّج بصعوبة". وقال للثاني: "وأنت لن تزوّج إلا إذا غيّرت أصحابك". وبعد فترة قصيرة، أقدم الصديق الأول على طلب فتاة للزواج، وكان بينهما تفاهم متبادل، فعقد خطبته في وقت قصير. وتفاجأ الصديق بفشل نبوءة الشيخ، كما اضطربت أنا بعض الشيء. وبما أنّي أعرف الشيخ أفضل منه، فقد اضطربت في أعماقي لتطوّر خطوبة الصديق أكثر من اضطرابي بسبب الشيخ. ومع ذلك، لم أبدأ قلقي كي لا أشغله قبل الأوان. وفي غضون شهر، ظهرت مشكلة خفيّة هامة وغير متوقّعة على الإطلاق، وانتصبت عقبة روحيّة، ما أدّى إلى فسخ الخطوبة سريعاً.

وقد تزوّج صديقي من فتاة أخرى، ولكن، بعد مرور وقت طويل، وبعد صعوبات غير عاديّة. أمّا الصديق الثاني فقد تأخّر في الانفصال عن أصحابه، ولكن، ما إن استطاع أن يحقق ذلك حتّى تزوّج خلال فترة قصيرة. وهكذا تحقّقت نبوءة الشيخ حرفياً.

❖ دموع من أجل أمر سيحدث

واجه أحد الطّلاب مشكلة نفسيّة صعبة بسبب إعاقة في يده ناتجة من انفجار قنبلة يدويّة وجدها لما كان ولدًا صغيرًا وأخذ يتفحصها. وقد أضرّ الانفجار أيضًا بنظره. وقد سمع عن الشيخ وأراد أن يراه. ولمّا جاء إلى كاليسيا

استقبله الشَّيْخُ بحنان خاص، وأبقاه وقتًا طويلاً في قلايته وعزاه. وعند انصرافه، واكبه الشَّيْخُ والدَّموع تسيل من عينيه. وتعبَّ كثير من الزَّوَّار من هذا المشهد. وبعد فترة قصيرة، علمنا أنَّ الشَّابَّ بدأ يفقد بصره حتَّى عمي كلياً. قمت بزيارته في بيت المكفوفين، وتأثرت بحبه الكبير للشَّيْخ، وقوَّة إيمانه الجليِّ بالمسيح مقارنةً مع ما كان عليه في الماضي. لقد سبق الشَّيْخ ورأى صليبه وشدَّده في الإيمان.

❖ امتشدّد، امرأة المدحّنة والشَّيْخ

ذات صبيحة، وصلتُ مع أصحابي إلى ساحة الشَّيْخ. ولاحظتُ بعيداً عنّا أحد معارفي، وهو مسيحيّ غيور متشدّد. دنوت منه، وقد سرَّ برؤيتي المفاجئة. تكلمنا في مواضيع مختلفة تخصّ الشَّيْخ. وممّا قاله لي: "يزور الشَّيْخ أناسٌ غير مباليين البتة ويزعجونهم عبثاً. انظر إلى تلك السيِّدة هناك كيف تدخّن بلا حياء. إنّي أعجب كيف يستقبلها الشَّيْخ". أمّا أنا فقد احتفظت بالصّمت كي لا أحرجه إذ إنّ السيِّدة كانت بصحبتني وهو لا يعلم. وأمّا الشَّيْخ فلم يسكت. لأنّه عندما أتى دوره ودخل قبلي إلى قلاية الشَّيْخ، كان أوّل ما سمعه من فمه: "أتعلم، أنا لست متشدّداً مثلك". ولما خرجت السيِّدة من قلايته كشفت لي ما قاله لها الشَّيْخ، موجزةً نصائحه: "إنّ جهادك في سبيل القداسة يجب أن يبدأ بانقطاعك عن التدخين". لقد وجد الشَّيْخ الدواء المناسب لكلّ واحد من الإثنين.

❖ زيارة الهيبين

روى لي الشَّيْخ: "مرّة، زارني أحد الهيبين. كان مرتدياً ثياباً غريبة متعدّدة الألوان مع حلي وزينة. وطلب أن يراني. اضطربت الراهبات وأتين

يسألني. فقلت لهن: دعنه يدخل. وحالما جلس قبالي رأيت نفسه. كان ذا نفس طيبة، ولكنها مجروحة، ولذا هي ثائرة. تحدّثت إليه بمحبّة فتأثّر وقال لي: "أيها الشيخ، ما من أحد حتّى اليوم كلّمني هكذا. وأخبرته اسمه، فتعجّب كيف عرفته. فقلت له: إنّ الله قد كشف لي اسمك، وأنك سافرت إلى الهند وتعزّفت إلى ال "غورو" (جماعة روحية هندوسية) وانضمت إليهم. فتعجّب أكثر. وقلت له أشياء أخرى عن ذاته، فرحل راضيا. في الأسبوع التّالي، أتى مع مجموعة من الهيبين. دخل الجميع قلايتي وجلسوا حولي، ومعهم فتاة. عطفت عليهم كثيرا. كانت نفوسهم طيبة، ولكنها مجروحة. لم أحدثهم عن المسيح لأنّي رأيت أنّهم غير مستعدّين لسمعوا. كلّمهم بلغتهم عن أمور تمهمهم. ولما انتهينا ونهضوا للرحيل قالوا لي: "أيها الشيخ، نريد منك معروفا: أن تسمح لنا بتقبيل رجلك. أمّا أنا فخجلت، ولكن ما العمل، فقد سمحت لهم. وبعد ذلك، قدّموا لي غطاء للسريّر هدية. سأنادي كي يجلبوه لتراه. إنّه جميل جدّا. بعد فترة، زارني الفتاة الهيبية لوحدها. وكانت تُدعى ماريّا. وقد رأيت أنّ ماريّا جاهزة نفسيا أكثر من أصدقائها. لذا حدّثتها أولاً عن المسيح. قبلت كلامي وأتت مرّات أخرى أيضا. وقد سلكت طريقا صالحا، وقالت لأصدقائها: يا رفاق، لم أتصوّر أبدا أنّي سأتعرف إلى المسيح من خلال صحبة هيبية."

أثر فيّ هذا الحدث. فموهبة الرؤيا والرعاية عند الشيخ عملا معا لجذبنا، بالمحبّة الحقيقيّة، هؤلاء الشّبّان الضالّين الذين يستحقّون الشّفقة. وقد طلب هؤلاء شيئا إلى الشيخ جعلني أخجل من نفسي: أن يقبلوا رجليه. وكانت هذه زيارتهم الأولى. لقد مرّت عليّ سنوات وأنا أروح وأجيء، ولم يكن عندي التّواضع لأفكر في شيء كهذا. وأمّا هؤلاء الشّبيبة فقد تشبّهوا بالخاطئة التي غسلت أرجل المسيح بالطيب ومسحتهما بشعر رأسها، لما قبلوا رجلي الشيخ وقدّموا له هدية أيضا. كان الشيخ مسرورا بالهدية كطفل. ليس من أجل قيمتها الماديّة بالطبع، وإنّما بسبب ما ترمز إليه روحيا. عجبت من الطّرق غير المتوقّعة التي تتبعها النّعمة الإلهيّة كي تخلص النفوس. ومنذ ذلك اليوم صرت، أنا أيضا، أقبل رجلي الشيخ عندما يكون ممدّدا على السريّر من دون أن أسأله.

❖ "أنا لا أفتش". "سيجدك هو"

نالت إحدى نسيباتي منحة للتخصّص في إنكلترا بعد الامتحانات في حقل تربية الأولاد ذوي العاهات. ورأت أنّ عملاً كهذا يناسبها، لكونها فتاة تحبّ الأولاد كثيرًا. وفكرت أنّه يجب أخذ بركة الشيخ قبل مغادرتها اليونان. وذهبتنا معًا لزيارته. دخلت هي أولاً إلى قلايته. ولما خرجت كانت مرتابة. وقد أعلمتني بأنّه حالما سمع الشيخ بإنكلترا والأولاد ذوي العاهات، قال لها: "إنّك لا تصلحين لعمل كهذا، فأنت حسّاسة جدًّا ولن تتحملي. أمّا إذا كنت تريدين فاذهبي. لكّني سأخبرك أنّه قبل سنين سألتني إحدى الطّيبات، وهي حسّاسة مثلك، إن كان يجب أن تذهب إلى أميركا من أجل دراسات عليا في الأمراض النّفسية، وقد نصحتّها بعدم الذهاب. لم تسمع نصيحتي، وذهبت، وهي الآن تتعالج في مستشفى للأمراض النّفسية". وعندها، سألت الشّابة الشيخ: "إن بقيت هنا ولم أذهب إلى إنكلترا وعيّنت أستاذة، ماذا أفعل بعد ذلك؟ أنا في حيرة، هل أنشئ عائلة أو أذهب إلى الدّير؟ فالأمران لا يغيراني". قال لها الشيخ: "أنت لا تصلحين للدّير، بل لتكوين عائلة". فقالت ولكّني، أيها الشيخ، لا أبحث عن زوج". قال لها الشيخ: "أنت لا تحتاجين إلى البحث، هو سيجدك في أقرب وقت". وبعدما انتهت الفتاة من سرد حديثها مع الشيخ، سألتني ماذا عليها أن تعمل. أجبتهّا بأنّها حرة ومسؤولة بأن تفعل ما تريد، وأنا متأكّد، بسبب خبرتي الخاصّة وخبرة الآخرين، أنّ كلّ من يتبع نصائح الشيخ يربح، بينما كلّ من يستخفّ بها يخسر. أخيرًا، وبعد تردد، قرّرت أن تطيع الشيخ. وبعد أشهر قليلة، أعجب بها أحد الأساتذة، بينما كانا ينتظران الاعتراف عند الأب الرّوحيّ ذاته. وبعد أن سأل عنها الأستاذ وعرف معلومات إيجابيّة، عرض عليها الزّواج. وكلاهما يعمل الآن في إحدى الثّانويّات، وقد أنجبا أولادًا، وكوّنا عائلة مسيحيّة. وهما غالبًا ما يذكران اسم الشيخ اعترافًا بجميله، ويتردّدان عليه باستمرار وينالان نصائحه القيّمة من أجل حياة عائليّة منسجمة.

❖ العاصفة التي لم تهب

بعد ظهر أحد أيام الخريف، كنت وصديق لي طبيب في بدء الطَّريق المؤدّية إلى كاليسيا. وإذا بغيوم سوداء تغطّي السّماء، وبدأ أنّ عاصفة ستمهبّ بين لحظة وأخرى. كنّا قد نسينا أن نجلب مظلاتنا. وصرنا في حيرة من أمرنا، هل نتابع طريقنا إلى الشّيخ أم نعود إلى أثينا. في التّهاية، قرّرنا أن نخاطر استنادًا إلى إيماننا. كنّا بحاجة ماسّة إلى رؤية الشّيخ، وقد آمنا أنّه، بصلوات الأب بورفيروس، سيعمل الله شيئًا يحفظنا من المطر الآتي. فانطلقنا مطمئنين. وأذكر أنّنا كنّا نرتّل ونحن سائران، ونورد أحداثًا من اليارونديكون^٦. وفي أثناء سيرنا، الذي دام حوالى السّاعة، كانت ريح عاتية تعصف وتجلب من وقت لآخر زخّات مطر كثيفة على وجوهنا. ووصلنا إلى قلاية الشّيخ من دون أن نتبلّل. وبعد وقت طويل من الانتظار، قابلناه وحصلنا على راحة نفسيّة. وعند عودتنا كانت الغيوم قد تبددت.

❖ الطّعام الذي حضر

في أحد أيام الأحاد، انطلقت صباحًا باكراً مع الصديق نفسه، لحضور القداس في كنيسة القديس نيقولاوس في كاليسيا، حيث سيقم الأب بورفيروس الخدمة. ولما وصلنا رأينا جمعًا كثيرًا خارج الكنيسة وداخلها، إذّاك أدركنا سهونا الكبير عن جلب الطّعام معنا. لم يكن لدى الدّير إمكانيّة إعداد مائدة لأنّ المنطقة من حوله كانت قفرًا. فقال صديقي إنّنا في هذا اليوم سنشعر فعلاً بما يعني الصّوم الإلزامي. أجبت أنّه الشّيخ بصلاته سيمتّ بنا كما فعل المسيح في القفر^٦ بالخمسة الأرغفة والسّمكتين".

^٦ كتاب أخبار الشيوخ

نظر صديقي إليّ وضحك بسخرية. بعد الظهر، وفور انتهائنا من رؤية الشيخ، سلكنا طريق العودة وكنا نتصوّر جوعاً. فنحن كنّا لا نزال صائمين منذ اليوم السابق، ولا يزال أماننا ساعتان أو ثلاث حتّى نصل إلى منازلنا. ولما اجتزنا الغابة الصّغيرة ووصلنا إلى الفسحة سمعنا صوتاً نعرفه ينادينا. وإذا بأحد أصدقائنا وهو طيب، وكان قد وصل لتودّ مع عائلته لرؤية الشيخ، يفتح صندوق السيّارة، الذي يحتوي على أنواع عديدة من الأطعمة. ويدعونا لمشاركتهم الطّعام. ونحن لم نكن في حاجةٍ ليكرّر الدعوة.

وأذكر أنّي قبل أن أتناول اللّقمة الأولى، رأيت من واجب الاعتراف بالجميل أن أشكر الشيخ في سري. بعدها، رمقت صديقي بنظرة فهم معناها وأطرق برأسه وهو يأكل بشهية. واستطاعت العائلة أن تقابل الشيخ بعد وقت قصير، إذ إنّ الزوّار كانوا قد رحلوا. ولما عادوا صعدنا جميعاً في السيّارة وعدنا إلى أثينا. وهكذا، بصلوات الشيخ السّريّة، أنقذنا من الجوع ومن السّير الطّويل.

❖ السيّارة التي لم تنهوّ

أخبرني أحد أصدقائي وهو ابن روجي للشيخ: "كنت أقود سيّارتي وكان الشيخ بجاني. ووصلنا إلى منطقة جبلية صخرية عبر طريق ضيقٍ ووعر. فجأة، أدركتُ أنّ السيّارة لا تسير على دواليها الأربعة. ألقيت نظرة إلى الجهة الشّمالية فانتابني قشعريرة إذ رأيت هوة عميقة. وكان دولابان أو على الأقل دولاب واحد لا يلامس الطّريق. فصرخت: "إنّنا نهلك أيّها الشيخ". أمّا هو، فأمسكني بيدي، بكلّ هدوء وهو يتمم صلاة، وإذا بالسيّارة تستعيد طريقها الصّحيحة.

❖ الرحلة الموفقة إلى المكان المجهول

أخبرني ضابط في الطيران أنه كان يقلّ الشيخ بسيارته من أجل عمل ما. وكان عليهما أن يزورا أحد الأديرة أولاً، وهما لا يعرفان موقعه بالضبط. ولما وصلا إلى نقطة في الطريق الدوليّة بين أثينا وكورنثوس قال له الشيخ أن يتّجه نحو اليمين، وبإرشاده وصلا أمام الدّير. ولما انتهيا من الزيارة انطلقا إلى كاتب عدل في كورنثوس. وسأل الضّابط الشيخ إن كان يعرف عنوان المكتب، فأجابه بالتّفي. ولما دخلا كورنثوس تابع الضّابط الطّريق بحسب إرشادات الشيخ، "استدر الآن إلى اليمين، ثمّ إلى اليسار". وإذا به يقول: "يبدو لي أنّه يجب أن نتوقّف هنا". وخرج من السيّارة وتطلّع إلى البناية المجاورة فوجد كاتب العدل الذي يبحثان عنه. وبعد أن أنهى الشيخ عمله هناك، سلكا طريق العودة. وعند البرزخ توقفا لتناول الطّعام. فطلب الضّابط وجبة كاملة بينما طلب الشيخ حبة بندورة فقط. وبعد الطّعام تابعا مسيرتهما. وفي لحظة ما، طلب إليه الشيخ أن يتوقّف. فخرجا من السيّارة وجلسا على صخرة تشرف على البحر. عندها، قال له الشيخ: "حان الوقت الآن، كما وعدتك، أن أصغي إلى اعترافك العام عن حياتك. ولكن الأفضل ألاّ تقوله أنت بل أن أقوله أنا لك". وعندها سمع من فم الشيخ كلّ الخطايا التي أراد أن يقولها، وكلّ ما كان قد نسيه، يضاف إليها تلك التي لم يكن يظنّها خطايا. لقد أجرى له الشيخ تنظيفاً عامّاً لنفسه. وأنهى روايته هذه قائلاً: "لن أنسى أبداً هذا الاعتراف".

❖ اللّون الأنسب

كانت إحدى المسؤولات عن مشغل للخياطة تزور الشيخ باستمرار. فأشار عليها باللّون الذي يجب أن تختاره من أجل المعرض الذي ستقيمّه. أمّا

هي فقد ترددت بقبول اللون، على الرغم من أنها هي التي سألته عنه، وأبدت رغبته في لون آخر. عندها، قال لها الشيخ: "ألا ترين، أيتها المباركة، أن هذا اللون وحده يجذب؟" وأخيراً اتبعت إرشاد الشيخ فأحرزت نجاحاً. وذهبت بعد المعرض لتشكره وهي متعجبة من معرفته الشاملة. فرح الشيخ وأضاف: "ولكنك غديت، بالأشغال التي تقومين بها، حبّ المجد الباطل عند النساء بنسبة عالية.

❖ استخراج الحصة من تلقاء ذاتها

زرت صديقاً لي ضابطاً في المستشفى، وهو ابن روجيه للشيخ كان يعاني مشكلة حصى الكلى، ويتوجع كثيراً، فقرّر الأطباء أن يجروا له عملية استئصال الحصى. وكان يتصل بتواتر بالشيخ الذي كان يطمئنه قائلاً: "أرى أن الحصة، على الرغم من أنها كبيرة، ستخرج من تلقاء ذاتها. وأنت ستخلص من العملية". وفي اليوم السابق للعملية، انقسمت الحصة إلى قسمين، وساعد في إخراجهما فيما بعد تناول الأدوية والسوائل الكثيرة.

وكان يقول دائماً لإحداهن وكانت تعاني المشكلة نفسها وتتألم كثيراً: "اصبري، إن الحصة ستخرج وحدها". وفي المرة الأخيرة حين توجعت قال لها: "هذه المرة لن تتخلصي من العملية". وهذا ما حصل بالفعل إذ اضطرّ الأطباء إلى إجراء العملية لها.

❖ معمودية الهواء لرضيع

زار زوجان الشيخ وهما مضطربان. وطلبا إليه أن يصلي من أجل شفاء طفلهما المريض في المستشفى. وقد صلى الشيخ، وفيما هما منصرفان، طلب

منهما العودة وسألتهما أي اسم ينويان إعطاءه لولدهما (في اليونان، لا يعطيان اسمًا للولد إلا عند المعمودية). فذكرا له الاسم. فقال لهما أن يذهبا إلى المستشفى. ولما وصلا كان الطفل قد توفي. وبعد وقت، ذهبا إلى الشيخ منسحقين كي يعبرا عن ألمهما وشكواهما، لأنه أعطاهما أملاً بينما كان الطفل يموت. فأجابهما الشيخ: "لقد علمت بأن الطفل يموت. ولكن لم يكن لائقاً أن أقول لكما ذلك في تلك الساعة. أتعلمان لماذا دعوتكما إلى العودة وسألتكما عن اسم الولد؟ لأنه حالما ذهبتما عمّدت الطفل في الهواء وأعطيته الاسم الذي قَلتَماه لي".

❖ لقد عاد الآن

كان على أحد الذين يتخصّصون في الخارج أن يعود إلى اليونان في نهاية شهر كانون الأول من تلك السنة. وقد أتى على ذكره أصدقاؤه في حديث لهم مع الشيخ في شهر أيلول من العام نفسه. فقال لهم الشيخ بشكل طبيعي جداً: "لقد عاد الآن". تعجّب هؤلاء من قول الشيخ لأنه، بحسب البرنامج، كان من المزمع أن يعود في كانون الأول. ولكن، بسبب فضولهم استعلموا عن الامر، فعرفوا بأنه قد عاد بالفعل قبل الوقت المنتظر.

❖ الشلال الثالث

كان زوجان صديقان للشيخ يكلماناه عن رحلتهما الموقّعة إلى الخارج. أثناء الحديث، أخذت الزوجة تخبره عن زيارتهما لشلالين جميلين جداً. عندها، قال لهما الشيخ إنّ الشلال الثالث كان أجمل بكثير. تعجّب الزوج وقال له إنه

لم يكن هناك شلال ثالث. عندها أوضحت الزوجة لرجلها أنّ الشَّيخ على حق، لأنَّها، عندما كانا هناك، ابتعدت عنه في وقت ما، فشاهدت شلالاً ثالثاً جميلاً جدًّا، ولكنَّها نسيت أن تخبره عنه.

❖ خطوط التوتر العالي

أرادت سيِّدة من معارف الشَّيخ شراء بيت واسع معروض بسعر مغرٍ. ولَمَّا التقت الشَّيخ طلبت بركته من أجل الشَّراء فكشف لها أنّ خطوط التوتر العالي تمرّ من فوق البيت وتؤثّر عليه، وأكّد لها أنّ هذه الخطوط ستسبّب لهم مشاكل صحيّة. وبعد أيّام، سألت السيِّدة أحد الاختصاصيين فكان جوابه ما سمعته من الشَّيخ تمامًا.

❖ بالأمس رأيت في فكرك

اتصل بي أحد الأصدقاء، وأعلمني بأنّ الشَّيخ يريد أن يتصل بي، لأنّه "رأى في فكري" شيئاً أقلقّه. زرته على عجل، فقال لي: "رأيت بالأمس أنّ فكرك مشغول بذلك الموضوع الذي اتَّفَقنا ألاّ تفكر به أبداً لأنّه يسبّب لك أذىً روحيّ. لهذا قلقْتُ وطلبتُ من صديقك أن يعلمك، لكي انبَهِك إلى هذا الأمر. انزع، يا بنيّ. هذا الموضوع من فكرك، ولا تتعبَ عبثاً". بقيت مذهولاً هذه المرّة أيضاً. فما قاله لي كان الحقيقة عينها. لقد فهمتُ خطئي وشكرته. فأعطاني إرشادات إضافية في كيفيّة مقاومة التَّجارب بطريقة أكثر نجاحاً. وكان واضحاً أنّ الشَّيخ يعمل كتلفاز فائق الحساسيّة، يلتقط لا الصور الطبيعيّة فحسب، بل الرّوحية أيضاً.

❖ جواب على فكر

كنت أفكر في طلب بركة الشيخ قبل أن أعطي رقم هاتفه لأشخاص طلبوه مني. وكان أول ما عمله، فور دخولي قلايته، هو سحب غطاء السرير ليظهر الهاتف تحته. لقد أعطاني الشيخ الجواب قبل أن أسأله. غالبًا ما كان الشيخ يجاوب بطريقة رمزية أو تصويرية. وإني أشعر بالأسف لأنني لم أملك الاستعداد الروحي الكافي لإدراك الكثير من هذه الاجوبة.

❖ قياس عن بعد

كنت في قلاية الشيخ مع عائلة صديقة تريد أن تستأجر منزلًا في ضواحي أثينا. وعلى الرغم من أن الشيخ لم يكن قد مرّ من هناك قطّ، "رأى" مكان وجود البيت، ونصحهم بعدم استئجاره. لأنه يبعد أقلّ من مئة متر عن تلوث هواء الطريق الرئيسي. إلا أنهم اعترضوا وقالوا له إنّ البيت يبعد أكثر من مئتي متر. فأجابهم الشيخ: "لا تقيسوا استدارة الطريق لتعرفوا بُعد البيت عن الطريق الرئيسي. احسبوا المسافة من الطريق الرئيسي إلى البيت عبر رسم خطّ مستقيم، لأنّ الهواء الملوّث لا يدور مع الطريق بل يأتي مباشرة إلى البيت. وبالإضافة إلى ذلك هناك التلوّث الآتي من الطريق الفرعيّ لأنه بقرب البيت يمرّ طريق من هنا، وطريق آخر من هناك". وكان يشير بيديه وهو يقول هذا. كان وصفه للبيت وللطرق كاملاً، وكأنّه كان موجودًا هناك ويرى.

❖ عندما ينصب لك الشيطان طوقاً...

لقد كشف الشيخ سريرة أحد أصدقائي. "رأى" نفسه، كما نرى وجه انسان. قال له: "عندما ينصب لك الشيطان طوقاً ويضغط عليك، لا تبقى بلا حراك، كما يفعل البعض. فإنهم يكتئبون ويبقون ساعات متفكرين، وكأنّ مشاكل مهمّة تشغلهم، مع أنّه فعلياً لا وجود لهذه المشاكل. ولكنّ ما حدث هو أنّ الشيطان قد سمّهم فقط. ليكن عندك استعداد لأنّ تتصدى، لأنّ تقاوم، لأنّ تدفع عنك حصار الشيطان، كما يفعل الإنسان الذي إذا قبض عليه الأشرار وثبّته، ينتفض دافعاً بيديه، فيرمي بهم هنا وهناك، متخلصاً من قبضتهم ومتّجهاً إلى مكان آخر، إلى المسيح الذي يحرّره". بعدها، صمت الشيخ مصلياً، ولما نهض الزائر ليرحل، قال له: "الآن قد رأيت نفسك بوضوح. لديك مصاعب نفسية غالباً ما تسمّرك، ولكنّ نعمة المسيح توافي وتحزّرك". بقي صديقي مندهلاً. قال لي إنّه ما من أحد يستطيع أن يصف بدقة حالة نفسه كما فعل الشيخ.

❖ قفل الباب الذي اخل

في إحدى زياراتي أخبرني الشيخ: "كنت في اسقيطناً^٧ في الجبل المقدّس. وفي أحد الأيام، تعرّض تلاميذي الرهبان للتوتّر، بسبب تصلّب قفل أحد الأبواب وعدم استطاعتهم فتحه. قاموا بمحاولات عديدة: ضربوه، شدّوه، وكانوا يغضبون لأنّ كلّ محاولاتهم باءت بالفشل، إذ بقي لسان القفل عالقاً. عندها، نهضتُ وطلبتُ منهم أن يدعوه لي. أمعنتُ النّظر فيه، وعملتُ حركة بسيطة فسحبته. نظر إليّ الرهبان بإعجاب. قلت لهم: "لماذا تنظرون إليّ هكذا أيّها

^٧ الإسقيط هو مجموعة قلاوي

المباركون؟ لم أقم بشيء مهم. لقد قمت بحركة واحدة. ولكّني قمت بها وأنا أصليّ ومهدوء. أمّا أنتم لكونكم متوترين، ما كان في وسعكم حلّ القفل ولو بقيتم تحاولون حتّى الغد. عندما تضطرب النّفس يُظلم العقل ولا يرى بوضوح. عندما تكون النّفس هادئة يستنير العقل فيرى بوضوح علّة كلّ شيء".

كم يعلّمنا هذا الحدث ويساعدنا في علاقاتنا اليوميّة مع الأشخاص والأشياء. كم يمكن لهدوء النّفس أن يساعدنا، ونحن لا نحصل عليه، لا بإرشادات علم النّفس ولا بالأدوية المسكّنة، بل بالقداسة.

❖ الصّلاة التي تهدئ المريض النّفسيّ

قالت لي إحدى بنات الشّيخ الرّوحانيّات: "أنّي أعمل ممرضة في أحد المصحّات النّفسيّة، ولقد تعرّضت هناك لمصاعب جمّة تجاوزتها بالصّلاة. ذات يوم، مررت بتجربة كبيرة. فقد تعرّض أحد المرضى لأزمة، فتناول قطعة زجاج مكسورة وأراد أن يضربني بها. خفتُ كثيرًا وبدأت الصّلاة للحال: ربّي يسوع المسيح بصلاة الشّيخ بورفيرْيوس ارحمني! وبحركة فجائية أفلتُ من ضربته، وكلمته بودّ. أمّا هو فأخذ يهدأ رويدًا رويدًا إلى أن أخذتُ قطعة الزجاج من يده. وعندما زرتُ الشّيخ بادرني قائلاً: "لقد رأيتك وأنت تتعرّضين لهذا الرّعب مع ذلك المريض. ولكنّ المسيح نجّاك من ضربته".

❖ في خصوص أحد الآباء الرّوحانيّين

قبل أن أتعرف إلى الأب بورفيرْيوس ببضعة أشهر، كنت في حاجة روحيّة كبيرة؛ أخبرني أحد أصدقائي عن شيخ آثوسيّ يقال إنّ لديه موهبة الرّؤيا، زرته من دون بركة أبي الرّوحيّ. ولكنّ ذاك الشّيخ عوض أن يريحني

نفسياً زادني اضطراباً، ولما أخبرت أبي الرّوحى قال لي: "لو أعلمتني لما كنت منحتك البركة لتذهب إلى هذا الشّخص." ولما حان ملء الزّمان، وبدخل من أبي الرّوحى، تعرّفت إلى الأب بورفيرىوس الّذي أراحني تماماً. وقد ذكرْتُ له مقابلي مع ذلك الشّيخ الآثوسى. كان الأب بورفيرىوس يعرفه فقال لي ببعض التحفّظ: "لقد أراحه الله الآن. هذا الموضوع دقيق. لم يكن هذا المبارك موفّقاً في إرشاده. لقد قال لأحدهم إنّه سيصبح مطراناً، وهو الآن يريد خلع الجبّة. فليسامحه الله."

من هذا الحادث فهمت، بشكل أفضل، أنّ الله لا يظلمنا البتة، بل يرسل لنا الشّيخ الّذي نحتاج إليه. من بالتحديد، كيف ومتى، هذا ما نجهله ولكنّه معلوم لدى محبّته الكلّية القدرة والحكمة. في أيّ حال، منذ أوّل تواصل بيني وبين الأب بورفيرىوس، شعرت بأنّه يفهمني ويساعدني، وهذا من دون أن أعتمد على المعرفة المتأّتية من معلومات الحواس الّتي غالباً ما تخدعنا، أمّا النّفس فنادرًا ما تخدعنا لأنّ النّفس النقية لديها "حواسّها" الخاصّة "ومعرفتها" الخاصّة الّتي في المسيح.

❖ نزهة لا تُنسى

في أحد لقاءاتي مع الأب بورفيرىوس في قلايته، قلتُ له إنّني أرتاح داخلياً كثيراً عندما أتكلّم معه أو أقرأ كتباً أبائيّة. قال لي: "اقرأ كتباً أبائيّة، خذها معك واذهب خارج أثينا، بعيداً عن الجو الملوّث، الّذي يضرّ بصحتك. هيّا، إذهب الآن ببركة الله. إنّما لا تذهب حالاً إلى أثينا. تمشّ في الغابة لتنشّق الهواء." قبلْتُ يده وانصرفت. سلكْتُ ممراً وتوغّلت في الغابة. سرْتُ حوالي السّاعة تقريباً متأمّلاً ومصلّياً، وفي نهاية نزهتي رأيت الشّيخ يظهر أمامي فجأة في الممرّ المقابل. كان سروري عظيماً بذلك اللّقاء غير المتوقّع. كيف وجدني داخل الغابة؟ ولما اقترب متّى، قال لي وهو يبتسم تلك الابتسامة المتواضعة و الجلييلة في أنّ

معًا: "أرى أنك أخذت كفايتك من الهواء النقي. هيّا الآن ننزّه معًا ونتحدّث عن الآباء القديسين". وكانت لي نزهة لا تُنسى في الغابة مع الشيخ كرفيق درب ومُحدّث، وقد كشف لي، على قدر استيعابي، أسرار الحكمة الأبائية وكيفية تطبيقها على حاجات عصرنا.

❖ حان الوقت لتترك الكتب ذات الطابع الأبائي وتبدأ بكتب الآباء

بما أنّ مطالعة الكتب ذات الطابع الأبائي تعجّبي، فقد كرّست وقتًا طويلًا لها، مؤجّلاً قراءة الأبائيات. فهم الشيخ الأمر من دون أن أقوله له. وفي أحد أحاديثنا، قال لي فجأة: "حان الوقت لأن تترك الكتب ذات الطابع الأبائي وتبدأ بقراءة الأبائيات بتواتر. ولكن، لا تظنّ أنّ قراءة الأبائيات وحدها تكفيك، إذ يجب أن يكون لك مرشد روحي في مطالعتك كي لا تضلّ". ولما بدأتُ بالقراءة، ورأيتُ ضخامة الكتب سألته: "متى سأتمكّن أيها الشيخ من قراءتها كلّها؟" أجابني: "لا تستعجل، اقرأها رويدًا رويدًا وأنت تصلّي، ودون ملاحظات وتعالٍ اقرأها لي كي نناقشها معًا. أتعلم أنّ الأبائيات تريحني كثيرًا، بينما ما أسمعته من أمور أخرى، المسائل العالمية والمشاكل والأحزان، يتعبني.

❖ أرى داخل نفسه

كان الشيخ يرى داخل النّفس البشريّة بمقدار ما يكشف له الله. قال لي عن أحد معارفي: "أرى في نفسه شيئًا سيئًا وغير واضح تمامًا؛ إنّه جرح قديم وشيطانيّ. لا أعرف ما هو بالضبط. يمكن أن يظهره الله لي فيما بعد". وبعد أسابيع قال: "إنّ هذا السيّء السيّء الذي رأيته في نفسه يمكن أن يزول، ولكن،

فقط إن هو تقدّس. بالقداسة يتغيّر الإنسان مهما كان خاطئاً، وتزول الجراح النفسية. إنّ الأطباء اليوم يدعونها أمراضاً نفسية، فيما هي في الواقع تأثير شيطانيّ سببه الخطايا".

❖ ستنجب أولاداً

قال لي الشّيح عن أحد معارفي، وقد تزوّج في سنّ متقدمة من امرأة شابة: "إنّ امرأته شابة، وستنجب أولاداً". بعد ذلك صار عنده ولد واكتفى به. وقلق أبوه الرّوحيّ ونصحه بالأّ يصرّ على الاكتفاء بولد واحد، بل أن ينجب أولاداً آخرين. أمّا أنا فطمأنت الأب الرّوحيّ قائلاً له إنّه من المستحيل أن يكتفي بولد واحد. فسألني: وأنت كيف تعلم هذا؟ أجبت: لم يقل الأب بورفيرْيوس إنّ امرأته ستنجب ولداً، بل أولاداً. ما يدلّ على أنّها ستنجب اثنين على الأقل. وبالواقع، بعد ثلاث سنين انجبا ولداً ثانياً. والله والشّيح يعلمان ما إذا كانا سينجبان أولاداً آخرين.

❖ مشاكل الأولاد

سألت الشّيح أمّ تعاني مشاكل صعبة مع أولادها: "أيّها الشّيح، هل وُلد أولادي هكذا أو أنّ مشاكلهم هي بسبب أخطائنا؟" أجابها: "إنّها بسبب أخطائكم. ويؤثّر فيهم أيضاً أصدقاؤهم الذين يعيشون في الخطيئة ويفترون على المسيح".

❖ كيف اقتنع الصياد الملشك

التقى صيادان الشَّيخ في الغابة وأخذا يتَّهَّمان الرَّهبان بأنَّهم لا يعملون شيئاً من أجل الآخرين. أجابه الشَّيخ بأنَّهم يصلُّون، وبذلك يساعدهم الله على معرفة ذواتهم والآخرين فيتمكَّنوا من مساعدتهم في حلِّ مشاكلهم. فجادله الصَّيَّادان. عندها، نادى الشَّيخ أحدهما باسمه وكشف له أنَّه عاد حديثاً من أميركا حيث أجريت له جراحة خطيرة وذكر له تفاصيل تتعلق بالعملية. فاضطرَّ هذا الأخير، وقد انكشف أمره، أن يعترف أمام صديقه المندesh بأنَّ ما قاله الشَّيخ حقيقي. ومنذ ذلك الحين أصبح الصَّيَّادان صديقين له.

❖ إرشادات لطريق مجهول

لما احتاج الدَّير إلى حجارة قرميد، طلب الشَّيخ من أحد أبنائه الرُّوحانيين أن يذهب بسيَّارته إلى معمل معيَّن في المنطقة لطلبها. وكان يجهل المكان. ومع أنَّ الشَّيخ لم يكن يعرف المكان أيضاً، فقد وصف له خط السَّير بدقة، حتَّى أنَّه وجدد بكلِّ سهولة.

❖ اقتراحات لدرس مواضيع الامتحانات

نصح الشَّيخ ابنه رُوحية فتية أن تدرس كثيراً لكون الامتحانات الرِّسميّة تبدأ خلال أيَّام. فأجابته تلك بأنَّ الأوان قد فات ولن تستطيع أن تغطِّي الدروس الناقصة. فقال لها الشَّيخ إنَّ الأوان لم يفت بعد وأورد لها بعض الفصول لتدرسها. لم تبال الشَّابة بالأمر. كما قالت لنا، ولكمَّا اشتركت في الامتحان متَّكِّلة على المعلومات العامَّة التي كانت قد أحرزتها في المدرسة الثانوية.

وأردفت أنه لدهشها كانت المواضع التي أعطيت لهم هي تلك التي قالها لها الشيخ، ولكنها لم تصدّقه، فلم تدرسها، وطبعًا لم تُوفّق.

❖ اقتراحات الشيخ الأعمى لتحسين الأيقونة

رسمت له إحدى بناته الرّوحانيّات أيقونة تلبية لطلبه، ثمّ أحضرتها له. وقد رسمتها بحسب إرشادات الشيخ الذي كان قد خسر بصره. فوجد العمل جيّدًا وأشار إلى النّقاط التي كان من الممكن أن تُرسم بشكل أفضل.

❖ إنّ الله يرى بخط مقوّس

قال الشيخ: "إنّ الإنسان يرى بخط مستقيم، بينما الله يرى هكذا بخط مقوّس". قال هذا معبرًا عنه بحركات يديه، كما لو أنّ المرء يستطيع أن يرى الجهة غير المرئية من القمر. من الواضح أنّ الشيخ كان يرى، نسبيًا، بخط مقوّس.

❖ تحذير: الشيطان بالمرصاد

قبل أشهر قليلة من رقاذه، ذهب الشيخ إلى الجبل المقدّس. كانت الأعمال في بناء كنيسة الدّير في أوّجها، وقد برزت مشاكل وصعوبات غير منتظرة غالبًا ما أربكت العمّال. ولما "رأى" الشيخ من "الجبل المقدّس" ما يحدث في الواقع، اتّصل هاتفياً بابنه الرّوحيّ المسؤول عن العمّال، ليقول له: "انتهوا لأنّي أرى الشيطان في المرصاد يُحدث مشاكل كي يعرقل العمل". ولما أتيت إلى الدّير

وعلمت بهذا الأمر، تعجبت من موهبة الرؤيا عند الشيخ، وتساءلت ما عسى أن تكون المشاكل التي يحدثها الشيطان. وما كدت أنتهي من تفكيري حتى سمعت أصواتاً عالية ومشاجرات بين العمال. سألت ماذا يجري، فأعلمت بأنه بسبب إهمال أحد العمال، كاد المبنى ينهار. وقد استدرك مراقب العمال الكارثة في اللحظة الأخيرة، بينما المراقب الأعلى عن العمل كان يتابعه من "الجبل المقدس" ساهراً، وهو مستعد للتدخل بصلواته كي يعرقل كل محاولة مأكرة للشيطان واضع الكمائن.

❖ الممسوس من الشيطان الذي افترى على الشيخ

وصل إلى كاليسيا زائر مضطرب يرافقه أقرباؤه، يبتغون زيارة الشيخ. فور دخوله قلايته رأى الشيخ بوضوح الشيطان داخل نفس الزائر المضطرب. فبدأ يصلي بحرارة، وكان يؤخر الزائر حتى يخرج الشيطان، ولكنه لم يخرج. قال أقرباؤه إنه لا يستحق أن يهتم به كثيراً، لأنه ليس في كامل قواه العقلية، فهو مريض نفسياً. لكن الشيخ أكد لهم أن هذا ليس مرضاً نفسياً. رحل الزوار، وبعد مدة، لما عرضوا على قريتهم هذا زيارة الشيخ مرة ثانية، قال لهم: "إني أقبل الذهاب إلى كهنة آخرين للاعتراف، ولكن ليس إلى الأب بورفيروس، لأنه ساحر". ويُذكرنا هذا التّعبس بالفريسيين الذين قالوا للمسيح: "بك شيطان" و"برئيس الشياطين تخرج الشياطين". هكذا يفعل الممسوسون بالأرواح. فهم يتهجّمون على المسيح والقديسين.

❖ أنا مسيحي أرثوذكسي

قال لي الشيخ: "جاءني يوماً أحدهم وقال لي: سمعت عنك أنك منجم، ساحر، غورو (غورو = ناسك هندوسي. معلّم روحيّ هندوسي)". أما أنا فأجبتة:

"ما الذي تقوله أيها المبارك؟ أنا مسيحي أرثوذكسي، ولست مثل هؤلاء الذين تذكّركم، بل أنا أحاربهم".

❖ الشيخ يعثر على المياه

كان الشيخ، بالنسبة إلى كثيرين ممن يعرفونه قليلاً، "الراهب الذي يجد المياه". ولكن ما الذي لم يجده أو يكشفه الشيخ بنعمة المسيح؟ في أيّ حال، فهو قد دلّ بدقة على مكان آبار ومجاري مياه تحت الأرض. كان يحدّد مكانها لا بانتقاله مكانياً إليها فحسب، بل أيضاً من بعيد بانتقاله روحياً إلى "تحت الأرض".

مرة أخرى، رأى بالروح أيضاً "ما تحت البحار"، أعماقها، حيث لاحظ كنزاً غارقاً عندما مرّت فوقه سفينة، وفي اللحظة ذاتها التي كان يتحدث فيها أحد أصحابي مع الميكانيكي هاتفيّاً بحضور الشيخ، ولكنه لم يعرِ الحدث أي اهتمام.

❖ لا يستخدم الشيخ اموهبة لفائدته الخاصة

لم يكن الشيخ يستخدم موهبته المذهلة كمتبصّر وراء لفائدة ماديّة من أجل كسب الثروة، أو للتأثير من أجل كسب المجد. كان يفضل، كما كلّ قديسي كنيستنا، أن يبقى ناسكاً فقيراً وخفياً. والبرهان أنّه أمضى كلّ حياته عديم القنية. ولعشرات السنين كان مجرد كاهن كنيسة في وسط أثينا، وقليلون كانوا يعرفونه، لأنّه كان يتجنّب إظهار ذاته. لم يسمي استعمال موهبته، بل استعمالها من أجل فائدة الناس الروحية "ومجد الله".

❖ التكلّم بلغات مع فرنسيّة بلا مترجم

زارته يومًا فتاة فرنسيّة، بقيت وقتًا لا يستهان به في قلايته، ولما خرجت كانت تشعّ فرحًا. فهي لم تكن تعرف أيّ كلمة يونانيّة، والشيخ لا يعرف أيّ كلمة فرنسيّة. فبأيّة لغة تفاهما؟ ربّما باللّغة الكونيّة، لغة المحبّة الّتي كان الشيخ يتقنها جيّدًا. ومن المحتمل أن تكون شبيهة باللّغة الّتي سيتكلّم بها النّاس في الفردوس.

الملحق الثاني للناس

❖ الفتاة الفرنسية

يبدو أنّ ما حدث مع الفتاة الفرنسية لا يصدّق، لكنّه حقيقيّ. فهذه الفتاة الفرنسية على قيد الحياة وهي الآن راهبة أرثوذكسيّة. وقد التقينا السيّدتين اللّتين كانتا في قلاليّة الشّيخ بورفيريوس في تلك السّاعة، وطلبنا منهما أن تخبرانا عمّا حدث بالضبط.

لقد وصفت لنا السيّدة تاسولا أ. ذلك كتابة كما يلي:

ذات يوم أخذتني صديقتي إيلاني د. إلى الشّيخ. وكالعادة كان عنده أناس كثيرون. دخلت تلك إلى الشّيخ وقالت له: هناك فتاة فرنسيّة في الخارج أحضرتها إحدى السيّدات وهما تريدان أن تقبّلا يدك. قال: دعوهما تدخلان. فدخلتا، وكانت صديقتي لا تزال واقفة عنده. سألت الشّيخ، هل تعرف إحداكن الفرنسيّة كي نتكلّم؟ فقالت له صديقتي: نعم، أيّها الشّيخ، هناك تاسولا في الخارج (أي أنا) فنادوني. ولما دخلتُ قال لي الشّيخ: أسألها ماذا تشتغل، وهل هي متزوّجة؟ سألتها فأجابتن: لست متزوّجة وأنا أستاذة في الأدب وأخذت تبكي. أسألها: هل تؤمن بالله. فأجابت وهي تبكي وتتنهد: لا! أنا عدميّة (العدميّون يشكّكون بشكل أقصى ويدّعون أن لا شيء له وجود حقيقيّ)، كل شيء عدم بالنسبة إليّ. وانحنت على ركبتي الشّيخ. عندها قال لي الشّيخ: اخرجي. فخرجت أنا والسيّدة الّتي كانت ترافقها. فيما بقيت صديقتي إيلاني في الداخل. وأخبرتُ كيف أنّ الشّيخ أمسك رأسها بشدة وقال لها بعد قليل: هل تعيشين مع والدتك؟ أو مع شخص آخر؟ فأخذت تبكي!

قال لها الشّيخ: "إنّك ذات نفس نبيلة!" وأشياء أخرى لم تسمعها صديقتي. لكنّها كانت ترى الشّيخ يتكلّم وتلك تفهم تمامًا. إذّاك، استدار الشّيخ وقال لصديقتي اخرجي أنت أيضًا. عندها استدارت صديقتي ببساطة وقالت

للشيخ: أحضر من جديد السيّد التي تتكلّم الفرنسيّة؟ فقال لها بصوت عالٍ: قلت لك ن تخرجي! وبقي الشيخ مع الفتاة الفرنسيّة وقتًا طويلاً. ولما خرجت الفتاة وهي مندهشة تقدّمت نحوي وقالت لي: من أخبرك بأنّ الشيخ لا يعرف الفرنسيّة؟ فأجبتها وأنا متحيّرة: نعم! لا يعرف! وإذ كانت متأثّرة قالت لي: إنّهُ أمر غير معقول. أنا سأعود عن قريب!!!

وروت لنا السيّد إيلاني د. شفهيّاً الآتي، بحسب حديثنا المسجل.

- ماذا تتذكّرين بشأن الفتاة الفرنسيّة؟

- آه، هذه... ألم تكتب تاسولا هذا؟

- كتبته باليد، ولكنّه غير كامل... عندما تكتب باليد تقول القليل..."

- دخلت وقلت للشيخ: "في الخارج فتاة يقولون إنّها فرنسيّة. أحضرتها

إحدى السيّدات كي تقبل يدك". - "وقد تركتها حتّى الآن في الخارج؟ قولي لها أن

تدخل...". - كيف ستحدّثان أمّها الشيخ؟" - "قولي لها أن تدخل..."

خرجت وسألْتُ أين الفتاة الفرنسيّة. لقد جاءت بصحبة سيّد ترتدي

ثياباً سوداء، وهذه أيضاً كانت فتاة لطيفة. لم يكن يزيد سنّها عن الخامسة

والعشرين، وربّما أقلّ. فقلت حالاً، أنا الذكيّة...: "تاسولا، هيّا أنت أيضاً

لتترجمي للشيخ..."

- هل تعرف تاسولا الفرنسيّة؟

- طبعاً. وقد دخلت هي أيضاً. قال الشيخ: "قولي لها أن تخبرني ما

اسمها..." فقالت الفتاة اسمها، وترجمته تاسولا.

- لماذا أتيت إلى هنا؟

- للسيّاحة.

- ما هي مهنتها؟

- "إنّها أستاذة". قالت تلك. وكانت الفتاة تسمع المترجمة... وسأل:

"هل عندها أهل..." قالت إنّ عندها أم... - هل تعيش مع أمّها؟"

أمّا هي فتردّدت بالإجابة... هل قالت نعم أم لا لم أعد أذكر، أنا لم

أفهم لأنّها أجابت بالفرنسيّة. عندها قال الشيخ لتاسولا: "هيّا

- اخرجني ... " فقلت له "كيف ستحدّث الفتاة أيّها الشّيخ؟ فلتبقّ تاسولا هنا". وأصرّ الشّيخ على تاسولا: "انصرفي..." ولكنّه لم يطلب إليّ أن أخرج، فجلست هناك... وكانت الفتاة تنتظر، فقال لتاسولا قبل ان تنصرف: "قولي لها أن تقبل يدي". فانحنّت الفتاة وقبّلت يده... بينما نحن بالكاد نستطيع أن نقبل يده... ولكن الشّيخ أراد أن يبقّيها بالقرب منه، عندها أمسك رأسها بيديه، فتأثّرت الفتاة، وبدأ الشّيخ يحدثها: أتيت إلى هنا مع والدتك...
- هل كان يتكلّم باليونانيّة؟
 - بالطبع كان يتكلّم باليونانيّة...
 - كيف؟
 - لأنّها قالت بوساطة تاسولا إنّها ملحدة. "آه، تظنّين أنّك ملحدة، نفسك نبيلة جدًّا، طيبة جدًّا، ماذا تعلّمين الأولاد؟" فتجيب الفتاة الفرنسيّة... ماذا أجابت؟ لست أدري.
 - أجابت بالفرنسيّة؟
 - طبعًا بالتأكيد.
 - والشّيخ كان يتكلّم باليونانيّة؟
 - باليونانيّة. وتلك كانت تتكلّم الفرنسيّة...
 - وقد انصرفت تاسولا التي تعرف الفرنسيّة وبقيت أنت؟
 - أنا التي لم تكن تفهم شيئًا. وقال لها: "يجب ألاّ تقولي هذا للأولاد..." (من كلمات الشّيخ فهمت ماذا أجابت...) "أيّتها المسكينه، يجب ألاّ تعيشي منفصلة عن والدتك. هل أنت متزوّجة؟" لست أعلم ماذا أجابت. "إن شاء الله، فهو سينيرك". ولسن أذكر أنّه قال شيئًا آخر. وبعد أن رأيته هذا قال لي: "انصرفي..." وكانت الفتاة راكعة عند قدميه ويداه على رأسها.
 - هل كان يمسك رأسها بيديه. كما كان يفعل مرّات كثيرة؟

- نعم هكذا. كما كان يمسكنا مرّات كثيرة. وآخرون كان يصفعهم وآخرون كان يمسكهم فقط. وفي لحظة نزع يديه عن رأسها وكان يتكلّم باليونانية مع الفتاة الفرنسيّة. فقلت له: "أيّها الشّيخ، ماذا تفهم الفتاة؟" أجاب: "هيّا، انصرفي". وانصرفت إلى الخارج. ولما خرجت الفتاة الفرنسيّة كانت متأثّرة جدًّا وقالت: "قال لي كلّ شيء، قال لي كلّ شيء..."

- ولم نفهم في تلك اللّحظة ما يجري، لا أنا ولا تاسولا. وكنت أخطب ذاتي: "كيف قال لها كلّ شيء؟" إنّ الشّيخ كان يتكلّم اليونانية، أنا سمعت اليونانية...

- نعم؟

- ولما رحلت الفتاة الفرنسيّة، رحلت متأثّرة جدًّا لا بما جرى فحسب، لأنّها كانت تؤمن بأنّه يتكلّم الفرنسيّة، بل تأثّرت أيضًا بما قاله لها، وأنا لم أسمع ما قاله فيما بعد، ما قاله لها تمامًا ... ناداني الشّيخ، فدخلت. قال لي: "أفهمت هذا؟" - "أيّها الشّيخ، ماذا كان يجري؟ كنت تتكلّم باليونانية وتلك تفهم بالفرنسيّة، وهي كانت تكلمك بالفرنسيّة وأنت تفهم باليونانية...؟" - "قد فهمت هذا...؟ هيّا انصرفي... هيّا انصرفي..."

وبعد ذلك، أخبرت بما حدث بشكل طبيعيّ مرّات عديدة. وكانوا يضحكون عليّ، يسخرون مني، يتضحكون فيما بينهم، ثمّ يسمعونني. إلى أن أتى يوم روى الشّيخ نفسه الحدث إلى رئيسة دير "القديس يوحنا ماكريнос". وأعطاهما رقم هاتفني لتطلبني من الدّير كي أروي لها أنا أيضًا ما سمعته وما رأيته. سمعت باندهال كبير كلّ ما أخبرتها به. أفهمتهم؟

الآن بإمكانكم أن تفهموا ما كان ممكنًا أن أشعر به! وكيف شعرت. أجل، قلت لها إنّّه كان يكلمها باليونانية... قال لها كذا وكذا... كان يكلمها باليونانية وكانت الفتاة تفهم... وكانت تجيب بالفرنسيّة، إلا أنّي لا أعرف بما أجابت باللّغة الفرنسيّة. عرفت بداية الحديث، إذ سبقوا وقالوا إنّها أستاذة وقد أتت

للسياحة، وإثما ملحدة. هذا ما قالتها السيّدّة التي اصطحبته، وأنا قلت هذا في الحال للشيخ... هذا كنت أعرفه، لكنّ الشيخ كان يكلمها وأنا كنت أسمع أسئلته وأجوبته التي كانت مختلفة تماماً عمّا انتظرت بالاستناد إلى ما أعرفه. ولكنّه كان يسألها... يسألها عن حياتها... إذا كانت تعيش وحدها، إذا كانت متزوجة، لم أفهم ماذا أجابته الفتاة، أفهمون؟ أما هي ففهمت ما قيل بينهما وبقيت مندهشة تماماً.

وقد قال لي الشيخ: "لقد فهمت الأمر؟ إذا، تكلمي عليه". هذا بالنسبة إلى الصبيّة الفرنسيّة.

بشأن رئيسة الدّير

❖ سبب إعلان الحدث

ولأنّ يجب أن نجيب عن تساؤل مفيد: لماذا روى الشيخ ذلك الحادث لرئيسة الدّير تلك؟ هل من أجل التّفاخر؟ طبعاً لا. السّبب روحيّ عميق جدّاً. كان الشيخ يحبّ أولاده الرّوحيين كثيرًا، ويودّ أن يفرّحهم بأن يروي لهم أفعال النّعمة الإلهيّة العجيبة. وفي أحيان كثيرة كان يورد أقوال القديس اسحق السّريانيّ المتعلّقة بهذا الشّأن: "لقد أصبحت جاهلاً يا أحبائي ولا أستطيع حفظ السّرّ مكتومًا. وها إنّني أفقد صوابي من أجل إفادة الإخوة" (مقالة ٣٨). إذا، من أجل هذا، اتّصل بالأُمّ الرّئيسة مكرينا، كما أكّدت لنا هي نفسها، وهو ممتلئ سرورًا وغبطة، لأنّ نعمة الله تشفي السقماء وتكمل الناقصين، وهي قادرة على كلّ شيء، حتّى أن تتكلّم الفرنسيّة أيضًا بوساطته هو المتواضع وغير المتعلّم أو ربّما أنّ تترجم بصمت الكلام اليونانيّ إلى كلام فرنسيّ. فهذا كان ضروريًا لخلاص تلك النّفس التي قطعت كلّ هذه المسافة بحثًا عن الحقيقة.

❖ رواية رئيسة الدير

في ٢٨ - ٩ - ١٩٩٤ كتبت لنا رئيسة الدير التالي: "في ما يختصّ بشهادة السيّدة أ. د. التي أرسلتموها إليّ، أكتب لكم شهادتي الشخصيّة عمّا جرى مع الفتاة الفرنسيّة آنا. إنّ الشّيخ بورفيرْيوس بعد هذا الحادث اتّصل بي هاتفياً وهو سعيد جدّاً وروى لي كلّ ما جرى معه ومع الشّابّة الفرنسيّة وهو يبكي من الفرح. قال لي إنّها كشفت له أنّها أستاذة تاريخ في الجامعة، وأنّها ملحدة، وأنّها تؤكّد أنّ الله غير موجود. عندها قال لها الشّيخ: "في أيّة جامعة تعلّمت هذا". بعد ذلك صرف السيّدة تاسولا وبقيا وحدهما. وبقيا صامتتين قليلاً. كان الشّيخ يصليّ من أجلها، ولما حصل على وحي إلهيّ قال لها وهو يبكي: "آنولا إنّ الله يحبّك، إنّ الله سيتكلّم معك في قلبك". وفي الحال تغيّرت آنولا. وإذا كان الشّيخ يبكي بتأثّر شديد وهو يروي هذا، لم يستطع أن يكمل لي الخبر، وقال لي أنّ اتّصل بالسيّدة أ. د. كي تقول لي ماذا جرى مع الفتاة الفرنسيّة وانطباعاتها عن الشّيخ.

كانت عجائب الشّيخ بورفيرْيوس كثيرة معنا حتّى أنّه لم يبدُ لي أنّ شيئاً مما يحدث بوساطة أبينا الشّيخ المتوسّح بالروح غير قابل للتّصديق. وببساطة اعتاد الشّيخ بورفيرْيوس على أن الاتّصال بي كي يروي لي أحداثاً مماثلة، وخصوصاً عندما يكون سعيداً جدّاً أو حزيناً في شكل أساسي بشأن الشّباب.

❖ خبرات أخرى للأمّ الرّئيسة

بالمناسبة نورد رسالة أرسلتها لنا الأمّ الرّئيسة مكريناً فيها حدثان عجيبان. وهذا نصّ الرّسالة:

وحدهم القديّسون يجب أن يتكلّموا على القديّسين، لأنّهم وحدهم يدركون خبراتهم المعاشة غير العاديّة وأعمالهم الإلهيّة، أولئك الذين "امتلاؤا إلى

كلّ ملء الله" (افسس ٣ : ١٩). وكان الأب بورفيرْيوس ممتلئاً بالحقيقة إلى ملء الله. ونحن كنّا نستوعب القليل القليل مما كان يحدث من الأمور المدهشة في كلّ اتّصال لنا معه.

من المعروف عند الجميع أنّ الشَّيخ المغبوط بورفيرْيوس كان لديه تلفاز روحيّ لاسلكي، وبوساطته كان يتابع كلّ أولاده الرّوحيّين وكلّ أحبّائه. لقد اجتازت محبّته الجبال والبحار، ومتى شاء وحد في وسطنا بالروح. في أوقات حياتنا الصّعبة والعصيبة غالباً ما كان يتدخّل عبر الهاتف، وإذا كان يعرف كلّ حاجة وصعوبة ويعرف أيضاً الفرح والبركات الرّوحيّة، كان يعطينا حلولاً للمشاكل أو يشدّدنا أو يشاركنا في فرحنا. إنّ تدخّله غير المتوقّع هذا كان يترك في نفوسنا الدّهشة والفرح والتّعزية. وحتّى أفكارنا كان يعرفها من بعيد.

أ - في العام ١٩٨٦، مررت بوعكة صحيّة، وقد أخذ الشَّيخ بورفيرْيوس على نفسه معالجي من بعيد! وبدأتُ أتعافى، وكان الشَّيخ يسهر عليّ من بعيد، وينصحني باستمرار بالانتباه وعدم تعريض نفسي للخطر.

ولما كان عيد دخول السيّدة أقمنا سهرانيّة. وجدت مع كثيرين من أبناء الشَّيخ الرّوحيّين. وفي السهرانية، وعند ترنيمة التريصاجيون في القداس الإلهيّ، كنت أرتل مع الأخوات بحماسة كبرى شاعرات بهاء عظمة العيد. وعند "قوّة"، انتهيتُ بأنّ الطّبقّة^١ الموسيقيّة كانت عالية جداً، وعبارة "الذي لا يموت" لا يمكن ترتيلها... فكرت للحظة أنّ الأخوات سيتركّنين لوحدي وكدت أراجع لأنّ الشَّيخ كان يقول لي أن أنتبه على القرّاية وألاً أكون جسورة. وبالتحديد كان يقول لي: "لا عملي بطولات (لا تتجاسري كثيراً)". ومع ذلك فقد أخذني الحماس وقلت: "سأقولها لك يا إلهي، حتّى ولو مت!". وقد أعانتني نعمة الكليّة القداسة، وانتهت الخدمة وتركت في نفوس الجميع بهجة روحيّة.

وفي الصّباح الباكر، رنّ جرس الهاتف وإذا بأبينا الشَّيخ على الخطّ يقول لي وهو ممتلئ فرحاً: "ما هذا الذي لا يموت؟" وبسذاجة سألته: "قد

^١ النعمة الموسيقية

أخبروك أيها الشيخ؟" وبطريقته المميّزة قال لي: "يا جاهلة، ألم تفهمي؟ هيّا... لم يخبرني أحد شيئاً. قلت: "الذي لا يموت". قد جاء الذي لا يموت وأقصى الموت عنك وجعلك لا تموتين ولم تموتي. ولكن ألم أقل لك أن تنتبهي؟".

عقدت الدهشة لساني عندما استوعبت أنّ الشيخ كان موجوداً معنا في السهرانيّة يتابع كلّ شيء، حتّى أفكارنا الخفيّة. لتكن صلاته معنا وليتشفع بنا حتّى نوجد معه في السمّوات.

ب- في سهرانيّة دخول السيّد العام ١٩٨٨، أتت إلى ديرنا رئيسة دير السيّدة في آرتي مع أخوتيها. وفي الصّباح، بعد السهرانيّة، ذهبنا إلى سيامة صاحب السيّادة اغناطيوس مطران آرتي، وبعد الظّهر، زرنا الشيخ بورفيريوس كي يكلم الأخوات وننال بركته.

كان الأب بورفيريوس في حالة انشراح استثنائيّة وقد أبقانا وقتاً طويلاً. حدّثنا عن الصّلاة الدّهنيّة، وشدّد على عدم وجود الصّلاة العقليّة الحقيقيّة من دون التّواضع الحقيقيّ الذي يُقتنى بالطّاعة.

وبعد أن قضينا وقتاً لا بأس به واستمتعنا وامتلأنا فرحاً وبركة، بدأت أستعجل الرحيل. كانت السّاعة السابعة. لكنّ الشيخ كان لديه ميل إلى الحديث. فقلت: علينا أن نرحل أيها الشيخ، لقد مرّ الوقت، وأمامنا مسافة طويلة. أمّا أبونا الشيخ، فلم يكثرث البتة لقلقي وتابع كلامه. وبسبب إلحاحي، صرفنا في الثّامنة إلّا ثلثاً. أخذنا بركته وانصرفنا شاكرين. وحالما نزلنا إلى أسفل أرسل إحدى الأخوات ودعاني إليه من جديد. وسألني: هل أجدت القول؟ ربّما أُسيء فهمي؟

- لا، أيها الشيخ، لقد أجدت الكلام، ولكن، يجب أن أذهب، فلقد أتينا من سهرانية، وقد تأخّر الوقت. متى سنصل إلى الدّير؟ (ويبعد ديرنا عن دير الشيخ في "ميلي" حوالي ساعتين ونصف السّاعة). فقال لي: لا تستعجلي، ستكون طريقكن سهلة. وسألني إن كنت أعرف محطة إذاعة كنيسة "بيريه". وبفرح "انتفض" من سريره وأسمعني المحطة. وكانت ساعة غرفته تشير إلى الثّامنة إلّا خمس دقائق. وكنت أتساءل متى سنصل إلى الدّير، والمسافة بعيدة.

وكان الأب يشرح لي كم ستكون هذه المحطة مفيدة للعالم، ولم يبدِ أي استعجال.

- "عليّ أن أذهب أيّها الشيخ، لأنهم سيقلقون علينا في الدّير"، وكنت أحسب أننا سنصل قرابة منتصف الليل. وأعاد قوله بشكل غامض: لا تستعجلي، ستذهبن بخير. ولما أشارت الساعة إلى الثامنة، أعطاني البركة، وانصرفنا. كان السائق شديد الحرص ويسير ببطء. وفي الطريق توقّف مرتين، مرّة من أجل الوقود، ومرّة ليوقف تاكسي من أجل إحدى معارفنا التي كانت بصحبتنا وكان عليها أن تذهب إلى أثينا.

وعلى الرّغم من قلقنا، أنا والأخوات بسبب سير السيّارة ببطء شديد، لم ننظر أيّة واحدة منا إلى الساعة. كنّا نتحدّث في الأمور العجيبة التي قالها لنا الشيخ، ومن حين لآخر نطلب من السائق أن يسرع قليلاً. أمّا هو فكان هادئاً للغاية، وكان يشرح لنا كيف أن السيّارة تتعطّل إذا أسرع الخ... ولهذا كنّا ننظر إلى عدّاد السرعة، وكانت تتراوح بين ٤٠ و ٦٠ كيلومتراً في الساعة. ومن "ميغاراً" إلى ديرنا أخذ يبطئ أكثر لأنّ الطريق ترابيّة.

ولمّا وصلنا إلى الدّير، استقبلتنا الأخوات بفرح كبير. أخبرناهنّ بما حدث ثم ذهبنا إلى غرفة الطّعام، فقلت للأخوات:

- لماذا تنتظرن حتّى هذه السّاعة، وقد كنّتن في سهرانيّة؟ لماذا لم

تخلدن إلى النّوم؟ وكيف ستهضن في الصّباح؟

- أنخلد إلى النّوم منذ الآن أيّها الأم الرّئيسة؟ هل نحن دجاج؟

- كم السّاعة الآن؟ سألتُ بتعجّب.

- إنّها التاسعة إلّا ربّعا!

طبعاً، ظننّت أنّهنّ يمزحن ولم أصدّق الأمر. ولما أرّينني السّاعة عقدت الدّهشة لسانيّ! من "ميلي" إلى "مكربنوس" مسافة ثلاثة أرباع السّاعة، وبهذه القيادة اللّيليّة البطيئة. عندما فهمنا العجيبة كان فرحنا ودهشنا لا يوصفان. إنّ بركة الشيخ بورفيريوس فاقت أيضاً المكان والزمان. إنّ الله عجيب في قدّيسه!

في اليوم التالي زار الشيخ طبيباً من معارفنا وهو ابن روجي له، فقال له الشيخ وهو يضحك بفرح كلي: "عندما تطيع تحدث العجائب، والأمم الرئيسة وجدت فجأة في ديرها". بالطبع لم يفهم ذلك ماذا قصد أبونا الشيخ إلا عندما زارنا وأخبرته بالحدث، ففهم كلام الشيخ. ولما اتصلت بالأب بورفيريوس في اليوم التالي وأخبرته بما حدث، أخذ يمازحني وهو ممتلئ فرحاً.

لتصبحنا بركته إلى الفردوس بالطريقة ذاتها. آمين.

الأم الرئيسة المتوحدة مكرينا

عن التكلم بالألسنة

❖ آراء المفسرين

لقد كُتب في أعمال الرسل (٢ : ٣ - ٨) أنه في يوم الخمسين، عندما أمتلأ التلاميذ من الروح القدس، بدأوا يتكلمون بلغات غريبة، حتى أن الجمع الذي كان متجمهراً تعجب كيف أن كل واحد منهم كان يسمعهم يتكلمون بلغته الأم.

هناك آراء مختلفة في تفسير هذه الظاهرة (أنظر ب. تريمبلاس، تفسير أعمال الرسل، "طبعة ثانية ١٩٧٧، صفحة ٨٠). فيما يعتبر أحد الآراء أن تنوع اللغات لم يكن في أذان المستمعين، بل في أفواه التلاميذ المتكلمين، يرى الآخر أن المستمع كان يسمع في لغته، أيًا تكن اللغة الذي يتحدث فيها الرسول. ويكتب أحد اللاهوتيين المعاصرين الأجانب في هذا الموضوع أنه سُمعت من شفاه الرسل اللغة السماوية الواحدة على نحو تُرجمت فيه حالاً إلى كل مستمع بلغات البشرية المتنوعة. ويعلم القديس يوحنا الذهبي الفم، أنه في اليوم الخمسين عملت اللغات البشرية الكثيرة فعلها في إنسان واحد، وذلك بعكس ما جرى في

برج بابل حين تفرقت اللّغة البشريّة الواحدة في ذلك الحين، إلى لغات عديدة، وقد سميت الموهبة موهبة الألسنة لأنّ ذلك الإنسان استطاع أن يتكلّم بأصوات كثيرة مجتمعة. وبما أنّنا لا نستطيع عملياً أن نتصوّر فماً واحداً ينطق في وقت واحد (بحسب القديس يوحنا الذهبيّ الفمّ) بلغات كثيرة، ليس من تفسير آخر سوى أنّ صوتاً واحداً انطلق من فم الرّسول ووصل بنعمة الله مختلّفاً إلى ذهن كلّ واحد، أي مترجماً في لغته.

هذا ما قصده القديس غريغوريوس النيصصي، إذ كتب في عظته الدّفاعيّة الثّانية الشهيرة: "يجب أن نعلم أنّ الرّوح القدس يتكلّم معنا بتعابيرنا الخاصّة. كما تعلّمنا من قصّة أعمال الرّسل أنّ كلّ واحد تلقّى التعليم بلغته الأمّ، مستوعباً معنى المقول بالكلمات المألوفة لديه." ويوضح أكثر قائلاً: "تعلّمنا من أعمال الرّسل أنّ القوّة الإلهيّة توزعت إلى لغات كثيرة لئلا يُحرم أحد من أصحاب اللّغات المتنوّعة المنفعة". (غريغوريوس النيصصي، العظة الدّفاعيّة الثّانية المقطع ٢٣٨ و ٢٥٨ ، آباء الكنيسة اليونان، الجزء الثّاني صفحة ٤٣٨ و ٤٤٦).

هذا هو حال الشّيخ بورفيرْيوس إذ لدينا ضرب من ترجمة آنية مواهبيّة. كانت السيّدة اليونانيّة تسمع باليونانيّة والسيّدة الفرنسيّة تسمع بالفرنسيّة، كما كُتب في أعمال الرّسل "كان كلّ واحد يسمع بلغته الّتي ولد فيها".

غير أنّه من المفضّل أن نعطي الكلام للشّيخ نفسه كي يشرح لنا، قدر المستطاع، هذا الحدث. وقد ارتضت عناية الله أن يُسجّل في منسكه في ١٩٨٧/١٠/٣ حديثٌ في هذا الشأن ننقله لكم كما يلي:

مقطع من حديث مسجّل للأب بورفيرْيوس مع أحد زوّاره:

- الشّيخ: أي في اليوم الخمسين...
- الرّائر: في اليوم الخمسين وهناك. كما يقول، كانوا يسمعونهم يتكلّمون بلغاتهم.

- الشَّيْخ: الفَرْتَيَّونَ، والمَادِيَّونَ، والعِيْلَامِيَّونَ.
- الزَّائِر: وَسَكَّانَ مَا بَيْنَ النَهْرَيْنِ.
- الشَّيْخ: هَلْ سَتَتَذَكَّرُ أَنْ تَقْرَأَ لِي؟
- نَعَمْ، بَكْلَ تَأْكِيدِ أَيْهَا الشَّيْخ.
- الشَّيْخ: لِأَنَّهُ لَدِي تَفْسِيرِي الْخَاصِّ، بِنِعْمَةِ اللَّهِ طَبْعًا، وَلَا أَظُنُّ أَنَّهُ جَيِّدٌ. طَبْعًا إِنَّهُ لَيْسَ جَيِّدًا، لِأَنَّهُ هُنَاكَ يَقُولُ أَلْسَنَةً، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، فَانْه لَمَّا حَلَّتْ نِعْمَةُ الرُّوحِ الْقُدُسِ "كَأَنَّهَا هُبُوبُ رِيحٍ عَاصِفَةٍ" وَخَصُوصًا لَمَّا خَرَجُوا إِلَى السَّاحَةِ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ، فَاضَتْ النِّعْمَةُ عَلَى النَّاسِ أَيْضًا. إِذَا فَاضَتْ النِّعْمَةُ.
- الزَّائِر: وَبَيْنَمَا كَانَ هَؤُلَاءِ يَتَكَلَّمُونَ الْعِبْرِيَّةَ كَانَ أَوَّلُكَ يَسْمَعُونَ لَغَتَهُمْ.
- الشَّيْخ: وَقَدْ قَلْنَا إِنَّ كُلَّ النَّاسِ تَأَثَّرُوا، الْمُؤْمِنُونَ وَغَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ. وَارْتَدُّوا إِلَى اللَّهِ وَهَرَعُوا لِيَعْتَمِدُوا، وَهَكَذَا سَمِعَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَغَتَهُ. وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ قَدْ تَكَلَّمَ بِلَغَتِهِ... قَائِلًا: الْآنَ انْطَلِقُوا حَالًا إِلَى بَيْتُوكُمْ.
- فَسَمِعَ الْفَرَنْسِيَّ بِلَغَتِهِ va à la maison.
- الزَّائِر: نَعَمْ.
- الشَّيْخ: أَفَهَمْتُ؟
- الزَّائِر: أَيْهَا الشَّيْخ، هَؤُلَاءِ...
- الشَّيْخ: اسْمَعِ. لَقَدْ تَغَيَّرَتِ الطَّرِيقَةُ. هُنَا نَسْمَعُ الصَّوْتِ عِبْرَ الْأُذُنِ. لَكِنَّ الْعَقْلَ يَلْتَقِطُ الْمَعْنَى بَوَسَاطَةِ الْبَصِيرَةِ.
- (مِلَاحِظَةُ لِلنَّاشِرِ: أَيُّ أَنَّ الصَّوْتِ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قَوْلِنَا إِنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ بَعْدَ لُغَاتٍ، لِأَنَّ الْفَهْمَ كَانَ يَتِمُّ ذَهْنِيًّا، دَاخِلَ الْعَقْلِ، بَوَسَاطَةِ الْبَصِيرَةِ الَّتِي مُنَحَتْ فِي ذَلِكَ الْحِينِ لِسَامِعِي الرِّسْلِ وَالْآنَ لِلْفَتَاةِ الْفَرَنْسِيَّةِ).
- الزَّائِر: نَعَمْ.

الشيخ: هذا يعني، حين تقول أنت: أرى في "سونيو"! أما أنا فأرى في "سونيو" كل شيء كما هو، أرى المنارة التي لا ترونها أنتم... كل ذلك بدون عينين. (كان الشيخ يرى الأماكن ببصيرته بشكل أفضل مما يراها الآخرون بعيونهم الجسدية)

- الزائر: نعم.
- الشيخ: إذاً هذا ما حصل. كان الصوت يطرق في الأذنين، وأما في عقولهم، فكانوا، بالاستنارة الإلهية، يفهمون ما يقال. كان يقول "اذهبوا إلى بيوتكم". ولكن الذي صوّت قال بلغته... لست أدري... كالمثل الذي أعطيته. فأنتم رأيتم "سونيو" بعيونكم. أما أنا فرأيتهم أفضل بدون عيني.
- الزائر: نعم، طبعاً...
- الشيخ: ولما قالت فلانة إنّ هناك منارة، قاطعتم، لأنّي قد رأيتم... ما رأيك بهذا؟
- الزائر: اسمح لي أيها الشيخ أن أشدّد على هذا.
- الشيخ: يعني أنّ هذا الصوت أضحى مفهوماً بلغة كلّ واحد.
- الزائر: هذا مهمّ جدّاً، لأنّي إذا قرأت لك المقطع من أعمال الرسل، يتبين أنه في تلك اللحظة، حين كان بطرس يكلم الجمع، كانت تلك الآلاف تسمعه بلغتها في الوقت ذاته. هكذا يقول الكتاب. فكيف يمكن إذا... ان يقول كل كلمة في خمس عشرة أو عشرين لغة؟
- الزائر: هذا يدلّ تماماً على أنّ تفسيرك الخاص في هذا الموضوع صحيح. لم يلتقط أيّ مفسّر معنى هذا الموضوع، لم يوردوا أي شيء بخصوص هذا...
- الشيخ: كلا، لا يجوز أن يوردوا... يجب أن يقولوه هكذا، لأنهم يخافون...
- الزائر: كلّ المفسرين لم يأتوا بشيء.

- الشيخ: أسمعت الآن ماذا قلت؟
- الزائر: قلت إنه هكذا يجب أن يقولوا، لأنهم يخافون.
- الشيخ: كان يقيم في اورشليم يهود، رجال أتقياء من كل أمة تحت السماء.
- الزائر: لقد تحدّث في وجود آخرين مع المغبوط باناغوبولس ومع ميخائيل بهذا أنّ نعمة الله...فيما كان بطرس يتكلّم بالعبريّة كانت تترجم الكلام في ذهن كلّ من السّامعين إلى لغته.
- الشيخ: نعم، ومع ذلك ألم يعرف الآباء هذه المسألة؟ لقد عرفوها، لكنهم قالوها كما تقال هناك، لأنّ الأمر رهيب. أفهمت؟ لهذا يقولونها كما قالها. يخافون. يخافون التّطرّق إليها. كما أنّ رؤيا يوحنا تذكّر لعنات ومسائل شبيهة لم يتناولوها. تركوها ليفهمها كلّ واحد على طريقته. لم يفسّروها...

هنا تنتهي مداخلة الشيخ في هذا الموضوع.

ويجدر بنا أيضاً أن نضيف ما رواه لنا أحد معارف الشيخ: سافر أحدهم مرّةً إلى الخارج من دون أن يتمكّن من استشارة الشيخ. ولكنّه اتصل به من المطار كي يأخذ بركته. فقال له الشيخ: "احذر"، من دون أن يقول له ماذا يحذر. لكن قريبنا هذا "رأى" بوضوح في ذهنه الشّخص الذي يجب أن يحذر منه، وما يجب أن يحذره، لأنّ هذا الشّخص لم تكن لديه نوايا جيّدة تجاهه. فأجاب: "نعم، لقد فهمتُ أيّها الشيخ". وفي الواقع، عندما التقى بذلك الشّخص كان مستعدّاً مسبقاً لمواجهة الشّكل الصّحيح. وهكذا فقد جعل الشيخ مُحدّثه يشترك في بصيرته بلا كلام. فيما أنّ لديه خبرة كهذه، يصبح تفسيره للحادث المذكور في كتاب أعمال الرّسل موثوقاً به.

انتهى الملحق

موهبة الشفاء

خبرة الشيخ مع الأمراض

❖ مرضه الأول

لقد نَمِيت عند الشيخ موهبة خاصة جدًا، ألا وهي موهبة الشفاء التي حصل عليها من العلاء. في أول معرفتي به، كان سؤال يدور في ذهني: كيف، وهو راهب من الجبل المقدس، يعيش في أثينا؟ وهو إذ عَلِمَ أفكاري، قال لي يومًا: "ربما ستسألني: لماذا أعيش في أثينا طالما أنا راهب من الجبل المقدس؟ إعلم أنه عندما كنت راهبًا صغيرًا، كان معلّمي يرسلاني خارج كوخنا لقضاء أعمال مختلفة. وأحد هذه الأعمال كان جمع البرّاق. وقد وضعتها في كيس أحمله على ظهري. ومن خاصيّة البرّاق أنّه يفرز نوعًا من البصاق، وهكذا كان هذا البصاق يتسرّب من الكيس ويمرّ عبر جبّتي إلى جسدي. ولما عصفت ريح شماليّة، أصابني البرد ومرضتُ بشدّة. فأرسلني معلّمي إلى العالم كي أتعالج. لكنني عندما عدتُ إلى "الجبل" مرضتُ من جديد. عندها قالوا فيما بينهما: ربّما تكمن إرادة الله في أن يكون في العالم. وقد أُلهما بأن الأمر كذلك. وهكذا خرجت إلى العالم".

❖ أمراضه الأخيرة

إنّ الله، بحسب مشيئته التي لا تستقصى، ربط خلاص الشيخ والآلاف من أبنائه الرّوحيين بأمراضه، وبال حاجة إلى معالجتها. ومع الوقت، تكاثرت أمراضه وأضحت بالنسبة إليه ميدان جهاد وقداسة. ذات يوم، وجدته يتوجّع في سريره فحزنت عليه، وقد تبع ذلك حوارنا التّالي:

- أتألّم أيّها الشيخ؟

- أتألم كثيرًا.
- أين تتوجّع؟
- في كلّ مكان.
- ممّ تشكو أيّها الشيخ؟

وممّ لا أشكو! لديّ أمراض كثيرة، حتّى أنا لا أعرف ما لديّ. إنّ حياتي معلقة بخيط. والله يمسك بهذا الخيط، لذلك لم ينقطع منذ عشرين سنين. هذا لم يكن من أجل الشيخ (فهو كان مستعدًّا للرحيل) بل من أجلنا، فنحن بسبب توانينا، لم نكن مستعدين لرحيله إذ كنّا في حاجة ماسّة إليه.

كان الشيخ يعرف هذا، ويجاهد كي يبقى على قيد الحياة، بالصلاة والانتباه المصحوب بعناية أخوات الدير الدائمة، كما وبصلوات المئات من أبنائه الرّوحيين. قال مرّة: "قد استعددتُ للانطلاق إلى السّماء مرّات كثيرة، لكنّ صلواتكم أعادتني". لقد عاش معاناةً قويّةً في عمليّة الكلى، والجرحه القلبيّة الخطرة، وفي عمليّة الفتاق غير الموفّقة، وهذه بعض أمراضه الكثيرة.

وفي آخر معاناة له في عينه، اعتبر الأطباء وضعه ميؤوسًا منه. فقد نزت معدته، وبقي بلا طعام أيّامًا كثيرة، فأضحى جسده المعبّد هيكلاً عظميّاً مغطّى بجلد، ولكي لا يتعرّض لمضاعفات، اضطروا إلى إبقائه منتصبًا وكأنّه مصلوب وسط أوجاع رهيبة.

❖ صلاة من أجل السرطان

لمّا تعافى قليلاً وبدأ شيئاً فشيئاً يستقبل الزوّار، التقيته ولقد اندهلت عندما سمعته يقول لي بصوته الضعيف: "عندما كنت شابًا طلبت إلى الله أن يرسل لي داء السرطان إذا سمح بمرضي. هل تعلم أنّ السرطان هو أفضل الأمراض. ففي الأمراض الأخرى لا يأخذ الواحد منّا الأمر على محمل الجدّ، إذ يأمل في الشفاء، وعادة لا يتغيّر. بينما في السرطان، تقول هذا هو الحد

الفاصل، لقد انتهت الأوهام، الآن ارحل. ولا يستطيع البشر أن يساعدوك فتجد نفسك وحيداً أمام الله، ويبقى الله رجاءك الوحيد، تتعلّق بهذا الرجاء فتخلص. ففي العمليّة الفاشلة التي أجروها لعيني، والكورتيزون الذي أعطوني إياه، شعرت وكأنّ انفجاراً حدث داخل جمجمتي وجعلها قطعاً. إلى هذا الحدّ كنت أتألم! وظننت أنّ الله سمع صلاتي القديمة تلك وأنّي أصبت بمرض السرطان. ولكنه لم يكن. أتعلم، لقد أوقفت الصلّاة من أجل السرطان. عندما ذكرت الأمر لأحد الأساقفة، لمني لأنّ صلاة كهذه تخفي في طيّاتها الكبرياء على حدّ قوله. في أيّ حال، كنت أتألم بشدّة. كان الأمر حلّواً. "على الرّغم من أنّ كلّ روايته جعلني أشعر بالرهبة، إلّا أنّ جملته الأخيرة أبكمتني. لقد عجزتُ مرّات كثيرة عن فهم الشيخ.

❖ الصلّاة النقيّة تشفي

في لقاء آخر لنا، ساعدني الشيخ على فهمه قليلاً بكلامه التّالي: "عندما تكون مريضاً، هل تعلم ماذا يجب أن تفعل؟ عليك أن تطلب إلى الله أن يغفر لك خطاياك. وإذا طلبتَ بتوجّع وتواضع فإنّ الله يغفر لك خطاياك ويشفي جسدك أيضاً. إنّما انتبه: لا تصلّ بدافع دنيويّ، لا تقل: يا الله اغفر لي خطاياي فيما عقلك ملتصق بمرض جسدك. صلاة كهذه لن تجدي نفعاً. ولكن، عندما تصلّي انسَ مرض جسدك، واقبله كأثّه قانون صلاة، قصاص من أجل غفران خطاياك. ولا تقلق لما سوف يأتي فيما بعد، سلّم أمورك لله، والله يعرف ماذا يعمل".

بكلماته البسيطة تلك، شرح لي الشيخ أنّ مرض جسدي يعود إلى مرض النّفس، أي إلى خطاياي؛ وأنّ غفران الله للخطايا من خلال الصلّاة المتواضعة يجلب شفاء النّفس. وفي الوقت الذي يرتضيه الله يتمّ شفاء الجسد

أيضًا. وقد لفت انتباهي إلى النقاوة في الصلّاة التي بها يجب ان أطلب غفران الخطايا فقط، لأنّ كلّ ما يختصّ بشفاء المرض كامن في محو علته. العكس يحصل في الصلّاة التي تتمّ بدافع دنيويّ، حيث يستعمل المريض طلب مغفرة خطاياّه حجةً ليحصل على شفائه الجسديّ فقط، فتبطل نتائج الصلّاة المنتظرة بسبب أنانيّة المريض. بحسب موقف الشّيخ نجد أنّ المسيح، باستجابته طلب المريض المتواضع من أجل مغفرة خطاياّه وتجاوبه مع إيمانه النقيّ في رحمته العظيمة، يحقّق أولاً الأمر الأصعب ويتقدم بعدها إلى تحقيق الأسهل، وذلك في الوقت الذي يختاره هو. فهو يشفي أولاً الجذع، أيّ مرض النّفس، الخطيئة، وبعد ذلك الأغصان، أي مرض الجسد.

❖ امراض كجهاد

على الرّغم من أنّ الشّيخ كان مريضاً جسديّاً إلاّ أنّه كان صحيحاً فعليّاً. لأنّه كان صحيح النّفس. وصحّة نفسه هذه أهّلته، وهو على سرير الألم، أنّ يساعد مئات الأشخاص الأصحّاء بحسب الجسد والمعدّيين من المرض النّفسي الناتج عن الخطيئة. كما أنّها لم تؤهّله للصّبر على أمراضه الجسديّة مصليّاً من أجل غفران خطاياّه وممجّداً الله فحسب، بل، وأيضاً لأنّ يستخدم هذه الأمراض كوسيلة لنسك فعّال. ولما كان يومًا يتوجّع كثيراً من أمراضه، سألته: كيف حالك أيّها الشّيخ؟ أجابني: "إنّي أقمع جسدي". وعلى مثال النّسك القديسين، حوّل، بنعمة الله، المرض الجسديّ الكرهى إلى جهاد روحيّ طوعيّ.

❖ الذبحة القلبية

في عصر أحد أيام آب من العام ١٩٧٨، كنا أربعة أصدقاء ننتظر مقابلة الشيخ في ساحة الدير في كاليسيا. وكان اثنان منا سيقابلانه للمرة الأولى ولذلك كانا متأثرين. وكان جمع من الزوّار ينتظر، والوقت يمرّ، والشيخ يستمرّ في مقابلة الناس منذ اليوم السابق، وهو تعب أيضًا من السّفر. ففكرنا بأن نرحل كي لا نتعبه نحن أيضًا على الأقل. ولكنّ الصديقين لم يشاءا تفويت فرصة التعرّف إليه، وذلك بسبب صعوبة مقابلته في تلك الحقبة.

وقررنا الانتظار مع النّاس المنتظرين. وكان الشيخ يستقبل بلا توقف. فجاء دورنا في آخر الليل. لما دخلتُ قلايته استغربت. كنت أنتظر أن أراه منهكًا من التعب، إلّا أنّي وجدته مرتاحًا ومنشرحًا. كان وجهه ورديّ اللون، يشبه وجه طفل استفاق لتوّه من نوم طويل. لم يسبق لي إن رأيته هكذا حتّى ذلك الحين. أذهلني النّور العجيب الذي كان يحيط به خصوصًا برأسه. وكان نور الشمعة الخافت يضيء القلاية التي يتراقص ظلال كلّ شيء داخلها كلّما اهتزّت شعلة الشمعة، أمّا الشيخ فكان كلّه مجلّلاً بالنّور. كانت المرّة الأولى التي أرى فيها نورًا كهذا، بإمكانني تسميته نورًا غير هيوّليّ وغير مخلوق، بما أنّه لم يشبه أيّ نور طبيعيّ أو اصطناعيّ. لم يكن نورًا يضيء الشيخ من الخارج، كما يفعل نور الشمعة، بل ينبع من داخله إلى الخارج. لم أقلّ له شيئًا عن هذا النّور، إذ اعتراني "ذهول ورعدة". وكان الشيخ كعادته ممتلئًا محبة عطوفة، وقد أراح نفسي هذه المرّة أيضًا بنصائحه المعزيّة. قابله أصدقاؤني الآخرون، ولكنهم لم يحدثوني عن ذلك النّور البهّيّ الذي ليس من هذا العالم. لقد أقلقنتني فكرة أن يكون إحساسي خاطئًا على الرّغم من أنّ تحليلي العقليّ البديهيّ وشكّي لم يتركا لي مجالًا لقبول فكر كهذا. لم يسبق أن شعرت بإحساس خاطئ في حياتي، فلماذا الآن، وخاصّةً بالقرب من الشيخ، الذي تمتد حياته كسلسلة أحداث فائقة الطّبيعة؟ وسلكتُ وأصحابي طريق العودة وسط الغابة. فجأة، هبت ريحٌ

شديدة، غير عادية في مثل ذلك الوقت، وقد عصفت بشدة وسط الصنوبر وأحنت أغصانها إلى أسفل. شعرتُ برعشة قوية في جسدي رافقتني حتى أثينا. في الصّباح، وصل نبأ صاعق: لقد تعرّض الشّيخ لذبحة قلبية في تلك اللّيلة. شعرت بالألم تجاه الشّيخ في محنته الجديدة الصّعبة من جهة، وتجاه النّاس الّذين هم في أمسّ الحاجة إليه، والّذين لن يستطيعوا زيارته في قلايته إلى أجّل غير محدّد من جهة أخرى. أمّا أنا، فلقد شعرت بالذّنب بعض الشّيء لأنّي كنت أحد الّذين أتعبوه اللّيلة الماضية. لم يكن في استطاعتي عمل شيء سوى أن أصلي بلجاجة إلى المسيح كي يرحم الشّيخ ويرحمنا جميعاً، كي يهبنا إيّاه لسنين كثيرة بعد. وقد علمت أنّ كثيراً من النّاس يشاركون في الصّلاة وبغفوية في تلك الأيّام من أجل شفائه.

في اليوم السّابق لإصابته وعلى غير عادة، وصل من الرّيف إلى أثينا أحد أبنائه الرّوحيين. لقد أخبرني أنّه استيقظ باكراً جدّاً في اليوم التّالي وكان يشعر برغبة شديدة وعجبية في رؤية الشّيخ. انطلق بسيّارته قبل انبلاج الصّبح إلى كاليسيا. وحالما اقترب من الغابة، رأى الشّيخ محمولاً على حمار، وهو في حال خطرة. حملة للحال، ونقله إلى المستشفى. لقد أشفق علينا المسيح ووهبنا إيّاه لثلاث عشرة سنة أخرى.

بعد فترة من الزّمن، عندما استطعت أن ألتقيه في منزل صديق له يختبئ فيه من النّاس، وكان يتعافى شيئاً فشيئاً، كان أوّل ما فعلته طلب المسامحة لأنّي أتعبته تلك اللّيلة عن غير قصد. وثانيًا معاتبته على كونه استمرّ في استقبال النّاس من دون استراحة على الرّغم من شعوره بأنّه ليس على ما يرام. فقال لي الشّيخ: "عندما يتعب القضاة يوقفون عملهم عند الظهيرة. ومن المؤكّد أنّ ما حصل لي كان بسبب الإرهاق، لكنني كنت أشفق على النّاس المنتظرين في الخارج لوقت طويل". والنتيجة أنّه تعرّض لهذا بسبب واجب المحبة. ولما رأيته حزينا ومتضايقاً بسبب شعوري بالذّنب، راح يعزّيني قائلاً: "لا تحزن. كان ذلك سيحدث. انتبه، فإنّ الكآبة والحزن المفرط ليسا من الله. إنهما

فخ من الشيطان". كان لقاءنا ذاك قصيرًا جدًا. وحرصتُ على أن أرحل باكراً كي لا أسبّب له انتكاسة.

بعد بضعة أشهر، استطعتُ أن أقوم بزيارته من جديد، لوقت قصير أيضاً. كان الشيخ يتعافى شيئاً فشيئاً. ومن جملة ما قاله لي: "عليّ أن أنتبه كثيراً لأنّ هذا المرض المزمن يمكن ان يسمرني في أية لحظة في مكاني". واستدرك للحال: "مع العلم أنّه لا توجد أمراض مزمنة، بما أنّ الله يسمح بها كلّها". وأنّى حديثنا بقوله: "لقد أتعبني المرض. مرت شهور وأنا سجين هذه الغرفة. اشتقت إلى الرّيف وإلى الأشجار. صلّ لأجلّي". بدا لي وكأنّ في هذا الكلام حنيئاً وشكوى خفيفة وبريئة. وهذا أيضاً من حقّ القديسين .

بعد فترة، علمت أنّ الشيخ قال لأحد أبنائه الرّوحانيين: "في تلك اللّيلة، حين أصبت بالدّبحه القلبيّة، لم أتحمّل النّور الكثير".

❖ المياه الزرقاء

بعد سنين قليلة، تعرّض لأزمة صعبة، ألا وهي جراحة المياه الزرقاء الفاشلة في عينه، فبسبب المضاعفات التي حدثت بعد العمليّة، اضطرب كلّ جهازه العضويّ. لقد صلّينا جميعاً وخفنا من النّهاية، لأنّ الأطباء يئسوا من حالته. ومع ذلك، أصرّ بعضنا على الأمل بعجيبة شفاؤه، وكنا نحاول بثّ الرجاء في الذين فقدوه. وأتذكّر أنّي قمت بعمل اعتبره بعض الأصدقاء تصرّفًا ساخرًا: ففيما كان الشيخ يموت جوعاً من جرّاء نزف معدته الذي منعه من تناول الطّعام، وأقلّه ابتلاع ملعقة حليب واحدة، قدّمتُ له مقلاة حديّة ظهرت في السّوق تستعمل كمقلاة وشواية في آن. وقد حملت إحدى أخوات الدّير المقلاة إليه في قلاية القرميد. كنت أنتظر بقلق. ولما خرجت الأخت قالت لي: إنّ الشيخ يشكرك على الهدية، وقد كلّفني أن أوكد لك أنّه سوف يستعمل مقلاتك. وعندما سمعت هذا تأثرت. واستدرت نحو أصدقائي الحزانى وقلت لهم بفرح:

أيها الشباب، إنّ الشَّيخ سيعيش، فهو لا يتفوّه بكلام فارغ. قال إنّهُ سيستعملها، وهذا يعني أنّه سيتعافى وسيتناول منها طعامًا. وفي الواقع، استعملها بعد فترة وجيزة.

فيما بعد، عندما بدأ يستعيد قواه، ويستقبل الزوّار شيئًا فشيئًا، استطعتُ أن أتحدّث إليه قليلًا. وخلال الحديث عبّرت له عن حيرتي: كيف قبلت أيها الشَّيخ أن يجرّوا لك هذه العمليّة الجراحية الخطرة؟ فأجابني بلهجة العفوية المعروفة: "أرأيت يا بنيّ، أنا نفسيّ لم أفهم كيف قبلت. كنت في حالة رخاوة في تلك الأيام، وقلت لا أكسرنّ خاطر طبيبي، بما أنّه يريد أن يعيد النّور إلى عيني المريضة. لقد أضرتني كثيرًا الكورتيزون الذي أعطوني إيّاه. فبقدر ما كنت أحارب الكورتيزون عند الآخرين حاربي هو في مرضي (لم يشأ أن يستعمل الآخرون الكورتيزون، ولكنهم استعملوه له).

وتمنيتُ عليه أن يقبل علاجًا تخصّصيًا في أحد مستشفيات أثينا من أجل شفاء أسرع، فكانت ردّة فعله عند سماعه كلماتي قاطعة: "لا تكلمني عن أثينا. لأنّي لن أتحمّل نقلي من هنا، وسوف أموت في الطّريق. أمّا هنا، في هذا المناخ، ومع هذه الحميّة الّتي أتبعها ومن دون الأدوية الّتي تزعجني، فحالتي تتحسنّ". وقد علمت أنّ طبيبًا أميركيًا مرّ في تلك الفترة بالدير، وهو مسؤول في مستشفى. وإذ سمع بالحمية الّتي ابتكرها الشَّيخ تأثّر، وسجّلها كي يستعملها في مستشفى في أميركا.

❖ الفتاق

ما كاد الشَّيخ يتعافى من تلك المحنة حتّى حلّت به أخرى: وهي تردّي حالة الفتاق عنده. كان يتوجّع أكثر الأحيان، ولم تكن حالته الصحيّة العامّة تسمح بإجراء جراحة، وكانت الأخوات يسهرن إلى جانبه. سألته مرّة: "لماذا لا

تضع حزامًا صحيًا؟" أجابني: "لا يوافقني أن أضعه، لأنّ الحزام يضغط على شرايين الفخذ فيمنع الدّم من الجريان إلى الرجلين وتصيبني مشاكل أخرى".

❖ أبوان رُوحِيّان مريضان

كان الشّيخ قد أصبح طبيبًا لنفسه وللعديد من النّاس وأولهم جميعًا أبي الرّوحيّ. فمنذ بدء معرفتي بالأب بورفيرْيوس طلب إليّ أبي الرّوحيّ أن أقبل يد الشّيخ بالتيّابة عنه في كلّ مرّة أراه فيها، وأن أسأله إن كان عنده أيّ توصية له. وفعلت هذا باستمرار. كان الأب بورفيرْيوس يفرح بسبب الاحترام الذي يظهره له أبي الرّوحيّ، وكان يتقبّله، مصلّيًا، بابتسامة مشرقة، وعندما تكون لديه رسالة رُوحية كان يكلفني بنقلها إليه، وكان يزودني دائمًا بإرشادات معينة من أجل الحفاظ على صحّته. وبعد خضوع أبي الرّوحيّ لأوّل عمليّة جراحية في المعدة، كان دائمًا يشدّد: "قل له أن ينتبه لنظامه الغذائيّ وأدويته وراحته الضروريّة، وأن لا يؤخذ بحاجات الآخرين لأنّ كثيرين ينظرون إلى مشاكلهم الخاصّة، من دون أن يهتمّوا بما إذا كانوا يزعجون الآخر حتّى ولو كان مريضًا. وعليه ألاّ يبالغ في تقديم الخدمات على حساب صحّته. إنّ الله قد نجّاه من خطر كبير". ولما سمع أبي الرّوحيّ كلّ هذا، تعجّب وقال لي مبتسمًا: طالما أصبحت الآن بصحّة جيّدة، لماذا عليّ الانتباه إلى صحّتي بهذا المقدار؟ الجواب على هذا التّساؤل كان يعرفه الأب بورفيرْيوس وحده، ولكنّه لم يكشفه لأيّ منّا.

لم تمرّ سنون كثيرة حتّى انتكست صحّة أبي الرّوحيّ من جديد. فاحتاج إلى عمليّة جراحية جديدة، ولكنّه لم يخضع لها إذ إنّ حالته الصحيّة كانت في تدهور مستمرّ. كان يتوجّع بشدّة، ولا يأكل شيئًا. كانوا يساعدونه بالمصل، وراح يذوب كالشمعة يومًا بعد يوم. في إحدى زياراتي الأخيرة له، قال لي بصوت خافت: قل للأب بورفيرْيوس إنّي أتوجّع كثيرًا، واطلب منه متوسّلًا أن يصليّ من

أجلي. إن كانت إرادة الله أن أعيش، فليجعلني هبة لأبنائي الرّوحيين. أمّا إن أراد أن يأخذني فليأخذني. ليكن اسمه مباركاً.

ولما نقلتُ هذه الرّسالة إلى الأب بورفيرْيوس، تأثّر وطلب إليّ أن أتصل به في الحال. وتبع ذلك حوار مؤثّر بين أبي الرّوحيّ الذي أصبح على حافة القبر، وبين الأب بورفيرْيوس الذي وصل في الماضي ثلاث مرّات إلى هذه الحالة. كان الأب بورفيرْيوس يشدّده، ذاكراً له أحداثاً مماثلة من تجاربه الخاصّة، بينما بالكاد استطاع أبي الرّوحيّ أن يرد ببعض الكلمات بسبب شدة آلامه الصعبة. إنّ "أستاذ" الحياة الرّوحية المقدّسة، الذي صُلب مراراً كثيرة، يشدّد "المعلّم" في حمل ثقل صليبه في أصعب الأوقات. لقد ترك الأب بورفيرْيوس آلة الهاتف مفتوحة، فسمعت، وأنا راكع ودامع العينين، المحادثة كلّها.

وعندما انتهى الأب بورفيرْيوس استدار نحوي وقال: "آية عجيبة كانت هذه؟ كان أبالك الرّوحيّ إلى جانبي. رأيته؟" أجبتّه لا، لم أره أيّها الشّيخ". وتابع الأب بورفيرْيوس: "إنّها عجيبة عظيمة، على الرّغم من أنّ الأجساد بعيدة، فالأرواح متلاقية! إنّي أتصل به باستمرار في النّهار وفي اللّيل، وخصوصاً عندما أراه يتوجّع كثيراً. وقد اتّفقنا أن نصليّ معاً في ساعات معينة. أكلّمه عندما يتألّم كثيراً، فهذا يفيدّه جدّاً. لكنّ الزوّار يتعبونه كما يتعبونني. إنّي أفهمه جيّداً، قد مررتُ بهذا أنا أيضاً. لقد فعلوا حسّناً بعدم إجراء الجراحة. ليركّوه هكذا، بمقدار ما يقيه الله. وبرجاء يائس سألتّه: إذا شاء الله أيّها الشّيخ، ألا يمكن، ولو الآن، أن تحدّث عجيبة ويحيّا؟ فأجاب الشّيخ: "إذا شاء الله، كلّ شيء ممكن". ولكنّ الله لم يشأ أو بالحري شاء خلاف ذلك، بحسب محبّته الكلّيّة الحكمة. ففي غضون أيّام قليلة أخذه إلى السّماء.

بعد رقادّه، ذهبت عند الأب بورفيرْيوس وأنا كسير القلب. لم يعد عندي رسالة أنقلها له من أبي الرّوحيّ. انحنيت وقبّلت يده، مبلّلاً إيّاها بدموعي، وأسندتُ جبّتي إلّهما بصمت وبدأت أصليّ سرّياً من أجل راحة نفسه المقدّسة. وكان الشّيخ صامتاً أيضاً. وعند نهاية صلاة الشّيخ، سمعته يتمتم: "عاش للمسيح، وذهب إلى المسيح". رفعت رأسي وسألت: عمّن تتحدّث أيّها الشّيخ؟ لم

يتكلم الشيخ. ففهمت من يعني بكلامه. سألته باحتجاج: لماذا لم يصنع الله عجيبته، ولم يتركه لنا سنين قليلة بعد؟ لقد رحل وهو بعدُ شاب. أجاب الشيخ: "لقد صنع الله عجيبته". فسألته: كيف صنعها وقد أخذه منا؟ فقال: "كان سيرحل بعد أول عملية، ولكن الله أنارني كي لا أدعهم يجرون له علاجًا كيميائيًا، لأنه كان سيموت منذ ذلك الحين. لقد أبقاه الله لنا ثماني سنين أخرى. ألم تكن عجيبة أن يعيش ثماني سنين، ويقوم بالخدم الليتورجية والاعتراف، ويتحدث في مواضيع كنسية مهمة ويكتب عنها، ويزور مرضى ويساعد أناسًا كثيرين؟" وفي الواقع، كما تبين، كانت هذه عجيبة كبرى صنعها الله بمحبته.

الشيخ بوصفه طبيبي

❖ أول تشخيص

إنني، على الرغم من عدم استحقاقي، كنت بين الذين استحقوا أن يكون الشيخ "طبيبهم الخاص". فمن أول لقاء، أمسك الشيخ يدي وراح يسمع نبضي، وأجرى لي تشخيصًا طبيًا وجيزًا. قال لي: "أرى أنّ عندك مشاكل صحيّة. إنّها مشاكل تختصّ بالأعصاب والدورة الدمويّة". بهذه الكلمات أوجز الشيخ حالتي الصحيّة. إنّ المشاكل التي شخّصها الأطباء حتّى ذلك الحين تعود إلى حساسيّة الجهاز العصبيّ وصعوبة دوران الدم. كان الشيخ مصيبًا في تشخيصه، إنّ استنتاجه بأن المشكلة بسبب الأعصاب والدورة الدمويّة لم تكن صدفة، لأنّه بيّن مشكلتين بطريقة واحدة. في الواقع، بيّنت فحوصات طبيّة لاحقة أنّ المشكلة العصبيّة متشابكة مع مشكلة الدورة الدمويّة وقد أثّرت كلّ منهما على الأخرى.

في فترة لاحقة، انتابني انزعاج شديد بسبب صداع أليم وحالة دوار. أخبرني الشيخ فقال لي: "أرى أنّ الأوعية الرقيقة في الدماغ لا تسقي الخلايا

جيدًا. هناك أمر يحدث في النمو العظمي في الأذن. لا أستطيع أن أقول لك أكثر من هذا، لن تفهمي، لأن الوظائف هناك في الداخل معقدة".

بعد بضعة أشهر، أعلمته بأنني استشرت طبيب أذن وأنف، فحدّد لي مشاكل في النمو العظمي، وعدم ارتواء جيد لخلايا الأذن الباطنية التي منها تنتج الدوخة والصداع. فرح الشيخ وقال لي: "أرأيت يا بني، كيف وجدتها؟ أنا لم أستعمل التعبير العلمي "يروي"، قلتها ببساطة، يسقي".

❖ إيقاف الدواء غير الموافق

كان الطبيب قد أعطاني دواءً معينًا في الماضي، وأوصاني أن أتناوله بانتظام. أما الشيخ، الذي لم يكن يحبذ إجمالاً الاستعمال المفرط للأدوية، على الرغم من أنه كان يحترم الأطباء ويقبل الأدوية كشر لا بدّ منه، فعندما سمع بهذا الدواء صمت وبدأ متفكرًا ومصلّيًا. وإذا به يقول لي: "أوقف هذا الدواء يا بني". تعجّبت من تنبيهه القاطع ولكنني قررت أن أطيع فتوقّفتُ عن تناول الدواء.

مرّ الوقت واستمرّ الانزعاج، وكان عليّ أن أخضع فحوصات دقيقة. أخذت البركة من أبي الرّوحيّ كي أعرض هذه الفحوصات على طبيب آخر جيّد، وكان ابنًا روحياً له. وبعد درس دقيق بروح الصّلاة، رأى الطبيب الشّاب أنّ الدواء الذي تناولته لسنتين وأوقفته مؤخرًا هو بلا فائدة بحسب رأيه، ووصف لي دواءً آخر. عندها تذكّرت الشيخ. وعندما التقيته أخبرته بالأمر ففرح مجدّدًا وقال: "ماذا تقول؟ قد أوقفت ذلك الدواء؟ إنّ العلم يوافق معي. أنا لست بطبيب، ولكنني لست ادري كيف، في تلك اللحظة التي أخبرني فيها عن ذلك الدواء، رأيت أنّ عليك أن توقفه. وما خطر لي قلته لك. حسنًا فعلت أنك أوقفته. عليك الآن ان تملأ نفسك من المسيح بالعشق الإلهي والفرح. إنّ فرح المسيح يشفيك. عندما تكون متعبًا جدًّا، خذ دواء من أجل ضعفك. يجب أن

تقوم باعتراف عام كي تشفى جراحات نفسك الخفية. هذا يمنحك فرحاً جماً وأنا أيضاً. الآن أنا مريض، وسيدبر الله فرصة كي نلتقي من جديد". لقد أثّرت في كلماته، خصوصاً "إنّ فرح المسيح يشفيك". لأوّل مرّة أسمع بطريقة علاج مبهجة إلى هذا الحدّ، لا تقتصر على ما هو معروف من العلاجات، بل تعالج الجسد والنفس.

❖ الدّوخة والنّفس

لقد أزعجني الدّوار الذي ينتابني فجأة في أوقات غير محددة، وكان يسبّب لي مشكلة عدم استقرار نفسي، خصوصاً خلال المشي. حاولت تحليل الأمر بنفسي، فبرز تساؤل طرحته على الشّيخ في مقابلي معه. قلت له: أيّها الشّيخ، إنني أتساءل، أيّ من الاثنين يحدث لي: هل الدّوار الآتي من الأذن هو الذي يسبّب مشكلة عدم استقرار نفسي، أم العكس، أي أنني، بسبب مشكلة قلقي النفسي، أصاب بالدّوار؟ أجاب الشّيخ مبتسماً: "أرى أنّك تعمّقت كثيراً. لكنّ الأمر متشابك". من جوابه فهمت أنّ الأمرين مرتبطين ببعضهما البعض، فالمشكلة العضوية تؤثر على الوضع النفسي، والعكس صحيح. وكان من الواضح أنّه، بمعونة الشّيخ والطبيب، عليّ ألاّ أستسلم للأمر، بل أن أعالج المشكلة العضوية طبياً، أمّا المشكلة النفسية فتتعالج بأن أثق أكثر في عناية الله. وكانت نتيجة محاولتي الجادة المكثّفة مؤثرة جدّاً، لا سيما بصلوات الشّيخ وإرشاداته. فلقد تحسّنت حالتي خلال أشهر، على الرّغم من أنّه كان من الصّعب أن تتحسّن خلال سنين. أنا مدين بالمعروف للمسيح بوساطة الشّيخ. إلا أنّ مشاكل صحّتي العامّة بقيت.

❖ تخطيط مسبق للدماغ

مرّت الأعوام. في إحدى زياراتي للشيخ، وفيما كنا نتحدّث بمواضيع مختلفة، رأيته فجأة ينحني ويحضن رأسي بيديه ويرسم عليه إشارة الصليب متممًا: "إنّه في الجهة اليسرى؛ أراه في الجهة اليسرى". لقد أجرى لي الشيخ "تخطيطاً دماغياً روحياً" بوساطة صلاته السريّة، لم يعطيني تفسيراً، بل نصحتني أن أحذر بعض الأمور من أجل المحافظة على صحّتي. والحقّ أنّي لم أحسب لتنبيهه حساباً. وخطئي الكبير كان أنّي بقيتُ، بداعي إهمالي، متأخراً روحياً، لذلك لم أستطع إدراك سموّ روحانيّة الشيخ في مداها الحقيقيّ. وهكذا، أكون إمّا فقدته في سحّب اللامدرك أو أحدرته إلى مستوى جهلي، حتّى أضحيّت غير مستحقّ للفرص الثمينة التي قدّمها لي.

بعد مرور فترة قصيرة على نصائح الشيخ، اضطررتُ يوماً إلى العمل المتواصل من الصّباح حتّى المساء. والأسوأ من ذلك أنّي عملتُ وأنا أعاني صداعاً أليماً. طبعاً، لم تكن المرّة الأولى التي اشتغل فيها في حال كهذه، ولكن، هذه المرّة. ظهرت علامات معيّنة. فحوالي السّاعة السّادسة مساءً شعرتُ بتنميل شديد في أصابع رجلي اليمنى. وددت التّصديق أنّه شيء عابر، فقمّت ببعض الخطوات، فبقي التنميل. ومع ذلك، تحاملت على نفسي حتّى نهاية العمل. فقد سمّرتني هناك شعور غامض بعزة النّفس والتّضحية بالذّات لم يسمح لي بأن أبدو، بتواضع، عدم قدرتي على متابعة العمل.

ولمّا وصلتُ إلى البيت، امتدّ التّنميل إلى أصابع يدي اليمنى. فاتّصلتُ بصديق لي طبيب ووصفتُ له حالتي، فأرشدني إلى علاج معيّن وإلى الهدوء لأنّه لم يتحقّق من وجود شيء خطر حتّى ذلك الوقت. عندها تذكّرتُ الشيخ، ووددت كثيراً أن أتصل به، لكنني ترددت مفكراً: ترى هل هو في قلايته، وحتّى إن كان موجوداً، ربّما يكون مريضاً أو يشغله زوّار كثيرون، واتّصالات خارجيّة. تجاهلت هذا التردد بالفكر التّالي: إنّ الله هو من يدبّر كل الأشياء، لا الإنسان. فرسمتُ إشارة الصليب وطلبتُ الرّقم. وللحال سمعت صوت الشيخ. ففي أوقات

الحاجة، كنت أجده دائماً أو يجدني هو. أخبرته باختصار عن الوضع. سألتني إن كنتُ أحسنّ بانزعاج في أنحاء أخرى من جسدي، وانتهى إلى القول: "لا تخف، الأمر ليس خطراً، ادخل المستشفى". ونقلت رأي الشيخ الوجيز ونصيحته إلى الطبيب الذي وافق بلا مباحثة رأي الطبيب الروحي.

وإذا بي في مستشفى "البشارة". وقد شغلني موضوع عدم استعدادي النفسي للموت. وفي إحدى زيارات أبي الروحي قلت له: أصلي إلى الله كي يعطيني بعض السنين كي أتوب. فأجابني: الأمر لا يحتاج إلى سنين، التوبة هي مثل البرق. أُجريت لي الفحوصات وتمّت معالجة عارض الدماغ الخفيف. وفي النهاية، بقي تنميل خفيف في الجهة اليمنى من الجسم، وهذا دليل على أنّ الإصابة في الدماغ حدثت في الجهة اليسرى، بحسب تداخل الأعصاب الجانبية مع الأعصاب المركزية. وهكذا تحققت، بشكل كامل، رؤية الشيخ الذي سبق، قبل مدة طويلة، أن رأى المشكلة في الجهة اليسرى من الرأس. ولقد تحقق الطبيب أنّ عصب الحسّ قد تأذى، من جهة، بينما بقي عصب الحركة سالمًا. وأيضًا، تحقق تشخيص الشيخ بأنّ حجم المشكلة كان صغيرًا. شكرت الله لأنّ الحالة كانت محدودة، إلا أنّ تأنيب الضمير كان يعذبني. إذ كنت أشعر أنّي مسؤول عن مرضي هذا.

في لقائي الأول مع الشيخ بعد خروجي من المستشفى، ذكرت له هذا الأمر فعّل الحدث بمثل: "أتعلم، عندما يتعب القضاة يتوقفون عند الظهر. منذ فترة، تعرّضت إحدى بناتي الروحيات لحادث سير بسيارتها فأصابها دوار. اتّصلت بي الأحد صباحًا. نصّحتها بالآ تذهب إلى الكنيسة، وأن تبقى في البيت كي ترتاح. لم تسمع نصيحتي وذهبت فوقعت في الطريق ونُقلت إلى المستشفى". فهمتُ ما يريد الشيخ قوله لي. كان مثله صائبًا. وإذ رأني حزينًا بسبب تأنيب الضمير أضاف: "لا تحزن. بل بالأحرى. افرح واشكر الله، لأنّه كان من الممكن أن تصاب بأسوأ. فالذي أصابك كان طفيفًا. وبالكاد يُذكر. لقد نجاك الله".

في لقائنا التالي، أعطاني إرشادات دقيقة مثلما يفعل الأب الحنون مع ولده: "عليك أن تنتبه إلى برنامجك الغذائي. لا تتناول أطعمة تؤذيكَ وتزيد

وزنك. لا تبق وقتًا طويلاً في السرير، لأنك ستمرض من جديد. تحرك، اعمل رياضة، ولكن باعتدال. عليك أن تمشي بسرعة معتدلة، وتحاشِ الطلعات والانحدارات، لا تذهب إلى أمكنة مرتفعة جداً أو منخفضة. سرّ بوقع عادي في مكان مستوٍ من دون أن تتعب. اخرج من البيت. لن أقول لك إلى أين تذهب، اذهب حيث يروق لك، يكفي أن تخرج من أثينا بعيداً عن تلوث الجوّ الذي يؤذي صحتك كثيراً. لا تخرج في البرد القارس ولا في الحرّ الشديد. عندما تخرج في البرد، ضع منديلاً على أنفك وفمك كي لا تتنشّق الهواء البارد، وفي الحر، اعتمِر قبعة كي لا تضرّ الشمس رأسك. احذر جيّداً الضغط النفسي والقلق اللذين تشعر بهما في عملك. أنا أعلم أنّهم لا يضغطون عليك هناك فتبدو هادئاً خارجياً، لكنك، داخلياً، تضغط بنفسك على نفسك كي لا تقصّر تجاه الآخرين، وكي تقدّم عملاً أكثر وأفضل. هل رأيت كم هدأت داخلياً، مذ أخذت إجازة طبيّة وابتعدت أياً ما عن عملك؟ عندما ستقوم بنوع آخر من العمل، لن يكون عندك قلق. اقرأ كتباً أبائيّة وصلّ وقبل كلّ شيء لا تحزن. وهكذا ستتحسّن صحتك. وكلّما ازدادت حبّاً للمسيح ستفرح أكثر ويقلّ حزنك. اعمل كلّ شيء بمحبّة وشكر، من دون ضغط وقلق. تناول أدويةك، ربّما تستغني عنها يوماً ما.

❖ سابق معرفة بجرحتي القلبية

مرّت منذ ذلك الحين أربع سنوات. كانت زياراتي خلالها لقلّايته مستمرة كالعادة، إلى أن اتّصل بي عصر أحد الأيّام ونصحني أن أذهب سريعاً إلى طبيب القلب لاجراء تخطيط قلب. قلقت قليلاً، إذ سبق وأجريت تخطيطاً وكان طبيعياً. ذهبت إلى طبيب قلب صديق لي (غالباً ما كلّّمته على الشّيخ فتمنّى التّعرّف إليه) وطلبت منه أن يجري لي تخطيطاً. تعجّب صديقي من مبادرتي الشّخصيّة المفاجئة هذه. وعندما قلت له، مبتسماً، إنّ لديّ "أمراً قضائياً" من الأب بورفيربوس. أسرع إلى وضع الآلة. لم تظهر على الآلة أيّة إصابة، فقال

الطبيب إنّ الأب بورفيريوس قلق عبثاً. وقبل أن ينهي جملته، سمعته يقول رافعاً صوته: "ولكن هناك شيء ما". كان ذلك طريقة قلب سريعة سببها انسداد شريان القلب، واحتجت لأوّل مرّة إلى تناول دواء للقلب. لقد اشتغلت "آلة" الشيخ الرّوحية لتخطيط القلب" بكل دقة، و"التقطت" المشكلة، وهو على بعد مسافة عتي. زرتة في فلايته وأخبرته بنتيجة الفحوصات. كان يفكر. وأعطاني هذه المرّة إرشادات طبّية جديدة تخصّ القلب.

في غضون أيّام، ظهرت لديّ عوارض ذبحة قلبية. عند السّاعة الثّانية بعد منتصف اللّيل، استيقظت بسبب آلام شديدة في الصّدر والظّهر واليدين، نقلوني على أثرها إلى المستشفى. ومن الغرابة أنّ آلة التّخطيط لم تظهر شيئاً، وقد تصوّر الطّبيب المناوب أنّ الأمر سببه انزعاج عصبيّ، ونصحني بتناول مسكّنًا للأعصاب.

عدت إلى البيت، وعلى الرّغم من تناولي المهدئ، بقي الألم. فعدت إلى المستشفى من جديد بعد ساعات عدّة. هذه المرّة، أظهر التخطيط جرحاً قلبيةً حادّة. بقيت في العناية الفائقة عدّة أيّام. وشدّد اثنان من الأطبّاء على أنّي في عودتي إلى البيت في تلك اللّيلة، مع ظهور ذبحة قلبية، وبدون إسعاف طبي، عرضت نفسي لخطر الموت. وهذه المرّة أيضًا استخففت بالخطر الذي أشار إليه الشيخ في حينه. ومن جديد ترأّف بي الله بصلواته ومنحني زمانًا للتّوبة.

وأذكر أنّي تغيّرت خلال أيّام نقاهتي تلك. لم تعد تهمني كلّ الأشياء العالميّة، وتحولت عن كلّ أفراحي الشّخصيّة الصّغيرة ذات الطابع العالويّ. كنت أعجب من المرضى الذين كانت لهم الشّجاعة على هدر وقتهم باهتمامات سخيفة، بينما ساعة الموت والدينونة الأبديّة قريبة من كلّ واحد منّا. لقد أدركت أنّ الاعتبارين أصحاب، لا يختلفون فعليًا عن المرضى، لأنهم ولو استطاعوا ان يضمّنوا الحياة مئة سنة، فإنها ستكون أقصر من بضعة ثوان بالقياس إلى الأبديّة الآتية للجميع.

فكيف يستطيعون أن يغضّوا النظر عن هذه الحقيقة التي تهزّ الكيان ببقائهم غير مستعدين نفسيًا؟ وكيف كان باستطاعتي الاستعداد؟ الأمر الوحيد

الَّذِي كُنْتُ أَرْغَبُ فِيهِ مِنْ أَعْمَاقِي فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ هُوَ أَنَّ أَصْلِي مِنْ دُونَ انْقِطَاعِ صَلَاةِ "يَا رَبِّي يَسُوعَ الْمَسِيحَ اِرْحَمْنِي"، وَالَّتِي تَحَوَّلْتُ سَرِيعًا وَعَفْوِيًّا إِلَى "يَا رَبِّي يَسُوعَ ، سَامَحْنِي". وَحَدَّثَهَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ أَرَاخَتْنِي نَفْسِيًّا. وَهَكَذَا، مِنْ دُونَ أَنْ أَعْيَ، طَبَّقْتُ عَمَلِيًّا تَعْلِيمَ الْأَبِ بَورْفِيرْيُوسَ: "عِنْدَمَا تَكُونُ مَرِيضًا، اطْلُبْ مِنَ الْمَسِيحِ أَنْ يَغْفِرَ لَكَ خَطَايَاكَ". كُنْتُ قَدْ نَسِيتُ هَذَا التَّعْلِيمَ، أَمَّا الشَّيْخُ فَكَانَ يَتَذَكَّرُهُ، وَفِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ أَحْضَرَهُ عَلَى شَفَتِي. عِنْدَهَا فَهِمْتُ كَمْ كَانَ بَعِيدَ النَّظَرِ وَعَمِيقًا وَمَحَقًّا. وَبِجَهَازِ تَلْفَازَةِ الرُّوحِيِّ الْمَفْتُوحِ دَوْمًا، كَانَ يَتَابِعُنِي وَيَشَدِّدُنِي. وَمِنَ الْغَرِيبِ أَتْنِي الْآنَ فِي أَوْقَاتِ فَتَوْرِي الرُّوحِيِّ أَتَذَكَّرُ بَحْنِينَ سَاعَاتِ الْخَطَرِ تِلْكَ وَذِكْرَ الْمَوْتِ، الَّتِي جَعَلْتَنِي أَشْعُرُ بِنَهْضَةِ رُوحِيَّةٍ قَوِيَّةٍ وَهَدُوءِ نَفْسِيٍّ غَيْرِ مُتَقَلِّقٍ. وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الشَّيْءُ الْغَرِيبُ الْمُقَدَّسُ مِنْ صَنْعِي، بَلْ مِنْ صَنْعِ مُحَبَّةِ الْمَسِيحِ، بِصَلَوَاتِ الْأَبِ بَورْفِيرْيُوسَ.

وَلَمَّا انْتَهَتْ مَدَّةُ اسْتِشْفَائِي، عُدْتُ إِلَى الْبَيْتِ. وَهَنَّاكَ، بَعْدَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ، تَحَقَّقْتُ مِنْ بَرَكَةٍ أُخْرَى مِنَ اللَّهِ غَيْرِ مُتَوَقَّعَةٍ سَبَبُهَا الْمَرَضُ: لَقَدْ أَضْحَى مَرَضِي الدَّرْعَ الْوَاقِيَ الَّذِي يَحْفَظُنِي مِنَ التَّوَرُّطِ فِي فُسَادِ نَفْسِيٍّ سَبَبُهُ مَشَاكِلُ تَظْهِرُ فِي طَرِيقِي وَتَهْدِدُ صَحَّتِي الْجَسَدِيَّةَ وَتَهْلِكُهَا.

❖ كُنْتُ أَتَسَاءَلُ مَا بَكَ

كَانَ الشَّيْخُ يَهْتَمُّ بِصَحَّتِي دَائِمًا، حَتَّى عِنْدَمَا أَكُونُ بَعِيدًا عَنْهُ. هَكَذَا، كَانَ يَطْبِقُ مَا قَالَهُ لِي: "يَا لَهَا مِنْ عَجِيبَةٍ إِلَهِيَّةٍ! الْأَجْسَادُ بَعِيدَةٌ، أَمَّا النَّفُوسُ فَمُجْتَمِعَةٌ". لَقَدْ بَرَزَتْ عِنْدِي مُشْكَلَةٌ صَحِّيَّةٌ جَدِيدَةٌ، وَكَانَتْ لِيَالِيَّ تَمَرُّكَ الْكُوَابِيْسَ وَتَسَبَّبَ لِي، إِلَى جَانِبِ الْعَذَابِ الْجَسَدِيِّ، عَذَابًا نَفْسِيًّا. وَفِي زِيَارَتِي الْلاحِقَةِ لِلشَّيْخِ، وَفُورَ دَخُولِي قَلَائَتِهِ، بَادَرُ إِلَى سُؤَالِي: "قُلْ لِي، مِمَّا تَعَانِي صَحِيًّا؟" وَعِنْدَمَا أَخَذْتُ أَصْفَ لَهُ مَعَانَاتِي الْجَسَدِيَّةَ، قَاطَعَنِي قَائِلًا: "إِذَا، هَذَا هُوَ الْأَمْرُ. وَأَنَا مِنْذُ

ليالٍ عديدة أتساءل ما بك؟" إنَّ "تلفاز" الشَّيخ الرُّوحِيّ لم يكن يتوقف حتى في اللَّيْلِ.

❖ الأدوية

لم يكن الشَّيخ يرفض الأدوية. لكنَّه لم يعتبرها الحلَّ الوحيد للشفاء. سألني يومًا: "ما هو الدواء؟" أجبتُه: إنَّه تركيبة كيميائيَّة نتناولها كي نشفى من أمراضنا. لم يرضه جوابي وأعاد السَّؤال: "قل لي ما معنى كلمة دواء، ألا تعني لك شيئًا الكلمة بحدِّ ذاتها؟" وجدت نفسي عاجزًا فصمتُ، وأنا أنظر إليه. فتابع الشَّيخ: "كلمة الدواء farmaco تعني سمَّ farmaki. فالأدوية تفيد جسم الإنسان من جهة، ولكنها تضرُّه من جهة أخرى. لماذا نتناول الأدوية؟ لأننا نمرض. ولماذا نمرض؟ لأننا نحزن ونتكدَّر. ولماذا نحزن؟ لأننا نخطئ. فلو تركنا المسيح يسكن كلَّ نفسنا، لزالَت الخطيئة والانزعاج والحزن والمرض فزعمي الدواء". إنَّ تحليل الشَّيخ هذا بدا لي ممتعًا في بساطته وحكيما بما يكشفه. وكمثل فلاح رُوحِيّ، تقدَّم الشَّيخ من سطحيَّة الأمر إلى أقصى عمقه، وذلك بغية إعطاء تفسير متعاقب لأمر مهمَّة: تناول الأدوية، المرض، الحزن، الخطيئة، وغياب المسيح عن نفسنا. من هنا، وبهذا التَّحليل، فهمت، بشكل أفضل، تأكيد الرِّسول بولس حول مَنْ "تركوا المسيح يسكن في كلِّ نفوسهم": "مكتئبين في كلِّ شيء، لكن غير متضايقين" (٢ كور ٤: ٨).

وفي لقاء آخر، قال لي: "عندما نمرض، ولكي لا نرتكب أخطاء، علينا أن نتبع الإرشادات الطَّبيَّة والمنطقيَّة. ولكن، الأهم من كلِّ هذا هو أن نتبع إرادة الله وان نثق بمحبَّته". كان الشَّيخ يعرف دائمًا أن يوفِّق ويوازن بين هدف الإنسان الرُّوحِيّ الرفيع وحاجاته الماديَّة.

الشَّيْخ طَبِيب النَّاسِ

❖ مريضة السرطان التي شُفيت من دون عمليّة جراحية

شَخَّصَ الشَّيْخُ أمراضَ الكثيرين من أبنائه الرّوحيين وتابعها وشفاهها، فضلاً عن أمراض بعض الأشخاص المجهولين الذين لم يعلموا بالأمر أبداً، ولكنهم سيعلمون في النهاية، في السّماء.

عصر أحد أيّام الصّيف، كنّا مع بعض الزوّار ننتظر عودة الشَّيْخ ونحن جالسون على مقاعد خارج قلايته في كاليسيا، إلاّ أنّه لم يأت. لم نشعر بالضّجر ونحن ننتظر، إذ كنّا نتحدّث ويكلّم أحدنا الآخر على خبراته مع الشَّيْخ. على الرّغم من غيابه عنّا، كان حاضرًا بالروح بيننا، ويضفي علينا بهجة نفسيّة. وتكلّمت بدوري وقلت إنّ الشَّيْخ شفى مرضى أيضاً. سألتني إحدى السيدات: وهل يشفى من أمراض خطيرة؟ أجبت: ماذا تعنين بخطيرة أيّتها السيّدة؟ لقد شفى، بصلواته، بعض النّاس من مرض السرطان العضال، كما علمت. نظرتُ إليّ السيّدة بتركيز، وضحكت. عذراً أيّتها السيّدة، لماذا تضحكين، أتظنين أنّي أخبركم خرافات؟ أجابت: ليست خرافات البتّة، لأنّني أنا التي شفاها الشَّيْخ بصلواته من السرطان العضال. فصعقنا كلّنا، وقلنا بصوت واحد: هل أنت هي؟ أخبرينا كيف حدث ذلك. ترددت السيّدة ثمّ رضخت لطلبنا شرط ألاّ نعلن اسمها.

وبدأت تخبرنا: "أصبت بالسرطان الذي تفاقم وانتشر في كلّ جسدي. عولجتُ في عدّة مستشفيات، إلاّ أنّ حالتي كانت تسوء باستمرار. كنت أتوجّع بشدّة، ولم أعد أستطيع الأكل وأصبحت هيكلاً عظميّاً. وفقد الأطباء الأمل بشفاي. فأخذني بعض أقربائي إلى لندن. وحتّى هناك لم يستطيعوا عمل أيّ شيء. أعادوني إلى بلادي لأموت فيها على الأقل. أحضروني إلى مستشفى "البوليكلينيكي". كنت منهكة ويائسة. وهناك حدّثتني إحدى معارفي عن كاهن

راهب شيخ يعمل العجائب، وهو ساكن في الجوار، في كنيسة القديس جراسيموس. لم أكن أوّمن بالعجائب. ولم تكن الكنيسة تهمني كثيرًا، لهذا لم أعرا الأمر أهمية. وزارني يومًا شيخ ذو شعر أبيض وطلب مني بمحبة ألاّ أحزن، بل أن أصلي إلى المسيح، وسوف أتعافى. بدا لي كلّ هذا غير قابل للتصديق، ولكنّ شيئًا ما تغيّر في نفسي في تلك الساعة. سألتُه ما اسمه، فقال لي الأب بورفيرْيوس.

عندما انصرف، حاولتُ أن أصلي إلى المسيح وأحسستُ براحة. ثم عاد وزارني، وقال لي إنّ السرطان سيّمتد إلى العظم، ولكن، عليّ ألاّ أحزن، بل أن أصلي باستمرار وسأشفى. وشعرتُ بأنّ هذا الإنسان يمتلك قوّة في داخله وينقلها إليّ. بدأتُ أصلي بتواتر وآمنت وأصبح لديّ رجاء مفرح للمرّة الأولى. وفي غضون أيّام، تحقّق الأطباء من أنّ السرطان أضحى في عظامي. أمّا أنا فكنتُ أبتسم، وظنّ الأطباء أنّ السرطان مسّ عقلي. ومنذ ذلك الحين، بدأ المرض يختفي شيئًا فشيئًا، وكنتُ أشعر بذلك. لقد أدرك الأطباء هذا، لكنهم لم يستطيعوا تفسيره. أمّا أنا فكنتُ أعرف السبب إلاّ أنني لم أخبرهم به. استمرّ التحسّن إلى أن نهضت من السرير. وتابعتُ علاقتي بالأب بورفيرْيوس. وصرتُ أجيء إلى هنا إلى كاليسيا. وفي أحد الأيام، كنت في السّاحة هنا أنتظر مع بعض أقبائي، فأرسل الأب بورفيرْيوس سيّدة واستدعاني إلى قلايته. ذهبت، فسألني عن حالي، فقلت له إنّني في تحسّن مستمرّ، عندها طلب أن أخرج إلى الحديقة الصّغيرة وأفتش حتّى أجد حبّي فراولة (ثمّرتي توت) وأحضرهما له.

خرجتُ وفتّشتُ ووجدتُ، فأحضرتُهما له. صليّ الأب وباركهما وأعطاني واحدة لأكلها. وحالما قضمتُها وابتلعته حتّى صرختُ صرخة شديدة وصلت إلى أسماع أقاربي في الخارج وجعلتهم يقلقون عليّ. وقاطعتها متعجّبًا: "ولماذا صرخت هكذا؟" أجابت: "صرخت لأنّني لم أكن قادرة على عمل شيء آخر، إذ إنّني حالما قضمتُ حبة الفراولة، شعرت بحلاوة وسعادة لا توصف تسري في جسدي كلّ، لم يسبق لي إن شعرت بمثلها من قبل. كان ذلك شفائي التّام من السرطان. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يزعجني البتّة. لكنّه ترك تورّمًا في يدي اليسرى، كما

ترون. وقد قال لي الأب بورفيرْيوس إنّ هذه علامة محبة المسيح حتّى لا أنسى إحسانه وأحبه.

قصّة السيّدة أثرت فينا جميعًا تأثيرًا عميقًا، وهي قصّة حقيقة على الرّغم من أنّ طابعها العجائبيّ يكاد يشبه الخرافة. وفي أثناء عودتنا، كانت السيّدة تسير داخل الغابة الصّغيرة بخفّة وهي تتحدّث مسرورة، حتّى إنّك ما كنت تستطيع أن تتصوّر أنّ التجربة الذي مرّت فيه وخرجت منه سالمة، بنعمة الله وصلوات الأب بورفيرْيوس. أمّا بالنسبة إلينا، فلم نتذمّر لغياب الشّيخ، إذ عوّض عنه حضور السيّدة الّتي كانت، سابقًا، تعاني مرض السرطان.

❖ الشيطان والأمراض

تحدّثت مرّة مع الشّيخ في قلايته في كاليسيا في مواضيع تتعلّق بالصّحة. كان يحاول أن يوضح لي أنّ الأمراض مردّها الأفعال الشّيطانيّة والخطايا. وكي يساعدني على فهم ذلك، روى لي الحادث التّالي: "زارتني في قلايتي إحدى السيّدات وكانت يائسة كلّيًا، وكئيبة إلى حدّ الموت. كان زوجها هو السّبب لأنّه يعاني كثيرًا من داء الرّبو. قالت لي إنّها تأسف لحاله وهي عاجزة عن مساعدته، وكان هذا الأمر يحزنها. أمّا أنا فرأيت أشياء أخرى. قلت لها سأساعدك، ولكن، هل تقبلين القيام بما سأقوله لك؟ أجابت سأعمل كلّ ما تقوله لي. قلت لها: ستمضين الآن من هنا وتذهبين إلى البيت. ستدخلين من الباب الرّئيسيّ وتذهبين إلى غرفة زوجك المريض. ستمكثين قليلًا معه وتنتهين إلى ما سيعمله. بعدها ستنهضين وتقولين له: أنا ذاهبة إلى السّوق لشراء بعض الحاجيّات. ولكنك لن تذهبي إلى السّوق، بل ستدورين حول البيت وتدخلين من الباب الخلفيّ إلى المطبخ الملاصق لغرفته. إحذري من أن ينتبه لك. ستبقين في المطبخ حوالي السّاعة، وتصغين لسماع ماذا سيعمل. وعندما يحين الوقت

ستخرجين من الباب الخلفي. وتدورين من جديد حول البيت وتدخلين من الباب الرئيسي إلى غرفته. ومن جديد انتبهي إلى ما سيعمله حالما يراك. فعلت السيّدّة كما قلت لها. وأنت إليّ في اليوم التالي. سألتها: ماذا جرى؟ قالت لي، حالما دخلتُ إلى غرفة زوجي من الباب الأمامي، بدأ بالسعال بقوة والبصاق، والتّدمر ممّي قائلاً بمرارة إنّي لا أحبّه ولا آسف له البتّة، وأتركه وحيداً يتألّم. بعد قليل، قلت له إنّي ذاهبة إلى السوق لبعض الوقت. فتجدّد السعال والتّدمر. ولمّا دخلتُ المطبخ لاحظتُ أنّ غرفة زوجي يسودها الهدوء. وبعد مضي ساعة، عدتُ إلى جانبه. وحالما فتحتُ الباب ورآني، بدأ بالسعال من جديد والتّدمر من أنّه، طوال ساعة غيابي، عانى كثيراً من السعال ونادى واستنجد وكان على وشك أن يموت وحيداً.

سألتها: أفهمت الآن ماذا يجري؟ أجابتني أنّ الامور مشوّشة في رأسها، وتعجز عن فهم ما يجري. قلت لها: أنا سأشرح لك. إنّ زوجك فيه شيطان. لقد رأيته منذ لحظة مجيئك أمس. لقد ابتلاه الشيطان بالرّبو، وبمرضه يريد أن يتخلّص منك. وأنت بما أنّك حسّاسة جدّاً، كلّما رأيته يتألّم ويتدّمّر باستمرار من أنّك لا تبالين به، تذوبين حزناً. فيما هو لا يحزن. عندما تكونين بالقرب منه، ولأنّه جعلك هدفاً له، يبدأ بالسعال والبصاق والتّدمر. وحالما تبتعدين عن ناظره يهدأ.

كانت السيّدّة تنظر إليّ. وبدأت تفهم شيئاً فشيئاً ما يجري. أخبرتها بما عليها أن تفعله كي تحارب الشيطان وتنجو هي وزوجها. وقد سمعت لي، وهي اليوم بحالة أفضل.

أثّر فيّ حسد الشيطان القتال من جهة، ورؤية الشيخ الصائبة وتدخله الشافي من جهة أخرى، وتولّدت عندي حيرة ما، فسألته: ان ذلك الرّبو، أيّها الشيخ، كان نفسياً إذّا، أي خيالياً؟ أجابني: "لا، لقد كان حقيقياً وعضوياً، لكنّ الشيطان هو الذي سبّبه واستعمله كسلاح فتاك ضدّ تلك المرأة".

وفهمت من هذا الكلام أنّ لدى الشياطين القدرة على إزعاجنا بوسائل فتاكة مرّات كثيرة، ليس في النفس فحسب، بل في الجسد أيضاً. وأنّ مساعدة

القديسين في خلاصنا ضرورية جدًا وفعالة. طبعًا، يجب ألا يخيفنا هذا الأمر، لأنَّ قوَّة المسيح أعظم من قوَّة الشَّيطان بما لا يقاس، وكما يقول الشَّيخ: "إنَّ على إنسان المسيح أن يحبَّ المسيح، وعندما يحبَّ المسيح يتحرَّر من الشَّيطان، ومن العذاب والموت."

عمومًا، إنَّ قدرة الشَّيطان على التَّدخُّل في حياة الإنسان موضوع دقيق جدًا. فمن جهة، هناك من لا يعترفون بوجود الشَّيطان، فيسقطون فريسة له بسهولة كونهم ينسبون قدراته إلى عوامل أخرى، إلى إرادتهم أو إلى إرادة الذين يحتكُّون بهم. ومن جهة أخرى، هناك من يبالغون في خوفهم من الشَّيطان، ويعيشون بقلق من قدراته الشريرة وتأثيراتها على حياتهم. الحقيقة هي في الوسط تقريبًا كما نتعلَّم من سفر أيوب ومن الآباء. ذلك أنَّ الشَّياطين تستطيع فقط أن تهدِّد في البداية (ولا تستطيع أن تنقذ تهديداتها بلا سماح من الله). وتستطيع أيضًا أن تحاول تضليلنا وإغراءنا (في حين لا تستطيع تضليلنا من دون إرادتنا). هكذا، نحن لا نهاب مواجهتها عندما تهاجمنا لأننا نحبَّ المسيح ونطلب مساعدته وصلوات القديسين بتواضع وإيمان، ونعترف ونتناول، مستخدمين قوَّة صليبه لطردها وحلَّ مكائدها. لكن، من المستحسن لنا نحن المبتدئين في الحياة الروحية أن نتوجَّه إلى المسيح ونزدري بالشَّيطان ولا نبالي بأعماله، وذلك بإرشاد الأب الرُّوحانيِّ دائمًا.

إذًا يستطيع الشَّيطان، بسماح من الله فقط، أن يجربَّ أحدهم جسديًا (أيوب ١: ١١-١٢، ٢: ٦-٧) إمَّا بسبب خطاياه وإمَّا لإظهار فضيلته عبر التجارب كما حدث مع أيوب. غير أنَّ الله دائمًا إلى جانب المجربِّ كي يساعده ويمنحه القوَّة ليتحمَّل التجربة ويغلب كما في حال الرُّسول بولس الذي أُعطي "شوكة في الجسد" لئلاَّ يستكبر، وأُعطي معها نعمة جزيلة تكفي لكي تظهر قوَّة الله عبر ضعف الإنسان (٢ كور ١: ٧-٩).

❖ شفاء بعض المصابين بمرض السرطان من خلال عملية جراحية

أراد أحدهم التعرف إلى الأب بورفيرْيوس بعد أن حدثته عنه، إلا أنه، وقبل أن يحقق أمنيته، أُصيب بمرض السرطان كما أظهرت الفحوصات فيما بعد. وقد استشار عدة أطباء، فأعطى كل واحد منهم رأياً مختلفاً عن الآخر في كيفية معالجة المرض. وفضل المريض أن يسلم صحته لطبيب من بينهم يثق به أكثر من الآخرين. ولزم أن أسأل الطبيب الروحي، أي الأب بورفيرْيوس، عما يجب عمله. في زيارتي الأولى، بدا مرتباً ورأى أن الحالة صعبة فلم يعط جواباً. وفي الزيارة الثانية، كان لديه إعلان واضح فقال لي: "فليكن ما يقوله الطبيب وما يقرره المريض نفسه". ونقلت إلى المريض رأي الشيخ. ولما استشار الطبيب، فضل الأخير أن يجري له عملية. بينما تنحى الأطباء الآخرون معتبرين العملية تعباً باطلاً. وقرر المريض قبول العملية لمعالجة المشكلة جذرياً. وقد وافق اقتراح الطبيب قرار المريض بصورة عجيبة. عندها قلت لهما: الظاهر أن العملية هي وفق إرادة الله، كما رآها الأب بورفيرْيوس، وما من شيء أكثر أمناً من تحقيق إرادة الله في كل ظرف. جرت العملية ودامت ساعات وكانت خطيرة. وبموازاة ذلك، وبارشاد الشيخ، كانت تقام صلوات من أناس كثيرين، كهنة، ورهبان، وعلمانيين، في أماكن مختلفة، خصوصاً في أثناء ساعات العملية. وطبعاً كانت تواكب هذه "الحملة الصلاتية" صلاة الأب بورفيرْيوس. وسجلت العملية نجاحاً استثنائياً بجهود الطبيب الجراح المضنية. منذ ذلك الحين، وقد مرت عَشرون سنة تقريباً، والمريض يعيش معافى وممجداً الله.

❖ نجاح عملية في الدماغ

ظهر تورّم في دماغ أحد أصدقائي. فانهارت معنوياته، وفقد كل أمل، وقدّر الأطباء أنه سيعيش مدة ستة أشهر. حدثته عن الأب بورفيرْيوس، فسمعتني

باهتمام بالغ وبدأ يستعيد شجاعته. وبما أنه كان في المستشفى وغير قادر على السير، طلب إليّ أن أذهب إلى الشيخ وأسأله عمّا إذا كان يجب أن يتعالج هنا أم في إنكلترا. فأجابني الشيخ: "أرى أنّ الورم موجود في الجهة اليمنى من رأسه. من الأفضل أن يذهب إلى إنكلترا. وأنا من هنا سأصلي كي ينير الله الأطباء ليقوموا بعملهم جيّدًا، وقل له أن ينتبه من البرد أثناء وجوده هناك". نقلتُ كلام الشيخ إلى الصديق وأهله، فسافروا إلى لندن حيث أشار عليه الأطباء هناك بإجراء عمليّة جراحية. وفور انتهاء العمليّة، دعا رئيس الأطباء شقيق المريض إلى مكتبه، فأسرع، ظانًا أنّه سيسمع خبرًا سيئًا. طمأنه رئيس الأطباء وشرح له أنّه دعاه لمهنّته، وأنّه يفعل ذلك بصورة استثنائية كلّ مرّة يجري فيها عمليّة جراحية بنجاح غير متوقّع. لما خرج المريض من المستشفى أصيب بالبرد بسبب ارتدائه ثيابًا خفيفة. وهذا ما دعاهم إلى إطالة إقامتهم أسبوعًا آخر في الفندق في لندن إلى أن شفي المريض من إصابة البرد. ولما عادوا إلى أثينا، ذهبوا إلى الشيخ وشكروه على مساعدته الكبيرة، وطلبوا المسامحة لأنّهم لم يهتموا بنصائحه بالتفصيل. ولقد أخبروني أنّهم، أثناء وجودهم في لندن، انهمكوا بمشكلة العمليّة الخطرة، واعتبروا تحذير الشيخ من البرد أمرًا تافهًا، فيما كاد يسبّب مضاعفات خطيرة.

❖ ٢٧ نصائح، تشخيصات، وشفاءات عديدة

١ - سأل أحدهم الشيخ: من أين تأتي الزيادة في الكولسترول التي تأكد الطّبيب من وجودها في فحص دمي. أجابه الشيخ: "إنّها متأتية من تكدرّك ومن غذائك".

٢ - وسأله آخر عن مشاكل جهازه العصبي فأجابه: "إنّها ناتجة من أسباب نفسيّة".

٣ - وقال له ثالث: أيها الشيخ. لأنني في السنين الأخيرة بتّ أصلي أكثر وأشرت في أسرار الكنيسة، لقد خفّ قلقي. فأجابه الشيخ: "إنّ الأمر كذلك. لقد رحمتك نعمة الله".

٤ - كان لدى أحدهم كسر غير اعتيادي في عظم ساعده اليمنى، وقد اقترح عليه الطبيب إجراء عملية جراحية. سأل الشيخ فرأى أنّ كل الأعصاب المتشعبة من مكان الكسر تتطلب انتباد الطبيب، وأنّ فشل العملية، سيخلق عنده إعاقة دائمة. اقترح عدم إجراء العملية تجنباً للخطر. كانت النتيجة أنّه، مع الوقت، أصبح قادراً على استعمال يده من دون مشاكل خطيرة.

٥ - نصح الشيخ أحدهم بتجنّب عمليّة البروستات لإبعاد خطر تحوّل الإصابة إلى سرطان فيما بعد.

٦ - كان الشيخ يتحدث مرّة إلى مجموعة من الزوّار في الهواء الطلق في موضوع تلوث البيئة، فالتفت الشيخ نحو النساء وقال: "أنتن أيّها النساء تغسلن الفاكهة والخضار لتجنّب الأمراض، أليس كذلك؟ والبعض منكن يغسلنها بالصابون؟". فأجبن بالإيجاب. أضاف الشيخ: "ومع ذلك لا تعلمن أنّ الفساد هو من الداخل".

٧ - لما رآته إحدى بناته الزوّحات ضعيفاً، نصحتّه قائلة: كلّ جيّداً أيّها الشيخ. أجابها: "إنني آكل الطعام وهو بدوره يأكلني".

٨ - زار الشيخ شاب مصاب بالإيدز. كان يائساً وسأل الشيخ إن كان يستطيع أن يلجأ إلى دير ليصبح راهباً. عزّاه الشيخ ونصحه بأن يعمل على تقوية إيمانه بالمسيح الذي هو الرجاء والملاجئ الوحيد لكلّ حالة. وعن الدير قال له إنّ اللجوء إليه يجب ألا يكون عن حاجة أو يأس، بل عن رجاء بالمسيح ومحبة له.

٩ - طلب أحد المصابين بمرض السرطان، وكان في المرحلة الأخيرة من المرض، من أحد أصدقائه أن يستعلم من الشيخ إن كان سيعيش. لم يجب الشيخ عن السؤال، وقال فقط إنّّه يصلي إلى الله، وأرسل إليه مسبحة. بعد أيّام قليلة، وفيما كان المريض يصلي والمسبحة في يده، فارق الحياة إلى السموات.

١٠ - ظهرَ أحد أيام الصَّيف، زارَ أستاذ جامعة الشَّيخ في البيت النِّقال حيث كان يقيم آنذاك. ولما قابله، طلب منه أن يبارك حماه الموجود داخل السيَّارة. تقدَّم الشَّيخ ومدَّ له يده للتَّحية، لكنَّ الرجل (وهو غير منتبه) لم يتحرَّك لأنَّ الرِّجاج كان مقفلاً. ولما فتح الحمو الشَّباك، بعد تدخُّل الصَّهر، مدَّ يده من داخل السيَّارة، فقال له الشَّيخ: "أخرج أيَّها الرجل، هل أنت في بيت من زجاج؟" ففسَّر له الصَّهر أنَّه مريض وعليه الوقاية. إذًا أخبره الشَّيخ عن أهميَّة الشَّمس والهواء والحركة، وأعطاه إرشادات خاصة لحماية صحَّته. ونصحه أيضًا أن يقيم في مكان متوسط العلوِّ لا يقرب البحر ولا يبعد عنه. ونصحه عمومًا بالاعتدال.

١١ - لجأت سيِّدة حامل إلى الشَّيخ وهي قلقة تطلب وساطته إذ كانت قد أسقطت عدة مرات. أما هو فقد "رأى" أنَّ مشكلتها نفسيَّة. ونصحتها أن تستأجر غرفة في القرية المجاورة، وأن تهدأ، وتقطع الاتِّصال، حتَّى عبر الهاتف، بمحيط أقرباؤها الذي ينقل إليها القلق. تبعت السيِّدة نصائحها، وكانت تزوره من وقت لآخر، وكانت تزداد هدوءًا. أخيرًا، ولد لها صبي بصحَّة تامَّة سُميَّ بورفيريوس اعترافًا بالجميل. أخبرني صديق بالحدث. وفي أحد الأيام، كنت في قلاية الشَّيخ، فرأيت طفلًا يدخل بجراة كبيرة. استقبله الشَّيخ بفرح كبير وأعطاه بعض الحلوى. وكان في الخارج صوت جرَّار فسألني: "هل تعرف هذا الذي على الجرَّار؟" إنَّه والد بورفيريوس الصَّغير الذي دخل إلى القلاية منذ قليل. وهو، من شدَّة فرحه، يأتي من حين إلى آخر ويحِثُّ لنا الحديقة. بنصائحي ولد بعض الأطفال وسمَّوا "بورفيراكيا" (تصغير بورفيريوس بالجمع). قال كلماته الأخيرة هذه وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

١٢ - لما كان الشَّيخ بمثابة طبيب نفسيِّ حقيقيٍّ، تولَّدت عنده شكوك كثيرة تجاه الطَّبِّ النَّفسيِّ. سألته يومًا: هل صحيح ما سمعته أيَّها الشَّيخ أنَّك تتابع دروسًا في الطَّبِّ النَّفسيِّ؟ فوجئ وقال لي: "من أين علمت هذا يا بني؟ ذات يوم، بينما كنت أفكر، تولَّدت عندي حيرة: كيف يمكن أن يوجد أطباء نفس لا يؤمنون بالنَّفْس؟ وهكذا نهضتُ وذهبتُ عدَّة مرات إلى الجامعة وتابعتُ دروسًا

في الطبّ النَّفسيّ. إنَّهم يحاولون عمل شيء. ولكن، ماذا يعملون؟ إنَّ أطباء النَّفس وعلماءها يشبهون الأعمى الذي يحاول باللمس أن يفهم الأشياء الموجودة حوله. إنَّ النَّفس عميقة جدًّا. والله وحده يعرفها". ومرة أخرى قال لي: "لا أقبل الطبّ النَّفسيّ، لكنني أحب أطباء النَّفس".

١٣ - اتَّصل بي صديق لي مقيم في إيطاليا، وطلب مِنِّي أن آخذ رأي الأب بورفيريوس في مشكلة معيّنة تخصَّ زوجته الَّتِي وقع في خلاف معها، مع العلم أنَّه عرض هذه المشكلة على طبيب نفسيّ معروف، فحكم أنَّ زوجته مريضة نفسيًّا. سمعني الشَّيخ بانتباه، وأجابني: "قُل لصديقك أن يسأل الطَّبيب المشهور: هل ذهب هو لاستشارة طبيب؟"

١٤ - طلب مِنِّي طبيب صديق أن أنقل إلى الشَّيخ سؤاله الخطي في خصوص مشكلة شخصيّة كتبت ما جرى بيننا من كلام من خلال ملاحظات دوَّنتها بغية إبلاغ الطَّبيب. أجاب الشَّيخ: "ما هي هذه الميول والرَّغبات الخفيّة الدَّفينة الَّتِي يسأل إن كان لها علاقة بمشكلته النَّفسيّة؟ وما هي هذه الأشياء الوراثيّة؟" - إذًا، أفهم من جوابك أنَّها الشَّيخ أنَّه يخطئ في فهم ما يحدث له؟ - "أجل، لا يحدث شيء من ذلك. فكلّ ما يكتب عنه يخصَّ الإنسان العتيق الَّذِي في داخلنا. ولكن عندما نحبَّ المسيح من كلّ النَّفس، و يأتي العشق الإلهيَّ إلى داخلنا، تختفي كلّ المشاكل ونمتلئ فرحًا روحيًّا. أنت تعرف هذا يا بنيّ، وقد قلت لك ذلك مرّات كثيرة. إنَّ أطباء النَّفس وعلماءها يتحدّثون عن الميول والرَّغبات الخفيّة الدَّفينة والأمور الوراثيّة، لأنَّهم لا يعرفون النَّفس الإنسانيّة الَّتِي تشفى فقط بالعشق الإلهيّ، وتحيا في فرح المسيح".

١٥ - نصّح الشَّيخ قريب أحد المرضى العصبيّين أن ينتبه من انتقال العدوى إليه. ولدى سؤاله كيف يمكن أن يحدث هذا والمرض لا يعدي، أجاب الشَّيخ: "ليس بالطَّريقة الَّتِي فهمتها. فالجراثيم غير الماديّة في الأمراض العصبيّة تطير مثل البرغش وتصيب النَّفس. حسن أن تساعد مريض الأعصاب، ولكن عليك أن تحي نفسك بنعمة المسيح".

١٦ - قال الشيخ لسيدة ابنها مصاب بمرض عصبي، إنّ الولد ذو نفس طيبة، ولكنّ المعاشرات السيئة جعلته يمرض. وكشف لها أنّ ولدها سيشفى فجأة، وهو يعرف متى سيحدث هذا. ولكن، لا يجوز أن يخبرها. وشرح لها كيف سيشفى: بتقدّيس الأم الذي يبدأ بتوقّفها عن التدخين.

١٧ - قال الشيخ لأب متألّم أحضر ابنه المريض إليه: "إنّ ابنك طيب، لكنّه لم يتحمّل ضغطك الشّديد عليه كي يبرز في المدرسة فانفجر وأصيب بمرض الأعصاب". وسأل الأب: "وكيف تحمّلت أنا حروباً وحرماناً كثيراً عندما كنت صغيراً؟" أجابه الشيخ: "أنت عشت في عصر آخر".

١٨ - قدّم الشيخ إرشادات لأرملة شابة حزينة جداً، طالباً منها أن تعمل باستمرار كي تستطيع أن تتخلّص من الكآبة التي تهدّدها. وبالعلاج العمل والصلاة اللذين نصّحها بهما الشيخ وصلت إلى نتيجة مذهلة، فتحوّل حزنها إلى سلام وفرح داخليين، حتّى أنّها أخذت تتساءل إن كانت قد جُنّت. فطمأنها الشيخ مؤكّداً لها أنّ فرحها الروحيّ متأتّ من نعمة المسيح التي نالها.

١٩ - حاولت فتاة شابة الانتحار، فنصح الشيخ أهلها بأن يحيطوها حامين إيّاها بصلوات مكثّفة من أكبر عدد من الأشخاص. وجرى كما قال، فنجت الفتاة من الانتكاسات.

٢٠ - التجأ أهل ولد ثائر ومشاكس إلى الشيخ يشكون حالهم ويطلبون إرشاداته من أجل مواجهة صحيحة للوضع ومعالجته. أخذ الشيخ يكلمهم على الأمور التي يجب أن ينتهوا لها في حياتهم. وكان الأهل يعودون إلى موضوع ولدهم، أمّا الشيخ فكان يعود ويكلّمهم على واجباتهم المسيحيّة كأهل. عندها انتفضوا وقالوا له: لم نأت إلى هنا أيّها الشيخ، من أجل أنفسنا، إنّ ما تحدّثنا عنه، نعرفه منذ طفوليتنا ونعلّمه للآخرين، لكننا جننا من أجل ولدنا. فأجاب الشيخ: "إذا، لم تفهموا أنّي من أجل ولدكم وكلمتكم كلّ هذا الوقت؟ أو لم تفهموا أنّ خلاص ولدكم يمرّ عبر تقدّيسكم أنتم لذواتكم؟ وليس بالتقدّيس النظريّ، بل العمليّ؟" وبعد قليل أضاف: "عليكم البدء حالاً بهذا العمل إن كنتم حقّاً تحبّون ولدكم. فقد رأيت نفسه في هذه اللحظة: إنّها جيفة".

٢١ - زار أهل صبي مريض عصبياً الشيخ طالبين مساعدته في مشكلتهم. "رأى" الشيخ نفس الولد وقال: "إن نفس ابنكم طيبة جداً وهي أفضل من نفسي. هو ليس مريضاً. لكنّه جرح فثار بسبب تكبركم وصحبة الأصدقاء الفاسدين الذين يعاشرهم. إنّه سيشفى بتقدّيسكم ذواتكم". وحالما سمعت الوالدة هذا راحت تبكي من يأسها لأنّها تصوّرت أنّ تقدّيسها شيء صعب الانجاز. حينئذ قال لها الشيخ: "إنّ القداسة ليست أمراً صعباً، بل هي سهلة. يكفيكم أن تقتنوا التواضع والمحبة".

٢٢ - طلبت صبيّة مقعدة بركة الشيخ ونصائحه في خصوص المشاكل التي تعانيها، كونها تمضي حياتها على كرسي. باركها الشيخ، ومن جملة ما قاله لها: "عليك قبل كلّ شيء أن تحذري القلق. إنّه مرض النفس وهو لا يركز على النقص المادي. بإمكان إنسان معافي يملك الملايين في البنك أن يعيش في القلق. يُحارب القلق بالثقة بعناية الله وبالجهاد الحسن".

٢٣ - قال لي الشيخ يوماً: "إنّ الأمراض تؤدّي بنا إلى الخير عندما نتحمّلها بلا تدمير، طالبين إلى الله أن يغفر لنا خطايانا وممّجدين اسمه".

٢٤ - وقال لي مرّة أخرى: "إنّنا نمرض عندما نرتبط بالأشخاص والأشياء". هذه النظريّة تعبير آخر عن المرض الجسديّ المتأّتي من ارتباط النفس بالخطيئة. لأنّ ارتباط النفس بالخلقة (الأشخاص والأشياء)، وليس بالخالق، ما هو إلاّ خطيئة؟

٢٥ - وقال الشيخ: "على الأهل ألاّ يتشاجروا مع أولادهم المنحرفين والذين لديهم مشاكل نفسيّة، بل أن يقاوموا ذاك الموجود خلف الأولاد أي الشيطان. لا نستطيع محاربة الشيطان إلّا عندما نصبح قديسين". هذه النصيحة المقتضبة تستطيع، بشكل فعّال، أن تساعد الأهل والمريّين والأطباء وكلّ من يهتم بالأولاد خصوصاً وبالإنسان عامّة.

٢٦ - زار الشيخ راهبٌ بعد عودته من أميركا حيث أنهى دراساته العليا. وعندما جلس مقابل الشيخ، قال له في الحال: "أرى أنّك قد تشوّشت هناك حيث ذهبت". فيما بعد قال لي الراهب إنّ كلمات الشيخ كانت تصويراً دقيقاً

لنفسه الواقعة في اضطراب وتشوش، بسبب تأثير التيارات الإيديولوجية المختلفة التي اطلع عليها في الخارج. وقد ساعده الشيخ في إيجاد المخرج الصحيح من تعقّد مشاكله.

٢٧ - كانت إحدى السيّدات تحمل شهادات عديدة وتقوم بنشاطات اجتماعية متنوعة، ولكنّها، وبسبب حساسية نفسها، وصلت إلى عتبة الإنهيار النفسي، لذلك، لجأت إلى الشيخ. "فرأى" في الحال حالة نفسها ووصفها بعبارة: "لقد تشتتت". فتأثرت السيّدة بالتشخيص غير العادي الذي عبر بدقة عن التشتت النفسي الذي تعيشه بسبب مشاكلها العسرة. لقد أشفق عليها الشيخ وأحاطها بعطفه كابنة روحية، فيما أضحت هي تلميذة مخلصه له، لأنّها، بإرشاده المستنير، استعادت عافيتها النفسية وولدت في المسيح من جديد.

❖ أمراض نفسية وجسدية

كان الشيخ يعطي الأولوية دائماً لمرض النفس، حتّى ولو كان مرض الجسد خطيراً. وكان كثيرون من زوّاره المرضى يطلبون إليه بالحاح أن يصلي فقط من أجل شفاء مرض جسدهم. إذ كانوا عاجزين عن تحمّله. وكانوا يعتقدون أنّ تفاقم مرضهم الجسديّ سيزعزع إيمانهم بالمسيح وسيقودهم في النهاية إلى مرض النفس. أمّا بالنسبة إلى الشيخ فاعتقد العكس: إنّ مرض النفس غير المعروف، أي الخطيئة، يعمي عيونهم فلا يعودون يرون المعنى التربويّ السامي لمرض الجسد الذي تسمح به محبة الله. وكان الشيخ يعلم أنّه إن صلّى فقط من أجل شفائهم الجسديّ فلن يساعدهم لأنهم سيقفون فعلياً من دون شفاء. وكان دائماً يحاول ربط علاجهم الجسديّ بشفائهم النفسيّ.

قال طبيب أمراض نفسية وعصبية مسيحيّ في اجتماع ديني: أنا، كطبيب نفسيّ، لست طبيباً لنفس الإنسان، بل لجهازه العصبيّ. وشدّد قائلاً: إنّ المريض النفسيّ ما هو إلّا الخاطئ غير التائب، لأنّ النفس تمرض فقط عندما

تخطئ ولا تتوب. وطبيب النفس هو المسيح وحده. والقديس الذي يعرف دواخل نفسه بنعمة المسيح، يقتني معرفة ذاته ومعرفة الآخرين. ومن ليس بقديس، أي الإنسان الذي تسيطر عليه الأهواء ويجهل نفسه ونفس الآخرين، كيف يستطيع أن يصبح طبيباً للنفس؟ فيما أن المسيح يستطيع أن يحقق الأمر الأصعب أي شفاء النفس، فهو قادر أيضاً أن يحقق "الأسهل" أي شفاء الجسد. وهذا ما يستطيع أيضاً أن يحققه القديس بنعمة المسيح.

إن الأمراض الجسدية تخدم أهدافاً كثيرة ومتنوعة لمحبة الله التي لا تدرك. هناك من يعتقد أن المرضى جسدياً معاقبون من الله لأجل خطاياهم، والأصحاء جسدياً مكافأون من الله لأجل فضائلهم. في الواقع، يمكن أن يحدث العكس تماماً، كما يحدث مع كثيرين من القديسين الذين يمرضون جسدياً طوال حياتهم: ومع كثيرين من الخطاة غير التائبين الذين يبقون أصحاء معافين جسدياً طوال حياتهم. طبعاً، لا يشك أحد في أن نفساً مضطربة بالأهواء، هي أرض خصبة لتنمو فيها الأمراض الجسدية، والعكس صحيح، فإن نفساً هادئة. بسبب الخشوع الإلهي، تخلق مجالاً موافقاً لشفاء الأمراض، وازدهار الصحة الجسدية. ومع ذلك، فإن تقلبات الصحة الجسدية ومرض كل إنسان، في التحليل الأخير، تشكل تعبيراً سرّياً عن تربية الله للإنسان لا يعرفه إلا الله وحده وقديسوه.

❖ تهلل يا من شفيت، افرح يا من مرضت

إن الشيخ، بموهبته الشفائية، شخّص أمراض العديد من الناس وشفاهها. بينما بقي هو نفسه مريضاً طوال حياته، وكان يعترف قائلاً: "حتى أنا نفسي لا أعرف كم مرض عندي". وكان يقول في ما خص مرضه الجلدي (الهربس) الذي ذلّله في سنيه الأخيرة فكان بمثابة تنمة أمراضه الكثيرة وشوكة في الجسد: "أشعروكأنه قد ألصقت بخدي مقلاة فيها زيت مغلي". وكان الشيخ

يَعْلَمُ: "إِنَّ الْأَمْرَاضَ مَرْدَهَا الْأَفْعَالُ الشَّيْطَانِيَّةُ وَالْخَطِيئَةُ. وَلَكِنْ، عِنْدَمَا يَسْكُنُ الْمَسِيحُ دَاخِلَ النَّفْسِ كُلِّهَا، حِينَئِذٍ يُوَلِّي الشَّيْطَانَ وَتَوَلَّى الْخَطِيئَةَ وَيَزُولُ الْمَرَضُ". فِي الْمَقَابِلِ، كَانَ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ: "أَنَا أَشْعُرُ بِأَنِّي أَكْثَرُ إِنْسَانُ خَاطِئٌ فِي الْعَالَمِ". نَظَرِيَّةُ عَنِ الْمَرَضِ وَاضِحَةٌ كَهَذِهِ قَدْ تُوَدِّي إِلَى الْأَسْئَلَةِ التَّالِيَةِ: كَيْفَ لَمْ يَسْتَطِعِ الشَّيْخُ شِفَاءَ أَمْرَاضِهِ فِي حِينِ شَفَى أَمْرَاضَ الْعَدِيدِ مِنَ النَّاسِ؟ وَبِمَا أَنَّهُ يَقَرُّ بِجَسَامَةِ حَالَتِهِ الْخَاطِئَةِ، تُرَى، أَلَمْ يَسْكُنِ الْمَسِيحُ فِي دَاخِلِهِ لِيُشْفَى مِنْ أَمْرَاضِهِ؟ إِنَّ اعْتِرَافَ الشَّيْخِ بِأَنَّهُ "أَكْثَرُ إِنْسَانُ خَاطِئٌ فِي الْعَالَمِ" يَظْهَرُ تَوَاضَعَهُ الْعَظِيمَ فِي الْمَسِيحِ، بَيْنَمَا الْخَطَاةُ غَيْرُ التَّائِبِينَ يُؤْمِنُونَ بِتَعَجُّرٍ بِأَنَّهُمْ غَيْرُ خَاطِئِينَ، كَمَثَلِ الْفَرِيسِيِّينَ. إِنَّ كُلَّ الْقَدِيسِينَ، وَفِي مَقْدَمَتِهِمْ بُولِسُ الرَّسُولِ، كَرَزُوا "أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ قَدْ أَتَى إِلَى الْعَالَمِ لِيَخْلَصَ الْخَطَاةَ الَّذِينَ أَنَا أُولَهُمْ". وَكَانَ الشَّيْخُ قَدِيسًا، كَمَا يَظْهَرُ مِنْ اقْتِدَائِهِ بِالْمَسِيحِ طَوَالَ أَيَّامِ حَيَاتِهِ. وَلَرَبَّمَا يَتَسَاءَلُ الْمَرْءُ مِنْ جَدِيدٍ: بِمَا أَنَّهُ قَدِيسٌ، فَلِمَ إِذَا لَمْ يَشْفِهِ الْمَسِيحُ مِنْ مَرَضِهِ؟ وَلَكِنْ، مَا حَصَلَ هُوَ الْعَكْسُ تَمَامًا: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ شَفَى الشَّيْخَ مِنَ الْمَرَضِ. شَفَاهُ مِنَ الْمَرَضِ الْأَهَمِّ، أَيَّ مِنَ الْمَرَضِ النَّفْسِيِّ، مِنَ الْخَطِيئَةِ، بَيْنَمَا كَانَ يَعِيشُ فِي الْمَرَضِ الْجَسَدِيِّ.

إِنَّ أَوَّلِي الْجَبَلَةِ قَبْلَ سَقُوطِهِمَا فِي الْخَطِيئَةِ بِحِيلَةِ الشَّيْطَانِ، أَيَّ قَبْلَ مَرَضِ نَفْسِيَّيْهِمَا، لَمْ يَعْرِفَا الْمَرَضَ الْجَسَدِيَّ. فَبَعْدَ سَقُوطِهِمَا "مَرَضَتْ الطَّبِيعَةُ"، النَّاطِقَةُ وَغَيْرِ النَّاطِقَةِ، وَحَلَّتْ كُلَّ الْأَهْوَالِ وَمِنْ بَيْنِهَا الْمَرَضُ الْجَسَدِيَّ. وَقَدْ تَجَسَّدَ الْمَسِيحُ "لِكَيْ يَبِيدَ فِعْلَ الشَّيْطَانِ" فَيَشْفِينَا مِنْ مَرَضِ آدَمِ الْأَسَاسِيِّ، أَيَّ الْخَطِيئَةِ. وَقَالَ لَنَا: "لَا يَحْتَاجُ الْأَصْحَاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى، وَلَقَدْ جِئْتُ لَا لِأَدْعُو الصَّادِقِينَ بَلِ الْخَطَاةَ إِلَى التَّوْبَةِ".

وَنَحْنُ، إِذْ نَقَرُّ بِأَنَّنَا "حَامِلُونَ الشَّرَّ" نَقْبِلُ مِنَ الطَّبِيبِ الْأَوْحَدِ، بِالْمَعْمُودِيَّةِ وَالتَّوْبَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ، شَفَاءَ نَفْسِنَا مِنْ مَرَضِهَا، أَيَّ الْخَطِيئَةِ. وَيَبْقَى الْمَرَضُ الْجَسَدِيَّ، بِسَمَاحٍ مِنَ اللَّهِ، قِصَاصًا عَلَى الْخَطِيئَةِ الْمَغْفُورَةِ، كِتَادِيبٍ شَافٍ. وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، كَمِيدَانِ لِلْجِهَادِ مَطَرٍ لِلنَّفْسِ الْمُحَارِبَةِ لِلْخَطِيئَةِ، لِإِذْلالِ الشَّيْطَانِ وَلِجَدِّ الْمَسِيحِ. وَهَذَا مَا حَدَثَ لِلْعَازِرِ الْمُسْكِنِ، الَّذِي رَجَعَ الْفَرْدُوسَ

بتحمّله من دون تذمر، وأيضاً لجمهور القديسين، الذين وسط أمراضهم الجسدية، تنقّوا بصبرهم وتوبتهم وتمجيدهم لله كما الذهب في البودقة. ويشهد الذهبي الفم الشريف على أنّ الصحة الجسدية تصبح خيراً مخلصاً للنفس فقط عندما تقود إلى زيادة الشكر والطاعة لله. ولكن كم يبلغ عدد الأشخاص الشاكّرين؟ هل هم واحد على عشرة كما في انجيل البرص العشرة؟ أو أقل بكثير؟ غالباً ما تكون الصحة الجسدية فخاً نفسياً، ومخيراً مضللاً، كما في مثل الغني الذي كان يتمتّع بالصحة ويفرح كلّ يوم، وانتهى أخيراً إلى "موضع العذاب".

لقد كشف لنا الشيخ أسرار الله، لا بتعاليمه فحسب، بل بخبراته المعاشة أيضاً. والواقع، أنّ قوّة الربّ كملت فيه عبر أمراضه الجسدية، وظهرت أعماله العجيبة وتمجّد اسمه. وإنّها لحقيقة أيضاً، أنه بسبب ثباته الذي لا ينثني وسط آلام أمراضه، خزي الشيطان، وثبّت أنّ الشيخ بقي "أميناً لله حتّى الموت". لا عن دافع خفيّ يرمي إلى مصلحة ما، بل عن محبة فقط، كمثّل أيّوب "البارّ، الصديق، البريء من العيب، المتقي لله والمبتعد عن كلّ شرّ" الذي بطاعته، فضح حجج الشيطان المتعجرفة، وأكّد تفوّق المحبة الإلهية التي "لا تسقط أبداً". وسمح الله للشيطان أن يتحدّى الشيخ ويمتحنه بالأمراض الجسدية، وقد قبل الشيخ هذه التجربة بنكران ذاتٍ مُحَبّ. ونكرانه لذاته هذا، يساعدنا على أن نفهم، ولو قليلاً، معنى خبرته المذهلة بالنسبة إلينا: "كنت مريضاً جداً، وكنت أتألم بشدّة، وكان ذلك جميلاً جداً".

لم يشأ الشيخ أن يتألم سلبياً، فينهزم للألم ويغرق في مرض الشفقة على الذات بسبب الفشل، بل على العكس كان يتقبّل بشهامة كلّ تحدّي شيطانيّ في الألم، كي يهزمه بقوّة المسيح، ويسمو عليه محلّقاً بجملته معافي نفسياً، كما فعل الشهداء القديسون. وهكذا، فإنّ الشيخ، بظفره على ألم المرض الجسديّ الشيطانيّ، يستطيع أن يؤكّد لنا على مثال الرّسول بولس: "أفرح الآن بأوهاني من أجلكم مكمّلاً في جسدي آلام المسيح لأجل جسده الذي هو الكنيسة". وفرحُ الشيخ "بالألم"، يُعبّر عن ابتهاجه بتخطّيه أمراضه الجسدية بمعونة المسيح. ربّما

يبدو ذلك سخريةً مأساويةً، إذ إنَّ الشَّيْخ بقي حتَّى آخر ساعةٍ من حياته على الأرض يذوب كالشَّمْع تحت وطأةِ ضعفاتِ أمراضه الجسديَّة المتراكمة المستمرة والقاسية. فيما كان يعيش سرِّياً خبرة الصَّليب والقيامة الَّتِي لدى الرِّسول بولس إذ يقول: "لذلك لا نفشل، بل وإن كان إنساننا الخارجيّ يفنى فالداخليّ يتجدّد يومًا فيومًا". وهكذا يومًا فيومًا كان الشَّيْخ يربح معركة الحرّية من المرض الجسديّ، من أجل نفسه، ومن أجل القريب ومن أجل كنيسة المسيح. الحرّية الَّتِي نربحها بالتجدّد النّفسيّ المستمرّ في المسيح، بمعزل عن الفساد الجسديّ. ويبدو لي جهاد الشَّيْخ هذا غير مُدْرِك لأنّه تنقصني خبرات روحيّة مقدّسة مماثلة. ولهذا أقصر على محاولة الوصف الخارجيّ له ومقارنته عقليًّا على الأقل، وأنا عارف مسبقًا بضعف المحاولة.

❖ التَّحرُّر النّفسيّ يفكّ رباط المرض

لقد أثّرت فيّ عميقًا شهادة أحد المؤمنين عن خبراته، وكان مشلولاً في أطرافه الأربعة. إلّا أنّه وصار يمشي بفضل عجيبة قام بها القديس نكتاريوس. وقد شهد لنا أنّه عندما كان يصليّ ذات يوم بحرارة حلّت نعمة المسيح فجأة داخل نفسه، فملأته فرحًا لا يوصف. وفيما بقي مشلولاً، شعر بأنّه شُفي وتعافى كليًّا. لم يكن شعوره كاذبًا. كان يعرف أنّ إعاقته الجسديّة زالت موجودة، إلّا أنّه لم يعد يكثر لها ولم يحزن البتّة لاستمرار وجودها، كان يكفيه فرح اقتنائه الصّحة النّفسيّة. وفيما بعد منحة الله الصّحة الجسديّة.

(من الأفضل إلغاء هذا الملحق لأنّه غير واضح وغير مفهوم كلّ ما يحدث، حاولت تصحيحه على الورق، إلّا إنني تجاوزت تصحيحه على الكمبيوتر)

الملحق الثالث للنّاشر

مشلول صار صحيحًا عندما قال للقديس نكتاريوس : "لم آت لأطلب منك شيئًا، أتيت لأقدّم لك حياتي، ويروي:

مدخل

في العام ١٩٤١ تعرّض ستافروس خالكانديس في الشّرق الأوسط لحادث حربيّ أصاب أطرافه، غير أنّه كان يمشي قليلاً بصعوبة. ولكنّ العمليّة الجراحية أدّت به إلى شلل تام. ذهب إلى أميركا للاستشفاء. لم يستطع الأطباء عمل شيء، قال له أحدهم أن يتّصل بالطّبيب الكبير، أي الله. ولما عاد إلى اليونان ، زاره في المستشفى المرحوم الأب المتوحد القديس فيلوتاوس زرقاكوس من تلقاء نفسه. أمّا ما حصل إثر ذلك فيرويه ستافروس خالكانديس نفسه الذي حصل على الشفاء.

الرواية

عندما قال لي الأب فيلوتاوس إنّهُ يتكلّم مع الله، قال لي إنّهُ وهو يسير في الطّريق، سمع صوت الرّبّ الذي قاده إلى المستشفى. قال له اذهب وافتقد شابًا قد عاد من الخارج ، أي أنا.

خلال هذا الوقت علمت لاحقًا بأنّ باتيتساس (مهندس) أصبح راهبًا باسم أرسانيوس كما سمّاه الأب فيلوتاوس. إنّهُ في كنيسة "الستر المقدّس" ذات التقويم الجديد حيث كان الأب خريسانتوس، وهكذا وجدني. إلّا أنّي لم أصدّق هذا الامر، بل كنت أنّ أمّي أرسلته إليّ. جاءني أرسانيوس يومًا بلباسه وقال لي: "مرحبًا ستافروس. " فقلت له :

- مرحبًا، من أنت؟ قال لي :

- أنا كوستا باتيتساس. قلت له:

- كيف أتعرف إليك وأنت لابس الثياب الرهبانية ... "وقلت له : إنَّ رئيس الدّير المحبوب لم يأتِ اليوم لسوء الحظ ". فقال لي:
- إنَّ محبّة الرئيس هي الّتي أرسلتني . فقلت له:
- ومن هو الرئيس؟ فقال لي:
- ألا تعلم بأنّ هذا من عند القديس نكتاريوس ويحمل كلّ "سمات" القديس نكتاريوس؟ إنّه يتكلّم مع الله وهو في الطّريق ".
إذاً عندما جاء الأب فيلوثاوس للمرّة الأولى، تحدّثنا بما قاله لي الطّبيب الأميركي.

ولما سألت الشّيخ اذا كان صعباً أن يتّصل المرء بالله، قال لي: "ماذا تقول يا ابني؟ على قدر ما يبدو صعباً، هو سهل. يكفي أن تريد هذا الأمر، أن تؤمن، أن تصلّي، والدرجة الأولى هي الاعتراف والمناولة المقدّسة.
أهذا صعب؟

قلت له: "إذا فعلت هذا سأكون في صلة مع الله؟"
"نعم" قال لي، وهكذا انطلقت للاعتراف.

وحينذاك كان الأب أتاناسيوس هو المعرّف هنا في ماروسي في سيّدة نيراتزوتيسا، عند خط سكة الحديد. كنيسة صغيرة عمرها ألف سنة. ذهبت إلى هناك واعترفت، وأرسلني واضعاً لي قصاصاً ألاّ أتناول مدّة سنة لأنّه كانت لي علاقة مع فتاة. وقد حزنت وقلت له إني كنت مشلول الأعضاء، ولم أكن أستطيع تحريك لا يديّ ولا رجليّ ولا أيّ شيء.

- إني على وشك الموت، أيّها الشّيخ، وأنت تضع عليّ هذا القصاص ؟

- كلا، قال لي، أنا مسؤول عنك".

- إذاً قلت لباتيتسا: "أحضر لي يا أرسانيوس الأب فيلوثاوس... "أردت أن أستأنف بطريقةٍ ما هذا القرار.

وفي غضون عشرة أيام، جاء الشّيخ إلى المستشفى فقلت له أريد أن أعترف، فردّد لي الكلام والقصاص ذاتهما.

قلت: "لعلهما قد تفاهما معًا؟" لأنني كنت لا أزال أبديّ ردّ فعل. أخيرًا خضعت وقلت له:

_ "ألا نذهب إلى القديس نكتاريوس، إلى أبيك الرّوحيّ، لنطلب منه أن يساعدني؟"

- "لنذهب" قال لي.

- ذهبنا. صلينا البراكليسي عند العصر. انهينا الباراكليسي وحدث العجيب. أية عجيبة... الإنسان يطلب أن يحرك جسده، أعضائه المشلولة، إلا أنّ العجيبة يجب أن تحدث في الداخل. أن يتغيّر الإنسان القديم ويأتي الجديد. أن يتجدّد. في ذلك اليوم وضع لي قطنة صغيرة في فمي، لم أكن أستطيع السجود، لم يكن جسدي يلتوي، وعندما عدنا في اليوم التالي، للحال لم أعد أشعر بأنّه ينقصني يدين أو رجلين. وبدأت نشاطًا مكثفًا، فقد ألفنا رابطة المعاقين. وكان رئيسها منذ العام ١٩٦٣ تيودوسياديس مدير الطيران. طلبنا منه إعطية، لأنّه لم يكن لدينا. وأرسل فريق عمل من الطيران وطلّى القاعات في الداخل، وأقمنا كنيسة في البناء على اسم رؤساء الملائكة القديسين. وأتى ممثلون عن الموسيقى وقمنا بالتدشين. ومن واحد حين بدأنا، أي أنا، أصبحنا ثلاثمئة وفي شهر واحد بنينا الكنيسة.

ولما حان ملء الزمان، وكانت رجلي محدّدة في الجفصين بعد إحدى العمليّات الجراحية، اتّصل بي هاتفياً الأب فيلوتاوس وقال لي: هل تريد يا بنيّ (وكان ذلك في أحد الآباء القديسين، وكان هو يوقر كثيرًا الآباء القديسين، ويدّمع هاتفًا "الأزهار العطرة الشذى") أن نذهب إلى القديس نكتاريوس وإلى القديس ميناس؟

- قلت له: "أيها الشيخ، إنّ رجلي في الجفصين".

- أعرف ذلك، "قال لي لكن ألا تريد؟"

- "أريد"، قلت له.

وهكذا ذهبنا و الأب فيلوتاوس و أمين السرمع جنديين. ذهبنا ومنما هناك، ومضى الوقت بسرعة. وعندما انتهت الخدمة الإلهية قلت: "أيها الشيخ،

فلنعمل باراكليسي (ابتهالاً) إلى القديس... نسيت أن أذكر أنه في ذلك اليوم، في المرة الأولى التي ذهبنا فيها إلى هناك، قالت لي إحدى السيدات التي كانت تسمع أصوات الناس الداخلين والخارجين:

- من هما الكاهنان اللذان يقومان بالباراكليسي؟

- قلت: " الشيخ".

- " والآخر؟ " قالت لي...

- أي آخر؟ " سألتها.

وذهبنا إلى الشيخ وقلنا له: "إن السيدة رأت كاهنين، أنت وواحد آخر.

هل كان هناك كاهن آخر فعلاً؟"

- قال: "نعم، يا بني، كان القديس نكتاريوس".

- "ما هذا القول أيها الشيخ، وأنا لم أستطع رؤيته؟"

- قال لي: " سأقول لك أيضًا ماذا قال لي يومًا في خصوصك".

- بدأت أرتجف وقلت: ما هذه الأشياء، كيف تجري هذه الأمور؟"

وكما قلت، حان ملء الزمان، ذهبنا، انتهت خدمة القداس، وقد أعطى

صاحب السيادة مطران إيدرا الكلام للشيخ بوصفه حاضراً، ولم يتكلم هو،

وذلك لاحترامه إياه. صلينا الباراكليسي، وقلت له عندي شكوى، فأن حتى هذه

الساعة لم أسجد لبقايا القديس، وأرجو أن تقول للرئيسة أن تسمح بأن

يضعوها على ركبتي. وفي الواقع وافقت. فذهب أخي وأتى بها ووضعها علي. (

طبعًا كل هذه الأمور كانت تجري في جومن التأثر) ومددوا يدي فوق علبة

الذخائر، أغلقت عيني وفكرت في أنني أحتضن القديس. وقلت :

- أيها القديس، أتيت هذه المرة لا لأطلب منك شيئاً، بل لأعطيك.

لأعطيك حياتي. لأعطيك كياني. أهلني أن أكون وسيلة يتمجد بها اسمك

المقدس أيًا تكن الحالة التي أنا فيها، على الكرسي أو وقوفًا. هذا ما أطلبه

منك، وأظهر لي أنك تسمعني في صلاتي."

- هذا كان موضوعي. انتظرت يداً غير منظورة لترفعني من كتفي ، وفي الوقت ذاته قلت للشباب ونحن في السفينة: "دعوا النافذة مفتوحة لنساعد اليد غير المنظورة على رفعي".

وصلت إلى المستشفى، وبعد أربعة أو خمسة أيام، وكان عيد القديسين العادمي الفضة، فهمت أن جسدي قد تحرّر. كان مربوطاً. هكذا نهضت، أتى الشباب ورفعوني، وقفت على رجلي، وضعت الآلات المختصة بطبّ العظم وقلت لهم إنني لست أعرف ماذا عليّ أن أفعل حتّى أمشي، يا ترى ألم أكن أمشي من قبل؟ ألم أكن أركض أبداً؟ مع ذلك، فقد نسيت ماذا أفعل حتّى أمشي. قالوا لي أن أرفع رجلي، نقلتها خطوةً وقلت لهم: "إنّي بخير أيّها الشباب".

ناديت الأطباء والمعالج الفيزيائي والممرّضات وقلت لهم: "هل كنتم تؤمنون بأنّي سأستطيع يوماً أن أنهض؟"

قال الطّبيب: "هذا مستحيل. هل نسيت أنّ عندك ارتخاء وانحطاط في العضلات، عندك إصابة في أطرافك الأربعة مع اضطرابات منذ سنين ، هذا أمرٌ مستحيل حدوثه.

"وأنتم البقيّة؟"

لم يتكلّم أحد.

قلت لهم، إنّي أستطيع أن أنهض وأمشي. ولكن لن أستطيع أن أقوم بهذا من أجلكم اليوم. فأنا أريد أن أقدم أوّل خطواتي في الكنيسة التي بنيتها. إنّ أوّل خطواتي للمسيح. وجمعت المعاقين وقلت لهم إنّه حان الوقت أن أمشي. وإنّ الله لا يميّز بين النّاس كما يفعل النّاس في ما بينهم، وإنّه سيأتي دورهم أيضاً، وإنّه يجوز أن يحابي والد أولاده، أما الأب السّمائي فهو للجميع، يكفي أن تريد هذا، أن تصلي، أن تكون لك علاقة معه. أخذوني إلى الكنيسة وأتى الكاهن.

أقاموني عن الكرسيّ. لم أستطع تحريك يديّ. دخلنا الكنيسة ، وحضر الكاهن مرتلاً: "أيّ إله عظيم مثل إلّهنّا".

هكذا.. منذ ذلك الوقت، انتصبت وبدأت عملي. أي أن أتكلّم حيثما حللت وأنقل هذه الأحداث مدّة أربعة وعشرين سنة .

هنا أريد أن أقول لك شيئاً آخر. قبل أيّام، عندما كنت في مستشفى الطيران، كان هناك رئيس قسم اسمه فلانّ، وكان متخصصاً بالأورام السرطانيّة ولست أدري بماذا أيضاً، وكان من المزمع أن يصير مسؤولاً عامّاً في G.N.A. هذا أتى عندما كنت مشلولاً بعد ومطروحاً وقال لي: "يا سيد كالكاندي، يجب أن تذهب إلى البيت، لا نستطيع أن نعمل لك شيئاً أكثر مما فعلناه".

قلت له: "أنا جندي حرب متقاعد. محسوب في الخدمة. وأنا، قلت، سأحاول أن أقف على رجلي".

"هذا ما نتمناه لكنا، قال، ولكنّه غير ممكن بالنسبة إلينا. أي إنك لن تستطيع أن تمشي ولا أن تقف منتصباً".

قلت له، أتعلم بأنّ غير المستطاع عند النّاس مستطاع عند الله؟ ألا تذكّر لسنين خلت قصّتي، إنّني كنت مشلولاً في السرير مدّة أربعة وعشرين سنة وأنّي نهضت؟ إن كنت لا تعلم ذلك، باطلاً جئت لزيارتي .

لقد أرجفني هذا. وفي المساء تضرّعت بصلاةٍ حارّةٍ إلى العذراء "البوابة"، المعلقة قباليّ وكان يوحنا قد ألصقها لي توسّلت إليها بحرارة، وفي اليوم التّالي كان البراكليسي الأخير. لقد زارتني الكلّية القداسة. ولكن وبما أنّ عيوننا خاطئة وأرضيّة، لم يكن من السهل أن نراها. إلّا أنّ الغرفة عبقّت برائحة الياسمين. عطر، لم نستطع أن نتنشقّه أنا وأخي داخل الغرفة. قطعت موجة من العطر، ثمّ موجة ثانية وثالثة ما دلّ على أنّ الكلّية القداسة كانت في الداخل.

حينئذ قلت: أعينيني يا كلّية القداسة، وامنحيني شفاء النّفس والجسد". نهضت في اليوم التّالي على رجليّ ونزلت لكي أقوم بالتمارين.

لم يستطع المعالجون الفيزيائيّون أن يصدقوا عيونهم أنّي استطعت أن أنهض. وخلال ذلك الوقت، بعد عشرة أو خمسة عشرة يوماً، أتى المسؤول عن العلاج الفيزيائيّ، الذي كان في عطلة، السيد فلانّ، وقال لي: "لا تقل لي شيئاً، قد علمت بالأمر. ولكن هيا ارفع رجلك لأرى ..." فرفعتّها. ثم قال: "سيد ستافرو، لقد

استسلمت. أنت لا تخضع لعلم بشري. عندك علم آخر خاص بك. تابع إلى الأمام، لوحدك. أنا لا أستطيع أن أساعدك. كما لا يستطيع جراح الأعصاب السيد فلان. قال، لن أتيك لأنني لا أستطيع مساعدتك، آسف إنني لا أستطيع." نهضت وقلت: "سأرحل الآن، سأرحل من تلقاء ذاتي الآن، ليس لأن السيد فلان يريد ذلك." غير أنني رأيت السيد فلان مع جماعة الأطباء. قلت له:

- أيها السيد الرئيس، علمت بأنني نهضت.

- نعم، قال لي، علمت.

- لا أعتقد أنك أسفت لتشخيصك الضعيف الذي قمت به بشأني.

- أنا؟ ماذا فعلت؟

- لعلك نسيت أنك قلت لي إنني لن أستطيع أن أمشي.

- هل قلت أنا هذا الأمر؟

- أنا آسف، إذًا، لأنه ليس لك الجرأة على أن تقول: "أجل أنا قلت

هذا، لأنني هكذا أؤمن." أنا لا أطلب منك أن تقول لي لماذا نهضت وكيف نهضت...

ما أريد قوله هو أن ما من شيء سيء يخلو من الخير. حدث الشيء ذاته في أميركا حين نهضت. ان الممرض الذي كان يأتي دائمًا ويقبني وأضع له دولابًا على وسادتي،... قصة طويلة قصة أميركا هذه، إلا أنني تحققت من أن الله يعمل مع كل الناس بصرف النظر عن جنسهم ودينهم. الكل أولاده. لا يستطيع أحد القول إننا الأبناء الشرعيين وإن العبرانيين والآخرين أبناء زنى. بالنسبة إلى الله الكل واحد.

دعاني الطبيب، ذاك الكبير، الدكتور، بعدما أحضر الدكتور كوبر، أحد كبار جراحي الأعصاب وهو استاذ جامعي، فعابني وقال، أني لن أستطيع أن أقف من جديد. حزنت جدًا، فربت على كتفي بحنان وأصعدني الممرض إلى مكتبه فقال لي: "أريد يا ستافرو أن أساعدك، ولكني لا أستطيع كطبيب، كأستاذ جامعي. ولكن ثمة طبيب آخر أعظم منا وأود أن تتصل به".

قلت له من دون أن أفهم: "أين يقيم، وما اسمه كي أذهب وأزوره".

إنّهُ الله، قال لي.

وعند سماعي كلمة "الله" حزنت، لكوني فهمتها بأنانيّة.

"أنا لست من دولة غير متحضرة لست متخلّفاً من افريقيا. لو كان يجب أن أنتظر هذا من الله، لكان بمقدوري البقاء في اليونان والصّلاة. أتيت ليساعدني النّاس والعلم، والآن إلى أين تحيلوني؟ إلى الله! من ذهب إلى الله لأذهب إليه وأسأله كيف أذهب إليه؟ كيف أتصل بالله؟ ومن هو الله في نهاية المطاف؟

قال لي: "أتحبني يا ستافرو".

قلت له: "إنّي أحبّك بالفعل وأعتبرك أباً ثانياً لي، لأنّي بقيت يتيماً ستة أعوام بعدما مات أبي الذي كان طبيباً".

قال: "تابع صلاتك إلى الله وإن كنت لا تؤمن، إفعل هذا من أجلي ان كنت تحبني". شكرته وانصرفت. وعندما ذهبت لأتمدّد، نزع الممرّض الآلات، ووضع لي أنبوب البول بين رجليّ، إذ لم أكن أستطيع تحريك يديّ، وغطّاني. وبدأت أفكر لماذا حدثني RASS عن الله. إنّه ليس بأرثوذكسيّ، وليس بلاهوتيّ، وليس بكاهن. لماذا حاول إقناعي بأنّي لن أشفى إلّا بوساطة الله؟ أخيراً، لم أستطع أن أجد جواباً عن هذه النقطة وحزنت، إذ لن يكون في وسعي أن وأنهض من جديد وأمشي.

كنت شاباً أودّ أن أعيش. كانت لديّ طموحات وأحلام. كنت في الثّالثة والعشرين من العمر حين أُجريت لي العمليّة الجراحية. وسط قلقي هذا، كنت أحاول أن أجد مخرجاً، بولت وتجمّدت رجلي وتبلّلت، وبما أنّي كنت عارياً تبلّلت حتّى حلقي وبدأت أبرد وأرتجف وقلت لجاري المريض: "دقّ الجرس عني، لأنّي تبلّلت".

في الواقع كان هذا الممرض يقوم بعمل جيد. كان يأتي ويقلبني ويبدّل لي... غير أن الله أظهر قساوة قلب هذه المرّة. فقد أتى وقال لي: "ماذا تريد؟" قلت له: "قد تبلّلت وأريد أن تغسلني وتبدّل لي".

لو غسلني وبدّلني وقلّبي لكنت غفوت بسبب تعبتي. إلّا أن الله لم يسمح بأمر كهذا. وقساوة قلب الممرض، الذي لم يعد قطّ ليغيّر لي، جعلني أبدأ. لم يكن عندي قبلاً أين أسند إليه رأسي ورحت، بعد عودتي إلى الشّرق الأوسط، أتوسّل إلى المسيح قائلاً له، بعد أن أضعه أمامي: "أتذكّر، يا مسيحي، عندما صعدتُ إلى أورشليم للمرّة الأولى، وفي صعودي رأيت أنّه هنا سقط المسيح والقيروانيّ رفع عنك الصّليب؟ أتذكّر، إني وقفت في زاوية، لأنّي كنت أخجل أن أركع، فقد كنت مرتدياً البذلة. غير أنّي ركعت على ركبتَي النّفس وقلت لك كم أتمنّى يا ربّ أن أكون القيروانيّ وأرفع عنك الصّليب؟ وصلّبي أنا من سيرفعه؟ ألا تراني؟ وحدث بريق فسقطت أرضاً. أحاول النهوض ولا أستطيع وأسمع فقط صوتاً. "ستنهض، لا تستعجل".

إذاً، المسألة هكذا. إنّ قساوة قلب الممرض جعلتني أتكلّم مع الله. و قساوة قلب الطّبيب، الرئيس، جعلتني أتصل بالكلية القداسة. لذا، فأنا مدين بهذه النّعمة لهذين الاثنين. وأدين بالمعروف لهما. فقد أصبحا سبباً لدخول الكلّية القداسة إلى غرفتي. هاكم، إذاً، كيف يعمل الله وكثيراً ما يقال إنّ الله قاس وغير عادل .

إنّ الله، الذي هو العدل، المملئ بالمحبّة نحو الإنسان، نحو جبلته، هل من الممكن أن يظلم الإنسان؟ غير أنّ الإنسان، وخصوصاً أنا، ينسى. هو ناكر الجميل وينسى الله دائماً.

انتهى الملحق

❖ خبرة غلبة العافية النفسية

كان الشيخ يعيش باستمرار خبرة افتقاد النعمة الإلهية له. لذلك، كان يشعر بالعافية على الدوام، على الرغم من أنه كان يُجرب بأمراض جسدية دائمة. هذه الخبرة، خبرة الغلبة النهائية في المسيح، غلبة الصحة النفسية على المرض الجسدي، وهذا الدخول إلى "كنيسة السيد الأرضية غير المخلوقة"، كان الشيخ يحاول دائماً وبشوق أن يجعلهما حقيقة معاشة بحياته قبل أقواله. وهو الذي "تحمل فتعلم الإلهيات". وكم سنفرحه إن استطعنا أن نقبل، ولو جزئياً، رسالته السرية والخلصية هذه؟ وهذا يتوقف على مقدار قبولنا النعمة الإلهية، أي على قدر ما "سندع المسيح يسكن فينا" بحسب تعبيره.

آلام الشهداء وآلام الشيخ

❖ عن آلام الشهداء

تساءلت دائماً: كيف استطاع الشهداء تحمل تلك العذابات المبرحة، من دون أن ينثني عزمهم أو أن يتخلوا عن إيمانهم بالمسيح؟ وعندما كانوا يسألوني كنت طبعاً أعطي تفسيراً منطقياً، إلا أنني لم أعلم تماماً إن كان صحيحاً. وفي إحدى زياراتي للشيخ "التقط" تساؤلي هذا قبل أن أبوح به. وفيما كنا نتكلم على موضوع ما، سألتني فجأة:

"ما قولك، هل كان الشهداء المسيحيون يتألمون أم لا حينما كانوا يُعذبون؟". أجبت: "لا أعلم بالضبط أيها الشيخ، إنني أتعجب من هذا، لكني أظن أن نعمة الله كانت تأتي وتخفف من آلامهم لكي يستطيعوا التحمل إلى النهاية". قال: "ليس الأمر هكذا بالضبط، كان الشهداء المعذبون يتألمون كثيراً، كما يتوجع كل إنسان طبيعي، مع الفرق أن هؤلاء كانوا متحدين بالمسيح عبر

صلاتهم، وينالون منه قوّة أكبر من الألامهم وهكذا استطاعوا التّغلب على الألم. ولو تخلّوا عن صلاتهم للحظة، لأضحت الألامهم غير محتملة وأصبحوا على استعداد لإنكار المسيح. لكنهم للحال، كانوا يتعلّقون بالصّلاة من جديد، فينالون قوّة ويحتملون آلام الاستشهاد حتّى النّهاية".

❖ عن آلام الشّيخ

أثر في تفسير الشّيخ عن الجهاد، وتحقّق من أنّه متأثّر من استنارته الإلهيّة، على الرّغم من أنّه لم يكن هو نفسه شهيداً ليُعتبر ذلك خبرة شخصيّة. وفي اللّحظة الّتي راودني فيها هذا الفكر، عاد الشّيخ وتكلّم قائلاً: "سأخبرك بسرّ خاص، ولكن لا تخبر أحداً به". وافقته على ذلك، فكشف لي ما يلي:

"مرّة، ظهر في رأسي ورم خارجيّ وكان يزعجني كثيرًا. أردت أن يتمّ استئصاله بجراحة من دون تناول أدوية، لأنّه كان يجب ألاّ أتناولها. ذهبت عند أحد الجراحين في "البوليكلينيكي" وقلت له: أريدك أن تستأصل هذا الورم من رأسي بوساطة الكي ولكن من دون مخدّر. نظر إليّ الطّبيب باستغراب وسألني: ولكن هل ستتحملّ الألم أمّها الأب؟ قلت له: أرجو أن أتحمّله. وجرّت العمليّة بلا مخدّر. وقد توجّعت كثيرًا. لكنني صليت صلاة حارة متواصلة، ووجدتني في الجلجلة عند قدوميّ المصلوب الداميتين أطلب إليه أن يساعدني أنا الخاطئ على تحمّل وجعي كما تحمّل هو الآلام الجمّة. وهكذا تحمّلتُ الوجع حتّى نهاية العمليّة، الّتي تمت على أحسن ما يرام". هكذا بدا الشّيخ شهيداً أيضًا. لكنني فكّرت: هل بهذه العمليّة فقط، والّتي لا تصدّق، أضحي الشّيخ شهيداً؟ ألم يكن قد تحمّل، مصلّيًا بجهادٍ استشهادي، كلّ آلام أمراضه الجسديّة المبرّحة الّتي أضحت مرافقة له كلّ أيّام حياته؟ لقد قدّم لي الشّيخ بحياته أمثلة ملموسة عن كيفية استطاعة نفس تحرّرت من أمراض الخطيئة أن تنال قوًى من "المسيح الساكن فيها" حتّى لا ترزح تحت وطأة الآلام القوية، وليس هذا فقط،

بل أن تتفوّق عليها منتصرة، كما النّسر الذي يعبر بأجنحته القويّة غيوم
العاصفة السّوداء ، ويحلّق عاليًا فيصل إلى الشّمس البهيّة في السّماء الصّافية.

الملاحق الرابع للناسر

التفوق على الأم

❖ حديث للشيخ مسجل بالصوت عن كي جري من دون مخدر

مدخل:

إن رواية الشيخ أعلاه، التي أوردتها الكاتب، قد حصلنا عليها مسجلة بالصوت. وقد ارتأينا أن نورد لها لكم هنا من أجل فهم ما قاله الشيخ فهمًا مباشرًا. وقبل نطقه بما ستقرؤونه أدناه، كان محدثه قد قرأ له بحثًا عن الاستشهاد في سير القديسين، أو طروبارية في ذكرى أحد الشهداء القديسين. وعلق الشيخ مفسرًا أن الشهداء القديسين استطاعوا احتمال العذابات المبرحة، لأنهم أعطوا ذواتهم من كل أنفسهم ومن كل ذهنهم لمحبة المسيح.

ومن أجل تأييد رأيه هذا، نروي خبرة شخصية له. فإن قارنا وصف به كاتب هذا الكتاب لما سمعه وحفظه بالذاكرة بما يصفه الشيخ بنفسه عن هذه التجربة، تظهر بوضوح صعوبة نقل التفاصيل المهمة بأمانة للآخرين، هذه التفاصيل التي تضفي طابعًا خاصًا على رواية الشيخ.

هذا مقتطف من الحديث. فبعدما انتهى الشيخ من التعليق حول موضوع الشهادة (شهادة القديسين) يبدأ بسرد خبرته الشخصية.

*الرواية:

الشيخ: يكون (المجاهد الشهيد) بكامل ذهنه وفكره وقلبه في الله. المتحدث: أجل.

الشيخ: في صلاة عظيمة وتسليم. كان متحدًا بتسليم كلي لله. هكذا. فكره لكي نفسر هذا ... إنه جميل جدًا ...

المتحدث: نعم أيها الشيخ، فحالمًا ننهي ساذكر.

الشيخ: إنها محبة الله وكان يعيش في الله بينما كان [في العذابات].
المتحدث: كان جسده، يتعذب.

الشيخ: نعم، نعم، لقد قال هذا بشكل جميل جداً... الموضوع هو...
سأقول لك خبرة معاشة، أقولها دائماً بخجل، وإنما هي شيء قد عاينته...
المتحدث: نعم...

الشيخ: لقد أحسست به. وربما شعرت به مرّات أخرى أيضاً ولكن
سأقول لك حادثاً قد أخبرتك به، ولكنك لا تذكره، حين أحرقوا لي دملة بحجم
حبة الحمص قاسية، وكانت قد ظهرت هنا في أعلى رأسي.
المتحدث: نعم.

الشيخ: أتذكره؟

المتحدث: كلا، لم تكلمني عليه...

الشيخ: كان عندي دملة بحجم حبة حمص مثل تلك الحبوب
الإسبانية، هنا في أعلى رأسي... وكانت قاسية... كانت حبة لها عنق من أسفل...
وجذعها داخل الرأس...
المتحدث: في الجلد،...

الشيخ: ربّما داخل الجلد... إذا... كنت قد قطعت بطاقة سفر مع
شخص كان هذا قد حضر مرتين وأحبّني... وبدأت أنا أحبه، وأخذت أحدثه عن
البرية، وهو قال لي كم يودّ أن نذهب إلى... البرية... قطعنا بطاقات الطائرة، وفي
اليوم التالي باكراً كنا سنذهب في أول طائرة لنلحق السيّارات هناك في
"أورانوبولي".

وفكرت أن أقلع حبة الحمص هذه، إذ كنت أفكر أنني هناك في كيراسيا
[في الجبل المقدس] حيث سأذهب، طبعاً سأخرج في الغابة وتحت الشمس، وفي
كل مكان، وتعلم أنّ هذه تسمى سرطانّية، لأنّ هذا كان سرطاناً.
المتحدث: نعم...

الشيخ: إذا... هذا لا تلائمهُ الشمس لأنّها تؤذيه... ففكرت ان أذهب
لاستئصالها. قد انتظرت أن تختفي لوحدها، فلم تختفِ... واضطرت

لاستئصالها بالنار وليس بالسكين أي بالكي. يضعون أداة الكي فتحمر. تضعها فوقها وتحرقها كما يحرق اللحم... تحرقه... إذا... ذهبتُ إلى جراح يدعى إيليا ليكو. وقلت له: "عندي هذا أيها الطبيب..." رآه... وقال لي: "إنه شيء صعب... ألا تتركه؟" قلت له: "من الأفضل أن أتركه أيها الطبيب، ولكني ذاهب إلى الجبل المقدس". قال: "وماذا تبغي أنت في الجبل المقدس؟" قالها ممازحًا، وتابع: "الجبل المقدس ليس جيدًا... فقلت له: لست أدري كيف تعتبره أنت، أمّا أنا فيعجبني... وبما أنني سأذهب إلى هناك، وسأذهب إلى الغابة بين الأشجار وإلى الوعر، لأنّ هناك وعرًا، وفي الشمس، وأعلم أنّ ما بي لا توافقه الشمس، بل تسيء إليه... جئت كي أستأصله". قال لي: "قد أتيت متأخرًا... وليس لدينا مخدر ولا أي شيء". كان الوقت قد تعدّى الثانية عشرة وصيدليتنا قد أغلقت، وحتى لو لم تكن قد أغلقت، لم يكن لديهم مخدر، فقد نفذ ومن سيذهب لشرائه... فقال لي: "تعال غدًا". قلت له: "يا سيّد ليكو، لا أستطيع غدًا لأنني سأرحل في أوّل طائرة إلى الجبل المقدس...". فقال لي: "ما الذي تستطيع فعله لك؟ انتظر لترحل في الطائرة الأخرى، وتعال في الصّباح الباكر فنجلب المخدر وأنزعها لك...". فقلت: "لا، لا أريد بالمشرط..." فقال لي: "أأحرقها لك...". أجل، احرقها... "لا أستطيع فإنّي أنزعج". فقال: "إنّك لا تفعل حسنًا..." قلت له: "لا أريد أن أعمل أشياء كهذه، لأنّها ليست حسنة". فقال: "وما هي هذه الأشياء؟" قلت: "أن تكومها لي بلا مخدر...". فضحك وقال لي: "مستحيل أيّها الأب، فأنت ستقفز إلى فوق عندما أضع المكوى عليها... أتعرف ما معنى الكي؟ وماذا يعني الشّيء؟ ولماذا كان الطّغاة في القديم يحرقون الشّهداء؟ لأنّه ما من شيء أشد إيلامًا من أن يُحرق جسدك... إنّه مؤلم جدًّا، فلن تتحمّل...". قلت له: "أشعر بالضيق، ولا أريد أن أجرب الله، هذا لا يبدو لي جيدًا... هذا شيء يستطيع الطبيب تحديده، لماذا أقول أنا إنني سأتحمل بنعمة الله وأزعج الله بهذه الكلمة... إنني خجل من ذلك، لكنني مضطر إلى فعله. إنّه ضرورة، وعن ضرورة سأعملها".

جرت العمليّة في البوليكلينيكي حيث كان الشّيخ كاهنًا مداومًا. ولهذا يقول: "صيدليتنا"

قلت له: "اعمل معروفًا...". وقال الطَّيِّب: "أقول لك لا تستطيع...". قلت له: "اعمل معي معروفًا، وأنا سأرسم إشارة الصَّليب...". قال: "إنَّكَ تدخلني في مشكلة الآن... وإن بدأت، ستنتفض وترحل إثر ذلك...". وكنت أقول له: "اعمل معي معروفًا، وأنا سأرسم إشارة الصَّليب...". ونادى بانذورا، فأنت: "اذهبي وأحضري لي المكواة". أحضرت بانذورا المكواة، ووضعها في التَّيار، وكانت من الحديد كذلك الَّذي يُلَحَم به القصدير.

المتحدِّث: نعم، نعم... إنَّها مثل اللحم، نعم.

الشَّيخ: عندما وضعها في التَّيار الكهربائيَّ قال لي: "اجلس على الكرسي". جلست ووضعت يدي داخل جبتي هكذا، وضعتها هنا هكذا يهدوء.

المتحدِّث: أجل. فقد رسمت إشارة الصَّليب.

الشَّيخ: ولم يرني الطَّيِّب... من داخل الجبَّة... إذًا كما قلت، وصلَّبت يدي، وحالما احمر ذاك، نخزبها الطَّيِّب من فوق فجأة. وأنا لم أضطرب. فقد حصرت ذهني وانتقلت إلى الجلجلة وركعت أمام المسيح المصلوب... ورأيتة... كلَّه مع إكليل الشُّوك والمسامير في يديه ورجليه وجنبه المطعون بحربة الجند، وكان الدم يجري منها كلها... وأنا راكع كنت أرى هذا العجب... كنت قد ركعت.

المتحدِّث: نعم

الشَّيخ: كنت أحيها... وذلك بقوة. كنت في الجلجلة. أقول هذا لك فليسامحني الله، وصلِّ كي يسامحني الله عن الأمور الأخرى أيضًا، عن كبريائي إذ أخبرك.

المتحدِّث: مع أن هذا الأمر ليس كبرياء أيَّها الشَّيخ، إنَّه حدث واقع...

الشَّيخ: هذا ليس حسنًا. إنَّه لا يعجبني... وما أريد أن أقوله هو إنَّه وضعها ليجرَّب مرَّة، ثم أيضًا قليلًا، قليلًا أيضًا، وبعدها بدأ يسمع صوت آلة الكي.

المتحدِّث: صوت آلة الكي...

الشَّيخ: وكأنَّه يحرق لحماً... وامتلاَّت الغرفة من رائحة اللِّحم المشوي... لحم مشوي... إيليني، من فضلك افتحي الشَّباك... إنَّ هذا ملحد، ماسوني...

المتحدّث: بوا! بوا! بوا!

الشيخ: قال لي هذا... وأظن أنّ معه بعض الحق... أكمل عمله... وأنا كنت مأخوذاً جداً... ولم يكن فكري يرحل من هناك! نفساً وقلباً وزهناً، كلّها هناك، كنت أرى الرّب... كنت أرى المصلوب يسوعنا!... وأنا راكع أمامه، كنت أراه وأتأثر بالآلامه، بالمسامير وبكل هذا، وكنت أحيها وأستطيع أن أقول لك إنّها كانت المرة الأولى التي عشت الجلجلة فيها بحلاوة كثيرة، وبحيوية شديدة، وطبيعياً جداً... (وكان الطّبيب يتابع الكيّ منتظراً ردّة فعل عند الشيخ بورفيروس).

المتحدّث: الكيّ يجري تدريجياً...

الشيخ: لا، لم يكن تدريجياً، بل كان يعمل...

المتحدّث: نعم.

الشيخ: لم يتوقّف. تابع حتّى التّهاية ووضع المكواة هكذا، وبدأ يدفعها بحيث أنّ المكواة ربّما قد لمست العظم وعملت هكذا قليلاً...

المتحدّث: نعم، نعم.

الشيخ: حينئذ أطلق الطّبيب الشّقيّ صوتاً... لا يجوز أن أنطق به... أخجل كثيراً... ربّما لا يجوز أن أقوله...

المتحدّث: لا، قله أنّها الشيخ، بما أنّك أخبرت القصّة كلّها... ماذا قال الطّبيب؟

الشيخ: قال كلمة لم تعجّبي البتّة... لم تعجّبي البتّة... ولكن كيف أترك فكري... با، با، با! كنت ملتصقاً بالمسيح. أفهمت؟ إن الشّيطان جعله يقول هذه الكلمة...

المتحدّث: إذّا كانت كلمة مهيبة؟

الشيخ: لقد قال شيئاً لم يعجّبي. صرخ وقالها: "باندورا، إن الأبونا هو كذا!..." أفهمت؟ وهكذا، في التّهاية، وضع عليها تيراميسين، مسكّن للأوجاع. المتحدّث: نعم، مطهر.

الشيخ: نعم، ووضع لي شيئاً هكذا... لست أعلم ما هو.

المتحدّث: وضع شاشةً عليها...

الشيخ: غطّاها هكذا... نهضت وقلت له: شكرًا جزيلاً أيّها الطّبيب، ولكن لا أريد أن أخفي عنك أنّي حزنت عندما صرختَ وقلتَ "باندورا، الأبونا يمارس اليوغا... اسحب هذا التجديف. يا ربّي يسوع المسيح... أنا مسيحي أرثوذكسيّ، وليس لي علاقة بمثل هؤلاء ولا حتّى أعرفهم... أعرف أنّهم أناس أصحاب روح شريرة...". قال: "خطرت على بالي وقلتها... فإن لم تعجّبك، وطبعًا لم تعجّبك، فسامحني إذًا...". فقلت له: "إنّي أسامحك". وذلك على الرّغم من أنّه أذاني... كانت تجربة يا بنيّ، يا لها من ضربة شيطان! انتبه هناك! يا له من فخ نصبه لي! وذلك يعني أنّه لو تكلمت كنت خسرت اللّعبة... لا تستطيع أن تتكلّم... وكيف تتكلّم... وكيف أتكلّم؟ فقد كنت في حضرة عظمة الله... فهل سأتكلم؟ ولهذا أريد أن أقول لك إنّي شعرت بقبّاحة، وأقول إنّ القبّاحة لامستني قليلاً، ولكن لم يكن جيّدًا... سامحني يا إلهي إذ أخبر به... أسمعني؟

المتحدّث: إنّ الشّيطان جعله يقول هذه الكلمة كي يجعلك تضطرب... كي يبعدك...

الشيخ: نعم يا ولدي... ماذا قال له الشّيطان... لست أريد أن أقولها، إنّي أخجل... المتحدّث: هذا مهمّ أيّها الشيخ...

الشيخ: نعم، ولكن، عندما يقال من كل النّفس...

المتحدّث: نعم، إنّ ما قاله مرادف لما سمعناه في سير الشّهداء.

الشيخ: نعم، نعم بالضبط، كما قاله. ولا تستطيع أن تقول هذا إن لم تكن تعرفه.

المتحدّث: بينما هذا الشّيء، أيّها الشيخ، لا يُبلّغ إليه جزافًا. إنّهُ يتطلّب عملاً.

الشيخ: نعم، من الممكن أن يكون هكذا، كما تقول. والآن. إذ أقوله أنا أيضًا أشعر بقبّاحة.

المتحدّث: فكيف سيُبلّغ إلى هذا؟

الشيخ: ...

المتحدّث: يتطلّب إيمانًا كبيرًا.

الشَّيخ: إنّه عطية الله.

المتحدّث: هو نعمة الله. إنّه موهبة من الله. إذا لم تأتِ نعمة الله لا

يستطيع الإنسان أن ينجح.

الشَّيخ: نعم.

❖ وبعد ذلك؟ لا شيء آخر

نتوقّف قليلاً عن سرد حديث الشَّيخ، لنفسّر قليلاً كلّ ما سيتبع.

سأل الشَّيخ محدّثه: "كيف سيُبلغ إلى هذا؟" أي إلى تحمّل الألم. فأجاب بصمت مميّز. وبرأي محدّثه أنّ هذا يتطلّب إيمانًا كبيرًا. وقد عبّر الشَّيخ عن عدم موافقته بطريقة لائقة إذ قال ببساطة إنّه عطية الله. وهذا يعني أنّ الموضوع ليس مجرد موضوع إيمان. لا تستطيع أن تقول: أوّمن كثيرًا فتنحَمَل الألم.

ولما قال محدّثه قبلاً إنّ هذا لا يُبلّغ إليه جزافًا وإنّه يتطلّب عملاً حصل من الشَّيخ على جواب ذي معنيين: من الممكن أن يكون هكذا كما تقول، وبعد جواب الشَّيخ النهائي: إنّه عطية الله، يصبح واضحًا ومقبولاً أنّه نعمة من الله، موهبة من الله.

وقد أدرك الشَّيخ أنّ استيعاب محدّثه وجهة نظره كان سطحيًا، أي أن محدّثه لم يستوعب ما هو نوع العمل المطلوب وكيف تأتي هذه العطية الإلهية. ومن أجل ألا يبقى أي التباس يعود ويروي، كعادته، قصّة شخصيّة عنه تبدو في ظاهرها وكأنّ لا علاقة لها بالموضوع.

وعند قراءة القصّة سيسأل كثر عن علاقتها بما سبق. ومع ذلك فالعلاقة عميقة جدًّا، ونستطيع أن نقول إنّها سرّيّة لأن الشَّيخ يحاول بهذه الرواية أن ينقل محدّثه إلى حالة نفسيّة وروحيّة لا يمكن وصفها. إنّها حالة من يطبّق،

لنودع كلَّ حياتنا للمسيح الإله"، مَنْ يضع كلَّ حياته للمسيح، لله. إنَّها حالة من يفكر بالله بصلاح ويطلبه ببساطة قلب (حكمة ١: ١)، مَنْ يتقدَّم نحو ملكوت الله بلا ترَقُّب، لأنَّ "ملكوت الله لا يأتي بترقب". إنَّه من لا يدع شماله الدَّاخِلِيَّة (أي إنسانه الدَّاخِلِيَّ القديم) يعرف ما تفعل يمينه الدَّاخِلِيَّة (الإنسان الدَّاخِلِيَّ الجديد).

وبكلام آخر (على قدر ما يمكن للكلمات أن تعبر عن خبرة معاشة سرِّيَّة) ليس التغلُّب على الألم أمر يستطيع المسيحيُّ أن يسعى إليه بالنِّيَّة والإرادة. إنَّه أمر يأتي كنتيجة غير منتظرة وبلا سعي حين يهب الواحد ذاته بكلِّيَّتها للمسيح. ولكن، لنُدع الثثرة في الأمور الَّتِي لا نعرفها، ولنعطِ الكلام للشَّيخ كي يروي لنا قصَّة الجميلة.

متابعة رواية الشَّيخ

الشَّيخ: ألم اخبرك بها سابقًا؟

المتحدِّث: لا أيُّها الشَّيخ، لا أتذكَّرها.

الشَّيخ: وبعد ذلك، لا شيء آخر.

المتحدِّث: لا شيء آخر. أجل. لا شيء. ومع ذلك، هذا يشمل الكلَّ.

الشَّيخ: فلا تَهْض قليلًا، ارفعي كي أخبرك إيَّاها...

المتحدِّث: نعم.

الشَّيخ: كنت قد صنعتُ صندوقًا إذ أردت الذهاب إلى الجبل، إلا أنَّني

من النوع الَّذِي يبرد... أفهمت؟

المتحدِّث: نعم.

الشَّيخ: واضطرتُّ إلى صنع صندوق عرضه سبعون وعلوه سبعون

وطوله ثمانون.

المتحدِّث: نعم.

الشَّيخ: كان صندوقًا له غطاء، وله - ماذا يسعِّي؟ - عقد.

المتحدِّث: نعم.

الشيخ: إذًا... ذهبت إلى تلة وهي... من الممكن أنها كانت هكذا... كانت التلة... ومن هناك جبال... وإلى هناك ذهبت أنا، إلى الصنوبر في وسط الصنوبر... ووضعت...

المتحدث: في أي ناحية؟

الشيخ: سأقوله الآن...

المتحدث: حسنًا...

الشيخ: هل سبق وسمعت بنبع "كريستالي"؟

المتحدث: لقد سمعت به، نعم... ولكني لا أعلم أين يقع، أين يوجد...

الشيخ: عند نبع "كريستالي" وتحتة قليلاً، حيث المكان كله صنوبر...

المتحدث: نعم.

الشيخ: إذًا، وضعت الثياب، وضعتها في داخله وأقفلته كي لا يسرقه الرعيان ورحلت. وفي العشيّات كنت أذهب إلى هناك وأبقى... كنت أنام فوقه، وعندما لا يكون الطقس جيّدًا، كنت أفتح الغطاء، لأنها هكذا كان مصنوعًا، واسنده وأضع الفراش في اسفله وأنام داخله.

المتحدث: أجل.

الشيخ: أتفهم؟

المتحدث: نعم، نعم... داخل ال...

الشيخ: وكان فوق كل تلك الأشياء حتى أنها لو أمطرت فلن

يدخل... أفهمت؟

المتحدث: أجل.

الشيخ: وكان يلدّ لي كثيرًا. وكما قلت لك إنه كان هكذا... وفي أكثر

الأحيان، عندما كنت أتلو المزامير في العشيّات، "إنّ سماء السموات، الكواكب والنور"، وغيرها، كنت أنظر إلى السماء وكما قلت لك، هكذا، قمت بأمور كهذه، وأنا أصلي كنت أشعر بأن... إذًا... كم الساعة الآن؟... وهكذا كنت أعيش... من فوق حين يكون هدوء، وفي أسفل إن أمطرت وصار برد... إنه جميل...

الشيخ: اسمع سأخبرك... مرّ متسلّق جبال ورآني فحسدني. قلت له "كيف حضرت إلى هنا؟" قال هناك آخرون أيضاً... وقال سنجتمع هناك فوق على التلّة المقابلة، لست أذكر اسمها. قال لي: إنّي أحسدك كثيراً! لا أستطيع أنا أن أقوم بهذا، لسوء الحظ، إنّي مرتبط، عندي عائلة... فقد ذكّرني بقصيدة لكريستالي. لم أكلّمه... بعد ذلك همّ بالرحيل فقلت له: "توقّف يا بنيّ، فسّر لي ما معنى إنّي أذكرك بقصيدة لكريستالي...؟ قال لي: علي أن أتلوها لك... قلت: هيا، قلها"... آه، إنّها تنطبق عليك جدّاً". وهكذا تلا الشعر عليّ". آه ...، قلت له إنّ هذا الشعر أعجبني، وسألته إن كان لديه قلم. فأجاب: وكيف لا. سحبه من جيبه وكتبه لي وقد حفظته تقريباً.

وإذ مرّ بعد حوالى عشرة أيّام أتى ليرى إن كنت لا أزال هناك فوق، وكنت لا أزال... قلت له: اجلس كي أسمعك قصيدة كريستالي... ولما رسمت إشارة الصليب...

لو أن صنوبر المنحدر قدّم لي
من أغصانه التي لا تحصى رزمة
لصنعت بقره في إحدى النواحي
كوخي الفقير النائي...

وفي الصّيف لو يعطيني
أوراقه اليابسة أفترشها
ومعه أردّد أغنيّتها
ومع حفيفها الصّباحي.

وبعد ذلك؟ لا شيء آخر
وعندما ستنطفئ حياتي هكذا مليئة بالفرح
فليعطني أيضاً قليلاً من أغصانه
لتكون لي سريري الأخير.

(وتأثر الشيخ...)

المتحدّث: جميل جدًّا.

الشيخ: فليعطني أيضًا قليلًا من أغصانه... يا لها من حياة عند نبع

الفرح، عند نبع الحياة، لماذا يريد لك مثلها؟ ليقدم لك السعادة.

المتحدّث: أجل

الشيخ: كي يمنحك تلك العظمة الإلهية... لتشعر في نفسك، ولكن،

كيف يقول ذلك؟ من كل نفسك.

المتحدّث: ... النفس، من كل ذهنك، ومن كل قوّتك... والعقل النفس

والذهن والقوّة ل...

الشيخ: الكلّ لله. كلّ ما عندك... اتّحد بالله. أعط كلّ شيء لله. افتحه

لله. الأوصال، الكلى، القلب...

المتحدّث: أجل. كما تقول الصّلاة.

الشيخ: وكلّ المسيحيّين وكلّ العالم والذين يؤمنون والذين لا يؤمنون

يبتلعهم هذا الشّيء... الابتعاد عن الله.

المتحدّث: أجل.

الشيخ: الابتعاد عن الله يجلب العزلة... أفهمت؟

المتحدّث: يجلب اليأس، يجلب هذا وذاك... القلق.

الشيخ: وعندما تنكر سرًّا من الأسرار، سرًّا واحدًا... صار هناك العديد

من الأطباء، أطباء نفس، محلّلين نفسيّين، علماء نفس ويستقبلون المرضى... أي

مرضى، من أنت لتستقبل مرضى؟ وفي الأخير يسأله: ماذا ترى أيّها الطّبيب...

يجيبه: ليس عندك شيء. عندك عدم طمأنينة.

المتحدّث: وماذا يعني عدم الطمأنينة.

الشيخ: ماذا يعني عدم الطمأنينة؟ ليس عندك شيء... خذ هذا... فان لم

تهب ذاتك لله، ماذا سيصنع لك هذا؟ انه سيخدرك اليوم، وفي الغد يجوز أن

يعاودك القلق بضغط أكبر.

المتحدّث: بضغط أكبر. غالبًا ما يحدث هذا.

تعليق للنّاشر: إذّا، إنّ جواب الشّيخ بورفيريوس عن السّؤال: كيف يتوصل
أحدنا إلى هذا؟ أي كيف يتحمّل الألم، هو: "أنّ تعطي الكلّ لله. كلّ ما عندك...
اتّحد بالله". أن تجوز نعمة الله "في كلّ الأوصال والكلّى والقلب..."

انتهى الملحق.

موهبة الرّعاية

كانت مهارة الأب بورفيرْيوس في الرعاية فريدة. لقد اكتسب المحبة والتواضع المقدسين، فمنحه الله موهبة معرفة النفس. كان "يرى" النفوس في اتساعها وعمقها ويعرف كيف يتقرب منها في أكثر النقاط حساسيةً. ولما كان الزائر يدرك موهبة الشيخ هذه عبر خبرته الشخصية، كان يندهش ويستسلم له نفسياً بمعنى من المعاني جاعلاً إياه مرشده الروحي. وكان على الشخص أن يكون عديم الإيمان بشكل كبير كي يبقى غير متأثر. فبعض الرعاة الروحيين الذين، مع أنهم يتمنون مساعدة رعاياهم ينقبون إلى أقصى الحدود في نطاقهم النفسي المظلم الذي يجهلونه. ولهذا يرتكبون بعض الأخطاء ويجرحونهم، ولو عن غير قصد. وأمّا الشيخ، فلم يرتكب أخطاء، إلا في حالات نادرة وبخلاف من الله، لأنه كان يرى بوضوح النفوس التي كان يحبها ويخدمها بتواضع وبذل ذات. ومع أنه كان لي أب روحي من أكثر عمال كرم الرب أهلية، فقد رأيت، منذ اللحظة الأولى، في وجه الأب بورفيرْيوس، الأب القديس، الذي يريح كلياً. لم يرحني أنا فقط، بل أراح أبي الروحي أيضاً. وبالإضافة إلى خبرتي الشخصية، هناك أيضاً خبرات أشخاص آخرين كثيرين.

❖ لا تبقينها بالتخويف

كانت إحدى السيدات الدنيويات قد تعاطت ملذات العالم على أنواعها، وأخيراً يئست من كلّ شيء، وبلغت عتبة الانتحار. وجدها إحدى صديقاتها على هذه الحال اليائسة فنصحتها بزيارة الأب بورفيرْيوس لتخرج من مأزقها. فذهبت إلى كاليسيا وقابلته. ولأول مرة في حياتها، ومن دون أن تتوقع ذلك، وجدت داخل ظلمة نفسها نوراً معزياً يشع. تأثرت كثيراً وأضحت تلميذة

له. وطلبت أن يعطيها البركة لكي تبقى إلى جانبه، كما فعل بطرس الرسول لدى "تجليّ المخلص"، إذ قال: "يا ربّ، حسن أن نبقي ههنا". أمّن لها الشّيخ مسكنًا إلى جانب أخوات الدّير، وكانت تقضي أيامها هناك في هدوء نفسيّ وتشعر بأنّها "كانت ميتة فعاشت وكانت ضالّة فوجدت".

أمّا الشّيطان، عدو الخير، فلم يتخلّ عن عمله الحقود. وقد حسد تلك النّفس الّتي أفلتت من برائته، وكان يسعى إلى أن يربحها مجدّدًا. فأخذ يجلب إلى مخيلتها ذكريات جميلة من حياتها القديمة الّتي عاشتها وسط التّسلّيات العالميّة الباهرة، ويقارنها بالقفر الفقير حيث تعيش الآن. شيئًا فشيئًا بدأ السّام يسمّمها، وشيطان الضّجر يسحق نفسها سرّيًا، إلى أن جاء يوم أعلمت فيه الأخوات برغبتها في العودة إلى أثينا.

اضطربت الأخوات وحاولن منعها بقولهن إنّ عودتها إلى ذلك الجحيم القديم، بعد أن اجتازت تلك المغامرة الرهيبة، تعني استسلامها للموت طوعًا. تردّدت السيّدة في الرّحيل، ولكنّها بعد أيّام عادت وأبدت رغبتها في ترك الدّير. قلقت الأخوات واتّصلن بالشّيخ الّذي سألهن: "وأنتن ماذا قلتنّ لها؟" أجبن. "بأن تبقى هنا، لأنّها إن رحلت فستعرّض للخطر". فقال الشّيخ: "لم تفعلن حسنًا إذ قلتنّ لها أن تبقى. يجب أن تدعنها ترحل طالما هي تريد ذلك. لا تمسكها بالتّخويف. أتردن أن تجنّ؟ لا تخفن، فلن تضيع هذه النّفس، بل ستعود".

وعندما طلبت السيّدة مرّة أخرى، قالت لها الأخوات إنّها حرّة في فعل ما تشاء. فودّعتهنّ وأخذت بركة الشّيخ ورحلت إلى أثينا. استقبلها أصحابها القدامى بالترحاب، بينما كان الشّيخ يصليّ سرّيًا من أجل خلاصها. وبدأت السيّدة من جديد حياة الضلال. لكنّ أفاعي اليأس ما لبثت أنّ ضيّقت عليها، وكانت تشقيها الأفكار المظلمة، مع الفرق أنّ الظّلمة لم تعد وحدها تسيطر عليها كما من ذي قبل، بل باتت هناك أيضًا ذكرى النور المعزّي بالقرب من الشّيخ. وهرب العصفور من فخ الشّيطان، وطار حرًّا باتجاه كاليسيا. وقد استقبلها الشّيخ بحنان وفرح كما فعل والد الابن الضال. ومنذ ذلك الحين، لم تعد

تطلب العودة إلى الحياة القديمة. فقد تغيّرت جذريًا وعاشت حياة جديدة، حياة توبة وسلام نفسي.

❖ الصلّاة لا الزجر

في صبيحة يوم أحد، كان الشّيخ يسير نحو كنيسة إحدى القرى بصحبة أحد معارفه، وهو قروي مسنّ. في الطّريق التقيا مجموعة شبّان يسرون في الاتجاه المعاكس. فسأل القرويّ الشّبان: إلى أين أنتم ذاهبون يا شبّاب؟ أجابوه: إلى المقهى. عندها ثار القرويّ الذي كان متشدّدًا، وقال لهم: ألا تخجلون، إنّه صباح يوم الأحد، وبدل أن تكونوا في الكنيسة تذهبون إلى المقهى؟ أستم مسيحيين؟ وأخذ يلقي عليهم عظة متشدّدة في الهواء الطلق. أما الشّبان فقد كلّموه بغضب وتابعوا طريقهم. وكان الشّيخ صامتًا. ولما كان القرويّ منفعلًا ومعجبًا بذاته، قال للشّيخ: هل تكلمت حسنًا مع الشّباب؟ أجابه الشّيخ: لم تتكلّم حسنًا. فاستاء القروي من جواب الشّيخ إذ كان ينتظر تهنئته. ووصلا إلى الكنيسة، فدخل الشّيخ إلى الهيكل، وأخذ القرويّ مكانًا في أحد المقاعد. لم تمضِ نصف ساعة، فإذا بشّبان المجموعة جميعهم يدخلون الكنيسة. أخذ القرويّ يفرك يديه عن رضى. وحلما انتهى القداس وخرج الشّيخ من الهيكل، أسرع القرويّ إلى ملاقاته ودلّه على الشّبان قائلاً: أرايت، أنت قلت لي إنّي لم أكلّمهم حسنًا؟ لقد فكّروا بكلامي وأتوا إلى الكنيسة. أمّا الشّيخ ففسّر له وهو يبتسم، أنّهم أتوا لأنّه كان يصليّ من أجلهم بصمت، لا لأنّهم تأثّروا بطريقته.

❖ عندما أكون صائمًا أفهم أفضل

عصر أحد الأيام، اعترضتُ على الشّيخ لأنّه كان يستقبل النّاس منذ الصّباح بلا توقف، ومن دون أن يتناول شيئًا من الطّعام. قلت له: سامحني أيّها

الشَّيْخُ إِذْ أَتَجَرَّ وَأَقْدَمَ لَكَ نَصِيحَةً، أَنَا الْجَاهِلُ فِي الْمَسَائِلِ الرُّوحِيَّةِ، إِلَّا أَنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّكَ إِن تَابَعْتَ هَكَذَا فَسَوْفَ تَمْرُضُ. لِمَا لَا تَرْتَاحُ قَلِيلًا، عَلَى الْأَقْلَى لَتَتَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ، ثُمَّ تَتَابَعَ إِنْ كَانَتْ لَدَيْكَ الْقُوَّةُ؟ أَجَابَنِي الشَّيْخُ: لِأَنِّي عِنْدَمَا أَكُونُ صَائِمًا، أَفْهَمُ نَفُوسَ الْبَشَرِ بِشَكْلِ أَفْضَلِ.

❖ بِقَدْرِ مَا تَتَذَمَّرِينَ يَتَأَخَّرُ

كَانَتْ زَوْجَةُ طَبِيبٍ مَعَاقٍ يَائِسَةً لِأَنَّ زَوْجَهَا كَانَ قَدْ اكْتَسَبَ عَادَاتٍ سَيِّئَةً جَدًّا. فَقَدْ كَانَ يَذْهَبُ إِلَى الْمَقْهَى بَعْدَ عَمَلِهِ فِي الْمُسْتَشْفَى وَيَعُودُ إِلَى الْبَيْتِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، تَارِكًا زَوْجَتَهُ وَأَوْلَادَهُ وَحَدَثَهُمُ النَّهَارَ كُلَّهُ، وَهُمْ مَا كَانُوا يَرُونَهُ إِلَّا نَادِرًا. كَانَتْ تَحْتَجُّ وَتَكَلِّمُهُ كَلَامًا سَيِّئًا، فَيَكُونُ رَدُّ فِعْلِهِ التَّأَخُّرَ أَكْثَرَ فِي الْعُودَةِ. وَهَكَذَا وَجَدَتْ نَفْسَهَا فِي طَرِيقٍ مَسْدُودٍ. وَعَلِمَتْ بِالْأَبِ بَورْفِيرْيُوسِ فَأَسْرَعَتْ لِمُقَابَلَتِهِ. وَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى كَالِيسِيَا، كَانَ الشَّيْخُ الْمَرِيضُ قَدْ تَعَبَ جَدًّا وَلَمْ يَعدْ قَادِرًا عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ فِي الْمُقَابَلَاتِ. كَانَ هُنَاكَ أَنَاسٌ كَثِيرِينَ يَنْتَظِرُونَ فِي الْخَارِجِ فَلَمَّا وَصَلَتْ السَّيِّدَةُ وَعَلِمَتْ بِأَنَّ الشَّيْخَ تَوَقَّفَ عَنِ الْمُقَابَلَاتِ، حَزَنَتْ جَدًّا وَسَأَلَتْ صَدِيقِي الَّذِي كَانَ يَعْرِفُ عَائِلَتَهَا عَمَّا يُمْكِنُهَا أَنْ تَفْعَلَهُ. فَأَشَارَ عَلَيْهَا بِأَنْ تَتَجَرَّ وَتَطْلُبَ مَجَرَّدَ بَرَكَةِ الشَّيْخِ، لِأَنَّ بَرَكَتَهُ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، تَصْنَعُ الْعَجَائِبَ. اقْتَرَبَتِ السَّيِّدَةُ بِاضْطِرَابٍ نَفْسِيٍّ شَدِيدٍ. وَمَا إِنْ وَطِئَتْ سَلَمَ قَلَايَةِ الشَّيْخِ حَتَّى سَمِعَتْ صَوْتَهُ: "أَنْتِ ادْخُلِي". لَقَدْ "التَّقَطَّ" الشَّيْخُ قَلْقَهَا، وَفَهِمَ، كَمَا يَبْدُو، أَنَّهَا بِحَاجَةٍ مَلْحَةٍ لِأَنَّ يَسَاعِدَ عَائِلَتِهَا الَّتِي كَانَتْ تَنْهَارُ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ شَعُورِهِ بِالْإِنْهَاكِ، قَرَّرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَهَا " كَحَالَةٍ رُوحِيَّةٍ اسْتِثْنَائِيَّةٍ". وَحِينَ خَرَجَتْ السَّيِّدَةُ مِنْ قَلَايَتِهِ، كَانَ وَجْهَهَا يَضِيءُ فَرَحًا. وَأَفْشَتْ لَنَا بِمَا يَلِي: لَقَدْ كَشَفَ لِي الشَّيْخُ كُلَّ شَيْءٍ. وَقَالَ لِي إِنَّ زَوْجَكَ طَيِّبٌ، وَلَكِنَّهُ مَعْقَدٌ بِسَبَبِ إِعَاقَتِهِ، وَلِهَذَا فَهُوَ يَسْهَرُ اللَّيْلَ كِي يَنْسَى. وَبِمَا أَنَّكَ تَتَذَمَّرِينَ مِنْهُ بِاسْتِمْرَارٍ، فَإِنَّهُ لَا يَرِغِبُ بِالْمُجِيءِ إِلَى الْبَيْتِ وَلِذَلِكَ يَتَأَخَّرُ. فَبِقَدْرِ مَا تَتَذَمَّرِينَ يَتَأَخَّرُ. عَلَيْكَ الْآنَ أَنْ تَعْمَلِيَ الْعَكْسَ. بِقَدْرِ مَا يَتَأَخَّرُ،

ستصلين من أجله وتحبينه وتخدمينه. بهذه الطريقة سيتغير شيئاً فشيئاً وسيجذبه البيت وامراته وأولاده أكثر. وهكذا تنحل مشكلتك. وأخذت السيدة تخاطب نفسها وكأَنَّها استفاقت من حلم مزعج: كم كنت غبيةً طوال هذا الوقت، كنت سأهدم عائلي بتدمري من دون أن أدري. وقد طبقت إرشادات الشيخ بكل أمانة، وخلال فترة قصيرة استعادت زوجها.

❖ الأجر السماوي

أخبرتني إحدى بنات الشيخ الروحيات، وهي قليلة العلم: في صباح أحد أيام الصيف، أرسلني الشيخ إلى الحديقة لتنظيفها من بعض الأعشاب البرية. أخذت المعول وبدأت أنكش. ولما علت الشمس واشتدت الحرارة، تعبت كثيراً واستثقلت متابعة النكش، فرميت المعول جانباً. جلست تحت شجرة وكنت حزينة لأنني تخلصت عن عملي في منتصفه. بعد قليل، سمعت بالقرب مني جلبة خفيفة. استدرت وإذا بي أرى الشيخ، وقد أتى وجلس بقربي، وبدأ يقص عليّ قصصاً جميلة. في النهاية قال لي: "لقد أرسلتك لتشتغلي كي تربحي اليوم أجرك السماوي. وحالاً "رأيت" أنك قد تعبتي واستسلمت، أتيت لتعزيتك وتشجيعك لتتابعي عملك كي لا تخسري أجرك".

❖ الأغراض العتيقة

أخبرتني هي نفسها أنّ الشيخ قال لها مرة: "إن كثيرات منكن أنتن النساء، يرمين كلّ ما عندهن من أشياء خربة وغير نافعة، من أدوات مطبخ قديمة ومثقوبة وأثاث وأحذية وأشياء أخرى مهترئة، في مستودع جانبي ويقفلن الباب ويرتحن. وأنتن لا تعلمن أنه سيأتي وقت يُعثر فيه على الأشياء العتيقة

هذه فُتُعرض". وقفت منذهاً أمام كلام الشَّيخ. وكنت أقرأ، في تلك الفترة، كتباً في علم النَّفس الرَّعائِيّ، تتكلَّم على دفع خبرات الحياة المعاشة الجارحة من المجال الواعي في النَّفس إلى اللاوعي وعن ظهورها في وقت غير متوقع. ولكن مَثَل الشَّيخ الحي عن مستودع المهملات علَّمني أكثر بكثير من الكتب العلميَّة. كان التعبير الرَّمزِيّ واضحاً، وهو يعني خطايانا الَّتِي لا نمحوها بالتوبة والاعتراف، بل نرميها بعجلة في مستودع النسيان كي نتخلَّص من حضورها المزعج، والَّتِي "سيجدها" الله، من أجل أن يذكّرنا بها في "يوم الدينونة". إنّه يعرف كلَّ شيء مسبقاً، بينما نحن نجهله.

❖ الأيتام التَّعساء

كنّا مجموعة، وكان الشَّيخ يتحدث إلينا. فكلَّمنا على مأساة فقدان المحبَّة في عصرنا، هذا فقدان الَّذِي يسبِّب الوحدة والكآبة وعدم الأمان والقلق والمخاوف. قال لنا: "اذهبوا إلى أحد المياتم لتروا كيف يتصرَّف الأولاد اليتامى التَّعساء، إنهم كالخراف الَّتِي فقدت أمَّها، يبحثون بين الزَّوَار عمَّن يظهر لهم قليلاً من الحبِّ ليلتصقوا به ولا يفارقونه. اذهبوا وانظروا كم هم عطشى إلى المحبَّة. ولكن، هل تظنّون أنَّ الأولاد الَّذين لديهم أهل لا يحبّونهم، يختلفون عن الأيتام؟ هؤلاء أيتام أيضاً".

❖ لن تربح بالفظاظة

كان أحد أصدقائي يتلقَّى معاملةً قاسية من رؤساء قساة، كما أفشى لي. كان يهان ويساء فهم طباعه تماماً. وقد أراحه الشَّيخ لأنّه وضع الأمور في نصابها، وذلك بأن أجرى له صور أشعَّة نفسيَّة ناجحة. قال له: "أنت طيّب

وحساس وهادئ. أنت خروف الله. ولكنك تنكمش على ذاتك عندما يعاملونك بفضاظة، وتنفعل داخلياً عندها يسيئون فهمك. أما عندما يأتونك بالحسنى فتظهر من داخلك أشياء حسنة تجعل الآخرين يتفاجأون. فالتاس الذين يسيئون فهمك ويجرحونك لا يعرفون تلك الأسطورة القديمة عن الرّيح والشمس اللذين تخاصما في من هو الأقوى. وتراهنّا أنّ من ينزع رداء الرّاعي الذي كان صاعداً في تلك السّاعة إلى الجبل يكون هو الأقوى. أخذت الرّيح تعصف وتعصف، فبرد الرّاعي، والتفّ بردائه بشدّة. ولما ظهرت الشمس من بين الغيوم نشرت حولها اللطف والدفء، فشرع الرّاعي بالدفء ونزع عنه رداءه. عندها هتفت الشمس بالرّيح قائلة: رأيت من الأقوى بيننا؟ وانتهى الأب بورفيروس قائلاً: "إنّك لا تريح الإنسان بالفضاظة، بل باللّطف وحده". عندها فهم صديقي أنّ رؤساء القساة هم الرّيح العاصفة الوحشية، بينما كان الأب بورفيروس كالشمس اللطيفة الدافئة.

❖ تقدّس حتّى في وسط أومونيا

ذهبتُ إلى الشّيخ بصحبة صديق طيب كان متحفّظاً حيال الحياة المسيحية، على الرّغم من أنّه كان يتحلّى بفضائل نفسية مميزة. وفي الطّريق، كلّمته على الضّرورة الملحة في العيش طوعياً وبوعي منذ الآن حياتنا في المسيح، لأنّ في ذلك منفعتنا الكبرى. وافق في البداية، لكنّه أصرّ على أنّه من المفترض أن يتوافر الحد الأدنى من المعطيات الروحية كي يتحقّق هذا العيش، وهذا ما ليس متوافراً له.

عندما وصلنا، استقبلنا الشّيخ في قلايته نحن الاثنين معاً، وقال لنا أشياء جميلة تهمّ الطّبيب مهنيّاً. وقد أثارني كيف أنّه وجد نبض نفس صديقي منذ البدء وكان يكلمه وكأنّه يعرفه منذ طفولته على الرّغم من أنّه كان يراه سمرة الأولى. تأثّر صديقي ببصيرة الشّيخ، ولم يستطع إخفاء فرحه. أمّا أنا

فذكرتُ الموضوع الذي كنا نتحاور حوله في الطريق ولم نتفق عليه. عندها استغلَّ الشيخُ الفرصة وأعطى حججًا مقنعة عن فائدة العيش المسيحي وإمكانيته في كلِّ وقت ومكان". وأذكر النتيجة التي توجَّه بها إلى الطَّبيب: "أتعلم أيُّها الحبيب أنَّ كلَّ من يريد يستطيع أن يتقدَّس حتَّى في وسط أومونيا؟" وفي النهاية أقنع الشيخُ الطَّبيب في خمس دقائق فقط، فيما لم أتوصَّل أنا إلى إقناعه بحديثي معه لمدة ساعة. وكيف لا يقنعه، والنتيجة النهائيَّة ليست فكرة نظرية، بل ثمرة خبرته الشخصيّة، فهو عاش في القداسة ثلاثين سنة كاملة ككاهن لكنيسة القديس جراسيموس في البوليكلينيكي في أومونيا. كيف لا يقنعه، وحياته كانت رحلة ارتقاء مستمرَّ نحو القداسة؟

لما عدنا إلى أثينا، طلب مني صديقي أن نزور الشيخ ثانية في أوَّل فرصة وافترقنا. ذهبت أنا إلى بيتي وهو ذهب إلى عيادته التي تقع بجانب أومونيا. وعندما قال له الشيخ: "من يرد يستطيع أن يتقدَّس حتَّى في وسط أومونيا"، كان يعنهما مجازيًّا وواقعيًّا، وذلك من دون أن يعلمه أحد بمكان عمل الطَّبيب.

❖ الجو الفرح في ساحة الشيخ

كانت رعاية الشيخ تعمل سرِّيا ليس حين كان يكلم زوّاره في فلايته وحسب، بل عندما كان هؤلاء يلتقون في ساحته منتظرين مقابلته. لاحظتُ في أوَّل زيارة لي إلى كاليسيا جوَّ الفرح، وبالأحرى الجوَّ النَّفسيَّ القياميَّ الذي كان يسود بين النَّاس الذين يلتقون للمرَّة الأولى في ساحة الشيخ. في البدء ظننتُ أنَّ هذا انطباعي الشخصيَّ. فيما بعد، قابلتُ انطباعي بانطباعات العديد من الزوّار. كان شعورهم يشبه شعوري وقد عبَّروا عنه بالكلمات ذاتها تقريبيًّا.

❖ تعالَ متى شئت

كنتُ يوماً أتحدّث مع الشَّيخ في قلايته، وكان مريضاً في السرير، فقلتُ له: أظنّ من الأفضل أن آتيك في فترات متباعدة أكثر كي لا أزعجك دائماً. وللحال أبدى ردّة فعل: "كلا، تعالَ متى شئت. فإن كنتُ قادراً نتحدّث، وإلا أعطيك بركتي فقط. تعالَ من أجل تغيير الهواء هنا". وفهمت للحال أنّي عند ذهابي إلى الشَّيخ، لم أكن أتحاشى جوّ أثينا الملوّث بتنشّقي أوكسجين الغابة النقيّ فحسب، بل الأهمّ من ذلك كان الابتعاد لبضع ساعات عن جوّ المدينة الرّوحيّ الملوّث بتنشّقي أوكسجين قداسته الرّوحيّ الذي قدّس أيضاً الأبنية والأشجار والطّيور والأزهار البريّة والتّراب وكلّ الطبيعة الناطقة والجامدة حوله. وقد اعتدنا، وكان يلدّ لنا أيضاً، أن نذهب باستمرار إلى الدّير، سواء أكان راعينا الرّوحيّ موجوداً أم لم يكن، كما تفعل الخراف الّتي تذهب بمفردها إلى الحظيرة حيث تشعر بالأمان سواء أكان الرّاعي هناك أم لم يكن. وكان منظر دير الشَّيخ وحده يوحي لنا سرّيّاً الشّعور بالأمان والسّلام النّفسيّ.

❖ عندما يكون الانفصال أهون الشّرّين

كان الشَّيخ يرشد أبناءه الرّوحيّين بطريقة مؤلمة أحياناً، على قدر ما يحكم بأنّها حاجة روحية. قال مرّة لإحدى بناته الرّوحيّات الّتي توفّي زوجها: "عليك الآن أن تنفصلي عن حمائك بما أنّ عندها أولاداً آخرين وتدعها تعيش مع أحد أولادها. لأنّي أرى أنّكما إن عشتما معاً فستحوّل أولادك ضدّك بسبب مرارتها. وإذّاك ستخطئ هي جدّاً، وستعرّض حياتك وحياة أولادك لخطر روحيّ، وستضطرّين في النّهاية إلى طردها بالمشاجرة. أمّا الآن، فإن رحلت بالحسنى، فسوف تحزنين أنت وهي حزناً أقل. ساعديها مادياً قدر الإمكان من بعيد،

وخصوصًا بصلاتك. فرسالتنا نحن الكهنة أن نقرب النَّاس بعضهم إلى بعض،
 أمّا إذا كان هذا يسبّب ضررًا روحيًا، فالانفصال هو أهون الشرّين".
 وقد طبّقت هذه الابنة الرّوحية نصائح الأب في الوقت المناسب، وقد
 أثبتت صحّتها الأحداث التي جرت بعد ذلك بوقت قصير. والأمر هنا يتعلق طبعًا
 بنصيحة خاصّة لا عامّة.

❖ المحبّة تستر دائمًا

سأل أحدهم الشّيخ عمّن يجب أن ينتخب في الانتخابات النيابية.
 فأجاب بهمّثل: "إنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة كالدجاجة، تستر تحت جناحيها فراخًا
 بيضاء وسوداء وصفراء وفراخًا من كلّ لون". فحصل السّائل على الجواب
 السّديد: إنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة لا تنسيّس وخصوصًا لا تتحرّب. إنّها بمحبّتها
 تستر الجميع من دون أن تتماثل بالأحزاب.

❖ عندما يؤتّب الضّمير

مرّة كان الشّيخ مسافرًا من تسالونيكي إلى ييريسو قاصدًا الجبل
 المقدّس. لمّا وصل إلى المحطّة لم يجد مقعدًا له، فاضطرّ أن يبقى واقفًا، فيما
 كان بعض الشّبّان جالسين يتمازحون فيما بينهم. فقام رجل متقدّم في السنّ
 وانتهر الشّبّان لمشاهدتهم شيخًا كاهنًا يقف إلى جانبيهم، وهم جالسون غير
 مكترئين. وأشار عليهم أن يعطي أحدهم مكانه للكاهن. أمّا هم فبقوا غير مكترئين
 ولم يتحرّكوا من مكانهم. عندها نهض السيّد غاضبًا وقدم له مكانه. شكره
 الشّيخ ولم يقبل أن يجلس. وأكمل سفرته حتّى ييريسو واقفًا. وفي نهاية السّفرة،

سأل السيّد الشّيخ عن سبب عدم قبوله المكان الذي قدّمه له، فقال له الشّيخ: "قمتُ بتضحية من أجل الأولاد". لم يفهم السيّد ففسّر له الشّيخ: "إنّك لم تتصرّف تصرّفًا سليمًا عندما وبّخت الأولاد. هم تصرّفوا تصرّفًا سيئًا: تركوا كاهنًا مسنًا واقفًا ولم يخلوا له مكانًا من تلقاء أنفسهم كما كان واجبًا. ولكن، لو قاموا بعدما انتهرتهم وجلست أنا مكانهم، أو قبلت المكان الذي قدمته لي، ل بقي الأولاد غير مدرّكين أنّهم قاموا بعمل سيء، بل على العكس كانوا سيشعرون بأنّهم على حقّ. أمّا وقد بقيت واقفًا كلّ هذا الوقت، وهم يروني أمامهم، فقد استفاق ضميرهم ووبّخهم بصمت على تصرّفهم. فهذه الطّريقة فقط يمكن الإنسان أن يخلص، عندما يتوب موبّخًا من ضميره من الدّاخل، لا من الآخرين من الخارج.

❖ قد استسلمت الآن

أفشى أحد الأصدقاء أفكاره للشّيخ فقال له: إنّني قلق في شأن شيخوختي وأطلب إلى الله ألاّ يسمح بأن أثقل على أقاربي أو على أناس آخرين. فقال الشّيخ مبتسمًا: "أتعلم؟ عندما كنت شابًا، كنت أتكلّم أنا أيضًا هكذا، أمّا الآن فقد استسلمت".

❖ لديّ الخبرة لكوني أبًا روحيًا

بعد انتهاء السّهرائيّة في كنيسة القديس نيقولاوس في كاليسيا، كنت جالسًا على الصّخور أحدق في التلال المقابلة وأتأمّل ألوان السّماء الرّائعة عند بزوغ فجر آب الورديّ. كانت هذه المناظر تُظهر بجلاء عظمة الله. وعلى مسافة مني، كان الشّيخ يتحدّث بصوت خافت مع امرأة مسنّة بدت كأنّها لم تكن

مؤمنة وتستصعب قبول كل ما كان يقوله لها الشيخ طوال ذلك الوقت. وإذا بالشيخ يرفع صوته، وتُسمع كلماته بوضوح: "اسمعيني أنا من أكلّمك. إنّ الأمور هي هكذا كما أقولها لك. ولكوني أباً روحياً منذ سنين كثيرة، صارت لديّ خبرة في التّاس". كان في استطاعة الشيخ أن يذهل السيّدة بكشوفات تفوق العقل بوساطة موهبته وأن ينال للحال ثقّتها، بيد أنّه فضّل طريق الإقناع الطويل بوساطة المنطق. لماذا؟ هو وحده يعرف لكونه أباً روحياً وراعياً موهوباً.

❖ النّصيحة الثّانية

كان الشيخ يتساهل مع محدّثه عندما لا يقبل نصيحته الأولى، فيعطيه نصيحةً ثانيةً أسهل على الرّغم من أنّ النصيحة الأولى هي الأنفع روحياً.

❖ في البرد القارس

صبيحة أحد أيّام الشتاء، عرّضني أحد أصدقائي الطيّبين إلى تجربة خطيرة: اقترح عليّ أن نذهب في سيّارته إلى الشيخ، بينما كان الشيخ قد أعطاني إرشادات تقضي بالاحتراس من البرد بعد إصابتي بالدّبحة القلبيةّة. كان ميزان الحرارة يشير إلى تحت الصفر، والجبال حولنا مغطّاة بالثلوج. وندف الثلج يتساقط في أثينا وريح مثلجة تعصف وتجمّد كلّ شيء. لكنّ دفء الشّمس الرّوحية اجتذّبني. تردّدت قليلاً ثم قرّرت الدّهاب. ارتديت ثياباً سميقة، وانطلقنا كمجموعة معاً. وحين وصلنا إلى قلاية الشيخ، لم يكن هناك أيّ زائر. المكان مقفر وليس ثمة عصفور يطير. أعطى الشيخ البركة لندخل كلّنا معاً إلى قلايته. استقبل بفرح زوّار الشّتاء الذين قبلوا يده واحداً واحداً. كنت أنا آخر الدّاخِلين. وحالما شاهدني قال لي مندهلاً: "وأنت يا بني، أتيتني في يوم كهذا؟ ألم

أقل لك ألا تخرج من البيت في البرد القارس؟" وعبثًا حاولت أن أبرّر ذاتي. لكنّه رأى أنّ حجتي غير مبرّرة. كان منشرحًا وحدثنا وقتًا كافيًا. ازهرت وجوهنا من الفرح ومن حرارة المدفأة التي صنعها الشيخ. حيث يتأجج الحطب المشتعل. كنّا جالسين حوله وكلّما كان ينظرني جالسًا بين الآخرين، لم يكن يستطيع أن يتقبّل الأمر. وقد قطع حديثه الممتع أكثر من ثلاث مرّات كي يعلّق على حضوري بتوبيخات أبويّة لطيفة: "وهاك هذا الآخر الجالس هناك، الذي أتاني في يوم كهذا. كيف نهضت يا بني، وخرجت في هذا البرد الرهيب؟ أهذا ما طلبت منك فعله؟"

كنت أضحك، من دون أن أعي بأنّي عرضتُ صحّتي للخطر. ومع ذلك فهمتُ أنّي كنت متهورًا وأنّ تصرّفي غير حكيم. إنّ بركة الشيخ قد حمّتي من جليد ذلك اليوم، ومحبتّه الحصيصة سامحت عدم طاعتي التي تحرّكت بلا تمييز بسبب محبّتي له.

❖ خسرت ذاتك

دخلت إحدى السيدات قلاية الشيخ، وهي يائسة جدًّا ومنهارة بسبب موت زوجها. كانت كلماتها الأولى: لقد خسرتُ زوجي أيّها الشيخ وأنا يائسة. أجاها الشيخ: قد خسرتِ ذاتك لأنك خسرت إيمانك. لم تخسري زوجك، فهو للربّ وقد أخذه كما سيأخذنا نحن أيضًا. أرى أنّك وقعت في الكأبة من شدة حزنك، وخلقّت مشاكل لا لنفسك فقط بل لأولادك أيضًا الذين عندما يرونك تبكين كلّ يوم بلا تعزية، ينجرحون". وقد عزّأها بإعطائها إرشادات عمليّة من أجل مواجهة مشاكلها، ونقل لها الإيمان بالله ورجاء لقاء زوجها في السّماء.

❖ اذهب إلى الجبل المقدس (أثوس)

لم يستأثر الشيخ برعايتي. كان منفتحاً تجاه كل رجال الله. كلَّمته مرّة بإعجاب عن الأب ب. الذي عرفته من خلال روايات أصدقاء زاروه أو أحاديث له مطبوعة. وكلّمني الأب بورفيرْيوس بمحبّة كبيرة عن الأب ب. وانتهى إلى القول: "هيا يا بني، اذهب إلى الجبل المقدس لترى الأب ب.". وبعد قليل أضاف: "أنا والأب ب. شيء واحد". وتعلّقت بجملته الأخيرة وقلت له: طالما أنت والأب ب. متشابهان، لماذا أتكبّد مشاق الذّهاب إلى الجبل المقدس لألتقيه؟ عندما أراك أنت أكون قد رأيته. واعترض الشيخ قائلاً: "كلا يا بني، لا تقل هكذا. أنا لم أقل هذا كي لا تذهب. اذهب إلى الجبل المقدس لترى الأب ب.".

❖ ثلاثة أيّام صلاة وصوم

لم يقتصر الشيخ على اعطاء نصائح في المحبّة، بل كان يضحّي بنفسه من أجل المحبّة التي يعلّم عنها. مرّة، تعهّد شخصياً مع صديق حميم مؤازرتي في مواجهة مشكلة صعبة تخصّني. وقد شدّد على إقامة الصلوات والصّوم في إحدى مراحل المشكلة الدقيقة، حيث كان من المفترض أن يتكلّم الله عبر الأحداث. وأعلّمنا، أنا والصديق، بأنه سيصليّ معنا بحرارة ويحافظ على صوم صارم مدّة ثلاثة أيّام. وقد تمّ هذا وتكلّم الله في الأحداث التي تلت. تعجّبتُ من روح التّضحية الدّائية عند الشيخ، وأحسستُ بعرفان جميل خاصّ تجاهه، لأنّه، من أجلي، صلى ثلاثة أيّام وصام بشدّة على الرّغم من ضعف صحّته. كذلك، أحسست أيضاً بعرفان الجميل ذاته تجاه الصديق المختار والابن الرّوحاني للشيخ.

❖ جاندارك وزانتاك Zantak

كانت إحدى بنات الشيخ الروحيات تحدّثه عن شقائها من انزعاجات قويّة في معدتها، فأشفق عليها وأبدى استعدادًا لمساعدتها. وقال لها إنّ ألمها سببه نفسيّ وأشار عليها بتناول أحد الأدوية، ولكنّه لم يتذكّر اسمه. وأصرّ على تذكره قائلاً إنّّه يشبه اسم بطلة وطنيّة من فرنسا. فسألته الصبية: ربّما تعني جاندارك؟ فقال لها الشيخ: "نعم يا ابنتي، أعنيها هي. إنّ اسم الدواء يشبه اسمها". (وأراد بذلك زانتاك). وقد تركت سعة معرفة الشيخ انطباعًا حسنًا عند الشّابة. إذ إنّّه كان يعرف جاندارك أيضًا.

❖ انتبه لصحتك

ذات يوم، سأل الشيخ عيّ صديقًا لي كان يزوره: "كيف حال صديقك؟ حالما تذهب إلى أثينا، اتّصل به وقل له إنّ الشيخ ينصحك بأن تنتبه لصحتك. لا تتعب ولا تحزن". تأثّرت باتصال صديقي الهاتفيّ وبنصائح الشيخ. وبالفعل، كنتُ قد تعبْتُ كثيرًا في تلك الأيام ، وكنت حزينا. لقد كان الشيخ يرعى خرافه من مسافات بعيدة أيضًا.

❖ آراء في الآباء الروحيين

مرّات عديدة، احتجّت إلى أن أسأله عن كهنة آباء روحيين، لأنّ أصدقائي سألوني رأيي في عزمهم على الاعتراف عندهم. وكان الشيخ أحيانًا كثيرة يبدى رأيًا إيجابيًا، وأحيانًا قليلة كان يجيبي: لا أعرف. كان الشيخ يحترم

شخصية الكلّ، ويعبرُ بكثير من التّمييز، وخصوصاً عندما يتعلّق الأمر بالأساقفة والكهنة الآباء الرّوحيين.

❖ الطلب الذي لم يُستجب

قام صديقي، وهو طبيب، بزيارة الشّيخ في كاليسيا للمرّة الأولى. وكان الشّيخ مريضاً في ذلك اليوم، ولم يكن يستقبل من أجل الزيارة، بل لإعطاء البركة فقط. دخل صديقي فلأيته وقال له إنّهُ يودّ كثيراً أن يتباحثا في مشكلة شخصيّة مستعجلة. أعطاه الشّيخ البركة وقال له إنّهُ لا يستطيع أن يتحدّث وإنّهُ سيفعل هذا مرّة أخرى. أصرّ الطّبيب قائلاً إنّهُ صديقي. لم يبدِ الشّيخ أيّ انفعال لهذا الأمر وقال له إنّهُ مريض. عندها وجد الطّبيب فرصة ليقول له إنّهُ طبيب أمراض داخلية ومستعدّ لأنّ يساعده. شكره الشّيخ وقال أن لا لزوم لمساعدة طبيّة. عاد صديقي إلى أثينا منزعجاً وغاضباً. وقال لي: اسمع، لقد قدّمتُ له ثلاثة عروض وقد رفضها كلّها بعدم اكتراث. لا تحدّثني عن الشّيخ بعد الآن فلن أذهب إليه ثانية. وبما أنّي أعرف طباعه وقد رأيت حالات كهذه من قبل، قلت له وأنا واثق: ستذهب من جديد وستتعرف إليه وعندها نتكلّم. وفي الواقع فقد ذهب ثانية وتحدّث معه عن مشاكله وعاد متأثراً. ومنذ ذلك اليوم أصبح يزوره بشكل منتظم.

❖ الحرب الخفيّة ضدّ الإيمان

كنت يوماً أتباحث مع الشّيخ في الهرطقات، وقد أخبرني قائلاً: "أنتني مرّة شابّة طبيّة ومثقّفة ومن عائلة مسيحية جيّدة، وكانت أيضاً منضمة إلى جمعيّة مسيحيّة. قالت لي إنّ سيّداً عرض عليها الزّواج، وهو غنيّ وجديّ

ومثقف، ولكنه ماسوني. وسألتني عما يجب فعله. قلت لها ألا تقبل به لأنه ماسوني. قالت إن طباعه حسنة جدًا ولهذا تستطيع أن تجتذبه إلى المسيح. فقلت لها إنها لن تنجح. لم تسمع لي وتزوجته. ومنذ ذلك الوقت غابت سنين طويلة عن زيارتي، إلى أن جاءت يومًا مع زوجها وولدها. دخلت وحدها قلايتي. فسألتها كيف حالك؟ أجابتي: جيدة. كم مرة تذهبن للاعتراف والمناولة؟ تقريبًا كل سنة. ومتى تذهبن إلى الكنيسة؟ نادرًا، من وقت لآخر. وسألتها عن أمور أخرى وكانت الأجوبة متشابهة. قلت لها: نادي زوجك. فدخل زوجها وولدها. وقلت لزوجها: هل تعلم أن زوجتك قبل أن تقترن بك قد أكدت لي أنها ستجعلك مسيحيًا، لكنني أرى أنك جعلتها ماسونية.

سألت الشيخ: كيف آمنت هذه المرأة أنها ستجعل الماسوني مسيحيًا، مع العلم بأن الماسونية تحارب المسيحية علانية؟ أجابني الشيخ: "لا، هذه الحرب يقوم بها الآخرون. وأمّا الماسونيون فيقومون بحرب خفية. لهذا، هم خطرون. إنهم لا يقولون لك لا ترسم إشارة الصليب أو لا تذهب إلى الكنيسة أو إلى الاعتراف، بل يقولون لك اذهب، ولكن تعال معنا أيضًا. إنهم يؤثرون فيك رويدًا رويدًا، بحيث أنك لا تفهم كيف تكفّ تدريجيًا عن أن تكون مسيحيًا بالفعل وتصبح ماسونيًا". لم يعرف الشيخ مضمون الهرطقات وحسب، إنما عرف أيضًا "أساليب الشيطان". وحثّ المسيحيين على الاحتراز من الوقوع في الفخاخ والتقهقر في جهادهم "ضدّ الرؤساء والسّيادات، ضدّ ولادة العالم على ظلمة هذا الدهر، ضدّ الأرواح الشريرة في السموات".

❖ الزائرة الوقحة

أوضح لي الشيخ أنّه بسبب أمراضه لم يكن في مقدوره تحديد لقاءاته مع زوّاره كما كانوا يطلبون منه. لهذا، كان مجبرًا على أن يستقبل عندما يكون قادرًا، ما يتسنى له من الأشخاص، وعلى قدر ما يتحمّل من الوقت. وقد روى لي

الحادثة التالية: "كنت مريضاً ولم أستطع البتة استقبال الناس. دخلت امرأة قلايتي وأصرت على أن نتحدث. قلت لها إني لا أقدر لكوني مريضاً. عندها فتحت فاهها وأخذت تشتمني لأنها أتت من بعيد كما قالت وتكبدت مشقة هائلة وتكلفت مالا كثيراً. قلت لها: أيتها المباركة، ترى هل دعوتك أنا وسخرت منك؟ كما ترين أنا غير قادر، ماذا تريدان أن أفعل؟ وهكذا كان همها أمورها الخاصة". بالحقيقة، ماذا يمكن لقديس متألم من أمراضه أن يقول أمام هكذا حجج باطلة؟ الأفضل ان يصمت بوداعة ورافة.

وقد علمت أنّ امرأة زارته فيما سبق، عندما كان الشيخ في المستشفى بعد عملية جراحة الكلى، وطلبت أن تبحث معه مشاكلها، وذلك خلال الفترة التي كان يعاني فيها الكثير من الآلام الناتجة من العملية. ترى إلى أي حدّ يمكن أن يصل عدم إحساس الفرد منا؟

❖ المحبة نحو الشيخ مفيدة للزائر

كان أحد معارفي يمرّ بتجربة خطيرة فأراد أن يتعرّف إلى الشيخ. وقد أمست المراقبة بمثابة محطة في حياته لأنه دخل القلاية بكثير من التحفظ والشكّ وخرج منها متجلياً. بعد أيام قليلة، زرتُ الشيخ، وخلال الحديث ذكرتُ له التحوّل الموافق الذي سارت إليه مشكلة قريبي بعد لقاءهما. عندها كشف لي الشيخ: "كان حريصاً في البداية، لكنني حدثته محرّكاً داخل نفسه ورأيت في لحظة ما أنّه أحبّني". قال الشيخ هذا وأضاء وجهه من الفرح، وأوضح: "أنا لست سعيداً من أجلي بقدر ما أنا سعيد من أجله، لأنّه بسبب حبه لي سيستفيد الآن روحياً". وفي الواقع فإن هذا القريب قد أسلم نفسه للشيخ، وإذا بحياته كلّها تغيّرت نحو الأفضل. لم يكتفِ الشيخ، كراعٍ صالح، بأن يريح في المسيح محبة هذا الإنسان، بل كان يحرص على المحافظة عليها. قال لي: "يجب ألاّ تزعزع ثقته بي ومحبته لي، كي لا يتعرّض لضرر روحي ومادي".

❖ حوارات روحية

كانت الرسائل التي يتبادلها الشيخ وأبي الروحي مليئة بالنعمة. كنت أنقلها بامتنان كبير، وهنا بعضها: الأب الروحي: "صلّ أيّها الشيخ من أجلي أنا المريض". الشيخ: "أصليّ بتواضع أنا الخاطئ كي يباركك الله". الأب الروحي: "وأردّد التمتّي التالي من المزامير: ليتجدّد كالنسر شبّابك". الشيخ يبتسم بصمت. وفي مناسبة أخرى: الشيخ: "كيف حال أهلك الروحي؟ كيف يحيا وسط الجوّ الملوّث؟". الأب الروحي: "من فضلك أيّها الأب بورفيريوس، صلّ كي يحوّل الله هذا الجوّ الملوّث العابق في المنطقة حيث أعيش إلى أوكسجين بارنيسوس النقي". الشيخ: مهزّأه بأسف ولا يتكلّم.

قال لي الشيخ يومًا: "إنّ أباك الروحي طيّب جدًّا ومثقف جدًّا. أمّا أنا فكما ترى، لم أستطع ان أتعلّم، لقد انشغلت في الجبل المقدّس (آثوس) بالعمل اليدوي". قال هذا بحزن. نقلت هذا إلى أبي الروحي وسألته: ما حاجة الأب بورفيريوس إلى الثقافة العلميّة ما دامت لديه الثقافة الروحيّة؟ لم يكن عنده معلّمون جامعّيون في الجبل المقدّس، بل كان الله نفسه معلّمه. وقد علّمه أشياء لا تستطيع أيّة جامعة أن تعلّمها. وقد وافق أبي الروحي.

❖ الحكيم أو الرائي

مرّة وُجدتُ حائرًا بين حلّين لمسألة تخصّني. الحلّ الأوّل ظهر مطابقًا بوضوح لإرادة الله، ولكن كان لديّ شكّ ضئيل في إمكان أن يكون الحلّ الثاني مطابقًا أيضًا. وبما أنّي كنت ذاهبًا للاعتراف في ذلك اليوم، فكّرت، قبل المباشرة، في أن آخذ البركة من أجل الحلّ الأوّل. ذكرت الأمر لأبي الروحي الذي أجابني للحال وبلا تردد: من المؤكّد أنّ الحلّ الثاني مطابق أكثر لإرادة الله. وقد أثرت فيّ أيضًا هذه المرّة نبرة تميّزه الرعائي الصّائبة. لما التقيت الشيخ ذكرتُ له

هذا الحادث. اندهش وقال لي: "أهكذا أجابك أبوك الرّوحّي؟ هل وجد في الحال أنّ الحلّ الثّاني مطابق أكثر لإرادة الله؟ إن أباك الرّوحّي حكيم، وأنا أعرف ما أقول، من الأفضل أن تصغي إلى الحكيم من أن تصغي للرّائي". عند عودتي إلى أثينا أعلمت أبي الرّوحّي بذلك، فأجابني: قل للأب بورفيرْيوس إنّه من الأفضل في رأيي أن تصغي للرّائي من أن تصغي للحكيم. ولمّا نقلت هذا للأب بورفيرْيوس، ابتسم ابتسامة مقدّسة.

والآن، وقد انتقلا كلاهما إلى السّموات، أفكركم أنعم الله عليّ برعاة رُوحَيْن مهمّين، من دون أن أعي ذلك كما يجب في تلك الفترة. وغالبًا ما أسف لهذا، ولكن يعزّيني تأكيد الأب بورفيرْيوس أنّ أبي الرّوحّي "عاش المسيح، وذهب إلى المسيح" والأكيد أنّ الأب بورفيرْيوس أيضًا ذهب إلى المسيح. والآن فيما هما كلاهما بقرب المسيح يتشقّعان بمحبّة كبيرة من أجلنا نحن الخطاة.

❖ الوزير ومساعدته

إنّ اهتمام الشّيخ الرّعائيّ قد طال مناطق كان يصعب على كثيرين الوصول إليها. وُجد أحد أبنائه الرّوحَيْن في حيرة: هل يساعد أم لا أحد أصدقائه الذي يشغل منصبًا رفيعًا، وقد طلب إليه العمل معه؟ فلجأ إلى الشّيخ الذي، على الرّغم من تحفظاته الأولى، أعطى البركة للعمل معه معللاً ذلك بقوله: "يجب أن يوجد بعض النّاس الصّالحين لينصحوا من يشغلون المناصب العامة العيا بطريقة صحيحة. فيكونون كالمُلمح الذي يمنع العفونة، إذ من دون الملمح تأتي العفونة بسرعة أكبر". ولكنّه لم يتوقف عند هذا، بل سبق ورأى أنّ أناسًا كثيرين معارضين سيدخلون ويفسدون الأمر، وسيجعلون مساعدته غير ممكنة، وهكذا سيضطر إلى الرحيل. كذلك خلال فترة قصيرة سيضطرّ صاحب المنصب العالي إلى ترك منصبه بسبب انحراف المسؤولين الأعلى رتبة منه عن التقليد اليونانيّ المستقيم. وقد تحقّقت حرفيًا رؤيا الشّيخ خلال أشهر.

❖ السّياسيّون المرتّبكون

سألني الشّيخ مرّة كيف تسير الأمور السّياسيّة. أجبتّه أنّها عموماً ليست على ما يرام. فقال: "ليس في وسع السّياسيّين عمل شيء. إنّه مرتّبكون بأهوائهم النّفسيّة. عندما يكون الإنسان غير قادر على مساعدة نفسه كيف يستطيع مساعدة الآخرين؟ نحن أيضاً مسؤولون عن هذه الحالة لأنّه لو كنّا مسيحيّين حقيقيّين لكنّا أرسلنا إلى المجلس لا حزباً مسيحياً طبعاً، بل ساسيّين مسيحيّين، وعندئذٍ تختلف الأمور.

❖ اتركوه واقفاً كي يدفع الثّمن

كنّا مجموعة رفاق جالسين حول الشّيخ، وكان يعلمنا بطريقته الّتي لا مثيل لها. وبقي واحد من الرفاق، وهو معروف بكبريائه، واقفاً لأنّه لم يجد مكاناً. فاقترحتُ على الشّيخ أن نجد له مكاناً كي يجلس. ففاجأنا الشّيخ جميعاً بتعبير غير معتاد: "أتركوه واقفاً كي يدفع ثمن كبريائه". وقد "رأى" الشّيخ هوى ذاك الإنسان النّفسيّ، وعلى الفور وجد له القصاص المطلوب.

❖ الثّقة بعناية الله

في عصر أحد أيّام الصّيف كان الشّيخ جالساً تحت شجرة صنوبر يحدثنا أنّه يجب أن تكون لدينا ثقة لا تحدّ بعناية الله: "هل تعلمون أنّ ما يقوله الكتاب" وشعور رؤوسكم كلّها محصاة" حقيقة واقعة. فما من أمر يحصل في حياتنا صدفة. إنّ الله يهتمّ حتّى بأصغر التفاصيل في حياتنا. فهو لا

يهملنا ولسنا وحدنا في العالم. إنّه يحبّنا كثيرًا ويفكرّ فينا في كلّ لحظة ويحمينا. يجب أن نفهم هذا الأمر وألاّ نخاف شيئًا".

❖ من دون النعمة

مرّة أخرى قال لنا: "علينا أن نقتني نعمة الله منذ الآن. فمن دون نعمة الله لا تعطي محاولاتنا نتيجة ولن نذهب إلى الفردوس. إن الله يمنحنا نعمته عندما نكون متواضعين". هذا يدلّ كم كان الشّيخ ملتزمًا بتقليد الكنيسة وبوحدة رأي الآباء لأنّه كان يحيا ما قاله السيد "بدوني لا تستطيعون شيئًا". وهذا أوضحه مجمع قرطاجة في أحد قوانينه بما معناه "إننا من دون نعمة الله لا نستطيع عمل أي صلاح".

❖ البطالة واليأس

عندما سئل عن إنسان موجود بعيدًا جدًّا عنه، ولم يكن قد واجهه من قبل، قال الشّيخ: "أرى أنّه يائس لأنّه يجلس كسلانًا ولا يعمل". كان تشخيصه ينطبق كليًا على الواقع لأنّه إن كان لا بدّ من معالجة اليأس يجب البدء بالعمل.

❖ الزّهور والأشواك

أظهر لنا الشّيخ أسرار الجهاد الرّوحيّ بعرض بسيط ومفهوم. قال: "ما هو الجهاد المسيحيّ؟ هو هكذا: النّفس حديقة مقسومة إلى جهتين، نصفها الأول مزروع أشواكًا، ونصفها الآخر أزهارًا. وعندنا خزان مياه (أي قوى النّفس) له

حنفيتان وقناتان. إحداهما توصل المياه إلى الأشواك والأخرى إلى الأزهار. بإمكانني أن أفتح حنفية واحدة فقط. فإن تركت الأشواك من دون ري تدبل، وإن رويت الورود تزهّر". لم يتكلم الشيخ على ناحية واحدة للنفس، شيطانية أو ملائكية. كان يراها كما هي في الواقع، تتأثر بالشياطين أو بالملائكة. لم يشأ أن يرى المسيحي يجاهد سلباً منشغلاً فقط بقلع الأشواك، بل أراد أن يراه يجاهد إيجاباً، منشغلاً فقط بري الزهور لأنّ نتيجة هذا الجهاد تفتح الأزهار أي الفضائل الملائكية، وفي الوقت عينه ذبول الاشواك أي الأهواء الشيطانية.

❖ النور يطرد الظلمة

وفي مناسبة أخرى قال لنا: "لماذا نطارد الظلام؟ لنشعل الضوء فيولي الظلام من تلقاء ذاته. لنترك المسيح يسكن في كلّ نفسنا وهكذا ترحل الشياطين من تلقاء ذاتها". لقد أثرت فينا بشدة هذه الصّور التشبيّهية التي استعملها الشيخ. وفي طريق عودتنا تباحثنا بحماس في كشوفاته هذه، طبعاً من دون أن نفهمها جيّداً. بقينا في مستوى شرح تصوراتنا، بينما تقدّم هو في عمق خبراته الروحية المقدّسة التي لا يُعبّر عنها. فعندما قال: "سندع المسيح يسكن في كل نفسنا وسترحل الشياطين من تلقاء ذاتها"، لم يكن يتخيّل مثلنا احتمالاً مفترضاً، بل كان يعيش حالة حقيقة.

❖ قبول الهدايا عن محبة

بما أنّي كنت أوّمن بأنّ كل تقدمة للإنسان الآخر يجب أن تشكّل قيمة أخلاقية مستقلة لا يمكن أن ترتبط بأيّ تقدمة تقابلها، لئلاّ تندرج في حقل التبادل والأخذ والرد تحت غطاء روحيّ. كنت دائماً متحفّظاً في قبول الهدايا.

حتى من جهة الأصدقاء إلى حد أنني كنت أجرحهم من دون قصد مني. وقد "رأى" الشيخ ضعفي هذا الذي، على الرغم من مثاليته، كان يخفي عناصر كبرياء خفية، وأراد أن يحوله إلى الأفضل. وأنا لم أكن قد حدّثته عن هذا الأمر، ففي أحد أحاديثنا قال لي بغتة: "هل تعلم أنه عندما يقدمون لك شيئاً بمحبة، عليك أن تقبله". وكان تدخله هذا مباشراً وصائباً، وقد جعلني أتذكر جملة كنت قد نسيتها، وقد أثرت في أيام مراهقتي: "باطل كلّ ما تأخذه عن أنانيّة، وأبدّي كلّ ما تعطيه عن محبة، والأنبل هو كلّ ما تقبله بمحبة كي تعطي فرح المكافأة لمن يقدم لك عن محبة". إنّ "الجهاز الروحي اللاقط" عند الشيخ اكتشف المثال السامي القديم الذي كان في عمق نفسي منذ زمن، وأعادته إلى الظهور بعد أن أصابه البؤس والعقد في الممارسة. وقد بسّطه الشيخ ونقاه من العناصر الدخيلة؛ هكذا بحيث أنّ المحبة في المسيح تقدّس التّقدمة، وذلك بحسب قول الرّسول: "لا شيء ينفعكم ان لم تحبّوا بعضكم بعضاً". ولذا فإن قول الرّب: "أحبّوا بعضكم بعضاً" يظل لكل واحد تجاه الآخر ديناً غير مسدّد مدى الحياة.

❖ عليك أن تقرّر بمفردك

كانت أجوبة الشيخ عن بعض تساؤلاتنا المطروحة تصيبنا بخيبة أمل مرّة. مثلاً: "أنت ستري لوحديك وستقرّر على مسؤوليتك". وإذ يرى ضعفك، وقبل أن يحاربك الشيطان بالاضطراب واليأس، يجيء مساعداً إليك، ويعطيك، بطريقة غير مباشرة ولكن واضحة، العناصر اللازمة التي توجّهك نحو القرار الصحيح. فالشيخ، كالأئمّ الطيبة التي تربّي ولدها على مواجهة مصاعب الحياة يتركنا، من وقت إلى آخر، في المياه العميقة، من دون أن يبتعد عنا بقاربه، ليختبر استعدادنا الذاتي ويكون مستعدّاً في كلّ لحظة للإسراع إلى نجدتنا. كان عنده هدف منطقيّ وهو أن يفصلنا عنه كلياً لكي نلتصق بالمسيح، حتى نستطيع

بنور المسيح وقوته أن نقرّر وكأننا واقفون أمامه "وجهًا لوجه". ولم يكن يعني هذا افتراقنا عن الشَّيخ، بل ارتباط نفسيّ أشدّ معه "عبر المسيح".

❖ لا تُعطى أجوبة الله كيفما اتَّفَق

كان الشَّيخ يريدنا أن نفسرَ الكتاب المقدَّس بكلّ مسؤوليّة وجدّية. قال في هذا الصدد: "عندما تكون لديكم مشكلة ما، لا تفتحوا الإنجيل كيفما اتَّفَق لتروا ما إذا كان يوجد في الصفحة الّتي فتحتموها جواب من الله عن مشكلتكم. هذا ليس صحيحًا. إنّ أجوبة الله لا تُعطى من طريق الحظ".

❖ إمنح هؤلاء

كانت صلوات الشَّيخ الّتي يتلوها علينا معبّرة جدًّا. كنت مرّة في قلايته مع صديق مميّز يحبّ الشَّيخ كثيرًا. وبعد أن أعطانا عدّة نصائح تتعلّق بمشاكلنا، جعلنا في النهاية نركع، وتلا الصّلاة الآتية رافعًا يديه: "أيّها الرّبّ يسوع المسيح، امنح هذين إتمام رغائهما المرضيّة لك بحسب قلب كلّ واحد منهما لكهما، بأعمالهما الصالحة، يوفيانك ما وجب عليهما من اعتراف لك بالجميل". وفي زيارة أخرى لي مع ثلاثة أصدقاء، استقبلنا معًا جميعًا، وفي نهاية الحديث، طلب إلينا أن نركع، وارتدى بطرشيّله وبسطه فوق رؤوسنا وتلا صلاة وددت كثيرًا لو التقطتها، لكنّه تلاها بصوت منخفض جدًّا حتّى إنّني لم أُميّز الكلمات.

❖ اجلبا لي جريدة

كان الشَّيْخ يعيش كناسك وسط العالم، لذا كان مهتم بكلِّ العالم. كنت يومًا معه في سيَّارة أحد الأصدقاء، وكنا نمرّ في إحدى ضواحي أثينا الشماليَّة. توقفنا أمام كشك ونزلت أنا وصديقي لشراء غرض ما. وإذا بالشَّيْخ ينادينا من نافذة السيَّارة: "اجلبا لي أنا أيضًا جريدة". تفاجأنا. وسألته: "أي جريدة تريد ان نجلب لك؟ أجاب: "أي واحدة". اشترينا له واحدة، وسألته وأنا أناوله إيَّاها: أقرأ الجرائد أيُّها الشَّيْخ؟ أجاب: "لا، لكنني عندما رأيْتُها الآن معلَّقة في الكشك قلت لأخذ واحدة وأرى ما صار إليه العالم"، لكنَّ الشَّيْخ كان يعرف العالم أفضل بكثير مما كان يعرفه الصحافيُّون.

❖ أصلي أن يتدخَّل الله، وأن يعين

ذات يوم، فيما كنا نتحدَّث، سألتني الشَّيْخ: "ماذا أحضرت لي من أخبار العالم؟ كيف هم السياسيُّون وكيف تسير الأمور الإقتصاديَّة". قلت له بإيجاز الأخبار الرئيِّسة. هزَّ الشَّيْخ رأسه بأسف قائلاً: "ليست الأمور على ما يرام. أصلي أن يتدخَّل الله". في الحياة الأخرى، سنعلم أهميَّة صلوات الشَّيْخ المتواصلة من أجل العالم كله".

❖ لنحافظ على وحدة المؤمنين

كان الشَّيْخ يبدي اهتمامًا خاصًّا بالأخبار الكنسيَّة. كان يعرف أيَّ أقرأ جريدةً دينيَّةً لذا كان يسألني عنها باستمرار. وكنت أسرد له الأخبار الأكثر أهميَّة. كان يحزن كثيرًا عندما يسمع عن العثرات والشقاكات. وكان يقول إنَّ علينا أن

نحافظ، بكلّ تضحية، على وحدة المؤمنين جميعًا داخل الكنيسة، لأنّ المسيح صلّى إلى أبيه من أجل هذه الوحدة. كان قلقًا جدًّا عندما أثّرت مشكلة الأملاك الكنسيّة واستقلاليتها. كان ينصح بالجهاد بحماسة، ولكن بتعقّل، من أجل المحافظة على الحقوق الإلهيّة للكنيسة.

❖ الثقافة والتّعمة

قال لي بحزن عن أهل ولد منحرف: "إنّ أهله على الرّغم من كونهم ذوي ثقافة عالية ومعرفة بالعلوم النفسيّة واطّلاع علّيّ كبير، قد أضاعوا ولدهم من بين أيديهم. ماذا تنفع الثّقافة؟ إنّ نعمة الله وحدها ومحبّتنا الحقيقيّة الّتي نبذلها سرّيًّا من أجل الآخرين تقدر أن تخلصهم وتخلصنا".

❖ لا تدينوا

كان الشّيخ ينصح بالأّ ندين الآخرين على خطاياهم، لأنّ الله حينئذ سيسمح بأن نقع نحن أيضًا في الخطايا ذاتها. قال لي: "في إحدى القرى، فيما كانت إحدى ربّات البيوت تشعل الفرن كي تخبز خبزها، تمّنّت لو تستطيع أن تشوي في الفرن فتاةً من القرية المجاورة كانت قد حملت من مجهول. وفي غضون سنين قليلة، عندما سافر رجلها إلى الغربة، حملت هي نفسها من رجل من قريتها". وأضاف: "لهذا ينصحنا الله ألاّ نلعن أحدًا، حتّى عدوّنا، وأن نبارك الجميع حتّى أعداءنا".

❖ عندما نتقدّس نحن

ذهبتُ مع صديق لإتمام عمل ما من أجل الدّير وكان الشّيخ معنا في السيّارة. ولاحظت، في وقت ما، أنّنا نمرّ أمام أبنية تسكنها جماعة من الألفيّين. شعرت بالحزن والسّخط يغمرانني بسبب العمل المفسد للنفس الّذي يقوم به هؤلاء المبتدعون، إذ عوض أن يتوبوا عن خطاياهم يجاهدون كي يزعموا إيمان الناس بالمسيح، إيمان أنفسٍ "مات المسيح من أجلها" وقام. كان الشّيخ صامتًا. وفي لحظة ما ناجيت ذاتي: ترى، ما عساه يفكر، ألا يسخط عند رؤيته هؤلاء البشر وأعمالهم؟ في الحال سمعت صوت الشّيخ يقول: "ليرحم الله هؤلاء الأشقياء أيضًا، شهود يهوه الكاذبين. بعض المسيحيّين يسخطون عليهم، وآخرون يتشاجرون معهم ويحنقون عليهم، وآخرون يشكونهم إلى المحاكم. ولكن لا يحارب الألفيّون هكذا. أتعلمون كيف يُحاربون؟ عندما نتقدّس نحن".

❖ إتصال هاتفيّ بعد منتصف اللّيل

أحد مساعدي الشّيخ في أعمال الدّير، وهو من أبنائه الرّوحيّين، كان يتملّكه ضعف عجز عن ضبطه. كان يحبّ الطّعام الطيّب والنّبذ الجيّد. وقد روى لي الحادثة الآتية: "مساء أحد الأيّام دُعيّنا، أنا والعائلة، إلى بيت أحد الأصدقاء. أعدّوا لنا، على المائدة، أرنبًا شهياً وأطعمة أخرى طيبة ونبيذًا فاخرًا جدًّا. وقد أكلنا وشربنا حتّى التّخمة، وغادرنّا قبيل منتصف اللّيل بقليل. عند وصولنا إلى البيت، استلقيتُ لأنام ولكن لم يغمض لي جفن. ورحتُ أتقلّب في فراشي يمينًا وشمالاً، ولكن عبثًا. كانت معدتي ثقيلة ورأسي يطنّ. عانيت هكذا لوقت طويل وحزنت. وفي الثّالثة بعد منتصف اللّيل، سمعت رنين الهاتف. تساءلتُ من المتّصل في مثل هذه السّاعة؟ رفعت السّاعة، وسمعت الشّيخ يقول لي: "أمّها المبارك، ألم أقل لك مرّات عديدة ألا تضعف أمام الطّعام اللّذيذ

والنَّبِيذ؟ انظر ما حلَّ بك الآن. أراك تعاني. وأنا أعاني أيضًا معك. أصلي كي تعبر عنك هذه المحنة، صلِّ أنت أيضًا، وفي المرّة المقبلة انتبه أكثر. منذ ذلك الحين، كنت في كلّ مرّة أدعى فيها إلى مائدة أتذكر مكالمة الشَّيخ في منتصف اللَّيْلِ، فأمسك نفسي كي لا أقع في الشَّرَاهة من جديد، وأكثر من ذلك كي لا أعود وأحزن الشَّيخ".

❖ ساعة الموت – المجيء الثاني

كنت يومًا في قلاية الشَّيخ فسألته: أيُّها الشَّيخ، يجري مؤخرًا كلام كثير على العدد ٦٦٦، وعلى اقتراب مجيء المسيح الدَّجَال، ويؤكد البعض أنه قد أتى، وعلى الوشم الإلكتروني في اليد اليمنى أو على الجبهة وعلى تصادم المسيح مع ضدَّ المسيح، وسحق هذا الأخير، وعلى مجيء الرِّبِّ الثَّاني. فماذا تقول أنت عن هذا كلّ؟ أجاب الشَّيخ: "ماذا أقول؟ أنا لا أقول إنِّي رأيت العذراء، وإنّه ستجري حرب وأمور أخرى كهذه. أعرف أنّ المسيح الدَّجَال سيأتي، وأنّ مجيء الرِّبِّ الثَّاني سيتمّ، ولكنني لا أعرف متى. غدًا، بعد ألف سنة، لا أعرف. ومع ذلك، لا أشغل بالي بهذا ولا أقلق. لأنّي أعرف أنّ ساعة موت كلّ واحد منّا هي مجيء الرِّبِّ الثَّاني. وهذه السَّاعة قريبة جدًّا".

❖ وقتٌ للتَّائب ووقتٌ للمدح

لم يكن الشَّيخ يتوانى عن تأنِّيبي أو مدحي حين يرى ذلك ضروريًا، وبخاصّة في أوقات لا أنتظرها. كان يوبّخني خاصة حين أكون في هدوء وأيامي تمرّ صافية مريحة. عندها كان يبدي ملاحظاته حول نقائصي وتهاوني الخفيّ. وعلى العكس، كان يمدحني عندما تعبر أيام أنعرّض فيها للتَّجارب والأحزان،

متيقناً من أنّي اتحمّل بتواضع. وتربيته هذه تذكّر بالقديس إسحق السرياني، الذي قال: "إنّ الله وملائكته يفرحون بالشدائد، بينما الشيطان وخدامه يفرحون بالراحة".

❖ بالطائرة من كريت إلى دير الشيخ

عصر أحد الأيام، كانت أستاذة في التعليم الثانويّ من كريت تنتظر معنا الشيخ المتغيّب خارج قلايته القرميدية. قالت لنا إنّّه قد طرأت عليها مشكلة خطيرة وملحة، وأنت استثنائياً من الجزيرة في الطائرة. كان الوقت يمرّ ولم يأت الشيخ، والأستاذة تنظر باستمرار إلى ساعتها. ثم قرّرت بأسف أن ترحل، وقالت لنا: يجب أن الحق طائرة العودة، فغداً عندي عمل لا يؤجّل. سأعمل على أخذ فرصة من جديد، وأعود في أقرب وقت لأرى الشيخ. أثرت فينا ثقة الأستاذة بالشيخ، إذ إنّها، في سبيل الحصول على إرشاده لم تكثر بالتعب والمسافات والمصاريف.

❖ أبي الروحيّ

كذلك، أثرت لي الثقة المطلقة التي كان يظهرها أبي الروحيّ تجاه الشيخ. وقد قال: "إنّ كثيراً من الآباء الرّوحيين يرسلون إليّ أولادهم من أجل مساعدتهم على حلّ مشاكلهم، إلا أنّ أباك يرسلهم إليّ أنقياء، ويقبل مسبقاً كلّ ما أقوله لهم من دون أن يبدي أيّ اعتراض".

❖ عامل الكرم

قال الشيخ عن عامل صالح في كرم الرب: "أرى أنه يسير جيّدًا، ويسلك الطريق الصحيح المستقيم الرأي. أتمنى أن يستمرّ هكذا دائمًا، من دون أن ينحرف عن الطريق. فإن حاد أحد عن الطريق الصحيح وسلك الطريق المعوّج، من غير المؤكّد أنّه سينتبه لكي يعود. وحتى في حالة إدراكه الأمر واتّخاذه طريق العودة، ليس من المؤكّد أنه سيتمكّن من الوصول من جديد إلى الطريق الصّحيح الذي سبق وسلّكه".

❖ المشاهير يزورونه خفية

زار الشّيخ من وقت لآخر، أشخاص مشهورون، وهم لأسباب مختلفة أرادوا أن تبقى زياراتهم سرّية. إنّ المشاهير أيضًا يشعرون أحيانًا بالحاجة إلى إحناء رأسهم والإصغاء إلى شيخ ناسك متواضع ومتقدّس، فهولن يمدحهم كما يفعل جمهور المستفيدين المتملّقين، ولن يدينهم كما يفعل منافسوه المليونين بالأهواء، بل سيفهمهم ويقول لهم الحقيقة بمحبّة ويريح أنفسهم المضطربة المتعبة.

❖ هؤلاء لا يتغيّرون

أبدى أحد أصدقائي تبرّمه للشيخ لأنّه على الرّغم من محاولاته لم يستطع أن يُقنع، في مسائل أساسية. أحد العاملين معه المتشدّدين والمتمسكين بأشكال خارجيّة وطرق تربويّة أثبتت فشلها، خصوصًا لأنّها لم تتضمن توجّهًا مستقيمًا. أجابه الشيخ: "لا تحزن ولا تتعب عبثًا. هؤلاء النّاس لا يتغيّرون. لقد

اعتادوا الطريقة القديمة". وبعد نصيحة الشيخ، تقبل الصديق معاونه كما هو، من دون أن يرغب في تغييره، محاولاً أن يقوم بعمله بطريقة صحيحة قدر استطاعته.

❖ نصائح إلى أم مضطربة الأعصاب

نصح الشيخ إحدى الأمهات التي اضطربت أعصابها بسبب تجارب خطيرة، أن تجاهد كي تتقدس. وبالمقابل أعطاه نصائح عملية كي تتوصل إلى الخروج من كآبتها: أن تعمل على طرد الذكريات المزعجة والمخاوف وتذكر أحداثاً مفرحة ومرضية، أن تنهي دائماً أفكاراً متفائلة بالمستقبل وأن تسمع الموسيقى الجيدة التي تعجبها وتخرج لتمشي في الريف، أن تذهب مع صديقات مسيحيات إلى القداس الإلهي يوم الأحد وإلى صلوات الغروب والسهرانيات وأن تصلي للمسيح بثقة.

❖ عليك بتغيير الرفقة

نصح الشيخ إحدى الشابات وقد حاولت الانتحار، بضرورة ترك رفاقها الذين يؤثرون فيها سلبياً، ومعاشرة شابات مسيحيات تستطيع أن تتحدث معهن برضى وترافقهن في نزاهات وفي زيارة الكنائس حيث يشتركن في الخدم الشريفة. واهتم أيضاً بأن يوكل إلى شابة طيبة كانت تزوره باستمرار مبادرة التقرب منها.

❖ من الأفضل أن تفشل كعلمانيّ

قال له أحد الشبان إنّه يفكر بالذهاب إلى الدّير. وقد "رأى" الشّيخ أنّ الحياة الرّهانيّة لا تناسبه، وأشار عليه أن يجاهد مسيحياً في وسط العالم. أجابه ذاك أنّه خائف من الفشل. قال الشّيخ: "من الأفضل أن تفشل كعلمانيّ من أن تفشل كراهب".

❖ سيء الظنّ يبقى من دون مساعدة

لما كان أحدهم بحاجة ملحة إلى مساعدة روحيّة فكّر في زيارة الشّيخ. لكنّ بعض أصدقائه المتحاملين على الشّيخ عن عدائيّة جائرة نقلوا له معلومات سلبية عن الشّيخ وهي بالطبع غير صحيحة فتخلّى عن فكرة زيارة الشّيخ. وأخبر الشّيخ أحد أبنائه الرّوحيين عن هذا الإنسان الذي يمرّ بتجربة قاسية إذ كان يعرفه جيّداً، أسفاً لسوء ظنّه. وقد "رأى" الشّيخ أنّ مشاكل هذا الإنسان صعبة وخطرة وأشار على ابنه الرّوحيّ أن يقنعه بزيارته. لكنّ ذاك لم يقنع. كان سمّ سوء الظنّ قوياً في داخله.

أراد الشّيخ، إذّاك، أن يساعده، لأنّه أشفق عليه. وعلى الرّغم من أنّه لم يكن قد اعتاد على هذا، فقد اتّصل به شخصياً ودعا. فأجابه ذاك بأنّه سرّ بالملكة، ولكنّه لا يستطيع أن يلبيّ دعوته. وكرّر الشّيخ الدعوة هاتفياً ثلاث مرات، وفي كلّ مرّة كان يتمنّع ذاك عن زيارته بحجج مختلفة. وفي النهاية بقي هذا الإنسان، الذي كان بحاجة ماسة إلى مساعدة الشّيخ، من دون عون بسبب إصراره على سوء ظنّه. وهذا مؤسف جدّاً. فقد قال الشّيخ: "لو أتى إليّ لما احتجتُ إلى أكثر من خمس دقائق حتّى أغيّره. كنتُ قلتُ له أحد أسراره وربّحتُ ثقته بسهولة، وساعدته على حلّ مشكلته". لكنّه بقي مصراً على رفضه. إنّه سرّ النّفس الإنسانيّة. هل عرف الشّيخ إنّه لن يزور في النهاية ؟ ربّما نعم. إذّا، لماذا

أصرَّ على دعوته؟ ربّما كي لا يستطيع أن يحتجَّ أمام الله بأنَّ الشَّيخ لم يشأْ مساعدته. ربّما عندما يفهم يومًا ما ضلاله، يعود إلى ذاته فيتواضع ويتوب ويطلب العفو من الشَّيخ الَّذي أصبح الآن يستقبل الزَّوَّار في قلايته السَّماوية.

❖ سيجارة طالب الكهنوت

زاره أحد المرشَّحين للكهنوت، وبحث معه مواضيع شخصيّة مختلفة. وعندما انتهى، انحنى ليقبّل يده، ففاحت من فمه رائحة نيكوتين قويّة وكريهة. عندها قال له الشَّيخ: "أيّها المبارك، كيف ستصبح كاهنًا لله وأنت لا تريد أن تُقلع عن التدخين؟". أجابه: "أنت على حق أيّها الشَّيخ، إنّه ضعفي، فأنا أدخّن علبتين في اليوم، وأخجل أن أقول لك هذا، فحقّي زوجتي حانقة عليّ". أعطاه الشَّيخ إرشادات في كيفية الاقلاع عن التدخين. وقد اتّبعها وتوصّل، بمعونة الله، إلى التوقّف. وكانت زوجته أوّل من تهلّل. وبعد زمن قليل، شرطن كاهنًا.

❖ قد أنقذتك المياه

كان أحد معارفي يعاني من حصى في الكلى والمجاري، وقد ارتاح بشربه ماءً كثيرًا، فقال له الشَّيخ: "قد أنقذك الماء، فلا تتوقف عن شربه".

❖ الحماس والبركة

اقترح على الشَّيخ أحدُ أبنائه الرّوحيين أن يريه نوعًا جديدًا من الدّهان لأجل طلاء الدَّير، فوافق الشَّيخ. في أحد الأيّام حمل العدّة واللون وذهب إلى

الدير. حين وصل كان الشيخ نائمًا، ولأنه لم يستطع صبرًا، وربما حتى يضمن مفاجأة مرضية للشيخ، ذهب ودهن جزءًا صغيرًا من أحد الجدران كنموذج. وحالما استفاق الشيخ، انطلق من بيت القرميد إلى البناء. عندما وصل وشاهد الحائط المدهون، لم يبد حماسه. فسأله ابنه الروحي: ربّما كان يجب ألاّ أدهنه من دون بركتك أيّها الشيخ؟ أجابه الشيخ: "طبعًا، ما كان يجب، انتظر على الأقل حتى أستيقظ". وفهم الابن الروحي، بعد ذلك، أن أيّ عمل يتم من دون بركة خاصّة من الشيخ لا ينفع، حتى ولو كان ناتجًا عن حماسة فائقة.

❖ الرهبان

مرّة، كان الشيخ يتمشّي في الغابة فالتقاه أحد الأساقفة. وعندما علم بأنّه راهب احتجّ على الرهبان أنّهم يتركون لهم الجهاد الاجتماعيّ المسيحيّ ويلوذون بالهرب إلى الجبال، مهتمّين فقط بخلاص نفوسهم. كان الشيخ يسمع وهو حان الرأس. ولما انتهى الأسقف من كلامه، قال له: "يا سيّدنا، أنتم تتكلّمون وكلماتكم تذهب من أفواهكم إلى أذن النّاس. والرهبان يتكلّمون وكلماتهم تذهب أولاً إلى أذن الله وبعد ذلك تصل إلى أذن النّاس". كلمات الشيخ تدكّر بجملة قالها أحد الآثوسيين: ليست المسألة أن يكون الراهب قريبًا منّا، بل قريبًا من الله. لأنّه بقدر ما يقترب من الله، يصير قريبًا منّا.

❖ اتّصالات هاتفية غير متوقّعة

كان الشيخ يعلم أن كُثرًا يشعرون بفرح كبير لو تمكّنوا من التكلّم معه ولو عبر الهاتف وخصوصًا حين يبادر هو إلى الاتّصال الهاتفيّ، عندها لا يخشى المتكلّم معه ازعاجه. كانت اتّصالات الشيخ الهاتفية المباركة هذه قليلة، لأنّ

وقته كان مأخوذاً بمواجهة مشاكله الصحية وأعمال بناء الدير وكثرة زوّاره والاتّصالات الهاتفية المستمرة التي يتلقاها. ولكي يتّصل بأحد هاتفياً، كان لا بدّ من أن "يرى" حاجة بالغة وملحة. عندها، كان يؤجّل قليلاً انشغالاته المتعدّدة المحيطة به، ويسرع إلى مساعدة من هو بأمرّ الحاجة إلى مساعدته. قال لي مرّة: "أودّ كثيراً أن نتحدّث عبر الهاتف، أن تتّصل بي أو أتصل بك، ولكنك ترى ما يجري، أستقبل الزوّار باستمرار، والهاتف يرنّ باستمرار، وعندنا بناء الدير، وفوق كلّ شيء عندي أمراض وشيخوختي فكيف يمكنني ذلك؟" ومع هذا، كان الشّيخ يتمكّن من عمل كلّ الأشياء عبر هاتفه السّريّ: أي صلاته المستمرة لله الكليّ القدرة.

❖ أحيطوه بصلواتكم

قال الشّيخ لأهل شاربٍ أتوه مضطّرين، لأنّ ولدهم حاول الانتحار لأسباب يجهلونها: "إنّ ولدكم حسّاس، وهو منذ صغره يذوب من الغيرة، وشيئاً فشيئاً بدأ يتغرّب عنكم، وقد وصل إلى محاولة الانتحار بعد أن تملكه اليأس. إنّه يتطلّب انتباهاً، فربّما عاد إليه الضّيق. وكى يشفى الولد من جرحه، يلزمه كلام قليل وصلاة كثيرة، لا نصائح وإدانات وما شاكل، بل كلمات قليلة ولطيفة تقوّي رجاءه وبعدها صلاة على الفور. أحيطوه بصلواتكم". وقد أثبتت الأحداث صحّة كلمات الشّيخ.

❖ أحببتموهم وضغطتم عليهم

وقال لأهل آخرين يعانون من مشاكل صعبة مع أولادهم: "أرايتم ماذا حلّ بكم مع أولادكم؟ أرايتم إلى أين وصلوا؟ قد أحببتموهم، لكنكم ضغطتم

عليهم من دون أن يكون عندكم القداسة اللازمة كي تحفظوهم بالقرب من المسيح. عندما كانوا صغارًا كنتم تضيّقون عليهم، ولما كبروا لم تعودوا تدرون ما العمل. يجب ألاّ تحاربوا أولادكم، بل الشيطان الذي يحاربهم. عليكم أن تكلموهم قليلاً وتصلّوا كثيرًا.

وأيضًا، صوّر كلام الشيخ الواقع تمامًا كما هو.

❖ أوقفني السيجارة حالاً

وقال لإحدى المدخّات: "لا تفيد السيجارة بشيء. بل على العكس، تسبّب السرطان وأمراضاً أخرى. أوقفها في الحال".

❖ أنت تتأثر بما ترتبط به

مرّة، أوردت للشيخ رأيًا للقديس يوحنا الذهبي الفم: "إنّ الرّغبة البالغة في الفضيلة تقود إلى تحقيق الرّغبة". وحالما سمعها أضاء وجهه فرحًا وقال لي: "هذا مهم. أنا أقول للناس الشّيء ذاته: إنّك تتأثر بما ترتبط به. إنّ كتابًا سيئًا يسيء اليك. وكتابًا جيّدًا ينفّعك. حتّى ولو كنت غير مهتمّ لتطبيق ما ورد فيه، ولكن، بما أنّك تتمناه داخليًا، فمع الوقت، شيئًا فشيئًا ومن دون ضغط وغضب، تنضج رغبة الصّلاح وتعمل بمقتضاها أخيرًا".

❖ لا يحتاج الأولاد إلى القسوة

سألته إحدى الأمّهات إذا كان من الأفضل لها ان تأخذ أولادها وتستقرّ في لندن، أجب: "لا تشتري بيتًا في لندن. لا تذهبي إلى هناك. لا يناسبك العمل

هناك. الطقس رطب والناس غرباء وباردون وغير أرثوذكسيين. سيُشعر أولادك بالحزن هناك. من الأفضل أن يبقوا هنا حيث الناس مسيحيون أرثوذكس، يونانيون. الطقس هنا جميل وسينعم به الأولاد. يجب ألا يُعامل الأولاد بقسوة. عندما يشاغبون، تصرّف كما يجب كأم، ولكن، لا تقسي عليهم. إنك تعملين حسناً إذ تقرأين لهم الكتاب المقدس يومياً. وإن اعترض أحد الأولاد، اتركه وخذي البقية إلى غرفة أخرى وتابعي القراءة. وعندما تذهبن إلى الكنيسة ولا يريد أولادك الذهاب معك، لا تجبرهم، ولكن لا تكوني غير مبالية أيضاً. بل قولي لهم: أنا ذاهبة، يا أولاد، إلى الكنيسة. من يشاء منكم فليأت معي الآن، أو ليذهب فيما بعد. هذا ما يجب أن تقوليه لهم، ويجب أيضاً أن تصلي كثيراً من أجلهم. بصلواتك يتكلم الله معهم".

❖ الجواب المناسب في كل مرة

قال الشيخ لأحد أبنائه الروحيين، بهدف أن يقوّي عزمته على الجهاد: "كما تظهر التّجاعيد فوق حواجب القديسين، هكذا تظهر فوق حاجبك". كانت الشيخ، برعايته، يتوجّه بشكل خاص نحو الآخرين. وغالباً ما قدّم حول الموضوع ذاته أجوبة مختلفة لأشخاص مختلفين. وعن أسئلة كنت أطرحها عليه كان يجيب أحياناً: "إعمل بما يهديك إليه الله". ويكون هذا هو الجواب، وهو يتطلب صلاة كثيرة بحسب القول: "تكلم يا ربّ فإنّ عبدك يسمع". وأحياناً أخرى كان يقول: "ليس عندي ما أقوله لك". ويكون هذا هو الجواب أيضاً، وهو يتطلب تواضعاً كثيراً كي أقبّله من دون مرارة. سألته مرّة: هل يتكلم الله معنا، أيها الشيخ، عبر الأحداث أيضاً؟ فأجابني: "طبعاً. أحياناً كثيرة يختار الله هذه الطّريقة: أن يتكلم معنا عبر الأحداث". ومشكلتنا هي أن نكتشف معاني الرّسالة بطريقة صحيحة.

❖ عندما يكتنفنا العناد

قال الشيخ عن مسيحي سقط في فخ أهوائه بسبب إحدى التجارب: "أرى أنه ذكي وطيب من الداخل، ولكنّه، بسبب هذه التجربة التي يمر بها، فقد صبره وتوترت أعصابه، وترك ما فيه من الشرّ يخنق الخير، إذ سمح أن تسود الكبرياء والعناد والشيطان". وقد أظهر الشيخ في كشفه لسقطة هذا الإنسان، الذي واجه تجربته بعدم صبر وكبرياء، مدى أهمية الصبر والتواضع في التجارب التي تنقينا من أهوائنا.

التّواضع

❖ التّواضع المريض والطّبيب النّفسيّ

قال لي الشّيخ يومًا: "على الإنسان المسيحيّ أن يتحاشى التّدنّ المريض (العبادة المريضة). فيقدر ما عليه أن يبتعد عن الشّعور بسموّ فضيلته، عليه الابتعاد عن الشّعور بدناءة خطيئته. إنّ العقدة النّفسيّة شيء، والتّواضع شيء آخر. الكآبة شيء والتّوبة شيء آخر. زارني مرّة طبيب نفسيّ دنيوي، وكان ينتقد المسيحيّة لأنّها، على حدّ قوله، تسبب الكآبة والشّعور بالذنب. أجبتّه: أوافقك في أنّ بعض المسيحيّين يقعون في فخّ مرض الشّعور بالذنب من جراء أخطائهم أو أخطاء الآخرين، ولكن عليك أنت أن توافقي في أنّ الأشخاص الدنيويّين يقعون في فخّ مرض أسوأ هو الكبرياء. إلّا أنّ الشّعور الدينيّ بالذنب يزول نتيجة التّقرب من المسيح بالتّوبة والإعتراف، أمّا كبرياء الأشخاص الدنيويّين الذين يعيشون بعيدًا عن المسيح فلا يزول."

بوضع الشّيخ لهذه الأفكار في نصابها الصحيح، توضّحت عندي بعض التساؤلات حول بعض المشاكل النّفسيّة في الحياة المسيحيّة. فهمتُ أن الشّيخ أراد أن نتجنّب الكبرياء المتخفيّة في فضيلة تبرير الذات الفريسيّة "المسيحيّة" أو في إدانة الذات "المسيحيّة" من ضمير يرهّب الخطيئة. ورأيت أن جسارة الذين يشعرون بأنهم "أنقياء" لا تختلف جوهرًا عن جبن الذين يشعرون بأنهم "مذنبون"، وأنّ هذين الأمرين هما وجهان لعملة واحدة، ألا وهي الكبرياء. إنّ المؤمن المسيحيّ الحقيقيّ يتحرّر من الشّعور بالذنب بالإعتراف والغفران، ويفرح بالحرية التي منحه إياها المسيح. وإذ يوقن أنّ هذه عطية الله يشعر بالامتنان ولا يتكبر. هو نقيّ بدم المسيح وليس بإنجازاته الدّاتيّة. وهكذا يفرح ويشكر ولا يتكبر، وعلاوة على ذلك يرى الآخرين صالحين بفضل دم المسيح.

وقد دلّنا الشَّيْخ على الطَّرِيق الَّتِي نَتَجَنَّب بِهَا الشَّرَّ (الخطيئة) وأَسْوأ ما فيه أي كبرياء الفضيلة، والَّتِي تقودنا إلى الأفضل، إلى فضيلة التَّواضع. لهذا كان يحاول أن يحمي أصالة التَّواضع من أخطار تزييفها. قال لي: "يجب أن نكون متواضعين لا أن نصطنع التَّواضع. إن اصطناع التَّواضع هو فخَّ الشَّيْطان الَّذِي يجلب اليأس والخمول، بينما التَّواضع الحقيقيّ يجلب الرِّجاء والعمل بوصايا المسيح".

كان الشَّيْخ يرى خرافه بتعليمه وخصوصاً بطريقة عيشه (بخبراته المعاشة). ويقودها إلى مراعي المحبَّة والتَّواضع. كان هو نفسه يعيش التَّواضع، مؤمناً بأنه هو لا شيء لأنَّ الله، كما كان يقول، هو الكلّ، وبأنَّ كلَّ ما كنا نرى نحن أنَّه يملكه لم يكن يخصّه، بل هو عطية من الله.

❖ كم هو طيبٌ إلهنا

كنت يوماً في قلاية الشَّيْخ نتحدّث، وبدأ الهاتف يرنّ باستمرار من دون أن يرفع الشَّيْخ السماعة. وفجأة قال لي: "أرجوك، ارفع السماعة واسأل مَنْ المتصل وماذا يريد". كانت سيّدة من مدينة في شمال اليونان تقول إنّها بحاجة إلّ تحدّث مع الشَّيْخ. أجاب: "قل لها إنّني لا أستطيع الآن. عندي زوّار كثيرون ينتظرون، فلتتصل عند المساء". نقلت لها هذا فرجتني السيّدة أن أنقل للشَّيْخ رجاءها الحار أن يصليّ من أجل مشكلة عائلية صعبة وملحة تعاني منها. ولما سمع الشَّيْخ هذا قال لي أن أؤكد لها أنّه يصليّ. أمّا هي فعادت وشدّدت على أنّ المشكلة ملحة. عندها قال لي الشَّيْخ: أعطني الهاتف. وفتح الجهاز كي أسمع الحوار، وقال لها: أيتها المباركة، لماذا أنت لجوجة؟ لقد قلت لك إنّني أصليّ. أنظّنين أنّي أحتاج إلى سماعك كي أعرف المشكلة؟ أليس الأمر كذا وكذا؟ ولكنّ المشكلة ليست معك فقط، إنّما هي أيضاً مع زوجك الَّذي يحدث معه هذا. ومع ابنك الأوّل والثاني اللّذين يحدث لهما كذا وكذا. أليس الأمر كما أقول لك؟"

أجابت السيِّدة مندهشة: إنَّ تمامًا كما تقول لي أيُّها الشَّيخ. فقال لها: "إدَّا، ما دام الأمر هكذا، صلِّي وافعلي ما يقوله لنا المسيح، وسأصلِّي أنا أيضًا، ولا تقلقي، فإن مشاكلك ستسير نحو الأحسن". ولم تجد السيِّدة كلمات لتشكره. وبعد أن أعطاهما الشَّيخ نصائح أخرى، باركها وأقفل الخط واستدار نحوي، وكنت أنظر إليه مصعوقًا: "أسمعت؟ أيَّ عجيبة كانت هذه؟ أيَّ إله عظيم وطيب هو إلينا! أنا هنا، وتلك إنسانة مجهولة في جهة بعيدة، وقد أظهر الله لي أنا الخاطئ، مشاكلها ومشاكل زوجها وأولادها بوضوح. يا له من إله عظيم إلينا!".

وأنا كنت أنتقل من عجب إلى آخر: من "بصيرته" المذهلة إلى تواضعه الذي يذهل أكثر. ولم ألاحظ أيَّ أثر للاعتداد بالذَّات بسبب "بصيرته" أو محاولة لإثارة إعجاب الآخرين أو تعالي. بل على العكس، رأيت تعظيمه لأفعال الله ونسب المجد له بتواضع. لقد وضع نفسه على الهامش، ومن هناك عظَّم معي أعمال الله. كان يخدم كأداة بسيطة بين يدي الله وقدَّم له أذنيه كي يسمعه بها ولسانه كي يتكلَّم بوساطته. اعتبر الشَّيخ نفسه وسيطًا لا أهميَّة له، تمامًا كما كنت أنا وسيطًا في نقل الأسئلة والأجوبة بين السيِّدة والشَّيخ عبر الهاتف، وسيبدو الأمر سخيفًا للغاية إن افتخرتُ بأنِّي فعلت أمرًا مهمًّا. وقد يكون الشَّيخ طلب منِّي نقل الرسائل بينه وبين السيِّدة كي أفهم هذه الحقيقة العظيمة. مع الفارق الكبير أنِّي كنت أنقل رسائل من إنسان إلى إنسان على الأرض، بينما كان الشَّيخ ينقل رسائل من الله إلى الإنسان، من السَّماء إلى الأرض. وقد ترك جهاز الهاتف مفتوحًا، لا ليشبع فضولي بالطبع وهو الشَّدِيد التَّمييز، بل ليقوِّي إيماني بإلهنا العظيم والطيب جدًّا. لم يكن أيَّ تصرف عند الشَّيخ صدفة. بل على العكس، كان الله يوجِّه أفعاله، ولذلك كانت مهمَّة جدًّا.

❖ رفض المدائح وقبول الانتقادات

لم يكن الشَّيخ يدَّعي التَّواضع، بل كان متواضعًا. ولم يكن متواضعًا بالشَّكل، فقد كانت عنده معرفة عميقة بعدميَّة الإنسان أمام عظمة الله. زاره

مرة لاهوتي وكان مدير مدرسة ثانوية ومعه مجلة في يده. فتحها بهلّل وقال: اسمع أيها الشيخ ما كُتِب في المجلة. وبدأ يقرأ له مقالا يشيد بالآباء القديسين، وقد أتى على ذكر القديسين الأحياء، مشيرًا إلى أنّ من يريد أن يقتنع ويتأكد، ما عليه سوى أن يزور ديرًا جديدًا قرب "ميليسي" في "أوروبو"، وذلك من دون أن يُذكر اسم الأب بورفيروس. وحالما سمع الشيخ هذا، قاطعه بغضب: "ما هذا المكتوب أيها الجاهل؟ من قال لكاتب المقال أن يكتب أشياء كهذه؟ فإن كنت ستأتي لتقرأ لي أمورًا كهذه، لا تأتِ إلى هنا بعد الآن". بعد ذلك التّعنيف، لم يتجرأ المدير على ذكر أيّ مدائح تقال عنه.

إذا مدحت العالميين والمسيحيين الفاترين، فإنهم يشرقون من الفرح والتأثر، حتّى ولو أدركوا أنّ المدائح مدهنة. وإذا وبّخهم يتجهّمون مرارة وغضبًا، حتّى ولو رأوا أنّ التوبيخات تكشف الحقائق. بيد أنّ ما كان يحدث مع الأب بورفيروس هو العكس تمامًا: كان يحزن ويثور عندما يمدحونه، حتّى ولو وُعى أنّ المدائح صادقة، أقلّه من أجل ضمير المادحين. وكان يفرح ويشكر عندما يذمّونه حتّى ولو عرف أنّ الذمّ جائر.

وإذ كنتُ عارفًا حالة الشيخ الرّوحية هذه ومعتزّضًا على توصيته "لا تكتب يا بنيّ ما أقوله لك، ولا تتحدّث به"، قلت له يومًا، وبطريقة شبه عفووية: لا تظنّ أيها الشيخ، أنّي أمدحك أنت شخصيًا عندما أكلّم أصدقائي عنك. أتود ان أقول لك كيف أراك، كيف أشعربك في العمق، وفي الواقع؟ أجاب الشيخ باهتمام كثير: "نعم، هيّا قلّ كي أسمع". قلت له: "أراك إنسانًا عاديًا مثلنا نحن كالكثر، وليس هذا فقط، بل أراك إنسانًا ضعيفًا، إن فارقتك نعمة الله، ولو لوقت قليل، فأنت قادر على ارتكاب أثقل الخطايا، وإنّ أيّ صلاح تعمله الآن ليس منك، بل من الله، لأنك تعمله باستنارة من الله وبقوة منه، لا بقوتك. وسامحني على قلوي هذا". تأثر الشيخ وقال لي: "نعم يا بنيّ المبارك، لقد أصبت الهدف. هذه هي الحقيقة." خجلتُ لأنّي كلّمتُه بقليل من الفضاظة، وفي الوقت ذاته كنت راضيًا برؤيتي إياه يضيّ فرحًا بسبب تواضعه. وفي الحقيقة قد

حسدته في تلك السّاعة. ليتني استطيع أنا أيضًا أن أشعر، ولو قليلاً، بهذا الفرح النّادر والحقيقي.

بعد فترة، سمعتُ من بعض الأوساط "الرّوحية"، تعليقات انتقاديّة بخصوص للشيخ، فأسفت جدًّا. وفي إحدى زياراتي للشيخ، وفي لحظة عفوية، بدأت أحدثه عن هذه الأمور، إلا أنّي ندمت في الحال، وتوقّفت. أبدى الشيخ اهتمامًا شديدًا، ومن دون أن يضطرب البتّة قال لي: "تابع، تابع، قل لي ماذا يقولون عني. أريد أن أعرف، ليس من باب الفضول، بل لأرى أخطائي وأصحّحها". وفهمتُ من كلامه أنّ مسألة الحساسيّة الشّخصيّة التي تنبع من الكبرياء، غير واردة عنده. هناك فقط رفضٌ متواضعٌ لأخطائه المحتملة من أجل تصحيحها، في سبيل منفعة القريب ومجد الله. لذلك كان يقبل الانتقادات في حقّه حضنه الواسع. أمّا جواب لناقديه فكان ضمّهم إلى . وقال لي في هذا الشأن: "يأتيني أناس مختلفون من أخويات "زوي" و"سوتيرس"^{١١} و"ستافروس"^{١٢} وغيرها من المنظمات المسيحيّة، وعلمانيّون وغير مباليين وملحدون. أنا لا أفرّق بينهم، أراهم جميعًا بعين واحدة وأحبّهم كلّهم المحبّة ذاتها". وهكذا كان يواجه الشيخ منتقديه، لا بالانتقاد الشّخصيّ المضاد، بل بالمحبّة المسيحيّة المتواضعة.

❖ بساط الصّوف والعقارب

في أحد الأيّام، زرتُ الشيخ وكان ممدّدًا على سريره، وفوق الأغطية بساط من الصّوف قديم ومهترئ. تأثّرت بذلك، وقد فهم الشيخ من دون أن أقول شيئًا. فقال لي: "إنّك ترى هذا البساط القديم وتتساءل لماذا طرحته فوق؟

^{١٠} معناها في اللّغة العربيّة الحياة

^{١١} معناها في اللّغة العربيّة المخلص

^{١٢} معناها في اللّغة العربيّة الصّليب

إِنِّي أَحَبُّ هَذَا الْبَسَاطِ كَثِيرًا وَلَهُ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ. إِنَّ جَدَّةَ شَيْخِي مَنْحَتَهُ إِيَّاهُ وَهُوَ مِنْ جِهَازِ عَرَسِهَا، وَقَدْ وَهَبَنِي إِيَّاهُ شَيْخِي كَهْرَكَةً، يَوْمَ كُنْتُ تَلْمِيزًا شَابًّا عِنْدَهُ. وَمِنْذَ ذَلِكَ الْوَقْتِ لَمْ أَتَخَلَّ عَنْهُ. عِنْدَمَا كُنْتُ فِي الْجَبَلِ الْمُقَدَّسِ، كُنْتُ أَفْرَشُهُ عَلَى أَرْضِ قَلَايَتِي التَّرَابِيَّةِ وَأَتَمَدَّدُ فَوْقَهُ وَأَنَامُ. وَفِي لَيَالِي الْبَرْدِ، كَانَتْ الْعُقَارِبُ تَأْتِي وَتَخْتَبِي تَحْتَهُ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَجِدُ الدَّفْعَ تَحْتَ جَسَدِي. وَعِنْدَمَا كُنْتُ أَسْتَيْقِظُ فِي الصَّبَاحِ، كُنْتُ أَرْفَعُ الْبَسَاطَ بِانْتِبَاهٍ وَأَتَنَاوَلُ مَكْنَسَةً، وَأُخْرِجُ الْعُقَارِبَ عَلَى مَهْلٍ خَارِجَ الْقَلَايَةِ مِنْ دُونِ أَنْ أُؤْذِيَهَا. وَفِي الْمَسَاءِ التَّالِي، كَانَتْ الْعُقَارِبُ تَعُودُ كِي تَسْتَدْفِي."

تَعَجَّبْتُ وَاقْشَعَرَّ بَدَنِي مِنَ الْحَدَثِ، وَأَنَا أَتَصَوَّرُ الشَّيْخَ نَائِمًا مَغْتَبِطًا فَوْقَ الْعُقَارِبِ. وَلَكِي أَضْبَطُ ارْتِعَاشِي فَكَّرْتُ فِي أَنَّ الْعُقَارِبَ رُبَّمَا كَانَتْ صَغِيرَةً وَلِهَذَا لَمْ تَكُنْ خَطَرًا. بَعْدَ قَلِيلٍ، نَهَضَ الشَّيْخُ مِنْ سَرِيرِهِ وَعَرَضَ عَلَيَّ مِرَافِقَتَهُ فِي الْمَشْيِ عِنْدَ الْأَشْجَارِ فِي الْخَارِجِ. وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ زَوَّارٌ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، حَتَّى أَنِّي حَصَلْتُ عَلَى امْتِيَازٍ نَادِرٍ أَنْ أَسْتَأْثِرَ بِصَحْبَةِ الشَّيْخِ. وَفِيمَا كُنَّا نَسِيرُ بِصِمْتٍ، كُنْتُ أَفَكِّرُ بَاحْتًا عَنِ الْمَوْضُوعِ الْأَكْثَرِ أَهَمِّيَّةً لَكِي نَتَحَدَّثُ عَنْهُ. فَقَطَعَ عَلَيَّ الشَّيْخُ أَفْكَارِي قَائِلًا: "وَلَا تَظَنَّ أَنَّ الْعُقَارِبَ الَّتِي أَخْبَرْتُكَ عَنْهَا كَانَتْ صَغِيرَةً. فَقَدْ كَانَتْ كَبِيرَةً". لَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ مِمَّا أَتَعَجَّبُ أَوَّلًا: أَمِنْ عَظَمَةِ "بَصِيرَةٍ" الشَّيْخِ الَّذِي "التَّقَطُّ" أَفْكَارِي الْخَفِيَّةَ جَدًّا، أَوْ مِنْ حَجْمِ الْعُقَارِبِ. تَذَكَّرْتُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ آيَةً مِنَ الْإِنْجِيلِ تَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ، فَقُلْتُ لَهُ: لَقَدْ تَحَقَّقَ فَيْكَ أَيْهَا الشَّيْخُ قَوْلُ الْمَسِيحِ: "إِنِّي أَعْطَيْكُمْ قُوَّةً أَنْ تَدُوسُوا الْحَيَاتِ وَالْعُقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ وَلَا يَضُرَّكُمْ شَيْءٌ". وَاعْتَرَضَ الشَّيْخُ غَاضِبًا: "كَلَا يَا بَنِيَّ، لَا تَقُلْ أَشْيَاءَ كَهَذِهِ. لَقَدْ قَالَ الْمَسِيحُ هَذَا عَنْ تَلَامِيذِهِ السَّبْعِينَ، لَا عَنِّي". وَعِنْدَ ذَلِكَ عَجِبْتُ مِنْ عَظَمَةِ تَوَاضُعِهِ أَكْثَرَ مِمَّا عَجِبْتُ مِنْ بَصِيرَتِهِ وَمِنَ الْعُقَارِبِ.

❖ تواضع ونعمة

كنت أتحدّث مع الشَّيخ في شأن صديق لديه كبرياء مفرطة، وقد سبَّب له ذلك مشاكل جمة. فقلت له: أيُّها الشَّيخ، إذا حلَّت نعمة الله، ألا تغيّر هذا الصديق؟ أجابني: "إذا وافت نعمة الله تغيّر الجميع وتغيّر كل شيء، ولكن، كيف تأتي، ينبغي أولاً أن نتواضع." أي على الإنسان أن يقوم بالقليل الذي يستطيعه وبعدها تكمل النعمة العمل.

❖ وأنت ما رأيك

غالبًا ما كان الشَّيخ يحدّثني عن أفعال قام بها أو نصائح أسداها، ثم يسألني: "وأنت ما رأيك؟ أفعلتُ حسنًا؟ أتكلّمتُ جيّدًا؟" وكنت أجد نفسي عاجزًا. طبعًا، كان من المستحيل أن أجيب بالنفي لأنني كنت أرى أن أفعاله تتّصف بالاستنارة الإلهية، وبمنطق محكم. هل أجيب بنعم؟ وهذا أيضًا يشبه وقاحة الطّفل الذي يُعَلِّم الأستاذ الحكيم بأنّه موافق على تعليمه. ماذا إن لم أحب البتّة؟ ربّما سيكون هذا بمثابة عدم طاعة تحت شكل التّواضع أمام مَنْ هو متواضع حقيقي. وكنت أفضل أن أجيب بنعم مضيقًا بأنّي أتصوّر ذاتي غير جدير بتقييم أفعاله. ومع ذلك، كان الشَّيخ يطلب رأيي بالفعل. وهذا طبعًا ليس لأنني أصيب بالحكم على الأمور، إنّما لأنّه هو يتحلّى بتواضع كبير. وقد علمتُ أنّه كان يطرح السّؤال عمّا إذا تصرّف أو تكلم جيّدًا على كثر غيري. لم يكن يفعل هذا لخلق انطباع تواضع، بل لأنّه كان في الواقع متواضعًا، وكان يشعر بالحاجة إلى مقابلة رأيه برأي ثان. كان يرى نفسه متساويًا مع الآخرين، وأقلّ منهم في أكثر الأحيان، لكونه كان يحسّ في العمق بأنّه خاطئ أمام الله. وعندما يقول: "أصليّ بتواضع إلى الله أنا الخاطئ بورفيربوس"، كان يعيش هذا الكلام، ولم يكن يتظاهر بالتواضع.

❖ إحصان خفي مستتر

علمت أنّ ابن أخ صديقي أُصِيبَتْ رجله في حادث سير إصابتها بليغة. وبعد سنين التقيت العمّ وابن أخيه في ساحة الكنيسة. تبادلنا التحيّات والسؤال عن الأحوال ولما ابتعد الشاب سألت عمّه عنه مندهشاً: أهذا هو ابن أخيك الذي تعرّض لخطر قطع رجله بسبب الغرغرينة كما قلت لي مرّة؟ أراه معافى. فأفضى لي العمّ قائلاً: لو لم نحصل حينها على صلوات الأب بورفيرْيوس، لكنت تراه اليوم على كرسي المعاقين. لقد اعترف الطّبيب الجراح بأنّ يديه، في يوم إجراء العمليّة الجراحية، كانتا تعملان بطريقة عجيبة. وهذا الحادث جعلني مرّة أخرى أيضاً أتساءل: كم من النّاس الذين أحسن إليهم بفضل مواهب الشّيوخ الإلهيّة يجولون بيننا من دون أن نعرفهم، لأنّه كان يقول لهم: "إنّ ما حصل قد حصل فلا تقل شيئاً". وكم من إحصاناته قد أخفيت بسبب الصّمت لأنّ الشّيوخ لم يشأ أن يعلن الذين أحسن إليهم عن المحسن. وحده الله ومحبة الشّيوخ المتواضعة يعرفان.

❖ الصور الفوتوغرافيّة وآلات التّسجيل

كان الشّيوخ ينفر من التصوير الفوتوغرافيّ ومن آلات التّسجيل، وهذا طبعاً ليس لكونها إنجازات تكنولوجيّة، بل لأنّها وسائل قد تؤدّي إلى تحويله إلى بطل مسرحي أو خطيب يتوق النّاس إلى سماع مقابلاته. في إحدى زياراتي، قلت له: أيّها الشّيوخ، إنّ أحد أبنائك الرّوحانيّين أعطاني صورة فوتوغرافيّة لك. فانتفض في الحال: "لا للصور الفوتوغرافيّة يا بني، ليس حسناً أن تُداول. مرّة كنت أعمّد طفلاً، ومن دون أن يسألوني. ألّتقطوا لي صوراً فوتوغرافيّة، وقد ظهرت فيها بحلّي الكهنوتيّة وبجانبني نساء عاريات الأذرع. ما هذه الأشياء؟ إنّها

غير موافقة". وقد أكدت له أنّ الصورة التي معي جميلة لأنها تظهره ماشيًا على الطريق، وسأحتفظ بها لنفسيّ في البيت. لم يتكلّم الشيخ فاعتبرت صمته قبولاً. مرة أخرى، تحدّثنا عن آلة التسجيل التي كان يستعملها أحياناً لسمع الموسيقى البيزنطية. كانت قد تعطلّت وبات من الضروريّ أن أخذها إلى التصلّح. قال لي: "إنّ آلة التسجيل جيّدة عندما نسمع بواسطتها أشياء مفيدة. في أحد الأيام، اتّصلت بي إحدى السيّدات وأخذت تستشيرني في مشاكلها وكنت أجابها. ومن دون أن تعلمني سجّلت الحديث على آلة التسجيل، ونقلته إلى جاراتها، وهن يستمعن إليه الآن ويثرثن. انظر ما أصابنا يا بنيّ". كان ذلك أمراً غير متوقّع أحزن الشيخ كثيراً. ويظهر أنّ الله لم يسمح، ولأسباب يعلمها هو بأن "يرى" الشيخ الأمر في حينه ويتداركه. طبعاً، إنّ سبب عدم رضى الشيخ البيّن، في كلا الحالتين اللّتين ذكرهما، هو تحاشيه العثرات. بالإضافة إلى السّبب الأساسيّ الخفيّ وهو تواضع فكره، كونه ناسكاً أرثوذكسياً أصيلاً. فعلى الرّغم من عيشه وسط العالم، أحبّ دائماً "العيشة الخفية" وأزعجه كثيراً أن يُشاع أمره ويشتهر بأي وسيلة، سمعية كانت أو بصرية أو سواها.

❖ الطاعة القصوى

عندما كان الشيخ راهباً شاباً في الجبل المقدّس، طلب بركة من شيخه ليتلمذ، لفترة ما، على يد شيخ آخر شديد القساوة، كي يتدرّب أكثر على التّواضع والطّاعة. وعند دخوله قلاية ذاك الشيخ، عاجله الشيخ بالقول بقسوة: اذهب من هناك، من حيث جئت، وأشار إلى النافذة. واتّجه الأب بورفيريوس إلى النّافذة في الحال، بلا اضطراب أو معارضة، وخرج منها.

❖ يا من مثّل دور القديس

في يوم عيد شفيعه، كان أحد الأصدقاء في قلايته عندما تلقى الشيخ اتصالاً للتهنئة من أحد معارفه الكهنة، فقال له: "ماذا أعمل أنا الخاطيء؟ لقد أتعبني الزوّار. منهم من يدعوني نبياً وآخرون يدعوني قديساً وأشياء أخرى كثيرة. ما هذا الأمر أيها الصديق. فالله سيأخذني يوماً إلى السماء ويقول لي: هيا أنت إلى هنا، يا من مثّلت دور القديس على الأرض، وكانوا يظنونك مثل القديس نكتاريوس ومثل القديسين الآخرين. في ذلك اليوم بماذا سأجيب أنا الشقي؟" وباقتباس كلام شيخ أنوسي أستطيع أن أقول: "كان الأب بورفيروس قديساً، لأنّه بسبب تواضعه الكبير كان يؤمن بصدق بأنّه ليس قديساً".

❖ تواضع وطاعة

وسألته مرّة: ما الفرق، أيها الشيخ، بين الطاعة المسيحية والتواضع؟ أجابني وهو يبتسم: "إنّهما شيء واحد". في الواقع، عندما لا نطيع إرادة الله من خلال الأب الرّوحّي، هل نستطيع أن نؤمن جدّاً بأننا متواضعون؟ هل نستطيع أن نميت فينا الكبرياء الذي يعشّش في داخلنا بسلاح آخر غير سلاح الطاعة لمشيئة الله؟ إنّ مقياس الطاعة يقدره لنا نحن الخطاة الإله الإنسان غير المائت الذي "وجد في هيئة انسان، وأطاع حتّى الموت، موت الصليب".

❖ تجارب طفولية

أظهر الشيخ تواضعه منذ طفولته وذلك بطاعته مشيئة الله. في رعايته الأغنام على مشارف قريته وتبجّته قصّة القديس يوحنا الكوخي أحبّ

القديسين، وفوق الجميع أحب المسيح. وقد أظهر محبته كما حددها المسيح: "إن أحببتموني حفظتم وصاياي". ومن أجل محبة المسيح لم يتردد بالتضحية بكل محبة طبيعية، على الرغم من كونه ولدًا ضعيفًا. وفي بدء معرفتي به قال لي: "عندما ذهبت إلى الجبل المقدس (أثوس) كنت فتى في الثالثة عشرة من عمري. ولم يكن عندي تجارب مثل الكبار في السن الذين يحزنون إذ يفكرون بحبيبتهم وما شابه. كان عندي تجربة أخرى. فيما أني كنت أحب أهلي كثيرًا، كان الشيطان يحضرهم إلى مخيلتي أحياء، فأبكي وأبكي بلا تعزية. لكن، عندما رُسمت راهبًا زالت التجربة". يقول المسيح: "من أحب أبًا أو أمًا أكثر مني فلا يستحقني". وقد ظهر الأب بورفيريوس منذ نعومة أظفاره مستحقًا المسيح بتواضعه ومحبته إياه من كل نفسه.

❖ أصلي بتواضع

قال لي يومًا، وهو طرح الفراش بسبب المرض: "أحبكم جميعًا وأصلي أنا الخاطئ بتواضع إلى الله من أجلكم جميعًا، وأطلب إليكم أن تصلوا أنتم أيضًا من أجلي". قال لي إنه يصلي بتواضع، لكنه لم يقل لي مرة إنه متواضع، بل على العكس، كان معظم الأحيان يقول لي إنه خاطئ، وإنه أكبر خاطئ في العالم".

❖ ترتيل بتواضع

حدثني مرة عن معنى الموسيقى البيزنطية داخل العبادة الأرثوذكسية، وعن المرتلين الآثوسيين الذين يرتلون ببساطة وخشوع وتواضع بهدف مساعدة الرهبان المصلين. وأضاف: "وهنا في العالم يوجد بالطبع مرتلون جيدون، ولكنهم

يرتلون أحياناً كثيرة بكبرياء. كان الشيخ يحب كثيراً الترتيل البيزنطي في الخدم الشريفة التي تتم بتواضع، لأنها تخلق جوّاً من الخشوع.

❖ صليبه الخشبي المحفور

فيما كنا نتحدّث مرّة بتخشّع، أخرج صليباً خشبياً من تحت وسادته، أعطاني إياه لأقبله وقال لي: "تأمل هذا الصليب جيّداً! هل يعجبك؟" أمسكته بيديّ وتفحصته. كان تحفة. حُفر عليه المصلوب من جهة، وعلى الجهة الأخرى والدة الإله حاملة الطفل، وذلك بكثير من الدقة والفنّ المتقن. أبديتُ إعجابي الشديد وأعدته إليه. فرح الشيخ كثيراً، وأخفاه من جديد تحت وسادته قائلاً: "إنّي أحبّ هذا الصليب كثيراً". بعد فترة طويلة، علمت من أحد أبنائه الرّوحيين أنّه هو من حفر هذا الصليب. وتعجّبتُ أكثر. فقد أخفى الشيخ عني أن هذا كان شغل يديه بسبب تواضعه المعروف. سألتني فقط إن كنت أستطيع أن أجد الخشب (خشب البقس) وأن أحضر له منه بعض القطع من بلدي. ولم يشرح لي لماذا يريده.

❖ طبيب الأسنان وأسنانه

بعد رقاد الشيخ ببضعة أشهر، التقيتُ في اجتماع ديني طبيب أسنان، وقد علمتُ أنّه كان يعرف الشيخ. أخبرني بسرور أنّه لم يكن يعرفه فقط، بل عالج له أسنانه وقلع له بعضها. هذا الأمر الأخير لفتني بشكل خاص، وسألته ان كان احتفظ بالأسنان التي قلعها. أجابني الطّبيب: لم أحتفظ بأيّ منها، لأنّ الشيخ لم يتركها عندي، بل كان يطلبها ويأخذها معه. إلى هذا الحدّ وصل

تواضعه. ومن الجائز أنه "رأى" ما سيحدث إن علم الناس أن في حوزة احد أطباء الأسنان في أثينا أسنانًا للأب بورفيروس. كان الشيخ متواضعًا لأنه كان يمقت الكبرياء والمجد الباطل، حتى بعد مماته.

❖ سرد متواضع للمواهب

حدثني الشيخ يومًا عن موهبة "الرؤيا" عنده بشكل صريح تقريبيًا. وبما أنني كنت أعلم كم هو متحفظ في إفشاء أسرار كهذه، كنت أنظر إليه مندهشًا، ينتابني شعور بالقلق الخفي من خطر الكبرياء. أما هو فقد "التقط" في الحال قلقي وقال لي: "من الممكن أن يتكلم أحد على خطاياهم ويكون متكبرًا، ويتكلم آخر على فضائله ويكون متواضعًا؟" أعجبتني هذه المعادلة العميقة في معناها وتمييزها إذ كشفت لي أن الكبرياء والتواضع حالتان داخليتان حقيقتان لا تعتمدان على المظاهر والأشكال الخارجية التي غالبًا ما تخدع. وفكرت في أن الشيخ أظهر لي هذه الحقيقة، وكان واضحًا أنه بلغ إلى التمييز واللاهوى، وهما من فضائل الكاملين. وهكذا كان يؤمن أن ما من فضيلة خاصة بنا، بل هي من الله، وكل ما يخصنا هو خطايانا فقط. فالمتكبر يملك الكبرياء التي تدفعه حتى إلى التكلم على خطاياهم، متظاهرًا إما بالتواضع وإما بالافتخار. أما المتواضع فيعتبر التواضع هبة من الله، وهكذا يستطيع التكلم براحة على فضائله التي ينمّيها داخله "المسيح الحيّ فيه"، مدركًا أنه لا يرفع نفسه بل المسيح.

التمييز

لقد امتلك الشيخ فضيلة التمييز، وبذلك كان قادرًا على التصرف بكثير من التمييز في كل الظروف. لم يهن أحدًا أو يجرحه. حينما كانت الحاجة تدعو إلى عملية جراحية روحية كي يظهر خراجًا نفسيًا، كان يحاول أن يقوم بهذا بلا ألم قدر المستطاع.

❖ وبخني على إعطاء معلومات بلا تمييز

عندما سألني يومًا بعض الأشخاص عن معلومات معينة تتعلق بالدير، أعطيته إياها بدافع من حماسة فائقة وعديمة التمييز، ولم يكن جائزًا أن يعطي هذه المعلومات إلا الشيخ وحده بتمييز دقيق. وعندما دخلت قلايته، أوردت له ما حدث من دون أن أكون بعد قد وعيت هفوتي، فحزن الشيخ. عندها، فهمت وسألته: هل أخطأت في تصرّفي أيها الشيخ؟ أجاب بشيء من الحزم: "طبعًا أخطأت. ما الذي دعاك أيها المبارك إلى إعطاء هذه المعلومات؟ أهذا من اختصاصك أم هل كلّفك أحد بالرد؟ عندما سألوكم، كان يجب أن تقول: اسألوا الشيخ، فهو الذي يجيبكم". عندما سمعت هذا الكلام حزنت جدًّا وخصوصًا لأنني سببتُ الحزن للشيخ. أمّا هو فقد فهم هذا في الحال وحاول أن يعزّيني كي يعتقني من حزني. وفي النهاية قال لي: "هيا، انحن الآن كي أقرأ لك صلاة الحل". وحين انتهى، أضاف بكلّ حنان: "هيا، اذهب الآن ببركة الربّ. ما جرى قد جرى وانتهى، ولم تعد عليك أية ملامة". أمّا أنا، وبسبب حساسيتي المفرطة، فقد بقيت حزينا حتى بعد وصولي إلى البيت، وفكرت في أنّه لا يكفي أن يكون عندي نية حسنة، بل عليّ أن أجاهد بجديّة كي أقنتي التمييز. وتذكّرتُ بمرارة القول: "إنّ الطريق المؤدّي إلى الهلاك مفروش بالنيّات الحسنة". وقد

"التقط" الشيخ حزني من بعيد. وأوصى اثنين من زوّاره أن يتّصلا بي هاتفياً حين وصولهما إلى أثينا، ليطلبا إليّ. من قبله، أن أسامحه لأنّه أحزنني. لكنني كنت غائباً عن البيت ساعة اتصالهما بي. ولما وصلتُ إلى الدّير في زيارتي التّالية، أعلمتني إحدى الرّاهبات أنّ الشيخ يبحث عني كي يطلب إليّ السّماح. وبقيت مندهلاً من رفته. وقد أشعرتني بتواضعه ورهافة محبّته بالخشوع.

وحين جاء دوري ودخلت قلّايته احتججت بشدّة: لماذا يُحدر ذاته إلى أسفل وكأنّه إنسان بلا قيمة، ولماذا يرفعني هكذا عاليًا وكأنّي شخصيّة هامّة، بينما العكس هو الصّحيح، ورجوته أن يكشف لي، بلا تردّد، أيّ خطأ يراه فيّ ويؤثّبي عليه عند الضّرورة، وسأكون له شاكرًا لأنّه هكذا يساعدني على معرفة ذاتي وتنقيتي من أهوائي. وهدّأني الشيخ وهو يتسم بنعومة قائلاً: "حسنًا، حسنًا، إنس هذا الأمر وكلمني الآن، ماذا أتيت تقول لي؟" وأكملنا الحديث في مواضعنا الأخرى.

❖ لا تذكّر الآخر بهفواته

أردتُ أخذ رأيهِ في أمرٍ كنت مقتنعًا به، ولما سنحت الفرصة، قلت له: إنّي، أمّها الشيخ، قد انتهيتُ إلى قرار بعد ملاحظتي أحداثًا مختلفةً من حياتي، وسأحاول تطبيقه قدر استطاعتي. هذا القرار هو: عندما أختلف مع أحد في الرأي، وأكون مقتنعًا بصواب رأيي، أقول له: لتوقّف عن الجدل، ولنترك الأمر لله كي يعطينا الجواب الصحيح عبر الأحداث، وإذا أنصفتني الأحداث، لا أذكّر خصمي بالحديث الذي جرى بيننا ولا أشير إلى إنصاف الأحداث لي بل أصمت. وعادة يصمت ذاك أيضًا. فنادرًا ما نجد الجرأة للاعتراف بخطايانا - إلا أنّه يكفيني أن يكون هو نفسه مدرّكًا خطأه في داخله فأكون مسرورًا لأنّي بصمتي الذي يشبه النسيان، أشعره بالارتياح إليّ، إذ يتيقّن من أنّي أحترمه ولا أحتقره. وحالما سمع الشيخ هذا، أظهر حماسة وقال لي: "إنّك عالم نفسي، يا بني. هذا هو

الصحيح: أن لا تدين الآخر على أخطائه ولا تذكّره بها. عندئذٍ يحاسبه ضميره وبيدنه. بهذه الطريقة فقط يتقوّم الشرّ. وعلى العكس، عندما تدينه يواجهك ويبرّر نفسه، ويلقي بمسؤوليته عليك وعلى الآخرين، ويضحي قاسياً، وعوض أن يصطّاح يزداد سوءاً".

❖ كنت بحاجة ولم أقل شيئاً

في الفترة التي بدأت فيها الأشغال لوضع أساسات الدّير، كنت أتحدّث مع الشّيخ فقال لي: "سيرسل لنا الله مالاً كي نواصل العمل، ولو مع صعوبات. وكما ترى، المشكلة هي أنّي أخجل من طلب المال من أجل الدّير. فقبل بضعة أيّام أتتني أرملة غنية جدّاً، وشكت لي أحزانها، وفي التّهاية سألتني ماذا بوسعها أن تعمل من أجل نفس زوجها. وأنا كنت بحاجة ماسّة إلى المال من أجل بناء الدّير، لكنني لم أقل لها شيئاً. أشرتُ عليها فقط بأن تقدّم الإحسان حيث ترى ذلك مناسباً. ورحلت السيّدة، وإذا بأحد العشاق يتقرّب منها ويغويها ويذهب بمالها صارفاً إياه على مشاريع اقتصاديّة وأسفار إلى الخارج وأمور أخرى، وهكذا انتهت أموالها، التهمها الشّيطان". (وقال الجملة الأخيرة ممسكاً بلحيته بطريقته المميّزة) كان الشّيخ يتمنّى أن يقدّم النّاس مالاً مما يزيد عنهم أو من عوّزهم من أجل الأعمال الخيرية، لكنّ كان يريد ان تأتي هذه التقدّمات من قبل المحسنين طوعياً وتلقائياً لا عن اضطرار.

❖ استدر نحو النّافذة

بسبب أمراضه، كان الشّيخ من حين إلى آخر يتصبّب عرقاً، وعندها كان يحتاج في الحال إلى تغيير قميصه الداخلي. وعندما كان يحدث هذا أثناء

حديثنا، كان يقول: "استدرنحو النافذة، كي أغير قميصي الداخلي". وكان المشهد ظريفاً: أنهض من مكاني وأتجه نحو النافذة وأنظر إلى الأشجار في الخارج، بينما يكون الشيخ قد بدّل قميصه الداخلي. ثمّ يناديني: "هيا الآن نتابع حديثنا". قد أثر فيّ تمييزه: لم يشأ أن أراه وهو يبدّل قميصه كي يحافظ على علاقتنا في مستواها الروحي الرفيع. ولم يكن أيضاً يريد أن أخرج من القلاية معتبراً إياي غريباً، كوننا نعرف بعضنا لسنوات عدّة. وهذه الطريقة خلق جوّاً نفسياً مريحاً، وبالبحري إلفة محترمة.

❖ لا تقترح عليه مجدداً المجيء إليّ

اكتشفتُ مرّة أنّ أحد معارفي المقربين كان من أقرباء الأب بورفيرينوس. حالما علمتُ بالأمر، أعربتُ له عن فرحي وعرضت عليه أن نزور الشيخ معاً. أمّا هو فلم يكن يتذكّر الشيخ جيّداً، ولذلك، لم يردّ على اقتراحي سلّماً ولا إيجاباً. إنّما طلب منّي فقط تأجيل الزيارة. والواضح أنّه كان يخاف من تعليق أصدقائه الساخر، وهو المعروف عنه أنّه، كعلمانيّ، ليس له علاقة بالكنيسة وكان يبدي تعالياً تجاه جميع الإكليريكين. عندما أخبرتُ الشيخ بهذا، سرّ لكوني أعرف جيّداً أحد أقربائه، وهو يتذكّره جيّداً، لكنّه قال لي: لا تقترح عليه مجدداً المجيء إليّ، ولا تذكّره بذلك، ولا تلجّ عليه. دعه حرّاً بالكليّة ولا تؤثر فيه. فإن شاء سيأتي من تلقاء نفسه. وهكذا يجب أن يحصل دائماً: أن نحترم حرّيّة الآخر. على كلّ حال أنا أحبّه وأصليّ من أجله". وعلمتُ بعد سنين أنّه زار الشيخ سرّاً وحده في إحدى الأمسيات، وطبعاً، من دون أن يقول لي شيئاً، ولهذا لم أذكر له شيئاً يتعلّق بهذا الأمر، وتركته يعتقد أنّي أجهل ما جرى. كان للشيخ زوّار ظاهرون، ولكن كان هناك أيضاً زوّار "نيقوديموسيون". كان يستقبل الجميع ويحترمهم بالتساوي.

❖ اقتراح بتمييز

بقيت فترة أزور الدّير مع صديق لي يملك سيارة، وقبل وصولنا إلى الدير، كنّا نمرّ بالسّوق والسّوبرماركت ونشتري الأغراض ونملأ بعض الأكياس بالماكولات. وكان يحدث أنّ بعض هذه الماكولات يكون موجوداً في الدّير وبعضها غير موجود. وهذا سبّب مشكلة من دون أن ندري. أعلمت الرّاهبات الشّيخ بالأمر، فاقترح حلاً. وفي أحد الأيّام، قالت لنا إحدى الرّاهبات بلطف كبير: نسألکم العفو، ولكن بما أنّه حدثت مشكلة بسبب الأغذية، من المفضّل، إذا شئتم، أن تقدّموا مالاً عوضاً عنها من أجل حاجات الدّير، ونحن نشترى بهذا المال الأغذية الّتي تنقصنا. وهكذا تخدمون الدّير بشكل أفضل ولن تتعبوا بحملکم أكياساً مليئة. إنّ الشّيخ يعرف باقتراحنا ويعطي البركة. كان في حلّ هذا الموضوع الدقيق تمييز من جهة الشّيخ لم يثبط عزمنا، بل فرّحنا.

❖ بصمتك ساعدت الولد

كنت أشكّ في صحّة تصرّفي حيال حدث معيّن، فأخبرته به: أيّها الشّيخ، دُعيت إلى بيت أحد الإخوة الرّوحانيّين، يوم أحد بعد القدّاس الإلهيّ. وكانوا قد وضعوا منقلاً في الحديقة وأخذوا يشوون اللحم. تقدّمت للمساعدة، وفيما كنت أرّتب الجمر المشتعل كان ابنهم، وهو طالب ثانويّ، يسقي الأزهار، فرشّ الماء فوق النّار. ولم أدري لماذا فعل هذا: أعن خطأ، أو عن حبّ للمزاح، أو عن تعبير اعتراض حول دعوتي؟ لست أدري. المهم أنّ الرّماد والماء تطايرا فوق بدليتي. للوهلة الأولى، قرّرت ألاّ أبديّ اكتراثاً بما جرى، فنظّفت ثيابي قدر الامكان من دون أن أتكلّم وكان شيئاً لم يحدث، وعدت أهتمّ بإشعال النّار، بينما راح الأهل يؤنّبون ولدهم. لست أدري إن كنتُ تصرّفتُ حسناً بصمتي، أم أنّه كان عليّ أن أوبخ الولد أنا أيضاً. فأجابني الشّيخ: "قد تصرّفت تصرّفاً صحيحاً جدّاً. فعندما

يخطئ أخونا، علينا أن نتحمل تجربته. المحبة الحقيقية توغر إلينا أن نضحي من أجل القريب، بالضبط كما فعل المسيح عندما صلبوه، وطلب إلى أبيه السماوي أن يغفر لصاليبه لأتهم لم يدروا ماذا يفعلون. عندما ندين أخانا الذي أخطأ ولا نضحي من أجله ندفعه إلى السقوط أكثر، بينما بذبيحة محبتنا الصامته وبصلاتنا السرية من أجله، نوقظ ضميره الذي ينهض وهو يحاكمه، وهذه الطريقة يتوب ويتقوم. بصمتك ساعدت الولد". أيضاً، ولمرة أخرى، اندهشت من تمييز الشيخ ومحبته.

❖ تمييز أخوي

عصر أحد أيام الصيف، وصلت مع صديق لي إلى كاليسيا فوجدنا الشيخ يهياً للسفر. قال لنا: "غداً صباحاً، سيُسام أحد أبنائي الرّوحيين شماساً في الأبرشية وأريد أن أذهب، غير أنني لست بصحة جيدة. على الرغم من ذلك يجب أن أذهب". وانطلق بصحبتنا نحن الاثنين، ومشى حتى وصل إلى أول غابة الصنوبر، وجلس هناك على صخرة كبيرة لأنه أحسّ بدوار، كما قال لنا. عندها اقترحنا عليه العودة إلى الدّير. وفي تلك اللحظة ظهرت، في آخر الطريق، أخته الشّيخة تقود حملاً محملاً بالأعشاب للماعز. ولما اقتربت منا، حيّتنا وسألت الشيخ: أين تذهب؟ فأجابها: إلى سيامة، ولكي منزعج وأشعر بدوار. فماذا أفعل؟" فكّرت الأخت قليلاً ثم قالت له: "إعمل بما يلهمك به الله. وتابعت طريقها بهدوء. بقي الشيخ صامتاً لبعض الوقت. بعد ذلك نهض وقال: "سأذهب". وانطلقنا. في البدء، كانت خطواته غير ثابتة حتى أننا قلقلنا، ولكنّها أخذت تشتدّ شيئاً فشيئاً، إلى درجة أن المرء، في آخر الطريق، يظنّ أنّه إنسان آخر. كان الشيخ يمشي بحيوية وكأنه شابّ فتّي، ونحن نتبعه مسرعين الخطى كي نلحق به، إلى أن وصلنا إلى سيارة صديقي. لقد أثارنا تصرف الشّيخة المميّز إذ احترمت حرّية أخيها بعيداً عن روح المبالغة في الرعاية الأخوية العالمية

المعتادة، وبلا كثرة كلام تركته يقرر وحده أمر متابعة السفر بحسب ما يمليه عليه إلهام الله. والشيخ من جهته، من دون أن يعقد المشكلة ويجعلها مأساة، قرر بهدوء وتواضع وتميز مع صلاة سرّية أن يتابع الرحلة. وقد ألت به الأحداث التي حصلت فيما بعد إلى الخير.

❖ شراء السمك

قابلتُ الشيخ مع صديق لي طبيب آتٍ من الخارج، وقد ترك للشيخ مغلفًا يحوي بعض الآلاف من أجل حاجات الدّير. بعد ذلك، خرجنا في نزهة إلى غابة الصنوبر، ولمّا عدنا توجّهنا نحو السيّارة للرّحيل. في تلك اللّحظة، خرجت راهبة إلى الباحة الأماميّة وسألت الزوّار إن كان بإمكان أحدهم الذهاب إلى "أوروبو" للقيام بعمل سيشرح الشيخ ماهيته. وللحال أبدى صديقي الطّبيب استعداداه للذهاب، ودخل قلاية الشيخ القرميديّة. عندما شاهدته الشيخ تفاجأ لظنّه أنّنا قد رحلنا إلى أثينا. قال له الصّديق: أنا تحت تصرّفك أيّها الشيخ في ما تريده من "أوروبو". عندها قال له الشيخ بخفر: "إنّنا نريد شراء بعض السمك للطعام". وأخرج مغلفًا من جيبه تناول منه ألقًا وأعطاه إياه بخجل، كي يدفع ثمن السمك. وقد تعرّف صديقي إلى المغلف، وابتسم قائلاً: احتفظ بالنقود أيّها الشيخ، وأرجو أن تسمح لي أن أقدم لكم السمك. فشكره الشيخ تكرارًا. وفي طريقنا إلى "أوروبو" أخبرني صديقي بموقف الشيخ الذي وجدناه نموذجًا لطيفًا وممتعًا يظهر القدرة على التّمييز. عليك بالقرب من الشيخ أن تكون مستعدًا دائمًا لتقبّل شيء جديد غير منتظر يزيد من احترامك له ويعطيك الفائدة الروحية.

❖ التلفاز الهدية

قدّموا له مرّة جهاز تلفاز نقّال. ولما شاهدته في قلايته، استغربت. وانتظرت اللحظة المناسبة لأسأله: هل تشاهد التلفاز أيّها الشيخ؟ أجابني بتردّد: "قد أهدوني إيّاه. ومن وقت لآخر أشاهد خدمة القدّاس الإلهيّ، لأنّي بسبب أمراض لا أستطيع السّير للدّهّاب إلى الكنيسة، وأشاهد بعض البرامج الدينيّة، لكني لا أجد الوقت الكافي لمشاهدة تلك البرامج بسبب أشغال الدّير والزوّار والاتّصالات الهاتفية".

بعد فترة قصيرة، اختفى الجهاز. وقد أثّرت فيّ طريقة الشيخ في معالجة الموضوع: قبل في البداية التلفاز في قلايته كي لا يصدّ المعطي، وقام باختيار لدقيق وقيم للبرامج التلفزيونيّة التي سيتابعها، مع إعطاء الأولويّة لانشغالاته الكهنوتيّة، إلى أن أخرجه من قلايته نهائيّا كي يتحاشى التّسبّب بعثرة لضعفاء الإيمان. إلّا أنّه هو نفسه نظّم "تلفازه الروحيّ" الذي به يعرف المعلومات أكثر بكثير من التلفاز الماديّ. وهو أيضًا أكثر إفادة منه بما لا يقارن. إنّ معالجة الشيخ قضية التلفاز العالميّ (الدينيّ) تعطي مثلاً لنا نحن الذين غالبًا ما نقع في مشاكل في اختياراتنا بين السيّئ والأسوأ، بإهمالنا الطّائش وعدم مسؤوليّتنا المدانة، بينما بإمكاننا الارتقاء روحياً حتّى نصل إلى أن نختار بين الجيّد والأفضل.

❖ لماذا نزعج الله؟

كان الشيخ يحسن التّمييز، ليس فقط تجاه النّاس، بل تجاه الله أيضًا. كان وقت أُجريت له فيها جراحة في عينه، وكان يتألّم كثيرًا، وقد وصل إلى عتبة الموت حتّى أنّ الأطباء كادوا يشطبونه من بين لائحة الأحياء. وفكّرت الأخوات بطلب بركته من أجل إقامة صلاة الرّيت. وافق الشيخ. فأُجريت خدمة صلاة

الزيت وفارقتة الآلام. لكنّها عادوته بعد بضعة أيّام. إذّاك عرضوا عليه أن يقوموا بصلاة الزيت من جديد. فأجاب الشيخ المتألّم: لماذا نزعج الله؟ بما أنّ الآلام زالت بعد صلاة الزيت الأولى لكنّها عادت من جديد، فهذا يعني أنّ الله يريدني أن أتألّم. إذّا لندع مشيئته المقدّسة تتمّ".

ضحكة المحبة

❖ ضحكة بريئة ومتواضعة

كان الشيخ يضحك أحياناً ضحكةً ظريفة نقيّة كرققة ماء نبع جبليّ، وهي مختلفة عن ذاك الضحك الذي نعرفه في العالم. في وجهه الباسم ترى تعبيراً عن المحبة الصادقة التي لا غشّ فيها. كان الشيخ جدّاً. ولم يكن يمزح، ولم يسع إلى إثارة الضحك، بل كان ذلك ينبع لوحده من الأحداث. كانت ضحكته بريئة ومتواضعة وحنونة لا تجرح أحداً، بل تستدعي راحةً نفسيّة للجميع. وفي كثير من الأحيان، كانت ضحكته تظهر بشكل ابتسامة وتبيّن سموّ محبته الروحية.

أحياناً عندما كنّا نواجه حالات مأساويّة هزليّة تستدعي الضحك، كنّا نشعر بالحاجة إلى خنق الضحك داخلنا احتراماً أمام جدية الشيخ، الذي كان يتغاضى عن الهزل متجاوزاً إياه ليتوقّف عند ما هو مأساويّ كي يشفيه.

❖ أنت أيضاً إنسان متعسّف

في إحدى زياراتي للشيخ في قلايته، رنّ جرس الهاتف كالعادة، فقال لي: "ارفع السماعة". كان المتكلّم شخصاً مجهولاً من مدينة في إحدى المقاطعات يطلب بالحاجّ التكلّم مع الشيخ. التقط الشيخ السماعة وفتح الجهاز. عندها سمعت الحوار التالي:

- الشيخ: ماذا تريد أن تقول لي؟
- الشّخص المجهول: أيها الأب بورفيريوس، عندي مشكلة كبيرة مع ابني. إنّه لا يطيع ويقاوم ويتوافق. لا يدرس ويعاشر رفاق سيّئين.

- إنِّي أرى، إنِّي أرى. يعاني الولد مشاكل نفسيّة. إنّه ثائر ويرتكب هفوات. ولكنك أنت أيضًا إنسان متعصّف.
 - مَنْ، أنا؟
 - ليس أنا! طبعًا أنت. ألم تفهم بعد؟
 - إن كان الأمر كذلك أيّها الأب، فقد أصبح الأمر خطرًا جدًّا. عليّ أن أحضر حالاً لمقابلتك.
 - لست بحاجة إلى أن تأتي. فقد أتيت.
 - متى جئت يا أبت؟ إنها المرّة الأولى التي أتكلّم فيها معك.
 - هوذا قد وافيت الآن. كأنك قد أتيت الآن وأنا أتكلّم معك عبر الهاتف.
 - لست بحاجة إلى السفر. أعمل ما سأقوله لك، وستتحسّن أنت وابنك.
- ثمّ أعطاه نصائح مفيدة تتعلّق بنموّه الرّوحيّ وتصرفه اللّطيف والنّبیه تجاه ابنه. أثناء هذا الحديث، شعرت بضحكة تنبع من داخلي بسبب غرابة ما سمعت، لكنّي ضبطتها، فقد رأيت وجه الشّيخ جدًّا لا يشوبه أيّ ميل إلى الابتسام إذ كان مأخوذًا بمشكلة ذاك الشّخص المجهول.

❖ جئتني بلا نظّارات يا بني؟

فيما كنت مرّة أتحدّث مع الشّيخ، طلب منّي أن أفتّش له في دفتر الهاتف عن رقم أحد أبنائه الرّوحيّين، إذ اراد أن يكلمه في تلك اللّحظة. بحثت في جيوبي عن نظّاراتي، ولكن عبثًا. فقلت له: لسوء الحظّ، أيّها الشّيخ، لست قادرًا على القراءة في دفترك - ولماذا؟ سألي متفاجئًا. أجبتّه: لأنّي نسيت نظّاراتي في البيت. وقال الشّيخ بحدّة: "قد جئتني بلا نظّارات يا بني؟ ماذا سأفعل بك

الآن؟ في المرة المقبلة، لا تأتِ ما لم تكن معك نظاراتك". ولم استطع إلا أن أضحك من "تأنيب" الشيخ هذا. ومنذ ذلك الحين، أصبحت النظارات أول ما أتذكره عندما أنوي زيارة الشيخ.

❖ هل أنت غبي؟

زاره شاب، ومن جملة ما قاله له: أيها الشيخ أريد أن يكون عندي نساء كثيرات. فقال الشيخ: "وهل أنت غبي؟" ربّما لم يكن هناك سؤال أكثر ملاءمة لوصف رغبة الشاب.

❖ مفتشاً عن اسم

في أحد الأيام، كان يروي لي حدثاً مهماً جداً. وكنت في ذروة انتباهي عندما سمعته يقول لي: "قد أتاني ذاك الإنسان، الذي كان من قرية تدعى، ماذا تدعى، ليسامحني الله، قد نسيتهما الآن". لا بأس أيها الشيخ، قلت له وقد نفذ صبري، لا يهم اسمها، تابع القصة. فقال الشيخ: "كنت أتذكرها منذ قليل يا بني. فكيف نسيتهما؟ إنها تدعى..." وتوقف الشيخ عن سرده محاولاً أن يتذكر. أمّا أنا فاعترضت قائلاً: دع أيها الشيخ اسم القرية، انه لا يستحق أن تتوقف عنده، تابع القصة. وتبع ذلك صمت. وإذا بالشيخ يقول فجأة وبلهجة عالية: "تدعى ذافنوفيتو!" وأردف وهو ينظر إليّ نظرة ظفر: "أرأيت كيف وجدتها؟" أمّا أنا فقد ضحكت من كلّ نفسي. كان المشهد فريداً، لكوني أمام شيخ صاحب موهبة يروي لي بتواضع إنجازاته الروحية العجيبة جداً، ويتهلّل، بالمقابل، كطفل صغير عندما توصّل إلى تذكر اسم إحدى القرى. ورأيت إنساناً متفوقاً في البساطة ينكشف أمامي وهو يجمع بين الحكمة العقلية والسداجة القلبية. لم أشعر بأيّ بضحكي أسأت إلى احترامي للشيخ. بل على العكس. وأحياناً كان هو نفسه

يضحك. وعندها أفشى لي سرّاً: "أتعلم. قلت مرّة لأحد الأساقفة إنّي من وقت لآخر أضحك ويضحك معي زوّاري. هل هذه خطيئة؟ فقال لي الأسقف: إن كان الضّحك فيه تواضع ومحبة، فهو ليس بخطيئة". كانت ضحكة الشيخ ملائكية لأنّه كان يحيا "فرحاً مع الفرحين وباكياً مع الباكين".

❖ كيف تخلص من السيّدة اللجوجة

بعد توسّلات لجوجة من إحدى السيدات اللواتي أعرفهن ، قبلتُ بنقل شكوها التالية إلى الشيخ، بعد أن أبديت لها اعتراضاتي: لماذا أكّد لها الشيخ تحقّق ثلاث أمنيات لابنتها، مع أنّه لم يتحقّق ولا واحدة منها؟ ونظر إليّ الشيخ بتفحص وقال لي: "يا بنيّ، ربّما كانت هذه أيضاً مثل الأخرى التي أتت إلى هنا أوّل أمس؟" فسألته: ماذا جرى مع الأخرى؟ وأوضح لي الشيخ قائلاً: "أتت إحدى السيدات وقالت لي: أريد أن تؤكّد لي أنّ هذه الأشياء الخمسة التي أتمناها لي ولأولادي ستتحقّق. أمّا أنا فقلت لها إنّي لا أستطيع أن أوكّد هذا، وقد فسّرت لها في زيارتها السابقة ماذا عليها أن تعمل، كإنسانة مسيحية، ليكون عندها رجاء بتحقّق ما تطلبه. فأصرت على طلبها غير راغبة في فهم ما قلته لها. وكان الوقت يمرّ، وقد تجمع أناس كثيرون في الممرّ خارجاً ينتظرون، وأنا غير قادر على التخلّص منها". وقاطعته، مبدئاً غضبي من أجله، قائلاً: لماذا لم تطردها أيّها الشيخ وترتاح؟" فقال: "لم تكن لتنصرف يا بني، أتفهم هذا؟ فقد أمسكت برجل السرير وقالت لي: لن أنصرف ما لم تقل لي إنّ ما أريده سوف يتحقّق. ماذا أفعل؟ هل أضعها خارجاً بالقوّة؟ هل أستطيع ذلك؟ عندها فكرت وقلت لها: "أيّها المباركة، ماذا تريدين مني؟ أجابتي: أن تقول لي ان كان سيتحقّق الشّيء الأوّل الذي أطلبه. قلت لها: سيتحقّق. والثاني؟ هذا أيضاً سيتحقّق - والثالث والرابع والخامس؟ وهذه أيضاً. عندها طارت السيّدة من الفرح، وشكرتني وهي

منصرفة. ولما صارت عند الباب، ناديتها بصوت عال كي تسمع: سيتم كل هذا، فقط عندما تقومين بإنسانة مسيحية بكل ما قلته لك. أما هي فتظاهرت بأنها لم تسمع. لم تطبق شيئاً مما قلته لها ولم يتم شيء مما كانت تنتظر. وبعد ذلك، أخذت تقول لمعارفها إن ما تمّ غير ما قلته لها. فما رأيك؟

عجبت من الحيلة التي ألهمها الله للشيخ، والتي بها تخلص من ضغط السيدة اللجوجة، وفي الوقت ذاته أعطاها رسالة روحية كان عليها أن تنتبه لها. وقد ضحكت في البداية من تطوّر الحادث، ولكنني حزنت من نهايته التي تظهر مأزق بعض الناس الذين يحاولون، عبر الشيخ، أن يطابقوا مشيئة الله مع مشيئتهم، بينما ما يوافقهم هو أن يعملوا العكس. أما السيدة التي نقلت شكواها فشبيهة جداً بتلك الأخرى، كما ظهر فيما بعد. كانت تطلب بلجاجة أن تتحقّق أمني ابنتها، غير مكترثة بإتمام المتطلبات الروحية التي وضعها لها الشيخ.

مواضيع إقتصادية

على الرغم من أن الشيخ كان يعيش الأمور الروحية، إلا أنه لم يكن غير مهبال بالأمور المادية. فبقدر ما كان مهتم برعاية أبنائه روحياً، كان مهتم بأمورهم المادية. هو يعرف أن للإنسان كياناً جسدياً ونفسياً. كان ينصح زائريه بالعمل والانتاج، بالتوفير وحسن الاستثمار، وباجتناب التبذير والمصاريف غير اللازمة. لقد عالج مشاكل أبنائه الروحيين الاقتصادية وحلها لهم، وما كان لعالم اقتصاد أن يحلها بشكل أفضل. كان يربط دائماً المنفعة المادية بالمنفعة الروحية كي تخدم المنفعة المادية المنفعة الروحية لا العكس. فالاقتصادي الماهر يعرف كيف يُخضع الرّيح الصغير للمكسب الكبير.

❖ علينا تدبير ثروتنا فقط

كان الشيخ ينظر إلى جوهر الأمور ولا يتأثر بالأشكال الخارجية السطحية للأنظمة الاقتصادية. قال لي يوماً: "أتعلم أنه من الممكن أن يملك المرء قصرًا ويذهب إلى الجنة؟ ذهابنا إلى الفردوس أو إلى جهنم لا يعتمد على ما إذا كنّا نملك مالاً قليلاً أو كثيراً، بل على الطريقة التي نستعمل بها كلّ ما نملكه. فالأموال والمنشآت وكلّ خيراتنا المادية ليست ملكاً لنا، إنّها ملك الله، وعلينا نحن تدبيرها فقط. يجب أن نعلم أنّ الله سيطلب إلينا حساباً عن كلّ فلس، إن كنّا صرفناه بحسب مشيئته أم لا".

❖ استثمار في السّماء وعلى الأرض

قال بفرح لصديق كان قد قدّم هبة مهمّة من المال باسم المسيح من أجل هدف إنسانيّ: "لقد أصبح هناك قيمة لأموالك الآن". لقد كان ذلك أفضل استثمار، لأنّ الأموال وُضعت "حيث لا يُفسد السّوس ولا الصدأ وحيث لا يدخل السّارقون ويسرقون".

وقد اهتمّ بنفسه بأرملة لها أولاد وعندها بعض المال، ونصحها بأن تستثمره بشراء قطعة أرض جيّدة من أجل أن تضمن مادّيًا أولادها الأيتام. أمّا بالنسبة إلى ضمانتهم الرّوحيّة فقد أخذهم على عاتقه في صلاته الحارة منذ اللحظة الّتي تيّمّوا فيها، متمّمًا الكتاب مرّة أخرى: "الرّب يعضد الأرامل والأيتام".

❖ الهبة والدين

أعطى أحد أصدقائي كمّيّة كبيرة من المال لمساعدة أحدهم، كدين بلا فائدة. وعندما بحث الموضوع مع الشّيخ قال له: "لقد ذهبت هذه الأموال فلا تعد تنتظرها. من الأفضل لك أن تهب من أن تقرض. فعندما تقرض، أوّل ما يجب أن تفكر فيه هو أنّ هذا المال لن يعود اليك. بهذه الطّريقة ترتاح ولن يكون عندك قلق على خسارته. فإن أُعيد لك خذه، وإن لم يُعدّ قل لنفسك: قد وهبته، وهو محسوب عندي من أعمال الرحمة". فقال له ذاك: إنّ ما تقوله صحيح أيّها الشّيخ، ولكن يمكن ألاّ يتيسّر لدى الشّخص مالٌ في الوقت الحاضر ليعيده إليّ، وأن يصبح لديه بعد سنين. فقال الشّيخ: "الأمر سيّان. أيضًا أنت تهبه. ولو مرّت ثلاث سنوات ونصف تكون قد وهبته إيّاها مع الفائدة الّتي لم تأخذها". فقام الصّديق بعمل حساب تقريبيّ وتأكد من أنّ ذلك يتطلّب مدّة من الزّمن أطول. فقاطعه الشّيخ: "ما هذا الحساب الّذي تعمله؟ إنك تخرج

الفوائد من المبلغ الذي تتراكم فوائده كل سنة؟" لقد كان الشَّيخ على حق، اذ نسي الصديق أن يحسب الفائدة المركبة. وسأله أيضًا: "كيف تعرف أنه يتطلَّب ثلاث سنوات ونصف؟" فقال الشَّيخ : "قلتها هكذا، من دون أن أعمل أيَّ حساب، ولكن يظهر لي أنَّ المدَّة هي هكذا". ولما ذهب الصديق إلى مكتبه، أجرى حسابا دقيقًا على الكمبيوتر. وكانت النتيجة ثلاث سنوات وسبعة أشهر. وعندما عاد والتقى الشَّيخ قال له: قد أخطأت أيُّها الشَّيخ بحسابك السَّنين. وتفاجأ الشَّيخ وسأل : "بكم أخطأت؟" أجابه: بشهر واحد فقط. فضحك الشَّيخ برضى وقال: "أرايت يا بني، كم أصبت؟ هكذا خطرتي وقلت ثلاث سنين ونصف". وهذا الحدث يشير أيضًا إلى أي مدى كان الشَّيخ يملك استنارة إلهية، حتَّى في العمليَّات الحسابية. وكم كانت نصائحه قريبة من أقوال المسيح : "اقرضوا ولا ترجوا شيئًا".

❖ تصرِّفي كالفقراء

نصح إحدى الأرامل قائلاً: "اعملي وصلي. لا تبددي مالك. تصرِّفي كالفقراء، خذي ما يعطونك مما يتبقَّى لك من المال عندما تشتري في السوق. ولا تقولي لأولادك عندنا مال، أعطهم القليل، وإذا اعترضوا قولي لهم علينا أن نقتصد وإلا نفد المال. ففي موضوع المال، لا تثقي حتَّى بأخيك".

❖ عليك تأمين ممتلكاتك

قال لأحد الأصدقاء: "أعلم أنَّك مرتبك بالسعي لتأمين ممتلكاتك، ولكن ما العمل؟ فإن لم تهتمَّ فسوف ينهبك الآخرون وهذا سيئ لك ولهم. كن حازمًا

تجاههم". قال الشيخ هذا لعلمه بطبع الصديق المتساهل، الذي تبع جزءاً من نصائح الشيخ ولم ينجُ نهائياً من الإجحاف بحقه.

❖ لا تنشغل بتفاصيل كهذه

كان أحد الأصدقاء، وهو من مرتبة النساك، يرغب في الإحتفاظ بكمية قليلة من المال كان يربحها من شغله، من أجل حاجاته الشخصية، وتوزيع الباقي إحساناً. لكنه تردّد في الاكتفاء بكمية قليلة من المال. كشف فكره للشيخ، فأجابه: "أيها المبارك، لماذا تجلس وتنشغل بتفاصيل كهذه. احتفظ لنفسك بكلّ ما تريد من المال، وهب كلّ جهدك لتحبّ المسيح أكثر، فتنحلّ كلّ هذه التساؤلات لوحدها".

❖ اشترت آلة حياكة واشتغلت

صبيحة أحد أيّام الصّيف، فيما أنا ذاهب لزيارة الشيخ في "البيت النّقال" حيث كان يقيم في ذلك الحين، كنت أفكر في نفسي وأنا أنظر إلى قطعة الأرض الجميلة وإلى غابة الصنوبر حولها، ترى من يكون المتبرع؟ وبدخولي "البيت النّقال" قال لي الشيخ: "أترى كم هي جميلة قطعة أرض الدّير؟ لقد ابتيعت بمدخراتي". ونظرت إليه متعجباً ومتسائلاً في نفسي: أيّ توفير استطاع كاهن متوحد يتقاضى راتب تقاعد أن يدّخره، وهو يقوم بمساعدة أخته وابنة أخته بالإضافة إلى نفسه؟ وبعد صمت هنيهة، قال لي الشيخ: "ربّما تسألني: أين وجدت المال؟ لقد اشترت آلة حياكة واشتغلت." وعاد فكري المشكّك يتساءل: ترى ماذا تستطيع أن تجنيه آلة الحياكة؟ وتابع الشيخ: "أقول إنّنا عملنا، وعملنا كثيراً، أفهمني؟ كنا نأخذ طلبيات حياكة. واشتغلنا أنا وأختي وابنة أختي

من الفجر حتّى المساء لسنين كثيرة. وهكذا استطعنا أن نوَقِّر خميرة لشراء أرض الدير^{١٣}. وعجبت من كد الشيخ ومَن معه. كما وعجبت من الطّريقة الّتي أقنعني بها. كان الشيخ يتكلّم وحده ببطء، وأنا كنت صامتًا. أمّا في الواقع فقد كان الشيخ يجري حوارًا مع أفكاري. كان يحاول إقناعي بمشاريعة، وأنا أبدي اعتراضات باطنيّة، وهو يجيبني بكلمات عن كلّ تساؤل صامت. في الحقيقة كان ذلك حوارًا فريدًا، وحدها النّعمة الإلهيّة تستطيع تحقيقه.

❖ لماذا الأبنية الفخمة؟

كانت السنون تمرّ، والأبنية، "بخميرة" الشيخ، ترتفع شيئًا فشيئًا وبسرعة، مذكّرةً بقول الرّسول بولس: "إنّ خميرةً صغيرةً تخمّر العجين كلّهُ". وعصر أحد الأيّام، وأنا عائد من غرفة الخرائط الهندسيّة في الدير، حيث شاهدت الخرائط الجميلة للأبنية الّتي تُشاد، تساءلت: لماذا الأبنية الضخمة؟ ولكوني رأيت وسمعت الكثير عن الشيخ، إذ كان يقرأ أفكاري وكأنّها في صندوق بلّوريّ شفاف، لم أعد أتفاجأ. وحالما رأيته قال لي بفرح: "أرأيت يا بنيّ، الرّسوم الّتي أعدّها المهندسون؟ أرأيت كم هي جميلة؟ هكذا كما رأيت في الخرائط سُنّبي الكنيسة والأبنية الأخرى. لا تظنّها ضخمة. إنّني لا أبنها لنفسي؟ فأنا سأرحل بعد وقت قليل، ولن آخذها معي... إنّها ستبقى هنا، حتّى يأتي أناس كثيرون ومن أماكن مختلفة، ليتقدّسوا ويخلصوا". والمستقبل سيثبت نبؤة الشيخ هذه.

^{١٣} ملاحظة للنّاشر : وتزايدت الآلات فيما بعد وُضيفت علامات إلى المشغل

العلاقات بين الجنسين

❖ غير متشدد ولا متساهل. ببساطة: عادل

كان الشيخ ذا تمييز أبويّ حيال الموضوع المهمّ والدقيق المختصّ بالعلاقة بين الجنسين. لم يكن في مقدور أحد أن ينعته بالمتشدد أو المتساهل لأنّه ببساطة كان عادلاً. فعلى قدر ما كان خارج شيطانيّة الأخلاق المتمحورة حول الجنس عند "المتشددين" وفوقها كان أيضاً ضد ملائكيّة نقاوة العشق عند "المتساهلين". كان يتبع طريق المسيح السوي، كما ورد في الكتاب المقدّس والتقليد الأبائيّ المستقيم الرأي. كانت تزور قلايته نفوسٌ مرتعدة من تهويل المتحقّظين "المترددين" وأنفسٌ منهرة من خبرات العصريين "المتجاسرين". كان يشمل الجميع بالمحبّة ذاتها، وكان عنده دواء مناسب للجميع. كان يحترم فرادة كلّ نفس ويفتح لها طريق معرفة الذات والتّوبة والتّنقية، ثمّ الإختيار الهادئ والطوعي بين المحبّة الزوجيّة في الزّواج المبارك أو العشق الإلهيّ في البتوليّة والتكرّس للمسيح.

❖ الانجذابات النّفسية - الجسدية هي خير أم شرّ؟

سألته مرّة: "أيّها الشيخ، هل الانجذاب النّفسيّ - الجسديّ الذي يحدث بين الرّجل والمرأة شيطانيّ؟ أجابني: "أحياناً نعم، وأحياناً لا. هذا متوقّف على الحالة.

وفي لقائنا التّالي، سألته مجدّداً عن الموضوع ذاته، فأجابني بتحديد أكثر: "إنّ ما يسمّونه التوفيق في الزّواج موجود، لكنّه يتطلّب الشّرط الآتي: أن يكون الزوجان قد اكتسبا غنى روحياً بحبهما المسيح وحفظهما وصاياه. وهكذا

يتوصّلان إلى المحبة المتبادلة الحقيقية والسعادة. في ما عدا ذلك، سيكونان فقيرين روحياً، ولن يستطيعا تبادل المحبة، وسيكون عندهما مشاكل شيطانية تجعلهما تعيسين.

مرة أخرى، وقد كان مرتاحاً، سألته: قد سمعتُ أنّها الشيخ، أنّ مشكلة الإحساس بالعجز والتوق إلى العاطفة المتبادلة بين الجنسين تبقى غير محلولة، ووحده القبر يحلّها. اعترض الشيخ بشدة: "كلا يا بني، لا تقل إنّها مشكلة. إنّها هكذا". وقام بحركة مميزة بقبضته وأصابه فوق غطاء سريره، تدلّ على شيء يتحرّك زحفاً إلى الأمام، ثم يبدأ بالاقلاع شيئاً فشيئاً إلى أن يرتفع أخيراً إلى السماء. لقد أعطى صورة معاكسة تماماً للصورة التي يعطيها الكتاب الرومانسيون عن المولعين بالعشق، الذين ينطلقون من ارتفاع بالغ ويفقدون هذا الارتفاع شيئاً فشيئاً ويعودون إلى الواقع بشكل غير عادي. إنّ صورة الشيخ ترتبط مباشرة "بالغنى الروحي" الذي يسبب وجوده أو غيابه، نسبياً، مسيرة تصاعديّة أو انحداريّة.

❖ محبة الخاطئ

قال لي يوماً: "أحياناً يأتي إليّ أيضاً شباب وشابات. وما الذي لم يفعله هؤلاء المساكين من خطايا جسديّة، ومع ذلك فأنا أحبهم". لم يبرّر الشيخ أفعال الصبية، وقد صنّفها كخطايا جسديّة، وفي الوقت نفسه كان يحبهم لكونهم نفوساً ثمينة مات المسيح من أجلها". كان يجذبهم كالمغناطيس بمحبته، ويشفهم تدريجياً من عبادتهم الجسد. إنّ موقف الشيخ الأبويّ هذا أسيء فهمه لدى بعض المحافظين المتزمتين الذين حزنوا للأمر، لدى بعض اللامبالين العصريّين الذين تهلّلوا للسبب نفسه وظنّوا أنّ الشيخ "متسامح" تجاه الخطايا الجسديّة. ولم يفهموا أنّ الخطيئة لا تُحارب بالحكم المتصلّب على الخاطئ، ولا بعقاب المذنب. كان الشيخ يحارب الخطيئة بطريقة فعالة وذلك بمحبته الخاطئ

ومساعدته على أن يعي مسؤوليّة سقطاته، فيتمكّن، بالمسيح، من أن ينعّيق منها ومن الذنب عبر التوبة والمسامحة والحياة في المسيح. كان يودّ أن يقود النفوس إلى الحياة الجديدة، لا أن يتركها تتعذّب بما سلف من الخطايا.

❖ نصائح في الزّواج

كان الشّيخ يوجّه من يرغبون في الزّواج إلى تكوين عائلة سعيدة حقًّا. وكشف لي الشّيخ في هذا الصدد ما يلي: "جاءني شاب طيّب وطلب إليّ أن أساعده على إنشاء عائلة مسيحيّة. فنصحته بأن يفتّش عن فتاة عفيفة من قرية خارج أثينا. وقد سمع مّي، ووجد في إحدى القرى فتاة طيّبة جدًّا أعجبت به. طلبها للزّواج، وتزوّجا وأنجبت له أولادًا رائعين. وهما الآن يعيشان حياة عائليّة بسيطة وسعيدة". وقد رأى الشّيخ أن المؤهّلات الدنيويّة الكثيرة والمعقّدة المطلوبة في طالبي الزّواج ترضي حتمًا نواياهم الأنانيّة وكلّ شيء آخر ما عدا ضمان السّعادة في الزّواج.

وكان الشّيخ يساعد من يهّمهم الزّواج. قال لي يومًا: "زارتني فتاة عانس ذات طباع طيّبة، ولكّتها فقدت الرجاء بالزّواج. وقلت لها: لنصلّ معًا من أجل طلبك أمام أيقونة والدة الإله. وحالما انتهينا من صلاتنا قلت لها: "ستتزوجين عاجلاً. عادت إلى قريتها، وبعد وقت قليل، زارتها إحدى وسيطات الزّواج وقالت لها إنّ هناك إنسانًا طيبًا أستراليًّا من أصل يونانيّ، أتى إلى اليونان بهدف التفتيش عن زوجة، لكنّه فشل وعاد في اليوم التّالي خائبًا. وعرضت عليها مقابلته. وجرى اللقاء في اليوم التّالي، وفي اليوم الّذي تبعه تمّت خطبتهما، وفي غضون أيّام قليلة تزوّجا وسافرا إلى استراليا".

وقد أفشى لي أحد معارفي بأن الشّيخ هو الّذي جمعه مع زوجته. وليس هذا فقط، بل وحفظهما من الأسوء اللاحقة. وقال لي بشكل خاص: لو لم يكن الشّيخ بجانبنا، لكان انتهى زواجنا.

❖ زوجان في مشكلة - ولد في مشكلة.

قال الشيخ لزوجين جديدين قاما بزيارته: "بما أنكما أنتما الاثنين غير متحايين، فولدكما المزمع أن يولد ستكون عنده مشاكل". وقد تحققت نبوءة الشيخ من خلال ما جرى بعد ذلك. وطبعاً لم يكن الشيخ يعتبرها نبوءة، بل نتيجة حتمية لارتباط عاملين (فقدان المحبة بين الزوجين - ولد ذو مشاكل في طباعه). وقد برهن الشيخ عملياً صحة النظرية التربوية القائلة إن تنشئة الولد تبدأ عند بدء الحمل به.

❖ مواجهة الخطأ

كان أحد الأشخاص يعاني مشاكل زوجية وعائلية صعبة، إذ إن اختياره لزوجته كان متسرّعاً وعلى الأخص عاطفياً. وكان يبحث هذه المشاكل مع الشيخ. وفي أحد لقاءاتهما قال له: "في أي حال، قد أرتكبت الخطأ الكبير الذي لا يمكن تصحيحه. علينا الآن أن نبحث كيف نواجه عواقب الخطأ بنجاح أكبر". كان الشيخ واقعياً. لم يعالج عقلانياً الاختيار الخاطئ لزوجته، ولا تركه يفشل بسبب تأنيب ضميره له على خطأه الذي لا يصحّح، بل قاده إلى محاولة مواجهة قوّة وفضلي لعواقب خطأه، وهذه المحاولة تفترض توفيقاً مقبولاً من الله.

❖ إن ولدكما سيجمعكما

وقال لزوجين واقعين في مشاكل صعبة كانت تعذب ولدهما الصغير: "أنتما الآن على خلاف، لكنّ ولدكما سيجمعكما. لا تتشاجرا أمامه لأنكما تسببان له جراحاً نفسية. خذا مثلاً من براءته. لا تجزّاه إلى الوراثة بنزاعكما.

دعوه يتقدّم ويمسك بأيديكما أنتما الاثنين ويسحبكما إلى الأمام. الولد في الوسط، وأنتما واحد عن يمينه والآخر عن يساره، ممسكان بيديه الصغيرتين، وتقدموا كلّكم معاً إلى الأمام وإلى العلاء". كانت نصيحة الشيخ عرضاً تصويرياً تصلح لأن تكون لوحة مرسومة، وتذكّر بكلام المسيح: "دعوا الأولاد يأتون إلي ولا تمنعوهم، لأنّ لمثل هؤلاء ملكوت السمّوات" و"إن لم ترجعوا وتصيروا كأطفال، لن تدخلوا ملكوت السمّوات".

❖ في منزل للبغاء

كان الشيخ يستطيع أن يواجه برأفة مسيحية متألمة الأنفس التي غاصت في أسوأ أنواع العلاقة بين الجنسين، ألا وهو مهنة البغاء. وقد أسرّ لي يوماً: "قبل سنين، قمت مرّة بنضح المنازل بالماء المقدّس. دخلت أحد المنازل وأنا أرّتل، وإذا بي أرى امرأة تفرّ من هنا وأخرى تختبئ هناك، لم أفهم السبب في البدء. بعد ذلك، فهمت أنّه منزل للبغاء. ولكن، ما العمل؟ لقد دخلت ذلك البيت من دون أن أعلم بالأمر. أنت المسئولة وقالت لي إنّّه لا يجوز لهؤلاء أن يقبلن الصليب. قلت لها: لست أدري إن كان لا يجوز لأولئك أم لك أنت. طلبن أن يقبلن الصليب. وقد تركتهن، فقبلنه. قلت لهنّ إنّ المسيح يحبّهنّ، فتأثرن. وقد رثيت لحال تلك الشقيّات. ما قولك، أحسنًا فعلت؟" وإذا كنت متفاجئًا بالحدث الغريب، ومتفاجئًا أكثر بسؤال الشيخ، قلت له: أيّها الشيخ، أتسألني، أنا المسيحيّ الفاتر، عمّا إذا كنت قد فعلت حسنًا؟ ولكن إذ تسألني سأجيبك: أظنّ أنّك فعلت حسنًا جدًّا. إنّ المسيح أتى ليدعو كلّ الخطاة إلى التوبة. وقد استمع إليّ الشيخ وهو يبتسم برضى.

❖ بدأت بشيء سهل

كان الشيخ ذا تمييز كبير بإزاء مختلف المشاكل التي تظهر أمامه. قال لي: "زارتني يومًا إحدى الممثلات وكانت يائسة للغاية لأنّ حبيبها قد تركها. ورأيت نفسها محطّمة. من أين أبدأ؟ بدأت بشيء هين. وضعت لها قانونًا: أن تقوم كلّ يوم بشيء، لوقلته لك لضحككت. ومع ذلك، كان عليّ أن أبدأ بهذا من أجل هذه النفس. وبقيامها بذلك الأمر الخفيف الذي طلبته إليها، ولكونها ذات استعداد حسن، سوف تشعر بحلاوة في نفسها وتعود إليّ. وعندها أطلب إليها أن تقوم بشيء أكثر جديّة. وهكذا شيئًا فشيئًا ستقترب من المسيح". إن فنّ الشيخ الرعائيّ ذكّرني بقول الرسول: "صرْتُ كلاًّ للكلّ لأخلّص الجميع".

❖ علاقة غير سوية

كان الشيخ يساعد على ترتيب أوضاع "مرتبكة"، طبعًا مع افتراض ضروريّ هو أن يساهم صاحب العلاقة في هذه العملية. عزم مرّة أحد الشبان على تكوين عائلة صالحة وفكر في التوجّه نحو فتاة رصينة لكي يطلبها للزواج. لكنّه رأى من الضروريّ، قبل القيام بأيّ عمل، أن يسأل الشيخ، فقام بزيارته. ولما سمعه الأب قال له: "أرى أنّك في حال نفسيّة غير مستقرّة. فأنت لا تزال تحتفظ بعلاقة قديمة سقيمة مع فتاة متقلّبة. عندما تكون بقرها تتضايق منك، وتزدري بك وتطردك. وعندما تبتعد عنها، تغار عليك وتتمنّاك وتدعوك. إن لم تقطع علاقتك بها نهائيًّا، فلن تصبح حرًّا كي تنشئ عائلة كما تتمنّى. أنت الآن مطرود منها. فإن طلبتك كي تعطيك تعليقات، وكانت تائبة حقًّا، فلا تذهب، لأنّك ستبقى بجانبها من جديد، وستعودان وتتابعان القصّة ذاتها إلى ما لا نهاية". لكنّ الشاب لم يسمع له. فما إن دعتّه حتّى ذهب إليها، واثقًا بأنّه سيوضح لها الأمر شخصيًّا. وكانت النتيجة أنّه بقي بجانبها وتحقّقت توقّعات الشيخ.

❖ نفس غير مستقرّة

في بعض الأحيان يكون "الارتباك" عميقًا جدًّا، ولا يكون حلّه في مجرد معالجة مباشرة لمشكلة خارجيّة، بل في معرفة المشكلة معرفة ذاتيّة داخلية مؤلمة. روى لي الشّيخ: "تأتيني من وقت إلى آخر صبيّة رأيت نفسها منذ اللحظة الأولى. وقد زارت مرّة أحد الأديار النسائيّة. في أحد الأيام، جاءتني رئيسة الدّير وقالت لي: "ماذا أعمل مع هذه الصبيّة أيّها الشّيخ، عندها شوق كبير لتصبح راهبة". أجبتها: "لا تصيّرِها راهبة". لم تسمع لي، وألبستُها ثوب الراهبة. بعد فترة، جاءتني الرّئيسة من جديد وهي حزينة جدًّا. وقالت لي: "لقد ارتكبتُ خطأ كبيرًا إذ لم أسمع منك، فقد طرحت تلك الفتاة الثياب الرّهبانيّة، وقد رأوها ترقص بثياب عالميّة في أحد الاحتفالات". قلت لها: "وماذا بوسعي أن أفعل لك الآن؟" مرت أيام وإذا بالصبيّة تأتيني في عصر أحد الأيام. قالت لي: "إني يائسة ومتردّدة، لست أعلم إن كنت أصلح للراهبة أم للزواج". قلت لها: "أنت لا تصلحين لا للراهبة ولا للزواج، إنك تصلحين للماتالا^{١٤} وتصلحين لكلّ ما تجدينه أمامك". سألتني وهي غاضبة: "لماذا؟" قلت: "لأنك متقلّبة، إنك كطاحونة الهواء التي تدور مع الرّيح. فإن وُجدت مع المسيحيّين تتصرّفين كمسيحية، وإن وُجدت مع العالميّين تتصرّفين كعالميّة، وإن وُجدت مع الهبّيين تذهبن معهم إلى ماتالا. إنك تذهبن حينًا إلى هنا وحينًا إلى هناك لأنك لم تقنني بعد إيمانك الخاص".

❖ لتقدّسك أطوارها

بحث معي أحد معارفي في شأن عرض زواج، لكنّه كان متردّدًا، إذ لاحظ في المرشحة للزواج بعض النقائص المهمّة. وقد نصّحته بزيارة الشّيخ. فهم

^{١٤} منطقة يجتمع فيها الهبييون

الشيخ نقائص المرشحة وعددها له منتهياً إلى القول بلغز: "ومع ذلك، هكذا يتم الزواج". فسأله: "وكيف يتم هكذا أيها الشيخ؟" فأجابه: "هكذا بأطوارها تُقدّسك وأنت تقدّسها". ومن الواضح أنه يعني بذلك أنه ان تزوّجها، يجب أن يتمرّس على الصبر والتحمل وتفهم الآخر والمسامحة، وعلى العموم على كلّ الفضائل إلى أن يصبح قديساً. ولما سمع صاحب العلاقة هذا الكلام رفض العرض. ولم يجزّ على اتباع طريق تقدّيس كهذا.

❖ إلى الأمام الآن من أجل القداسة

خطب أحد الشبان المؤمنين شابة غير مبالية بالإيمان، وقد زار الشيخ للاسترشاد. أمّا الشيخ، وقد وجد نفسه أمام أمر ناجز إذ "رأى" في الحال ضعفات الخطيبة، فقال للشاب بطريقته المميّزة: "إلى الأمام الآن من أجل القداسة. ما من حلٍ آخر لك. ستجاهد كي تتقدّس أكثر كلّ يوم. وحين ترى زوجتك وجهك يضيء بفرح المسيح، ستغار وترغب في تقليدك". كان الشيخ يجد لكل مشكلة المخرج الأفضل.

❖ شعور مرهف من أجل التقديس

كشف لي الشيخ يوماً: "جاءني مرّة شاب وقال لي إنّه، بينما كان مسافراً في الباخرة، رأى أمامه فتاة جميلة وجذابة فارتعش. إذّاك رأيت نفسه فقلت له: أيها المبارك، قد تتقدّس الآن بهذا الشعور المرهف الذي منحك إياه الله". ربّما رأى أب رويّ آخر الحادثة فرصة ليرهب الخاطن، بينما رآها الشيخ فرصة ليكشف له الموهبة الإلهية لشعوره المرهف وقدرته على التقدّس عبره، إذ بعشق يُقصي عشق، وبنار غير هيولية تُطفأ النار.

❖ ثقل الخطيئة الجسدية

قال لإحدى الأمهات: "عليك أن تنتبهي وتصلّي كي لا يسقط أولادك في الخطيئة الجسدية. لا شك في أنّ الواحد يُخطئ بالفكر، إلا أنّ الخطيئة تكون أخفّ. أمّا في الممارسة الجسدية فالخطيئة أثقل بكثير، لأنّها تحدث في النفس خسائر وتغيّرات عميقة.

❖ ينابيع التجارب

لقد أشار الشّيخ إلى الأبواب التي تدخل منها التجارب، فهي داخلية من خلال الأفكار، وخارجية من خلال الحواس. في أحد الأيام، كنّا معًا في سيارّة أحد الأصدقاء، ومررنا بجانب مخيم للفجر. والصورة المعروفة عن مخيماتهم أنّهم يحيطونها بمسجّلات تبثّ بصوت عالٍ أغاني شعبية محبّبة إلى الفجر. كان الشّيخ صامتًا، بينما كنت، بفكري أرثي لهؤلاء النّاس بسبب مستواهم الحضاري عامّة، وبسبب ذوقهم في ما يسمعون خصوصًا. إذّاك سمعت الشّيخ يقطع علي أفكاره بقوله: "ليس في وسع هؤلاء الفجر الأثقياء شيئًا، إنهم يستمعون إلى هذه الأغاني كي يتعرّضوا قليلًا في عذاباتهم". فتعجّبت وفكّرت، إذّا، هل يوافق الشّيخ على ذوقهم الموسيقيّ؟ وعاد الشّيخ، العالم بأفكاري، وقال: "طبعًا، أنا لا أقول إنّ هذه الأغاني حسنة".

❖ الموسيقى الأفضل

لمّا كان الشّيخ على علم، بالهام داخليّ، بمحبّتي للموسيقى عمومًا، أراد أن يساعدني روحياً في هذا المجال أيضًا. قال لي، عصر أحد الأيام، ونحن نتمشّي

في غابة الصنوبر: "إنه لجميل أن تسمع الموسيقى، وأرفعها كلها هي الموسيقى البيزنطية، لأنها لا تشوش النفس، بل تُتحدّها بالله وتريحها كلياً. لكن، يمكنك أن تسمع موسيقى عالمية أيضاً إن أردت ذلك، ولكنّي أعتقد أنّه من الأفضل أن تستمع إلى موسيقى بلا كلام".

❖ زواج أو عزوبية

كنّا مجموعة من ستّة أو سبعة أشخاص أصدقاء غير متزوجين في ذلك الحين، جالسين تحت شجرة صنوبر عصر أحد أيّام الصيّف، نسمع الشّيخ يحدثنا عن هذا الموضوع: "لا تقلقكم كثيراً مسألة الاختيار بين الزّواج والعزوبة. أحياناً، ترغبون نفسياً وجسدياً في الزّواج، وأحياناً أخرى تخفّ حدّة هذه الرغبات لأنكم تشعرون برغبات إلهية أسمى من الزّواج. فعندما تأتي تجارب شهوانية، لا تحاولوا إقصاءها بالقوّة لأنّ الشّيطان يغتنم هذه الفرصة فيجعلها أكثر جاذبية فيؤذيكُم. من الأفضل أن تواجهوها بهدوء وأن تحوّلوها من رغبات خاطئة إلى رغبات نقيّة بقولكم: يمكن أن نتزوّج وأن نتمتّع بالملذّات الزوجيّة كما يريد المسيح. وعندما تعود وتراودكم رغبات في البتولية، اقبلوها بامتنان، وأنتم تنمّون ثمار القداسة سرّياً. ولا بد، في يومٍ ما، من أن تميل كفة الميزان إلى إحدى الجهتين. قد يحاول البعض أن يتقدّسوا بمحاربة أهوائهم وخطاياهم، وآخرون بمحبّة المسيح وعمل مشيئته. إن الأوّلين يحرزون الشّيء القليل لأنّ جهادهم يمسي فاتراً وقاسياً. أمّا الآخرون، فإنّهم يحرزون أكثر، لأنّهم بحمّهم المسيح، تفقد أهواءهم الخاطئة جاذبيّتها وقوّتها أمام ما يشعرون به من فرح محبة المسيح، فعندما ينبلج الصبح ويدخل نور الشمس إلى غرفتنا تولّي الظلمة قسراً". هنا توقّف الشّيخ عن الكلام وبدا وكأنه يفكّر في شيء ما. بعدها تابع قائلاً: "ربّما يجب ألاّ أقول لكم هذا ولكني سأقوله: "من الممكن أن يتقدّم

أحدهم في السنّ ويبقى متردّدًا بين الزّواج والعزوبية وإذّاك يشنّ عليه الشّيطان أقسى هجوم: يضع في نفسه الذّعر من العزوبية. حينئذ يبدأ بالتفتيش عن زوجة بقلق، ويطلب من البعض مساعدته في هذا الأمر، فيهرأ به، هذا بالإضافة إلى دخوله في حالة من المرض النفسي. لذلك أقول لكم، لا تبقوا في حيرة السّؤال: زواج أو عزوبية؟ وعوض أن تتعبوا أنفسكم بمحاولتكم عبثًا إيجاد الجواب بأنفسكم، وجّهوا كلّ جهدكم نحو حبّ المسيح من كلّ نفوسكم وهو بدوره سيعطيكم، في الوقت المناسب، الجواب الّذي يوافق نفوسكم والّذي ستقبلونه بكلّ رضى وبلا حزن، إنّما أيضًا بهدوء وشكر. وهكذا تتحرّرون من الحيرة وتسلكون طريقًا تمجّدون بها الله".

كان أحد الأصدقاء واقع في حيرة، يجد صعوبة في الاختيار بين الزّواج والبتولية، فقدّم له الشّيخ آفاقًا خلاصيّة، وقبل أن يختار أيّا منها، أعتقه من قلق الاختيار قائلاً له: "لا تتعب نفسك عبثًا فتضغط على نفسك بالاختيار الآن، بل تحرّر من هذا الفكر الملح الضاغط وركّز كلّ انتباهك على مبادلة المسيح حبّه لك. الكلّ للمسيح، ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، حيث تظهر عنايته حتّى في أدقّ تفاصيل حياتنا. من الممكن أن تنشئ عائلة، أو أن تتكرّس للرّب في المكان الّلي يعجبك، ومن الممكن أيضًا ألاّ تعمل أيّا من هذه، وإن تبقى في بيتك، كما أنت الآن. يكفي أن تحبّ المسيح فتخلص. إنّ المسيح يعطي الحلّ الّذي يوافقك أكثر، الحلّ الّذي سيحكي نفسك بوضوح. لا تحزن، فأنت الآن أيضًا على طريق المسيح".

ولمّا كان أحد الأصدقاء يستصعب كثيرًا فكرة الزّواج، كشف له الشّيخ أن السّبب الأعظم لتأجيله الزّواج أمدًا طويلًا هو شعور بالفشل مكبوت في اللاوعي منذ زمن مراهقته. وقال له: "أحببت إحداهنّ من كل نفسك، وجعلتها مثال حياتك، لكنّ عدم اكترائها جرحك، فتشرذمت. وأخذت تحاول أن تجد وجهها في وجه كلّ فتاة أخرى مرشحة للزواج، ولاستحالة هذا الأمر، بقي قلبك مقفلًا". وبمساعدة الشّيخ، استطاع هذا الصديق أن يعي المانع الخفيّ من قرار الزّواج، فتحرّر منه نهائيًا ونجح في إنشاء عائلة.

ذهب أحد معارفي يسأل الشيخ عما يناسبه أكثر: الزَّواج أم البتولية. وتلقَّى من الشيخ جوابًا غير منتظر: "إنك تصلح للإثنين". بعد هذا الجواب، سأله أيُّ من الإثنين يلائمه أكثر، لكون الاثنين في متناول اليد. إلّا أنَّ الشيخ، بتمييز منه، لم يعطه جوابًا. وربّما لاحظ أنه لا يوجد مبرر كي يعطيه الجواب، فالإنجيل قد أعطى الجواب. وكان ذلك الإنسان من أولئك "الذين أعطِيَ لهم" وبالتّالي اختار جهاد البتولية "من أجل ملكوت السمّوات".

ومع ذلك، فقد انتظر الشيخ أن تمرَّ أحداث معيّنة ومحدّدة، وبعدها قال له، وكما فهم هو نفسه ذلك، إنّ الله تكلم معه بوضوح عبر الإنجيل والأحداث عمّا يلائمه أكثر. وتوصّل إلى أن يقول له: "ولكن إن كنت تفضّل الزَّواج فأنت ما زلت حرًّا حتّى الآن، على كلّ فأنا أقرع ناقوس الخطر. أيّها الحبيب، لقد فاتنا نحن قطار الزَّواج (ولم يعد في وسعنا القرار)". وتواضع لطيف جدًّا، وضع الشيخ نفسه بين أولئك الذين لم يعد بإمكانهم التفكير بالزَّواج. بينما من المعروف أنّه منذ حدوثه كان قد قام باختياره ولم يفكر أبدًا بالزَّواج.

وقام الزّائر بتحديد اختياره النهائيّ ورَتبَ أموره. ولكن بقي عليه الآن أن يواجه أهله، الذين كانوا يجهلون قراره، إذ إنّهم لم يعلمهم به سابقًا لئلا يحزنوا، وكانوا يضغطون عليه حتّى ينشئ عائلة. وقد سبّب له هذا شيئًا من العصبيّة فعاد والتجأ إلى الشيخ. وبشكل طبيعيّ جدًّا أخذ الشيخ يعيد له حرفيًّا كلّ ما كان أهله يقولونه له، وكأنّه موجود داخل بيته: "يقول لك أهلك الآن، حتّى متى ستبقى هكذا؟ حان الوقت أن تصبح ربّ بيت، أن تكون لك عائلة، زوجة وأولاد. فإن بقيت هكذا، من سيهتمّ بك في شيخوختك؟ لا تسئ فهمهم، لأنّهم هم أيضًا على حقّ. لو كنتُ مكانهم لتكلّمت مثلهم. إنهم يرون الأمور من الناحية الدنيويّة، يريدونك أن تعيش عيشة جيّدة وأن تكون في شيخوخة حسنة. ولكن، كثيرون هم الذين ينشئون عائلات ثمّ يتركهم أولادهم وتكون شيخوختهم سيّئة. المبتغى هو أن يحبّ الإنسان المسيح وكلّ المشاكل الأخرى تُحلّ". وقد عبّر لي قريبي عن

اندهاشه بالشيخ الذي وجهه بكثير من التمييز إلى "الأفضل"، الذي يوافقه، لكنه أيضًا برّر موقف أهله وموقفه بتفهم.

❖ وسيط زواج بالمسيح

كشف لي أحد أصدقائي أنه في أولى سني شبابه عشق "براءة" إحدى الشابات. وقد حفظ حلمه سرّيًا، إلى أن فتح مكتبًا في أثينا واستقرّ في أعماله، فأظهر لها شعوره وعرض عليها الزواج، أمّا هي فرفضت. بعد ذلك، افترقا كلّ في طريقه. وقد تعرّف إلى الأب بورفيروس الذي ربطه بالمسيح وتغيّرت حياته. وبعد سنين، وُجدت تلك المرأة من جديد في دربه بطريقة غير متوقعة. ولكن لم يعد هناك نيّة في الزواج عند كليهما، بل كانت تحتاج إلى أن يساعدها في مشكلة صعبة. وقد عمل أفضل ما بوسعه من أجلها: عزّفها على الأب بورفيروس الذي اكتشفت بالقرب منه طريق خلاص نفسها. أمّا للشاب فقال الشيخ بفرح: "لقد أهّلك الله، عوض أن تكون عريسها، لأنّ تكون وسيط زواجها بالمسيح".

مواهب متنوّعة

كانت لدى الشَّيخ، عدا المواهب الّتي ذكرتها حتّى الآن، مواهب أخرى عديدة جعلته يشبه منحدر جبل مزين بأزهار بريّة متعدّدة الألوان. كانت عنده مواهب كثيرة ومتنوّعة، حتّى أنّه يجعلك تتساءل، ليس عن المواهب الّتي اقتناها، بل إن كان هناك مواهب لم يكتفها بعد. كانت كلماته وأعماله تظهر كلّ مرّة أكثر من موهبة. كان قادرًا على أن يفهم عميقًا مختلف الأشخاص وأن يعطي حلولاً تخلّصهم من مشاكلهم الأكثر تعقيدًا. وإنك تلاحظ أنّه يعرف تقريبًا كل شيء، وأنّ عنده رأيًا مستنيرًا في كلّ موضوع، أكان عمليًا أم نظريًا، عامًّا أم خاصًّا.

❖ المواهب أداة للخلاص

إنّ أكثر ما يثير الدهشة أنّ الشَّيخ لم يستعمل هذه المواهب من أجل أهداف خاصة، بل كوسائل من أجل خدمة هدف وحيد هو تحرير النّفس من سلطة الشَّيطان وإدخالها جنة "كنيسة المسيح الأرضيّة غير المخلوقة"، كما كان يقول. قليلون أدركوا هذا الهدف العظيم، وهذا ما كان يجرح الشَّيخ. الكثير من النّاس تأثّر بالطرق الّتي استعمل بها مواهبه. فقد كان الشَّيخ قادرًا على أن يذهل الجميع، لكنّه لم يشأ ذلك. لم يدخل الشَّيخ حياتنا كصانع معجزات أو ساحر، كي يقدّم لنا حلولاً سهلة، مريحة وموافقة لكسلنا الجسديّ والفكريّ. أتى كعامل في كرم الله كي يخدم، بتعاوننا معه، عمل خلاصنا في المسيح.

قال لي يومًا: "يجبني أناس فأرى نفوسهم حطامًا. أمّا هم فيكونون غير مدرّكين حالتهم، ولذلك يسألونني عن أشياء أخرى، ويكلّمونني عن مشاكلهم الأخرى، من دون أن يعوا مشاكلهم الكبرى. فأكلّمهم أنا عن هذه، فيما هم لا

يفهموني، ولا ينتبهون إلى ما أقوله لهم لأنّ عقلم ملتصق هناك بمشاكلهم ومشئاتهم. وإذاك، أضطرّ أحياناً، كي لا ينصرفوا غير منتفعين، إلى أن أكشف لهم، بوساطة الموهبة التي منحني إياها الله، أسراراً عن ذواتهم أو عن أقربائهم، عن قريتهم أو عن أشياء أخرى مماثلة، حتّى يندهلوا، فأكتسب بذلك ثقتهم، وهكذا ينتبهون إلى ما أريد أن أقوله لهم من أجل منفعة أنفسهم".

كان البعض يهتمّ كثيراً بكلام الشيخ، وآخرون يهتمّون قليلاً، والبعض الآخر لا يهتمّ البتة، كلّ واحد بحسب استعداده الرّوحيّ. فمن وعوا منفعتهم في أوانها، كانوا يصغون بصمت منتبهين جيّداً إلى كلامه، فينصرفون من قلايته متأثرين، شاكرين الشيخ وممجّدين الله، لأنهم أتوا طالبين عشر هدايا فعادوا حاملين ألفاً. لقد اعتاد الشيخ، ببساطته المميّزة وكلامه المباشر، أن ينصح زائره: "لا تحزن بسبب مشاكلك التي أخبرني بها، لا تنغلّق عليها، ولا تلفّ وتدور حولها باستمرار. تحرّر منها واندفع إلى الأمام، موجّهاً كل اهتمامك وعملك إلى كيفية صيرورتك مستحقاً محبة المسيح، عارفاً وصايا وحافظاً إياها. فعبر عملك بوصايا المسيح، ستري أنّ كلّ المشاكل قد انحلت من تلقاء ذاتها، وأنك دخلت فردوس كنيسة المسيح غير المخلوقة، الذي يبدأ من هنا".

كان الشيخ يفرح كثيراً عندما يرى نفوساً متواضعة، مستعدة لتسمع كلامه، وتتقدّم للحال نحو الهدف العظيم، من دون أن تنتظر أن يدهشها أولاً بمواهبه التي تشكّل وسائل ضاغطة تؤثر، إلى حد ما، في حرية الإرادة. كان الشيخ يتّبع مثل المسيح الذي لم يغبّط من رأوا وآمنوا، بل من "لم يروا وآمنوا". لأنّ الأعمى ليس من لم يرّ حسياً، بل الذي لم يرّ روحياً.

ولقد حافظ أبي الرّوحيّ على مثل موقف الشيخ في هذا الموضوع. فقد استقبل يوماً إنساناً مجهولاً غريب الأطوار ومحبّاً لجمع أخبار العجائب. وقد جرى بينهما الحوار التالي:

الرّائر: قد سمعتُ أيّها الأب الكثير عن مواهبكم. قولوا لي هل رأيتم عجائب؟

الأب الرّوحيّ: نعم، الكثير.

الزَّائِر (مَتَحَمَّسًا): أودَّ أن ترووا لي أهمَّ عجيبة رأيتموها.
الأب الرُّوحِي: إنَّ أهمَّ عجيبة رأيتها هي أنَّي أكبر خاطئ في العالم وأنَّ
المسيح هو مخلصي.

الزَّائِر (خائِبًا): أهذا ما عندكم لتقولوه لي؟
الأب الرُّوحِي: هل يوجد في العالم عجيبة أهمَّ من هذه؟ ورحل الزَّائِر
المجهول مستاءً.

لم يكن الأب بورفيرْيوس يفتاظ، ولو أنَّه كان يحزن، عندما تزوره نفوس
خاملة وكسولة وأنانيَّة وغير مستعدة. كان متسامحًا بلا حدود ومتساهلاً مع
خطايانا. وكان يفعل هذا لا لئبزرها، بل لكي يحثَّ غيرتنا لنحاربها. ولكي يساعدنا
في هذه الحرب، كان يلجأ إلى استعمال مواهبه، الَّتِي كانت تملأ نفوس زوّاره
دهشة وورعًا. وأحيانًا كان يحقق طلبات الزّوّار بطريقة عجائبيَّة، إنَّما ليس من
دون فائدة روحيَّة. لم يهدف إلى أن يرضي النَّاس مؤقتًا، بل أن ينفعهم بشكل
دائم. وفعلاً، كان سيظلُّم زوّاره لو أنَّه اقتصر فقط على حلِّ مشاكلهم الآنيَّة،
مقفلاً دونهم باب الفردوس هناك، حيث لا توجد مشاكل من بعد. لكنَّه عندما
كان يرى أن لا مجال لتلك الفائدة الرُّوحِيَّة لخلاص النَّفس، بسبب معارضات
ناجمة عن الأنانيَّة، لم يكن يستعمل مواهبه كي لا يثقل على الزّوّار بالعطايا
المقدِّمة لهم والَّتِي لا يعرفون قيمتها. وإلى أن تندثر المعارضات كان يصمت، ولكن
لا عن لامبالاة. كان يساعدهم بصلاته، وكانت تجلب نتيجة أكثر من أقواله. لم
يترك أحدًا بلا مساعدة، على الرِّغم من أن كثيرين أسأؤوا فهم صمته. أحيانًا،
كان صمته بسبب الألم النَّاتج من أمراضه الكثيرة، وأحيانًا عدم الوحي الداخلي
عمَّا يجب عمله، وأحيانًا كانت هناك أسباب أخرى الله وحده وهو يعلمانها.

❖ رأي بحسب الإنسان ورأي بحسب الله

زرتَه عصر أحد الأيَّام، وطلبت رأيَه في مسألة مستعجلة. قال لي: "إنَّي
مريض جدًّا، ولا أستطيع التركيز. هل تريد أن أجيبك الآن بمنطقي أنا، ومن

الممكن أن أخطئ؟ أم تريد أن تأتي غدًا صباحًا، وأرجو أن أكون معافي، فأستطيع أن أركّز". قلت له: لا تجيبي الآن أيها الشيخ، وسأتي غدًا صباحًا. وصباح اليوم التالي، أخذت الجواب.

❖ قد هزئ بنا الشيطان

في زيارة لي أخرى، وجدت الشيخ مرتعدًا. قال لي: "أنظر ما أصابنا! قد هزئ بنا الشيطان". سألته بقلق: ماذا حصل أيها الشيخ؟ ففسّر لي: "هل تدكّر ذاك الشخص الذي أرسلته كي يتكلّم مع أحد معارفه ويقنعه بالميّء إليّ، كي أخلّصه من تعقيداته الشيطانية بناءً على طلب الكثيرين؟ لقد فعل ذاك العكس. ذهب والتقى بقريبه وأخذ ينتقدي قائلاً إنّي مشعوذ وأهزأ بالنّاس. أتسمع؟ أتّى له أن يأتي بعد إليّ؟ لو علمت أنّه سيتجنّى عليّ لما كنت أرسلته. والآن رأيت أنّ هذا أيضًا واقع تحت تأثير الشيطان ويعاني مشاكل نفسيّة. ولكن فات الأوان، فالخسارة وقعت. لقد خدعني الشيطان! نادراً ما يحدث لي هذا". ولكنّ فرح الشيطان لم يدم طويلاً لأنّه سقط في الحفرة التي حفرها للشيخ. وقد علمت أنّ هذه الخسارة الروحية الصّغيرة التي سبّبها قد انقلبت بتدخل سرّي من الله، إلى فائدة روحية كبيرة لكثير من النّاس. ان حكمة الله الاستراتيجية قد سحقت حيل الشيطان الخداعة. وفي النهاية، تهلّل الشيخ للنصر الذي أرسلته السّماء، والشيطان ندب سقوطه في فخّه الذاتي. وقد سمح الله أن يخدع الشيطان الشيخ استثنائيًا لكي يدرك الكثيرون أنّ الإنسان المسيحيّ الذي يعيش قريبًا من المسيح ينتصر في النهاية ولو زعزعه الشيطان مؤقتًا.

❖ فلنهرأ به نحن أفضاً

بعد هذا الحدث، غالباً ما سمعتُ الشَّيخ يقول لي مبتسماً: "احذر. اعمل ما أقوله لك ولكن بصمت. هيا نهزأ بالشَّيطان".

عرف الشَّيخ بنعمة المسيح "وسائل الشَّيطان"، ولم يجهل "نواياه" ورأى حيَله المراوغة الخداعة، وخططه الجهنميّة، وفهم أهدافه المدمرة للإنسان، فسَدَّ عليه الطَّريق بشكل فعَّال، متحدِّياً ضغينته الجهنميّة. وكان يحاول كذلك أن يدرِّبنا، قدر المستطاع، على هذه المعرفة. قال لي يوماً: "عندما تصلّي من أجل إنسان يحاربه الشَّيطان بالأهواء الدنسة الخاطئة، لا تُعلِّمه بهذا، لأنَّ الشَّيطان سيعلم به، وسيجعل مقاومة في نفسه، وإذًاك لن تجلب صلاتك فائدة. صلّ من أجله، ولكن سرّياً، وصلاتك ستساعده كثيراً". مرّة أخرى قال لي: "عليك أن تحذر خصوصاً من شيطان الضجر. لا تستخفّ به. فعندما يتغلّب على النَّفس، يخدِّرها ويشلّها. إنه شيطان كبير، عندما يدخل في الإنسان، لا يدخل وحده، بل يتبعه جمعٌ من الشياطي مثل الملوك العظام في العصور الغابرة، الذين كانوا يتقدّمون في موكب فخم، جالسين على عرشهم، محمولين على أكتاف جمّ من الخدّام".

❖ تدخّل تدريجيّ

في كلّ مرّة تأتي فيها إلى الشَّيخ أنفُسٌ مجرّحة "بسهم العدو المحمّة الثائرة علينا بغش"، كان يحاول أن يشفي الجراح بإجرائه عمليّات جراحية من دون ألم، قدر المستطاع. زارته مرّة إحدى السيّدات العالميّات، وهي مثقّفة جدّاً، وحسّاسة جدّاً، ويأسّة جدّاً ومثقلة بخطايا صعبة (غير معروفة تقريباً بالنسبة إلينا)، لكي تخبره بألمها. وقد عزّاها الشَّيخ وأرشدّها إلى كيفية التخلّص من عدم شعورها بالأمان. أمّا بالنسبة إلى خطاياها، فقد ولّد لديها انطباعاً (كما قالت هي

نفسها) وكأنّه أمّ صالحة تؤنّب ابنتها الصّغيرة لأنّها كسرت لعبتها وهي تلعب. وفي اللقاءات التّالية، تقدّم العلاج تدريجيًّا إلى عمق أكبر وأكثر أيلامًا.

❖ تدخل مباشر

في أحيان أخرى، كان لديه "إلهام" بأنّ المرض يحتاج إلى تدخل سريع وفعليّ. إذّاك، لم يكن يتردّد في استعمال المشرط من أوّل لقاء كي يعتق المريض من الخراج. وهكذا، عندما زارته سيّدة أخرى مثقّفة ومتعلّمة، كي تشكو له معاناتها مع ولدها المريض عصبيًّا، أخافها الشّيخ قائلاً لها إنّ ولدها مرض بسبب كبرائها، وإنّه سيشفى فقط إن هي تواضعت وتقدّست. فخرجت السيّدة من قلايته منهكة وغائصة بدموعها. إلّا أنّه في اللقاءات التّالية عزّاها وشجّعها كثيرًا وأعطاهم رجاء كبيرًا في شفاء ابنها وفي تقديمها الرّوحيّ هي بالذات. في حالات مختلفة، اقتصر، في العمليّة الشّفائيّة، على النّصيحة: "اعمل ما يلهمك إيّاه الله"، وفي حالات أخرى، منح بركته الصّامتة. وكلّ تدخلاته عادت بالفائدة على الجميع بحسب حاجات كلّ واحد وقدراته.

❖ ماذا تعني كلمة أبكم

في كثير من الأحيان، احتوت نصائح الشّيخ الرّوحيّة وكشوفاته عناصر الإبداع والمفاجأة والمباغطة، حتّى وصلت حدود عدم التصديق. مرّة، كنت أتحدّث معه عن إنسان أرسل إليه صديقه رسالة مهمّة جدًّا بشأن موضوع يخصّهما. علمت بالأمر ولكّني لم أعلم إذا كانت الرّسالة قد بلغت هدفها. وكان الشّيخ مطرق الرأس صامتًا. وفي لحظة ما سمعته يتمتم: "نعم، أرى، لقد استلم

الرّسالة". واستدار نحوي وسأل: "ألا قل لي، ماذا تعني كلمة "enéos"؟" واستغربت سؤاله الذي لا علاقة له بموضوعنا، ولكي أجبت: ما أتذكّره أيها الشيخ، أنّها تعني منذهل، مصعوق، أبكم. وتابع الشيخ: "أجل، هكذا بقي أبكم، حالما قرأ الرّسالة". فقلت له منذهلاً: هل أستعملت أيها الشيخ، كلمة أبكم، من دون أن تعرف معناها؟ فقال: "أجل، لم أعلم ماذا تعني هذه الكلمة، ولكي قلتها لأنّها هكذا خرجت من فمي". وعندما عدت إلى أثينا، اتّصلت بالمرسل الذي أعلمني أنّ صديقه قد استلم رسالته وبقي مصعوقاً من مضمونها. وبقيت أنا مصعوقاً أكثر منهم جميعاً، بسبب علم الشيخ الذي لا يُصدّق، إذ إنّهُ لم "ير" فقط تسلّم الرّسالة، بل أحسن أيضاً باندھاش المستلم، وعبر عنه بلفظة مناسبة كان، هو نفسه، يجهل معناها.

❖ ماذا تعني كلمة Ira؟

ذات يوم، كان يسألني عن الصّلوات التي أقوم بها. فتلوت له المزمور ١٤٢، ولما وصلت إلى "عرّفي يا رب الطّريق التي أسلك فيها، فإني إليك رفعت ira" نفسيّ" قاطعني الشيخ وسألني: "ألا قل لي، ماذا تعني كلمة "ira"؟ أجبت: تعني رفعت، أصعدت. وسألته: ألا تعرف ماذا تعني كلمة رفعت؟ فأجابني ببساطة: "لا أعرف ماذا تعني، ولكن هل تعلم كيف أحسن بهذه الكلمة؟" وأجرى لي تحليلاً روحياً عميقاً لحركة رفع النّفس نحو الله. كان الشيخ يجهل معنى كلمة "رفعت"، لكونه غير متعلّم، بينما كان يعرف بشكل مذهل معناها الرّوحي العميق. وقلت في نفسيّ: "عظيم أنت يا رب!" وتابعت تلاوة المزمور، وقد اراحني نفسيّاً (بعد تعرّضي للانتقاد جوراً)، فشددت على الكلمات: "بعدك تخرج من الحزن نفسيّ وبرحمتك تستأصل أعدائي وتهلك كلّ الذين يحزنون نفسيّ لأني أنا

^{١٥} Enéos : كلمة يونانية لها عدة مرادفات : مذهل . صاعق . أبكم .

عبدك". للحال تدخل الشيخ "الذي يفحص القلوب والكلى"، قائلاً لي: "توقّف، توقّف، عندما تقول تستأصل أعدائي وتهلك كلّ الذين يحزنون نفسي، لا تقصد بذلك أناساً، بل الشياطين. واجه كلّ حالة بالمحبّة التي يتحدّث عنها "العهد الجديد". إنّ جهاز الشيخ الرّوحاني اللاقط الحساس والمستقيم الرأي "التقط" أفكاره الدقيقة، وتدخل لتقويمها عند انحرافها. طبعاً، لم أفكر في تلك اللحظة لا "باستئصال" منتقدي ولا "بهلاكهم" بل فقط في أن تسود عدالة الله، من أجل إصلاح جوهرهم. أمّا هو فلم يكن يقبل ولا حتّى بهذا الانحراف. إضافة إلى ذلك، ذكرني بما علّمني إياه سابقاً؛ بأنّ هؤلاء الأشخاص المعيّنين هم إخوتي وقد سقطوا ضحايا الشياطين اللصوص الذين هم أعدائي الفعليين. ويجب أن أحول جهادي ضدّهم، وأن أحبّ إخوتي البشر مهما كانت الظروف، كما أظهر لنا المسيح في "العهد الجديد".

❖ الله لا يقاوص

كان الشيخ يحيا المحبّة التي يتحدّث عنها "العهد الجديد"، وبمقياس هذه المحبّة كان يقيّم كل شيء. كنت مرّة أحدثه عن الأزمة الأخلاقيّة في عصرنا، التي اتّخذت عبر الوسائل السمعية-البصريّة المذهلة وأجهزة الاتصالات، بُعداً وشكلاً عالمياً وبائياً شيطانياً لم يسبق له مثيل في التاريخ من جهة امتداده وعمقه. وافق الشيخ بأسف ولم يتكلّم. وحالما قلت له إنّني أخاف أن يسمح الله بقصاصات أقسى كي نتأدّب، انتفض وقال: "كلا، ان الله لا يعاقب، إنّما الإنسان يعاقب نفسه ببعده عن الله. ولنقل: يوجد ماء هنا، ونار هناك. وأنا حرّ أن الاختيار. إن وضعت يدي في الماء أنتعش، وإن وضعتها في النار أحترق".

❖ إِنَّ تَدَخَّلَ اللَّهُ سَرِّيَّ

في لقائنا التَّالي، عدت إلى ذلك الموضوع، وأوردت بشأنه قولاً للقديس يوحنا الذهبيِّ الفم الذي يقول إِنَّ الله يريد التأديب الفاعل في الإنسان الخاطئ من أجل تقويمه وخلصه، ولكن لكونه ذا محبة جمّة ويتألّم أكثر من المتأدّب، فإنّه يشجّع شفاعة القديسين أحياء وراقدين. الّتي تعمل على تخفيف قساوة التأديب. كان الشّيخ يسمع ببهجة. عندها سألته: أيّها الشّيخ، هل يتدخّل الله في حياتنا؟ أجابني: "كلا، إنّه لا يتدخّل، بل يحترم حرّيتنا". وأضاف بصوت منخفض: "إِنَّ تَدَخَّلَ اللَّهُ سَرِّيَّ". وقد شعرت أنّ كلامه قد طال أسرار الله. وأنا منصرف من قلايته كنت أفكّر: إِنَّ تَدَخَّلَ اللَّهُ سَرِّيَّ، وهو بالتالي غير معروف بالنسبة إلينا. لذلك، من الخطورة أن نربط خطايا الأشخاص بأحداث بشعة تحدثّ لهم، وذلك استناداً إلى علاقة العلة والنتيجة، وأن نصف هذه الأحداث كتدخل منظور لله وعقاب منه، كالعدالة والغضب الإلهيين. "إِنَّ أحكام الله بعيدة عن الفحص". "فمن يعرف فكر الله" غير الرّبّ وحده، وقديسيه بالقدر الّذي يكشفه هولهم؟

وما نعرفه نحن أن "الله محبة" وبالتالي تدخّلاته السريّة تحصل بداعي المحبة. إِنَّ محبته تحترم حرّيتنا.

❖ الله يحترم حرّية الشيطان

عندما زرته، بعد أيّام قليلة، تابع الشّيخ الموضوع. قال لي: "إِنَّ الشيطان شخص، ولذلك يحترم الله حرّيته". لم أكن لأتصوّر هذا. كنت أعتقد أنّ الله يحترم حرّية الملائكة الّذين لا يخطئون، وحرّية الإنسان الّذي يخطئ ويتوب. أمّا أن يحترم حرّية الشياطين الكفرة الّذين يخطئون ولا يتوبون، فلم أكن أفهمه. فإلى أيّ حدّ تحترّم محبة الله حرّية كائناته العقليّة؟ أيمنك ألا

يكون هناك حد؟ ولكن، كيف يتم عند ذلك تدخل المحبة السري، بحسب تأكيد الشيخ؟ إنه سرّ. وبما أنّه سرّ، فمن الأفضل أن أقبل بكلّ بساطة ما يجري، بدل أن أتعب عبثاً، باحثاً بفضول عن كيفية حدوثه. ويكفي أن أعرف أنّ ما يجري هو بداعي المحبة.

❖ الله يحترم إرادتنا

إنّ التمييز الكائن في محبة الله، كما أظهر لنا الشيخ، مؤثّر جداً. كنت مع مجموعة من الأصدقاء في كاليسيا بالقرب من صخور الدير وكان الشيخ معنا. كانت عشية اثنين الروح القدس، فقدّم لنا الشيخ وصفاً خشوعياً خارجياً وداخلياً للسهرانيّات الآثوسية في الكافسوكاليفيا. وفيها كما قال: "كان الروح القدس يأتي حينذاك ويملاً نفوس المتوحّدين بفرح سماوي". وبعد أن قال هذا، أعطانا رسالة لنتيقظ: "الآن أيضاً، يريد الروح القدس أن يدخل نفوسنا، كما في ذلك الحين، لكنّه يحترم حرّيتنا، ولا يريد أن يقتحمها. إنّهُ ينتظر أن نفتح له الباب من تلقاء ذاتنا، وعندها سيدخل نفوسنا ويحوّلها". وذكّرني أقواله بكتاب الرؤيا: "ها أنا واقف على الباب وأقرع، فإن سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشّى معه وهو يتعشّى معي". إنّ الله الكليّ القدرة يقرع باب نفس الإنسان الضعيف وينتظر بصبر أن يفتح له لكي يجعله سعيداً بالحقيقة. أما هو فغالباً ما يسيء استعمال حرّيته التي منحه إيّاها الله، فلا يفتح له، ويبقى مغلقاً على ذاته في شقائه. ترى، كم منّا يتيقظ لتحقيق هذه الطلبة: "أيّها المعزي، روح الحق، هلمّ واسكن فينا؟" وكم منّا يقول هذه الصلّاة، ولا يبقى منعزلاً في عدم الأمان؟ ان الله يحترم جهلنا أيضاً، لأنّ هذا أيضاً يعبر عن حرّيتنا. قال لي الشيخ يوماً: "إنّ الله يحترم إرادتنا". ومرة أخرى: "أي شيء تعمله، اعمله بحريّة ومسؤولية وشكر لأنك تريده". وكنت أحاول أن أتعقّق في هذه النصائح الغنيّة في معانيها والمختصرة، وإنّما المهمة جدّاً.

❖ طاعة عن أنانيّة

كنت أبحث معه في موضوع له علاقة بأب روحيّ متشدّد رفض تحقيق رغبة ابنه الرّوحيّ في زيارة الأب بورفيروس، كي يكلمه على مشكلة شخصيّة مهمّة. وقد ترك لديّ هذا الحدث انطباعاً مؤلماً، وقد عبّرت له عنه. فهزّ الشّيخ رأسه بأسف، وتمتم: "ماذا نقول؟ فكما ترى، إنّ أب روحيّ". كان الشّيخ حذراً ومتسامحاً دائماً في حكمه على الآخرين، ولاسيما إذا كانوا كهنة قد أخطأوا. وكان الشّيخ يفضّل أن يكلمني بأمثال بدل نشر سمعة سيّئة عن أحد: "أتعلم، عندما يأخذ الرّسول البابويّ أمر مهمّة ما، يصعد في الطائرة من روما، وحين يصل إلى مطار دولة افريقية، يفتح هناك مغلفاً مختوماً ويقرأ ما سيكون العمل المجبر على إتمامه، حتّى ولو لم يوافق عليه. أمّا عندنا نحن الأرثوذكس فلا تجري الأمور هكذا". فهمت، تقريباً، ماذا أراد الشّيخ أن يقول لي. فضلاً عن ذلك، لم تكن المرّة الأولى التي تأكّد فيها من أن هناك في المحيط الأرثوذكسيّ مرشدين روحيين، ولحسن الحظ هم قلة، يتنسّمون عملياً الرّوح البابويّة. وهم يطالبون بإتمام أوامرهم غير مبالين بموقف أبنائهم الرّوحيين الداخليّ المعارض. فهم ينمّون فيهم عقلية دكتاتوريّة. وبما أنّهم يخافون الحرّية، فهم يفرضون الخضوع والانقياد، ويجهلون أنّ الطّاعة المستقيمة الرّأي هي ثمرة الحرّية. لم يمض وقت طويل، حتّى أعطى الضغط الطّاغي نتيجته: فالابن الرّوحيّ لذلك الأب "الصّارم" صرّح لأصدقائه الذين دفعوه إلى رؤية الأب بورفيروس أنّه لم يعد يرغب في زيارته. وفي لقاء لي مع الشّيخ قلت له: أظنّ أنّه لن يأتي إليك، لأنّه لا يريد، بل بسبب طاعته لأبيه الرّوحيّ. وأدهشني الشّيخ بقوله: "إنّه يطيع لأنّ نصائح أبيه الرّوحيّ ترضي أنانيّته". كانت المرّة الأولى التي أسمع فيها الشّيخ يكلمني بكلّ صراحة على أخطاء الأبوة الرّوحيّة. وأعلم أنّه لم يفعل هذا عن حساسيّة شخصيّة. لم يكن الشّيخ يدعو النّاس إلى زيارته. (باستثناء مرّة حصل فيها ذلك بعد طلبات حارّة من أحد أصدقاء شخص متضرّر ومتحامل عليه وكان يتعدّب. وبالفعل ترتب اللقاء بناء على دعوة الأصدقاء الملحّة). لم يشأ الشّيخ أن يؤلّف

مجموعات، بل كان، بكلّ بساطة، يساعد كلّ الذين يسارعون إلى قلايته. ربّما كلّمني هكذا لأنّه أراد أن يكشف لي خديعة أخرى للشيطان داخل صفوف المسيحيين. وفكرت: إذًا، إنّ مستوى الطّاعة عند هذا الإنسان هو تحقيق أنايته.

❖ غير مضطرب إزاء مساعي العدو

كانت استنتاجاتي مزعجة. ولمّا رأيت حالة الشّيخ الرّوحية الهادئة حسدته. فقد بقي غير مضطرب، مع أن ما جرى لم يكن يعنيني أنا شخصيًا بل يعنيه هو نفسه، لكونه هو الذي أسىء فهمه. إنّ الشّيخ لم يحوّل أبدًا ما يتلقّاه من تحامل جائر إلى خصومة شخصية مع منتقديه. كان يقول الحقيقة، لا " بخوف وهوى "، بل بجرأة وعدم هوى مقدّس، لأنّه يعلم أنّ الصراع الرّوحي لا يدور بين الأشخاص، بل بين المحبة والكراهية. إنّ صراع في سبيل القداسة المسيحية "ضد الأرواح الشريرة في الهواء". واستمر الأب المسالم اللطيف، في كل حال، رؤوفًا ومتسامحًا بإزاء سقطات البشر، لكونه ملك أسرار الجهاد الرّوحي. لم يكن يقع في حيل الشيطان المضلّة، الذي كان يطبق ما يعلمه، أي طريقة "فرّق تسد" مطورًا إيّاها بحسب تغيّر الأوضاع. لم يتحرّز الشّيخ، ولم يميّز نفسه عن الخطأة، إذ كان يشعر بأنه متّحد عضوياً مع كل المسيحيين داخل جسم الكنيسة الواحد. كان يحيا قول الرّسول "من يضعف ولا أضعف أنا؟ من يعثر ولا أحترق أنا؟" وعلى قدر ما كان يمقت الخطيئة، كان يحبّ جميع الخطأة بلا تمييز. في كثير من الأحيان، كان هؤلاء يحاربونه بدافع من الشيطان، وكان هو يحاول أن يسانداهم في حرب المسيحيين المشتركة ضد الشرّير. وكان يتبع نصيحة القديس الذهبيّ الفمّ: "لا نقف معه (أي مع الشيطان) ضدّ بعضنا البعض، بل، فلنصطف مع بعضنا البعض ضدّه".

❖ عندما يأتي المسيح تولّي الخطيئة

قال لي يوماً: "عندما يأتي المسيح ويسكن كلّ حنايا النّفس، إذّاك تولّي كلّ المشاكل والضلّالات والأحزان. عندها تولّي الخطيئة أيضاً". سألته بتعجّب: كيف تولّي الخطيئة، أيّها الشّيخ، والكتاب يقول، لو عشنا يوماً واحداً على الأرض سوف نخطئ؟ نظر إليّ الشّيخ بأسف وقال لي: "ماذا أقول لك ما دمت لا تفهمني؟" وحاولت أن أفهمه. وحين وصلت إلى البيت، طالعت ما يختصّ بالموضوع في الكتاب المقدّس. فوجدت سؤالي مذكوراً في العهد القديم، في كلام أيوب: "من يا ترى نقيّ من الدّنس؟ ولا واحد، ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض". غير أنّي وجدت جواب الشّيخ مبنياً على الرّسالة الأولى لحبيبه يوحنا الإنجيلي: "وتعلمون أنّ ذاك أظهر لكي يرفع خطايانا، وليس فيه خطيئة. كلّ من يثبت فيه لا يخطئ. كلّ من يخطئ لم يبصره ولا عرفه". (١ يوحنا ٣: ٥-٦) وهكذا نقلت سؤالي من الأب بورفيرْيوس إلى الإنجيلي يوحنا. وبدا لي واضحاً أنّي أتعب عبثاً، لأنّني كنت أحاول أن أستوعب فكرياً حقائق لا تُدرَك إلاّ بالعيش فقط. فالإنجيلي يوحنا والأب بورفيرْيوس تكلمّا اللّغة ذاتها بوساطة خبرتهما الرّوحيّة المقدّسة.

❖ تجلّ إلهي

في يوم آخر، أراد الشّيخ، متنازلاً إلى مستوى ضعفي، أن يساعدني في تساؤلاتي، فقال لي: "عندما يفقدنا الرّوح القدس ندرك ذلك. لا نشكّ البتّة. وليس هو كأيّ انفعال عاديّ. إنّه شيء يأتي من فوق ويغيّرنا جاعلاً إيّانا نتجلى بكليتنا ومحولاً إيّانا أشخاصاً آخرين. ولهذا سمّينا ديرنا أيضاً "دير تجلّي المخلص". وعندما يدخل فينا المسيح، عندها فقط نحيا الصّلاح ومحبة العالم كلّهُ. فالشّرّ والخطيئة والحقد تختفي وحدها، ولا تستطيع البقاء إذ ليس لها

مكان". وقد شعرت بأنّ الشَّيْخ كان يكلمني لا على محاولة حسنة جزئية منّا ، بل على عبور محدّد وحازم من حياة الخطيئة القديمة إلى حياة القداسة الجديدة، التي بها نحيا في المسيح والمسيح يحيا فينا، ومن أجل هذا العبور يطلب منّا أن نكرّس كلّ قوانا. وسألني مرّة: "ألا قل لي، إذا أراد أحد أن يدرس المحاماة، كم يلزمه من السنين؟" أجبته. وعاد فسألني: "وكي يتخصّص في الهندسة، الكيمياء، الطب، كم يلزم من السنين؟ وأجبته بحسب كلّ من الاختصاصات متعجّبًا من طبيعة أسئلته. وانتهى الشَّيْخ إلى القول: "ونحن كي ندرس، وكى نتعلّم مشيئة الله، وكى نطبّقها، كم نكرّس من الوقت؟" فهمت ماذا يعني، وخجلت من الإجابة. ماذا أقول له؟ إنّ أغليبتنا نحن المؤمنين مسيحيّون متوانون وفاترون؟ كان يعرف هذا، وقال لي: لا يصير أحد مسيحيًّا وهو متهامل، لأنّ ذلك يتطلّب عملاً، وعملاً كثيرًا". كان هو ذاته مثلاً على ذلك، من دون أن يفرض نفسه. لقد كرّس كلّ سني حياته الطويلة كي يعرف المسيح ويحياه بكلّ غيرة. كان عاملاً نشيطاً، جسدياً وروحيّاً، وأراد أن ينقل حب العمل إلى الآخرين. وآمن بأنّ البطالة تقود إلى الإهمال، وهذا بدوره يؤدّي إلى أمراض نفسيّة وجسديّة جمّة. كان ينصح بالعلاج بوساطة العمل، وخصوصاً أولئك الفوضويّين واليائسين. لم يعتبر الشَّيْخ، بتاتاً الوقت متأخراً من أجل انطلاقة جديدة. بل اعتبر أنّ الوقوف في وجه الآمال العالمية وسحق الأنانيّة هما أفضل ضمانة لهذه الانطلاقة.

❖ مريم ومرتي

لم يكن الشَّيْخ يقدّر العمل فحسب، بل عرف أهمّيّته الكبرى. كنا مرّة مجموعة من عشرة زوّار، وكان الشَّيْخ يتحدّث إلينا كمجموعة في الهواء الطلق. كان يكلمنا على العمل. وفي أثناء ذلك سألنا: "ألا قولوا لي، لماذا مدح المسيح في الإنجيل مريم وليس مرتا؟ هل لأنّ مريم كانت كسولة؟" فاجأنا بسؤاله هذا، فلم يجبه أحد منا. وتابع الشَّيْخ: "كلا، لم تكن مريم كسولة، كانت مريم أيضاً مرتا،

كانت تحبّ العمل كمترًا، ولكن كان عندها شيء مهمّ فضلاً عن تلك: كانت تعرف أن تنظّم عملها بطريقة صحيحة، أن تجعل الأعمال الروحية قبل الأعمال المادية. كانت تعرف أنّه خطأ بالغ أن نهتمك باهتمامات مادية في الوقت الذي يكلمنا فيه المسيح. هناك الوقت المناسب لهذه الأشغال أيضًا. أمّا العمل الأول لتلك الساعة فكان سماع كلام الربّ، الذي كان يعطي قيمة لأعمال الخدمة المادية التي ستلي". في طريق العودة، كنت أفكر في أقوال الشيخ، التي كشفت حقائق واقعية، لا تُرى للوهلة الأولى. لم يكن الأشخاص العالميون فقط هم الذين أداروا ظهرهم للمسيح، كي يتمكنوا من "شراء الحقل"، بل الأشخاص المتدينون الممارسون أيضًا الذين أسرعوا لملاقاته ولم يستمعوا إليه، كي يتمكنوا من خدمته. وكثُر من المؤمنين ذوي الاستعداد الحسن، أمسكوا بالشبكة بنشاط خارجي كبير، وبغورور ذاتي ظنّوا أنّهم "بالأعمال يُزكّون". إنهم لا يسمعون المسيح ولا يفهمونه، وعلاوة على ذلك، يحتجّون على أولئك الذين يكرسون وقتهم للصلاة. وكيف يقتنعون بأنهم في خطر مشابهمهم الفريسيّ الذي عدّد لله أعماله الجيدة، وكان جاهلاً عجباً؟ وبأنّ الأعمال الحسنة وحدها، من دون روح التتلمذ المتواضع، تضحي البرهان القوي الذي يخفي روح الكبرياء عندهم؟ وبأن العديد من المُحلّقين في الحياة الروحية محبّي الرهبان يقومون بأعمالهم سرّيًا، وعلى الرّغم من ذلك يعتبرون ذواتهم "عبيدًا بطّالين" وهم يطلبون بتواضع رحمة محبة المسيح؟ وبأنّ الصّلاة ليست عملاً من الأعمال، بل هي العمل الواحد الذي تحتاج إليه والذي لا يشكّل مجرد وسيلة، إنّما هو هدف الحياة، "النّصيب الصالح"، واقتناء الرّوح القدس؟

❖ محبة الشيخ الواسعة

كان الشيخ محبًا للعمل أكثر من مرتا، وقد شابهه كثيرًا مريم، لأنّه بجلوسه "عند قدمي يسوع يسمع كلامه"، كان يتحدث بلا انقطاع معه، ولهذا

أصبح مسكنًا للروح القدس، وكان مفعماً بثماره الغنيّة. وأولى ثماره كانت محبته. محبة حقيقية غير مصطنعة. بلا مصلحة، حنونة، وأقوى من الموت، أعمق وأوسع من المحيط، تحتضن كل إنسان بلا محاباة، وتحتضن العالم بأسره. كانت كمحبة المسيح كما يصفها بولس الرسول في نشيد المحبة. وبنعمة المسيح، كان الشيخ يتكلّم سرّيّاً "بألسنة الناس والملائكة"، كانت عنده نبوءة ويعرف "الأسرار كلّها" تقريباً، وحاز "معرفة كلّ شيء وكلّ الإيمان حتّى ينقل الجبال"؛ ورّع "كلّ ممتلكاته" و"أعطى جسده ليُحرق" في نار تجاربه المتنوّعة طول حياته، وعمل هذه كلها لأنّ "عنده المحبة". كانت محبته شهمة، جّوادة. لم يكن يحسد، ولا يخيف، ولا يتكبّر ولا يتباهى، لم يكن أنانيّاً ولا غصوباً، بل كان غير حقود، يحزن للظلم، ويفرح لسيادة الحقيقة. أحاط بكل شيء، كان أميناً في الكل، وتمنى الخير للكلّ، وتحمل كلّ شيء. لم تسقط محبته أبداً، بل استمرت قائمة دائماً، لكي يرتفع في النهاية من الأرض إلى السّماء حيث يقابل المحبة الأبدية "وجهاً لوجه".

❖ ثمار الروح أيضاً

بالإضافة إلى محبته، كانت ثمار الروح القدس "الساكن فيه" ظاهرة. الفرح المنبثق من الصّليب والقيامة، الذي أزهّر كالسوسن في وسط أكثر عواصف حياته الجليدية، كان ينقله الشيخ إلى كل زائر حزين. وكان السلام، على الرّغم من كلّ الإزعاجات الخارجيّة المحيطة به، سائداً في داخله غير متقلقل، وقد جذب آلاف النفوس الذين كانوا يأتون لنيل السلام بالقرب منه. وطول أناته كانت كالبعج المجروح تغطّي بحنان أولاده الرّوحيين، حتّى ولو كان هؤلاء ينقرونه بلجاجة. وحسن طويته الدائم يجردّ المرتاب من ظنونه. ولطافته كان يؤزّعها على الجميع، بيد مبسّطة، عطايا غنيّة، روحية وماديّة. وإيمانه بالمسيح غير المتزعزع وأمانته التي لا شائبة فيها وتأثيرها في كلامه وأعماله.

ووداعته إزاء الإزعاجات الأكثر إغاضةً وإلحاحًا. وإمساكه النَّسَكِيَّ، حتَّى في متطلبات النَّفس والجسد الَّتِي لا غنى عنها.

أضحى حضور الرُّوح القدس في حياته ظاهرًا لأنَّه كان يملأنا تعجُّبًا باستمرار، ونحن نراه ينساب بهدوء "في حزن كثير في فرح الرُّوح القدس". وللتعبير عن سلوكه في عيشه، كان يستطيع أن يقول مع الرَّسول: "لذا أُسرَّ بأوهاني والضيقات والإضطهادات والأحزان من أجل المسيح".

لم تكن قداسة الشَّيخ تحلَّق في سحب أحلام وردية، بل كانت تطأ أرضًا صعبة، أرض التجارب والأحزان. ولهذا كانت واقعية ومقنعة. كان يقنع المشككين، ويوتِّخ غير التائبين، ويعلم ذوي الاستعداد الحسن، ويحسن إلى الجميع. كان الشَّيخ يحبَّ القديسين جدًّا لأنَّه معهم يتطابق ويتوافق روحياً، كان صديقهم، يفهمهم ويفهمونه. كانوا يلهمونه ويريحونه.

لم يحسد الآخرين على ما كان يراه فيهم من خير، بل على العكس كان يسرَّ من أجلهم وكأنَّ الأمر يخصُّه. فالقديسون لا يحسدون، بل يفرحون من أجل الخير الَّذِي يعتبرونه "ملكًا عامًّا" وهبةً من الله لجسد الكنيسة الواحد.

إنَّ الشَّيخ، وهو مسن، لم يكن يستصعب الانحناء أمام شابٍّ قد بلغ القداسة، إذ ليس للقداسة سنٌّ، بل لها قامة الله. إنها أبدية.

كان الشَّيخ نبياً جدًّا، ولكن غير مآكر البتة. لم يكن عنده ذكاء النَّاس العالميين، الَّذِي يوازي الحنكة والخداع. كان عنده صحو القديسين الَّذِي يوازي "الحكمة بحسب الله" الَّتِي تعرف كيف تفضِّل اللؤلؤ على النفائات. إنَّ الشَّيطان مكار، ولكنَّه غير فطن، فهو غبي بما يأتيه من غباوة، وكذلك هم كلُّ تابعيه.

كان الشَّيخ دائماً عقلاً، وغالبًا فائق العقل. لكنَّه كان يتجاوز المنطق دائماً. كان منطق الشَّيخ يؤلِّف واحة للاحترام البشري. وكثير من العقلايين، بسماعهم أخبارًا عن آراء الشَّيخ، كانوا يقولون: "هذا يستطيع أن يقوله أيُّ إنسان منطقي". طبعًا يستطيع، مع الفرق أنَّ آراء الإنسان المنطقي يمكن أن تُنقض بما يتولَّد بعد ذلك من أحداث تفوق العقل، بينما آراء الشَّيخ تتأكَّد بها.

ونلاحظ دائماً حسن الاعتدال عند الشيخ. كما نلاحظ المسلك اليقظ، المستقيم الرأي، المعتدل، الذي لا يميل إلى تجارب الشيطان التي تأتي من اليمين أو من اليسار. وفي حياته فهم معنى القول "أن تكون مستقيم الرأي هو أن تكون متيقظاً دائماً".

❖ إخفِ فضيلتك

كان الشيخ ممتلئاً بثمار الروح، وكان يهتم بإخفائها لا بإظهارها. كانت كلماته غير متكلفة، مهذبة ومتلعة، حتى أنك غالباً ما تستهين بها ولا تعتبرها مهمة لتسترعي انتباهك الخاص. وقد طبق القول الأبائي "إخفِ فضيلتك"، وهكذا، إن لم تتضع، لا تستطيع إدراك القيمة الثمينة التي يخفيها، ولا تستفيد روحياً. ولسوء الحظ، كنا، في أكثر الأحيان، نذهب لمقابلته من دون أن نستعد مسبقاً، أي نذهب بكبرياء، حتى وإن كان كبرياء "مهذباً" ناعماً، لأننا، مخبأ تحت ادعاءات وأشكال من التواضع.

❖ مظهر فقير وغنى خفي

لم يكن مظهر الشيخ الخارجي يعكس صورته الداخلية. فمن الخارج، كنت ترى شيخاً عادياً، هزياً، قليل العلم، لا أهمية له. بينما بقليل من الحس الداخلي تدرك أنك أمام إنسان لله غير عادي، قوي، حكيم وذو شأن، وقد أخفى عن قصد شخصيته المنيرة، كي لا يسودها الشيطان بأفكار الكبرياء. لم يكن الشيخ يتباهى بنفسه ولا يعتد بانتصارات حياته، ولو أنها تشكل ظفراً

بطوليًا في ميدان نكران ذاته. حتّى عندما خرج من احتجاجه الطويل الأمد، واكتشفه مئات البشر وهرعوا لاستشارته، بقي هو محافظًا على تواضعه الرّوحيّ. لو كان إنسانًا عالميًا، لشعر كثيرًا بالوحدة، لكونه بقي من دون صحب في ارتقاءاته الرّوحيّة. بينما، لكونه قديسًا مسيحيًا لم يشعر بالوحدة، إذ كان بمقدوره أن يكون مع حبيبه المسيح وجميع القديسين. كان ذا تواضع كثير، حتّى انه كان ينسب كل مواهبه إلى الله. وكان ذا محبة جمّة حتّى أنّه كان يتنازل ويحتضن كلّ خاطئ ساقط.

❖ تمييز حكيم

كان الشّيخ ذا تمييز بالغ ودقيق، حتّى أنّه كان يعرف متى يصمت أو يتكلّم وبأيّ مقدار، ويعرف أيضًا ماذا يقول أو ماذا يفعل في كل حالة. كان يقدر على أن يميّز بوضوح وأن يفرّق بين أفعال الله وأفعال الشيطان، حتّى يزبل التشوُّش الذي زرعه الشياطين بتصميم كي توقع في فخ الضلال أو الهرطقات نفوسًا لا تظنّ السوء.

❖ متعلّم من الله

لم يتعلّم "حكمة هذا العالم" كي يعتمد عليها، ولم يكن قد أنهى المرحلة الابتدائية من دراسته. لم يبتدع نظريّات خاصّة به في العالم والحياة. وعندما كان النّاس يستشيرونه في مشاكلهم، كان هو بدوره يطلب المعونة من الله بالصّلاة. كان يبسط نفسه أمام الله كورقة بيضاء نقيّة كي يكتب الله رسالته، وبعد ذلك كان الشّيخ يملئها بتواضع. كان يتكلّم بالصدق عندما يقول إنّّه لا يعرف كيف يتكلّم، وإنّه لا يعرف شيئًا. لم يكن مشعًا من ذاته، ولا متعلّمًا على

ذاته، ولا مشرّعًا بذاته. كان يستضيء بالله، ويتعلّم من الله، ويعتمد على الله في كلّ شيء. قدّم نفسه لله بمحبّة لا تحفّظ فيها، بلا تردد، ومن دون الاحتفاظ بهوى الأناء، وقد قابل الله عطاءه الذاتي فظلّله كليًا بمحبّته وجعله أداة له مختارة، حتّى أنّنا كلّنا نحن الذين حالفنا الحظ بمعرفته كنا نتمتم من وقت لآخر "عجيب الله في قدّيسه". في حياة الشّيخ، كان الإنسان يتقلّص كي ينمو الله داخله. وهو كان قادرًا على ان يقول مثل القديس يوحنا المعمدان: "له ينبغي أن ينمو ولي أن أنقص" (يو ٣: ٣٠).

❖ كان يستقبل الكلّ

كان يزور الشّيخ أناس من مذاهب دينيّة وإيديولوجية مختلفة من غير الأرثوذكس: باباويون وبروتستانت. ومن ديانات أخرى: مسلمون وبوذيون وعبّاد أوّثان ملحدون وماديّون، أنسيّون، عقلانيّون، أتباع نيتشه، ماركسيّون، وأتباع فرويد، عدميّون، ماسونيّون وشهود يهوه وكثيرون آخرون. كان يواجه الكلّ بمحبّة ويقدم للكلّ كلمة مرضيّة بناءة. وقد وجد طريقة خاصة به لكي يواجه كل واحد. وبنهجه، خصوصًا غير الأرثوذكس من المبتدعين والمضللّين، وأكثر من ذلك "أولئك الأرثوذكس العائشون في جوّ العبادة الأرثوذكسيّة الذين مالوا عن طريق الممارسة المستقيمة وساروا في ممرات المذاهب المنحرفة. وكان الزائر يشعر بالقرب من الشّيخ بحرارة ابتهاج خشوعي يبنع نقيًا من روحانيته السّوية، المؤسّسة على محبّته المتواضعة في المسيح وحرّيته المسؤولة.

❖ كان يحترم الجميع

كان الشّيخ يحترم فرادة شخصيّة الآخر لأنّ الآخر هو "صورة مجد الله الذي لا يوصف، وإن كان حاملاً آثار الزلّات". كان يستقبله كما هو، حتّى ولو كان

مشوّهاً بالخطيئة. لم يعمل على تغييره بالقوّة، بل كان يصلي سرّاً كي يرغب ذاك في التغيّر ويحبّ المسيح. وعلى الرّغم من كونه في مستوى عال جدّاً ويرانا نحن ندب على الحضيض، لم يصر ساحقاً للطباع، ولم يشأ تسييرنا مثله كي يجعل منّا صورة طبق الأصل عنه. كان يحترم حريتنا حتّى في اختياراتها السيئة، مصلياً أن تصبح أفضل عبر عملنا الذاتي. كان لديه كلّ السهولة كي يتبصر مستقبلنا، ويذهلنا بمواهبه، وكي يؤثّر فينا في العمق ويضعنا بسهولة على الطريق الّتي يريد، ولكنّه لم يفعل هذا، مفضلاً أن نختار نحن طريقنا بحريّة ومسؤوليّة. كان يتمنّى أن نرتفع عاليًا وندنو منه، كي يستطيع أن يشاركنا المواهب الغنيّة الّتي حبه إياها النّعمة الإلهيّة. وكان يرى أنّنا نحن أيضًا نريد أن نوجد عاليًا بالقرب منه ولكن من دون أن نتعب، هكذا براحة، كما بسحر ساحر. كان يأسف جدّاً لهذا، ولو أنّه لم يقله لنا بوضوح، وتركنا هناك حيث نحن حتّى نفهم ونتحمّس ونسلك ممرّ الصعود. وقد كشف لنا بطريقة غير مباشرة هذه الحقيقة.

❖ أنا لست منجّماً ولا نبياً

قال لي يوماً: "أنا لست منجّماً ولا نبياً. لا أقول إنّي رأيت والدّة الإله، وإنّه ستحدّث حرب. أنا خاطئ كبير وأصلي بتواضع إلى المسيح أن يرحمني". كانت جملته الأخيرة تشكّل العجيبّة الكبرى في حياته، فيما نحن لم نكن نراها. بهذه العجيبّة ارتقى سلّم القداسة درجة درجة سرّاً ومن دون جلبة، واستحق ان يسمع صوت المسيح: "أنتم أحبائي. إن عملتم ما أوصيكم به، لا أدعوكم بعد عبيداً، لأنّ العبد لا يعرف ما يعمل سيده. وأمّا أنتم فأحبائي لأنّي أخبركم كلّ ما سمعته من أبي". وكانت نتائج محبّته الكاملة معروفة عند أغلبيّة من كانوا يقصدون ديره.

❖ رسوليّ من منسكه

هكذا تحقّقت في الشّيح الظاهرة العجيبة في "التحوّل إلى العمل الرّسوليّ" عند القديسين الأرثوذكس. فقد كُتب: "إنّ النّاسك الأرثوذكسيّ لا يخرج كي يخلّص العالم، بل يبتهل إلى الله سرّيّا كي يخلّص الله العالم". لم يخرج الشّيح إلى العالم ليكرز، انحجب عن العالم كي يتكرس بكليّته من دون تشتت لعبادة الله. وهكذا جعله الله مسكنًا لمواهبه الّتي أضحت معروفة كفاية عند القليلين، كي تُعلن بواسطتهم لكثير، على الرّغم من تحذيراته.

لم يعارض الشّيح الكرازة والعمل الاجتماعيّ المسيحيّ، بل على العكس، كان ينصح بهما بحماس، فالمسيح قال لتلاميذه: "إذهبوا وتلمذوا كلّ الأمم". كما وأنّ أيّ مسيحيّ صادق غير متحيّز، وأيّ عامل اجتماعيّ لا يعارض طريق التّوحد النّسكيّ اليقظوي، لأنّها قد أينعت وأثمرت في تاريخ الكنيسة الأرثوذكسيّة. لم يقصّ الشّيح أحدًا عن طرق التّقديس والخلاص المتعددة، بل كان يساعد كلّ واحد بطريقة فعّالة على اختيار أفضل ما يوافقه.

❖ كمال، مثابرة، اعتدال

بنعمة المسيح أضحى الشّيح مرشدًا روحيًا ناميًا في قدراته إلى أقصى الحدود. فبعض الآباء الرّوحيين يتوجّهون أكثر، بحسب طباعهم وميولهم، إلى ذهنيّة أبنائهم الرّوحيين، وآخرون إلى شعورهم وآخرون إلى مشيئتهم. أما الشّيح فكان يتوجّه "دائرّيًا" فيلبّي هذه الخواص الثلاث للنفس الإنسانيّة ويزيد عليها شيئًا أعمق وأقوى، لا يعبر عنه، إذ إنّّه ليس "من هذا العالم".

إنّ كلّ ما عمله، عمله بطريقة صحيحة، لأنّه عرف أنّ "السّيء الجيّد ليس جيّدًا إن لم يعمل جيّدًا". كان جدّيّا في كلّ أموره وعاملاً بالمحبّة، من دون أن يصبح قطّ سكولاستيكيا مبالغًا في التمسك بالشكل. عندما كان يقوم

بخدمته الكهنوتية، وينصح، ويسمع، ويشرب الماء، ويتناول طعامه البسيط، ويشعل مدفأته التي صنعها بنفسه، ويشغل كعامل، ويتمسّى بين الأشجار، ويعمل أي شيء، حتّى ولو كان تافهًا، كان ينشر عرف التواضع النبيل، والانسجام، والاعتدال، والفرح السريّ العميق، والخشوع، والقداسة.

لقد سلك طريق الآباء المستقيم والمعتدل، بعيدًا عن التطرف. لم يكن متحمسًا متهورًا، ولا مجددًا مبتدعًا، لقد رفض بشدّة التطرف غير المستقيم، وكان يصليّ من أجل الواقعين في فخه. كان أرثوذكسيًا بالمعنى الحقيقي للكلمة لا بالمعنى المشوّه.

❖ مساعد حقيقيّ

كان معينا ومعزيًا كلّ نفس منكسرة تلجأ بسبب الخطيئة إلى ميناء قلايته. وكان على استعداد دائم لا ليعزي بشكل حسيّ فحسب، بل ليضيحي بذاته من أجل كلّ متألّم وحزين. لم تكن مساعدته ظرفية وسطحية، بل عميقة وجوهريّة. كان يعرف أنّ الاحزان ليست نتيجة الأحداث المؤسفة أو "ملاحقة النصيب السيّء" لأنّ ما من شيء يحدث صدفة في حياتنا. فبتعاليمه الحيّة جعلنا نفهم أنّ "أحزاننا تعود إلى غياب المسيح عن عمق نفسنا وإلى تأثيرات شيطانية، إلى خطايانا"، وإلى "كبرياننا المجروح" من أعمالنا السيّئة التي لا تشكّل نتائج أنيّة، آليّة وخارجيّة، أو أحوالاً سيّئة، أو تعرّضنا لظرف سيّئ"، بل هي ثمار طريقة العيش، ونتيجة استسلامنا الطوعي والداخليّ لرغبات سيّئة لفترة طويلة من الزمن. هناك في عمق نفسنا الخفي، تتولّد أعمالنا السيّئة، التي وإن كان ثمة ما يعوقها عن الظهور إلى الخارج، إلّا أنّها تتمّ داخليًا. ان المسيح، في عظته على الجبل، يكشف الجذور الداخلية لخطايانا الخارجية، التي إن لم نحاربها من الداخل فسوف تلوّثنا بجملتنا.

❖ متواضع حقيقيّ ومستعد

كان الشَّيْخ مستعدًّا استعدادًا كليًّا "لوقت خروجه". لأنَّه خلال السنين الست والثمانين من حياته كان يقول "نعم" في كلِّ مناسبة محبةً يقدِّمها له الرَّب. وهكذا في نهاية طريقه الأرضيِّ، كانت هذه النِّعم قد "تكاثرت كرملة البحر". بسبب بذل الذات الناتج عن محبته، تختلط عليك الأمور عندما تقارن بينها وبين محبة المسيح التي لا تقاس لكلِّ واحد منّا، وتحرك فيك شعورًا بالمعروف تجاهه (أي تجاه المسيح). بمحبته هذه اقترب كثيرًا من المسيح، ولهذا عرف حالته الخاطئة، إذ قارنها بعدم خطيئة ذاك، ومن هذه المعرفة نبعت معرفة الذات العميقة لديه وتواضعه غير المصطنع.

❖ جدِّي وفرح

كان الشَّيْخ جدِّيًّا وفي الوقت ذاته فرحًا. كان قادرًا بطريقته المميزة على ربط عناصر، هي عادة متناقضة في العالم، والتوفيق بينها. ولكونه جدِّيًّا حقيقةً، لم يكن عنده أية برودة أو عبوسة أو حزن في تصرّفاتِه. ولكونه فرحًا لم يكن عنده أي شيء من السطحية، أو الخفة أو عدم التبصّر. كان يُشعرُك بالاحترام مع انتعاش نفسيٍّ وأنت بالقرب منه، وبفرح الخلاص مع حزن التوبة، أي الحزن البهج الحقيقي.

❖ متليّ إنسانيّة

بما أنَّه أحبَّ المسيح كثيرًا، فقد أحبَّ الإنسان أيضًا، ولذلك كانت تفوح، من كلِّ كلمة يقولها ومن كلِّ عمل يقوم به، رافة عميقة. كان الشَّيْخ قادرًا

على أن يعيش مستوى قداسة سامية في صداقة شخصية واحترام وسط مناخ إنساني طبيعي وغير ضاغط وحرّ.

❖ غير هيّاب

على الرّغم من أنّ الشّيخ كان مريضاً جدّاً، إلّا أنّه كان لا يخاف. لم يعرف معنى الخوف لأنّه أحب المسيح كثيراً، و"ليس من خوف في المحبّة، لأنّ المحبّة الخالصة تطرد الخوف خارجاً، لأنّ في الخوف العذاب. والخائف غير مكملّ في المحبّة" (١ يو ٤:١٨). كان يستطيع أن يقول مع نساك البريّة الأقدمين "لست أخاف الله لأنّي أحبه". لم يرتعد أبداً لا من جرم النّاس، ولا من وحشية الحيوانات، ولا من هول الأمراض، ولا من شقاء الشّيخوخة، ولا من وعيد الموت، ولا من أي شيء مرعب، لأنّه كان قد أودع ذاته في كنف محبّة الله الكلي القدرة، ولأنّه هو نفسه كان يحبّ الجميع وكل شيء. كان يجول بأمان "كحمل وسط الذئاب" لأنّه استطاع في المسيح أن يحبّ حتّى الذئاب. كانت محبّته تجرّد كل عدوّ من سلاحه، فيشعر هذا الأخير أنّ عداءه ينثني أمام قوّة المحبّة السّلاميّة الّتي في المسيح.

❖ في معرفة تامّة للجسد والنفس

قال لي يوماً: "إنّ مذهب النيقولاويّين الجدد الظاهرين في عصرنا ينبع من بدعة الغنوصيّة". لم يكن الشّيخ قد تعلّم على مقاعد الدراسة، ولكنّه عرف تاريخ الكنيسة في العمق. إنك ترى في تعليمه وفي حياته توافق ما هو جسديّ مع ما هو نفسيّ، وتوافق الماديّ مع الرّوحيّ، وكلّها متقدّس في نعمة الرّوح القدس.

كان الشَّيْخ يحبّ الإنسان بكلّيته كوحدة نفسيّة - جسديّة لا تنفصم. وهذا ساعده على أن يتقدّس. عرف الارتباط المباشر بين النّفس والجسد، عرف مرض الإنسان النّفسيّ - الجسديّ "المستوطن"، وعرف علّته الّتي تسبّبها أهواؤه لخاطئة، وكان يجاهد كطبيب نفسيّ ماهر من أجل شفائه بواسطة التقديس، لا بالطريقة العلميّة طبعا، بمعناها المعهود، بل بعلاج جوهريّ. بهذا المعنى، كان الشَّيْخ طبيبا نفسيا حقيقيا لا يُقارَن، وعالما ومحلّلا ومعالجا نفسانيّا. ولديّ شهادته الشّخصيّة في هذا الشأن. ذات مرّة كنا نتكلّم عن المشاكل النّفسيّة الصعبة الّتي كان اصحابها يأتون اليه، ففوجئت عندما سمعته يقول لي بتواضعه الّذي لا شكّ فيه: "أتعلم، عندما يذهب النّاس إلى أطباء مختلفين ولا ينالون الشفاء، يقولون في التّهاية: فلنذهب الآن إلى البروفسور. وكان الشَّيْخ بروفسورا بالفعل في معرفة النّفس وشفائها. لم يعمل سطحيا، بل نفذ إلى العمق. وعلم أعماق النّفس، الّذي يؤلف لغزا صعبا بالنسبة على العالمين، كان أمرا واقعا مدرگا وسهلا بالنسبة إلى الشَّيْخ. وربّما كانت الهبة الكبرى الّتي يمنحها لزارئيه هي توعيتهم على أهوائهم الخاطئة غير الواعية، وكانت هذه التوعية تقودهم إلى توبة عميقة.

من المعلوم أنّ الكنيسة تصليّ من أجل غفران "الخطايا الطوعيّة والكرهيّة، الّتي بمعرفة والّتي عن جهل". ولكن قلّما يُعرف مقدار تفاعل هذه الخطايا بعضها مع بعض. فبأيّ مقدار يزيد عدم مبالاتنا في مواجهة خطايانا الطوعيّة، والّتي بمعرفة ويُقوّي الخطايا الكرهية، والّتي بغير معرفة والّتي تعمل في عمق اللاوعي المظلم الآمن والخفي. وكم هي أخطر الخطايا الثّانية بالمقارنة مع الأولى؟ لقد كان الشَّيْخ قادرا عبر معرفته لذاته وللآخر على أن يُصعد إلى منطقة الوعي خبراتٍ من الأهواء النّفسيّة جارحة ومبعدة وغير مدركة، وهي مثل "تنانين الهاوية" و"ساكني مغاور الأرض" تعكّر من وقت إلى آخر الوجه الهادئ "والسطح اللطيف المعيّد". كان الزّائر يعاني من هذه الانزعاجات من دون أن يعرف السّبب، وكان الشَّيْخ يكشف له العلة ويدلّه على العلاج.

وقبل قرون من اكتشافات علم النفس التحليلي الضئيلة كَشَفَ الكتاب المقدس هذا الأمر: "القلب عميق فوق كل شيء والإنسان هو هو فمَن يسبر أعماقه؟". "القلب العميق"، عمق النفس، ليس له حد. هذا الكيان النفسي العميق يؤلف وجود الإنسان الجوهري. من يستطيع أن يعلم هذه الأعماق الغائرة سوى خالقها، أي الله، وقدسيه أيضًا، الذين أعطاهم قدرات على معرفة النفس تشابه قدراته؟ كان الأب بورفيروس أحد هؤلاء القديسين.

❖ تشخيص تعارض كلام الملاحظة مع الشعور الحقيقي الواقعي

زرتة يومًا مع أحد معارفي فاستقبلنا كلينا معًا في قلايته. في سياق الحديث، كلمه قربي عن التقدير الكبير الذي يكنه لي. كان الشيخ ينظر إليه، ثم أخفض رأسه ولم يقل شيئًا. بعد قليل، انصرفنا. وفي زيارتي التالية كنت وحدي، فقال لي الشيخ: "إنني أفكر في ذاك الذي أحضرته إلي من معارفك وقد تكلم بسرور على التقدير الذي يكنه لك. هل تعلم ماذا رأيت في أعماق نفسه، في اللحظة التي كان يتكلم فيها؟ إنه ينفر منك ويمقتك". صعقت من هذا الكشف الذي لم أكن أستطيع تصوّره البتة. وتابع الشيخ: "لكن انتبه، إن ما رأيته موجود في لاوعيه. أفهمت ما هو اللاوعي؟". أجبته بما أعرفه عن هذا الأمر. أضاف: "وبما أنّ هذا يوجد في لاوعيه، فهو لا يعرفه. عليك أن تنتبه جيدًا لما أقوله لك". وعندما عدت إلى البيت، انتابني شعور بالحزن والغيب بسبب تصرف هذا الإنسان المنفصم ذي الوجهين. بما أنّه يمقتني من أعماقه، من أجبره على التقرب مني، وخصوصًا على الاعتراف أمام الشيخ بتقديره لي؟ ألن يكون من الأوفق أن يبتعد عني ليكون منسجمًا أكثر مع شعوره العميق؟ مرّت ساعات وأنا مغتاظ. وفي لحظة ما، بدأت أفهم معنى تنبيه الشيخ: "انتبه! فهذا

موجود في لاوعيه، إنه لا يعرفه". وفي الواقع، كان هذا الإنسان على الصعيد الواعي يقدرني جدًا ويبدى ذلك ويشعر بالتوافق معي. أمّا مشكلة التعارض في ذاته فإنها مخبأة في لاوعيه. لذا، يجهلها. إنّ يقيني هذا الذي اوضحه تنبيه الشيخ جعلني أهدأ. وقبلت هذا الإنسان كما هو. وحافظت هلى موقفى اللائق تجاهه ثابتًا كما كان في السّابق. ولمّا قابلت الشيخ، فيما بعد، أوضح لي ما يختصّ بهذا الشأن: "إنّ هذا الذي رأيته في لاوعيه قديم، إنّه جرح شيطاني". وعن سؤالى ان كان يمكن ان يتغيّر بتقدّيسه، أجابني: "بالقداسة يتغيّر الإنسان، وتزول الجراح النّفسيّة. إنّ أطباء النّفس اليوم يسمّونها أمراضًا نفسيّة، بينما هي في الواقع تأثيرات شيطانية مردّها الخطايا". فضّلت ألا أقول له شيئاً عن كشوفات الشيخ، لأنّي خفت من أن أسيء إليه بدل ان أنفعه. وماذا أقول له؟ كانت الجذور عميقة جدًا، حتّى أنّ كلماتي لم تكن قادرة على الوصول إليها. اكتفيت بالصّلاة السريّة من أجله. الشيخ وحده كان قادرًا على أن يكلمه منبهاً اياه، عندما يحين الوقت المناسب، حتّى يوقظ لاوعيه. وفكّرت في عدم وجوب حصر المشكلة في هذا الإنسان وحده، لأننا كلنا، باستثناء القديسين، لدينا مشاكل مشابهة من دون أن ندري. وفي عدم اكترائنا لمحو كثرة خطايانا الطوعيّة التي بمعرفة، نكديس في "المستودع المقفل" للاوعينا الكثير من الخطايا الكرهية التي بغير معرفة، والتي تتفاعل من هناك فتقهر النّفس. لا يعرف أحد إلى أيّ حد يمارس الإنسان دورًا تمثيليًا على حساب ضميره بارتكابه خطايا من دون أن يتوب، وإلى أي حد يلعب ضميره دورًا، وهو مسيّى بأهواء اللاوعي، على حساب الإنسان. وكلمات المصلوب "أيها الأب، اغفر لهم لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون" ربّما تلمّح إلى الحقيقة أيضًا. إنّ مجرمي الصّليب العاديين لم يعلموا ماذا يفعلون. كما أنّ السكران في وقت سكره لا يدري ماذا يفعل، بينما يعلم في أوان صحوه أنّه إن استسلم إلى تجربة الكحول طوعيًا وبمعرفة سوف ينجّر إلى انحرافات ثقيلة كرهياً وبغير معرفة ويكون مسؤولاً عن استسلامه هذا. وإن لم يتوقّف هذا الاستسلام، يمكن أن يقود إلى أبعد بكثير من سكر الكحول، إلى سكر الخطيئة ثمّ إلى تسمّم اللاوعي بالأهواء هكذا لا يعود الضمير يدرك الشرّ

الذي يعمله. إنّ الفريسيين الصالبين كانوا منتصبين تحت الصليب" غير مرتابين، هادئين وسعداء" بسبب عملهم، فيما كانوا، قبل ساعات قليلة، مهتمّين بأن يبقوا "أنقياء". لذلك "لم يدخلوا إلى دار الولاية كي لا يتنجّسوا ولكي يأكلوا الفصح". كان يزعجهم دنس دار الولاية الوثنيّ، ولم يزعجهم دنس الصلب الذي قتل الإله. قد رأوا النجاسة الأولى، أمّا الثانية فلم يروها. ليس فقط لم يروها، بل ظنّوا أنّهم في صلهم المسيح "يقدمون عبادة لله".

❖ كلمات بأمثال

كانت بعض أقوال الشيخ غامضة، وهو غالبًا ما كان يفضل التكلّم "بأمثال" بسبب تمييزه الرعائيّ. بعض أقواله هذه كان يُفسّر بالأحداث التي تلي، وبعضها كان يبقى قيد الكتمان، على الرّغم من مرور السنوات، ربّما يتحقّق من دون أن نعي، أو قد يتحقّق في الحياة الأخرى، حيث لا نعود نرى في "مرآة في لغز" (١ كو ١٣: ١٢)، بل "وجهًا لوجه".

❖ بركة صامتة

كثيرًا ما كان الشيخ يستقبل زوّاره فيعطهم البركة من دون أن ينطق بكلمة. كان البعض يأسفون للغاية ويشعرون كأنهم قد أهينوا، على الرّغم من أنّه كان معروفًا عن الشيخ دقّته في التّمييز، حتّى أنّه لم يكن يهين أحدًا، ولا حتّى ولدًا صغيرًا. كان هناك سبب لصمته يعرفه هو، ولكنّ الزوّار يجهلونه. من آمن بهذا، كان يغادر بسلام، متأكّدًا من أنّه نال بركة صامتة. كانت هذه بركة مميّزة، إذ نالها أناس لديهم تواضع ليقبلوا من الله بشكر كلّ شيء عبر الشيخ،

حتى ما يبدو غير مرضٍ، من دون أن يتذمروا أو يسألوا لماذا، ومن دون أن يريدوا إشباع فضولهم.

❖ تفاسير مفصلة

على العكس، ثمة حالات كان الشَّيخ فيها كثير الكلام مع زوّاره، مظهرًا لهم الكشوفات أيضًا. والسّرّ الذي لا يُفسَّر كان أنّه، بنعمة الله، يميّز الارتباكات السريّة الداخليّة العميقة لنفس كلّ إنسان وقيّمها، وهي قد تكون مجهولة عند من يهيمه الأمر، فاتحًا له بالمقابل، إلى حدٍّ ما، باب الكشف والارتقاء الإلهي. مرة، بشكل استثنائيّ، حدّثني عن الموهبة الّتي منحه إيّاها الله وهي أنّه "يرى" ما لا يُرى طبيعيًا، فسألته: "كيف يحصل هذا؟". أجاب: "لا أستطيع أن أقول لك كيف يحدث هذا."

❖ تعاطف ومساعدة

لم يقتصر الشَّيخ على النصّح "من العلّاء"، بل كان يحمل الصليب مع النّاس في مشاكلهم، وينزل معهم إلى جحيم أهوائهم الخاطئة كي يحرّزهم منها ويكرّز لهم بتواضع عن قيامة نفوسهم. كان يتألّم معهم من دون أن يتمثّل بهم. وغالبًا ما كانت تصل هذه الرّأفة الأبويّة إلى حدّ التضحية بالذات. وثمة حالات كثيرة أخذ فيها الشَّيخ على عاتقه أن يتحمّل شخصيًا عن أناس متألّمين ومخدولين، ليس لهم من يحميمهم، أعباءهم المعيشيّة. كان يجد الوقت للقيام بهذا، على الرّغم من كثرة الزّوّار والاتّصالات الهاتفية وأعمال الدّير وتفاقم أمراضه. هذه المظاهر العديدة لتضحياته الذاتيّة التلقائيّة ومحبّته الشّخصيّة كانت تحرّك حتى المرضى الغارقين بمحبّة ذواتهم.

❖ رزانه ووعي

كان دائماً حكيماً. خلال كل سني معرفتنا، لم أسمع منع، ولا مرة، كلمة خفيفة، ولا شاهدتُ تصرّفاً غير رزين. كانت كل تصرّفاتهِ لطيفة ومترنة ومعندلة. والأهم من ذلك، أنها كانت طبيعية وحرّة وعفوية. كانت رزانه تتدقّق بهدوء، كما من ينبوع ماء جيليّ صاف، من موهبة التّمييز المخبّأة في نفسه.

❖ عدم المحابة

كان مماثلاً لله في عدم محاباته للوجوه. وعلى الرّغم من وجود زوّار يتعبونه ويحزنونه، وآخرون يريحونه ويفرحونه، لم يميّز قطّ بين هؤلاء وأولئك، حتّى يهمل الأولين ويتعاطف مع الآخرين. كان منصفاً للجميع، ومحباً لهم بالتساوي، ومن الجائز أنّه أحبّ الذين يتعبونه أكثر بقليل لأنّهم كانوا بحاجة إلى محبة أكبر. وأحياناً كان يضطرّ إلى التوقّف عن الاستماع للناس بسبب التعب والمرض، إلّا أنّه عندما كان "يرى"، ببصيرته، نفساً بحاجة ماسّة إلى المساعدة في مشكلة مهمّة، كان يستقبلها استثنائياً، ولو على حساب صحّته. في هذه الحالات، غالباً ما كان يظهر تملّلاً لدى الزوّار العابرين الذين كانوا ينظرون إلى الامر خارجياً وبسوء نيّة. كان الشّيخ يدرك هذا الأمر ويأسف له. لكنّه كان يفضل أن يكون هدفاً للنقد المتجنيّ على أن يترك القريب المجروح بلا مساعدة. كان دائماً يتصرّف "كسامري صالح" لا "كلاوي" عديم الشفقة.

❖ المربيّ

كان فنّه التربويّ فريداً. فلم يكن استبدادياً ولا متسلّطاً حتّى يجعل الآخرين يتعلّقون به أو يصيرون تابعين له مستعبدين لشخصه مما يؤول بهم في

التهاية إلى الانتفاضة في سبيل الحصول على استقلاليتهم. كان يخلق عند الآخر جؤًا من الثقة وعدم الخوف إذ إنَّ محور تربيته كان الإله-الإنسان الذي يحيا فيه، فحاول بحماس أن يربط كافة الأنفس البشريّة بالمسيح، العريس السّماويّ وأن يكون هو وسيطهم للوصول إليه، مبقياً ذاته على الهامش وفي الظلّ، لأنّه عرف أنه هذه الطّريقة فقط يتحقّق الخلاص.

❖ بسيط وعميق

تميّز الشّيخ بالبساطة والعمق، على نقيض كثير، ولاسيما المتعلّمين ذوي الفضاظة والسطحيّة. كان يكشف للآخر الحقائق العميقة المتعلّقة بالإنسان والعالم بطريقة بسيطة وطبيعيّة جدًّا، حتّى أنّه، في كثير من الأحيان، لا يعيرها أهميّة خاصّة، فيفقد فرصًا نادرة لامتلاكها. فالمتشرب من روح المفكرين المتفذلّكين الذين يظهرون عادة أفكارهم المعتبرة حكيمة بتعابير ثقيلة. بالقرب من الشّيخ الوقور والبسيط والمتواضع، كان الزّائر معرّضًا لخطر الوقوع في فخّ كبريائه مما يشكّل عائقًا دون الاقتراب من طريقة عيش الشّيخ المتقدّسة.

❖ غذاء بسيط

كانت تصرّفات الشّيخ، حتّى الأكثر "ماديّة"، تنشر شذى روحيًا. ففي أحد الأيام، لما دخلت قلايته، وجدته يتناول غذاءه وهو جالس في سريره. باركني ودعاني إلى الجلوس وهو يتابع تناول طعامه. إنَّ رفعه الكلفة بيننا منحني فرحًا. جلست على الكرسيّ قباليته، ورحت أنظر إليه بصمت. كان مشهدًا مريحًا. كان يمسك بيده اليسرى فوق ركبتيه صحنًا يحوي حساء من خضار متنوّعة، وبيده اليمنى الملعقة، ويأكل منحنياً، صامتًا. بانتباه وتواضع وشكر كأنّه يشترك في سرّ.

في تلك اللحظة، تمنيتُ لو كنت أحمل آلة تصوير لتصوير المشهد، وعرضه على الأصدقاء فيما بعد، كنموذج لمشهد روحي بلا كلام تحت عنوان: قدّيس يتناول طعامه البسيط. فرؤيته كانت ستفعمنا بهجّة مردّدين قول ذاك الراهب الذي زار ناسكًا كبيرًا: "يكفيّني النظر إليك أيّها الشّيخ". ونحسّ سرّيًا بكلام الرّسول بولس: "إن كنتم تأكلون أو تشربون أو تعملون أيّ شيء، اعملوه لمجد الله". وهكذا نقارن تلقائيًا تلك الصورة النّسكيّة بصورة مائدتنا العامرة عادة بالأطعمة الفاخرة.

مع ذلك، مرّات عديدة، أعطى إرشادات، حتّى وصفات أيضًا، لأطعمة لذيذة وحلويات، وبّين بوضوح أنّه لا يريدنا أن نكون غير مباليين ومحرومين من أيّ شيء جميل تقدّمه لنا محبة الله.

❖ انتباه وصحو وصلاة

كان الشّيخ يحيا في صحو وصلاة دائمين. وكان، وهو يصلي، ينتبه جيّدًا إلى ذاته، وينتبه إلى محدّثه وإلى كلّ شيء. في بعض الأحيان، عندما كنت أتكلّم معه وأراه مريضًا وعينه مغمضتان، محرّكًا رأسه قليلًا (كمثل المصاب بالباركنسون)، وهو منحني في سريره وغارق في صلاته، كنت أتساءل: ترى هل يتابع الشّيخ ما أقوله له أم أنّه صامت يوحى إليّ بأنّه يوافقني؟ لكنّه كان يباغتني، وفي الحال يصحّح لي لحظة أخطئ في تفكيري أو أقول شيئًا غير صحيح، كمثل كمبيوتر روحي حسّاس يُشعل ضوءًا أحمر عند أدنى استعمال خاطئ.

❖ نوم عندما يشاء

كان أكثر الأحيان يسهر مصليًا. وكان يسهر أيضًا بسبب آلام أمراضه التي حوّلها بالصلاة من كرهية إلى طوعية. لهذا السبب، كان جسده المرهق يحتاج إلى قليل من النوم في ساعات مختلفة من النهار. غالبًا ما كنت أجده نائمًا عند دخولي قلايته. عندها كنت أجلس بالقرب منه بهدوء، وأستمع بالمشهد الخشوعي. وكنت أفكر: ها قدّيس حيّ، صحويّ، ينام بسبب مرض الجسد، بينما "قلبه مستيقظ" مصليّ. كنت أمضي بعض الوقت أنظر إليه. كان يستيقظ أحيانًا وتحدث، وأحيانًا أخرى لم يكن يستيقظ فأنصرف ماشيًا على أطراف أصابعي، أخذًا بركته سرّيًا. وأمّا ما خبّرتُه بحيرة واندهاش فكان المرات التي التقيته فيها صاحبًا إذ كنّا نبدأ الحديث بشكل طبيعيّ، وحين يصل الحديث بنا إلى أوج الاهتمام، كان يغمض عينيه وينام وقتًا لا بأس به. كنت أسرّ لكونه يستريح بالنوم، غير أنّي لم أكن أعلم ماذا أفعل، أبقى أم أنصرف؟ وعادةً كنت أبقى قليلًا ثمّ أنهض على مهل وأتجه نحو الباب. لكنني أحيانًا، كنت أسمع صوته: "أين تذهب، لا تنصرف، هيا نتابع ما كنّا نتكلّم به. لقد أخذني النوم، أمّها الولد، من دون أن أدري". أمّا أنا فأصبح لديّ انطباع أنّ الشّيخ كان ينام ويستيقظ بحسب إرادته.

❖ النسيان والحلّ

ما أدهشني أيضًا، كان تيقّني أنّ الشّيخ ينسى أحيانًا. كنت أذكره بأشياء قالها لي بنفسه قبل أيّام قليلة، وكان يجيبني بصدق مجرد: "أنا قلت لك هذه الأشياء؟ لست أذكر". وكان يقول الحقيقة. لم يرأ الشّيخ أبدًا، ولم يتّبع طريقة "الغاية تبرّر الوسيلة". وفي بعض الأحيان، كان يلاحظ أنّه يجب ألاّ يقول لك شيئًا ما لأسباب روحية، عندها كان لا يكشف لك كلّ الحقيقة، إنّما يكون ما

قاله لك حقيقياً. لم يكن يتذكّر دائماً، لكنّه، في حالات أخرى، كان يتذكّر بالتفصيل أشياء قالها لك منذ سنين. وقد فهمت أنّ الشّيح ضعيف كإنسان، لكنّه كان مذهلاً كأداة لله. وعلى الرّغم من كونه شبه أميّ، كان لديه رأي صائب في كلّ المواضيع العامة والعلمية تقريباً، استحقّ أن يكون إناءً مختاراً لله الذي يعلم كلّ شيء. وحياته تذكّر بقول الرّسول: "ولنا هذا الكنز في أنية خزفية ليكون فضلُ القوّة لله لا منا". ويدرّنا أيضاً بالأنبياء الذين كانوا ينطقون بأشياء عجيبة حين كان يكلمهم الله، بينما لم يكن في استطاعتهم النطق بشيء حين لا يكلمهم. ولهذا، عندما كان الله يسمح، لم يكن الشّيح ينسى فقط، بل كان يغلط أيضاً. وربّما شكّل هذا عثرة للبعض، إنّما يجب ألا يكون عثرة لأنّه يؤكّد الرّوح الأرثوذكسيّة. إذ ليس في الأرثوذكسيّة بابا معصوم عن الخطأ، ولا إنسان متفوّق. هناك فقط عصمة المسيح وسيادته وجسده الّذي هو كنيسته غير المخلوقة. وعندما كان الله يسمح ان يغلط الشّيح، ولو في حالات خاصّة ونادرة جدّاً، فلأسباب روحيّة سامية ذات فائدة للشّيح ولزوّاره. لكنّه عادة، لم يكن يغلط، وذلك لسبب بسيط جدّاً وهو أنّه لم يكن يتكلّم من خياله البشريّ، بل من خبرته الرّوحيّة المقدّسة. كان الشّيح يعلم هذا. وفي أحد الأيام، ذكرت له بتردد انتقاد بعض الأشخاص رأيّه في مسألة معيّنة. وقد أبدى الشّيح اهتماماً شديداً، وشجّعني بكلّ تواضع على أن أتكلّم بحريّة قائلاً لي: "قل لي ما هو رأيهم كي أفحص نفسي. ربّما كنت مخطئاً". بعد قليل من الصّمت تمتم: "إلاّ إنّني لا أظنّ ذلك".

❖ محبة حرّة لا تسقط

في محبّته كان الشّيح يتقدّس. قال لي يوماً: "عندما نحبّ المسيح، نزول أهواؤنا الخاطئة من تلقاء ذاتها، تخسر قوّتها أمام قوّة المحبة. عندما ينبج النهار وتضيء الشمس غرفتنا، يتلاشى الظلام ولا يستطيع البقاء". وفي ما بعد، أصبح

أكثر إعلاناً. ذات مرة، زرنا كاليسيا أنا وصديق لي، وهو طبيب نفسي، لكننا لم نجد الشيخ، لأنه كان قد ذهب واختبأ في الغابة. عدنا خائبين. وعند مرورنا بالغابة، إذا بنا وبتدبير إلهي، نراه مع صديق له محام يقطعان علينا الطريق، إذ كنا صاعدين في الاتجاه المعاكس. عندها صرخت: صلواتك أيها الشيخ. فتوقّف. اقتربنا منه وقبلنا يده، وعرفته بصديقي. سرّ بمعرفته وسأله: "ألا قل لي، أنتم أطباء النفس، هل تتعلّمون عن ظاهرة نفسيّة تسمى "ضغطاً نفسيّاً؟" ردّ الصديق بالإيجاب. تابع الشيخ: "فكما أنكم في طبّ النفس، تتكلّمون على أشخاص معينين يتحرّكون تحت ضغط نفسي، كذلك يحصل مع المسيحيين الحقيقيين الذين سكن المسيح في نفوسهم، فهم لا يستطيعون عمل شيء آخر سوى أن يحبّوا كلّ النّاس، حتّى أعداءهم. هكذا، فعل أول الشّهداء استفانوس الذي، حين كان مضطهدوه يجرّمونه بالحجارة: لم يتوقّف عن حبّهم وكان يسأل الله أن يغفر لهم".

من الواضح أنّ الشيخ كان يكلمنا على خبرته الخاصة. فهو حتّى لو أراد، لم يكن يستطيع أن يكره، لم يكن يستطيع إلا أن يحبّ، لأنه كان قد سلّم إرادته طوعاً إلى إله المحبّة، فارتقى إلى درجات عالية من المحبّة، واقترب كثيراً من استفانوس، أول الشّهداء، ومن الملائكة، حتّى أنّه استحال "ملاكاً أرضيّاً، وإنساناً سماوياً". وكان قادراً على أن يؤكّد لنا مثل الرّسول بولس: "صُلبتُ مع المسيح فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ".

إنّ تعليمه وحياته يذكّران بذلك الرّاهب الذي لما عرف أنّ الله "يريد كلّ النّاس أن يخلصوا وإلى معرفة الحقّ يقبلوا" استعمل حرّيته استعمالاً فائقاً ليختار بين الهلاك والخلّاص، فسَلّم إرادته بحرّيّة ومسؤوليّة وشكر كورقة بيضاء إلى إرادة الله، قائلاً في صلاته: "يا ربّ خلّصني إن شئتُ أم لم أشأ". كان الشيخ يعرف عن خبرة أنّه فوق الحرّيات المصطنعة توجد حرّيّة حقيقة هي، في شكلها المطلق، قائمة في الطّاعة المطلقة لمشيئة الله، كما يؤكّد لنا ابن الله: "فإن حرّركم الابن، فأنتم أحرار حقّاً".

❖ فرح قيامي

في أحد الأيام، كان الشيخ يحدثني في قلايته عن الأهمية الكبرى لقيامة الربّ من أجل الإنسان. وفي لحظة ما، رأيت وجهه يشعّ فرحاً وسمعته يقول لي: "هيا رتل لي القياميات، أريد سماعها: أيها المسيح الفصح الأجلّ الأعظم". وبدأت أنشدها له، إلا أنّي أخطأت في نهايتها. عندها وبّخني بطريقته الخاصة تلك التي هي أشبه بالمداعبة: "ألا سامحك الله يا بنيّ، إنّك تتلوها خطأ. عليك أن تحفظها عن ظهر قلب". وقد شرح لي الطروباريّة، في ذلك الحين، بشكل أشعّني للحظات أنّي موجود بسعادة فائقة بالقرب من المسيح القائم. ويا لها من خسارة، إذ إنّهُ لم يدعني أسجّل تفسيره على آلة التسجيل أو أحتفظ بملاحظات عنه، وأنا الآن أحاول أن أستعيد من ذاكرتي المتعبة القليل من الملاحظات "المخبّأة". وأذكر أنّه ركّز من تفسير عبارة "أنعم علينا أن نشارك بأوفر حقيقة في نهار ملكك الذي لا يغرب أبداً"، وشدّد: "لا تحزن أبداً يا بنيّ، لقد قام المسيح ليعطينا محبة كثيرة وفرحاً منذ الآن. فلنبداً منذ الآن، بالاشتراك بإحساس أكبر في نهار ملكوت محبة المسيح المضيء الذي لا يعرفه مساء أبداً".

❖ تسابيح الكنيسة

كان الشيخ يحبّ كثيراً تسابيح الكنيسة. فالذين كتبوها قديسون، وهي تشكل لاهوتاً يعبر عن حياة المسيح والقديسين وعن حياته هو أيضاً. كان يهب ذاته للكنيسة المستقيمة الرأي، التي لم يكن يراها شكلياً كتركيبة إدارية مجردة، بل جوهرية كجسد المسيح الحيّ الديناميكيّ السريّ، الذي أعضاؤه هم كلّ المسيحيّين المعمّدين المستقيمي الرأي ورأسه هو المسيح نفسه. لم يقبل أيّ شكل من أشكال علمنة الكنيسة الأرثوذكسيّة، ولا أيّ مساومة من أيّ نوع كانت مع التجارب الشيطانيّة الآتية من اليمين ومن اليسار. وقد عرف، كما كُتب، أنّ

الشَّيْطَان حارب منذ الدهور ليحمل الكنيسة خارج العالم وقد فشل. وهو الآن يجاهد ليدخل العالم إلى الكنيسة. وهو يقوم بهذا الجهاد من أجل العلمنة بجدّ وخفية، إلى حد إقناع البعض بأنّ هذا الجهاد غير موجود".

❖ الوحدة الكنسيّة

كان الشَّيْخ يقاوم أيضًا بشدّة كلّ ميل تحرّبي وانشقاق داخل الكنيسة، إذ يرى في ذلك تشويهاً وتقسيماً لجسد المسيح الواحد. وكان يتمنى أن تتقدّم الحياة المسيحيّة الاجتماعيّة بوساطة تقدّيس الأشخاص المتأصّلين في جسد الكنيسة، وليس المقطوعين عنه، بشكل ظاهر أو خفيّ. وقد شدّد على أنّ المسيح في صلّاته الكهنوتيّة، قبل ذبيحة صلبه بقليل، صلّى بحرارة إلى أبيه السّماويّ من أجل وحدة المسيحيّين، برباط محبّته هو، داخل كنيسته الّتي لا تزول.

عند ظهيرة يوم الخميس العظيم السنة ١٩٧٩، بقيت وحدي كي أتأمّل بشكل أفضل معنى ذلك اليوم العظيم. وفي إحدى اللحظات، تذكّرت الأب بورفيريوس ووقع نظري عبر الهاتف، فتولّدت عندي رغبة شديدة في التحدّث إليه. أخذت أفكّر: أين أجده في يوم كهذا؟ هل مرّ في ذهني وكأنه يدعوني دعوة سرّيّة؟ وكان في حوزتي رقم هاتف الشّقة حيث كان يمضي فترة نقاهته، مختبئاً عن كلّ، بعد وعكة صحيّة ألّمت به. رسمت إشارة الصّليب، وطلبت الرقم، وللحال على الطرف الآخر من الخطّ سمعت الشَّيْخ بصوته الواضح الحنون. كانت مشيئة الله أن نتحدّث. وإذّاك، دخل معي في تأمّل أسراريّ خشوعيّ دام أكثر من ساعة. كنت أتقبّل أقواله كالأرض العطشى إلى المطر، وأحاول أن أفهمه على قدر استطاعتي، وأفصحت أيضًا عن أفكار، وذكّرته بأقوال قديمة له قابلتها مع الّتي كنت أسمعها، فكان حوارًا حيًّا أراحني جدًّا، وكما يبدو أراح الشَّيْخ أيضًا لأنّه قال لي: "ألا رَضِيَ الله عليك، إنّك تتذكّر الكثير من الأشياء يا

بني، ولكن لا تكتبها، ولا تتحدّث بها. لست أدري ما الذي يصيبني عندما أكون معك. تأخذني كثرة الكلام، ولا أعود أريد أن أتوقّف. أنت تدفعني إلى ذلك وأنا اجتذبك. نحن الاثنان متشابهان".

أثّرت فيّ كلماته تلك، وخصوصاً جملته الأخيرة التي فاجأتني. وتساءلت: بماذا أشبه الشيخ؟ بماذا يمكن أن يتشابه الليل والنهار، والماء الفاتر الذي يبرد مع الماء الساخن الذي يغلي؟ ومع ذلك، فالشيخ لا يقدّم مجاملات دنيوية، فكلّ ما يقوله كان حقيقياً. وفيما بعد، وجدت جواباً معقولاً عن تساؤلي، إذ فكرت، ربّما قد عني أننا نتشابه بالطبع الفطري، وهذا لا يعني أنّه لا يوجد فرق شاسع بيننا كالفرق بين الأرض والسّماء، فيما يتعلّق بقيمة هذه الميزات الفطرية.

لقد بلغ الشيخ النضج في القداسة، بينما كنت أنا إلى جانبه أشبه بالرضيع الكهل المسؤول عن طفولته الروحية، لذا فإنّ تأكيديه فرحني قليلاً، وأقلقني أكثر. كان الشيخ هو من أخذ "الوزنات الخمس وتاجر بها وجمع فوقها خمساً أخرى"، أمّا أنا فكنت من "أخذ الوزنة الواحدة وذهب وحفر في الأرض وخبأ فضة سيّده" (متى ٢٥).

في تلك المكالمات الهاتفية التي لا تنسى، حدّثني الشيخ عن أشياء أخرى كثيرة. أتذكّر خصوصاً كلماته التي نطق بها باعتراف خفر ومحبة حارة للمسيح: "إنّي مريض في السرير. وددت كثيراً اليوم، في هذا النّهار العظيم، أن أذهب إلى الكنيسة، وأن أسمع خدمة آلام الرّب، ولا سيّما إنجيل يوحنا الذي فيه يصلي المسيح إلى أبيه من أجل كلّ المؤمنين به "كي يكونوا كلّهم واحداً، كما أنت أيّها الأب فيّ وأنا فيك". فلو كنّا نحياً جميعنا هذه الوحدة في المسيح مع أبيه، لما كانت هناك اليوم نزاعات وانشقاقات داخل الكنيسة، بل لكنّا جميعنا واحداً وإخوة في المسيح.

❖ محبة مطلقة للمسيح ولكل إنسان

أولى الشيخ إكرامًا خاصًا ومحبة خاصة ليوحنا، إنجيلي المحبة، إذ يظهر أنه يشبهه بالطبع الفطري، كما وبالقداسة المكتسبة. ويومًا ما عندما يُعلن الأب بورفيروس قديسًا في كنيستنا، ربّما يُعرف "بقديس المحبة". وإذا سُئلت عن الأثر الذي تركه الأب بورفيروس في أعماقي خلال علاقتي به كل تلك السنوات الكثيرة، فإني أجيب من دون تردد: المحبة، محبته التي لا حد لها لشخص المسيح ولشخص كل إنسان، محبته الخالصة التي لا شائبة فيها، تلك المحبة الصافية النقية التي تحركك وتقنعك وتجردك من سلاحك وتقننك بسلام، والتي قاربت محبة المسيح التي قال عنها هو نفسه: "هذه هي وصيتي، أن يحب بعضكم بعضًا كما أحببتكم أنا، ما من محبة أفضل من أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه".

في الواقع، إنَّ الشيخ ضحى بذاته من أجل كل النَّاس، لأنَّه كان، باسم المسيح، يعتبر الجميع أحبَّاءه. قلت يومًا لأحد تلاميذه الذي عرف محبته في بعدها وعمقها الكبيرين: إنِّي على يقين من أنَّ الشيخ كان يحبني بشكل خاص. أجابني ذاك مبتسمًا: كانت هذه قناعة كثير لأنَّ لدى الشيخ موهبة خاصة هي أن يقدم ذاته بكلّيتها لكل إنسان، حتَّى أن كلَّ واحدٍ ممَّن عرفوه يصدِّق أنَّه هو، إلى حدٍّ ما، "التلميذ الذي كان يحبه". وهكذا، فإنَّك بالقرب من الشيخ تفهم بعض الشيء علاقة الإنجيلي يوحنا الرُّوحية مع المسيح. وقد أضحى الشيخ بمحبته جسرًا نعبه عليه من محبتنا له إلى محبة المسيح؛ لأنَّه أقنعنا بأنَّه يدين للمسيح بكلِّ ما كان عليه.

قال المسيح في جوابه عن سؤال تلميذه توما عن هذه النقطة: "ما من أحد يأتي إلى الآب إلا بي". ولا نبالغ، ربّما، إذا قلنا بالمقابل: لا أحد يأتي إلى المسيح إلا بوساطة الشيوخ المتقدِّسين، الأحياء والراقدين، لأنَّهم يشكِّلون استمرار حياة المسيح على الأرض. فان لم تتماثل مع المسيح، فإنَّك ستتماثل

ساعتنذ مع مسيح شبيه بك. لقد شابه الشيخ المسيح، ولذا كان يقدم مسيحاً حقيقياً إذ اجتمعت فيه صفات المسيح: المحبة والعطف والجاذبية، الرأفة والرحمة وطول الأناة، الحكمة والقوة والوداعة وتواضع القلب، الحلم والسلام، هكذا كما أظهره لنا الله الأب بواسطة أشعيا النبي: "هوذا فتاي الذي اخترته، حبيبي الذي سرت به نفسي. أضع روحي عليه، ويخبر الأمم بحكمي. لا يخاصم ولا يصيح، ولا يُسمع في الساحات صوته. قسبة مرضوضة لا يكسر، وعوداً مدحجاً لا يطفئ إلى أن يخرج الحكم إلى النصر. وعلى اسمه رجاء الأمم" (أشعيا ٤٢: ١-٤). لقد شابه الشيخ المسيح في الكثير من الصفات لأنه قدّم ذاته بكليتها للمسيح، فجعله المسيح شبيهاً به.

إنّ محبة الشيخ في المسيح منحه سعة فهم ورحابة متعدّدة الجوانب، كانت مدهشة مثل مائة متعدّدة الزوايا ذات التماعات كثيرة وباهرة. وإنّ حقل بصره الروحي كان يمتدّ محسناً ليطل أكثر حنايا النفس ظلمةً وغموضاً. لم يتراجع الشيخ أمام المآزق الجامدة أو اليائسة أو المعرفة في حرفيتها التي كانت تسمرّ بعض زوّاره من عدم استقرار انفعاليّ وشفقة على الذات مهلكة. ولأنّه هو نفسه كان يحيا في منطقة داخلية بروحية لامحدودة، كان في مقدوره أن يمتدّ إلى المشاكل الإنسانية المتنوّعة وأن يقدّم لها حلولاً مرضية لله لا تحصى.

وتحت مظلتّه الروحية الواقية تشعر بأنّ كلام الربّ يتحقّق فيك أيضاً: "في بيت أبي منازل كثيرة". وبالقرب منه لا تجد مخرجاً واحداً لكلّ طريق مسدود، بل عدة مخارج خلاصية. وإرشاده تتحوّل كلّ خطيئة وكلّ خطأ وخسارة إلى توبة وتسامح وريح، حتّى أنّ الشيطان يحزن في النهاية عند رؤيته أعماله تنهار كبرج من ورق، والإنسان الخاطئ يفرح لكونه يشعر بأنّ نفسه تنهض من الموت. إنّ نشاط الشيخ المفيد والمتعدّد يذكّر بقول الإنجيلي الحبيب: "لهذا ظهر ابن الله، ليحلّ أعمال الشيطان".

❖ احترام الشكليات لا عبادتها

لم يتجرّد الشيخ من الشكليات الخارجية. كان يحترمها، وعبرها كان دومًا يهدف إلى الجوهر. كان يتّبع كلام الرّب: "السبت جُعل من أجل الإنسان، لا الإنسان من أجل السبت". بالنسبة إلى المسيحيّ، الشكل - الذي هو وسيلة - يجب أن يخدم الهدف الجوهريّ، أي المحبّة بالمسيح؛ عندما يحيد الشكل عن هدفه ويصبح غاية في ذاته، يتحوّل من عامل إيجابيّ إلى عامل سلبيّ. وقد كُتب أنّه "عندما يفقد الإنسان الجوهر، يلتصق يائسًا بالشكل". ويضحي عابدًا للشكليات تقليديًا متعصّبًا، خادعًا نفسه، واهمًا ذاته والآخرين بكبرياء أنّه بنشاطه التّافه هذا يخدم الله. وتصبح عبادته الفضوليّة للشكل، كبديل عن العبادة الجوهرية، وإثباتًا عن الرّياء يخفي فراغه الداخليّ ما يفضي به إلى عذاب ذاتيّ جليديّ وتافه وباطل، "حتّى يظهر للناس"، عذاب ينتج فريسيّين، لا عبّادًا للمسيح، بل صالبين إيّاه.

❖ يتقدّس وسط أومونيا

من العجائب الغربية في حياة الشّيوخ الحدث التّالي: مع كونه انطلق ليعيش كراهب في شركة رهبانيّة قليلة العدد في أحد أساقيط الجبل المقدّس، إذا به يصبح، بتدبير إلهيّ، كاهنًا مداومًا في كنيسة القديس جيراسيموس - البوليكلينيكي في أومونيا لأكثر من ثلاثين عامًا، في وسط العاصمة المكتنّزة بالنّاس، لينقل بشكل عمليّ مجتمع البريّة المقدّس إلى صحراء المدينة الشّيطانيّة. وبنعمة المسيح توصّل الشّيوخ، كناسك في العالم إلى تخطي التجارب وضوضاء المدينة الكبرى، والبقاء متّحدًا بالمسيح بوساطة الصّلاة المستمرة والنّسك،

متقدّساً هو ذاته ومقدّساً من حوله. وقد عاش هو أولاً ما علّمه في ما بعد بكلام بسيط: "إذا أردت، تستطيع ان تتقدّس حتّى في وسط أومونيا".

❖ أوقعني في مأزق

كانت بركة لي أن أتهم مع الشيخ للسبب ذاته: لأننا يوافق أحدا الآخر. فقد انتقدتني بعض الأوساط الرّوحية واتّهمتني بالهرطقة لأنّي أتردّد، "بإيمان حسن وعفوي"، على راهب "مشكوك بكفاءته، وهو ينصبّ نفسه نبياً"، وأنّي أفتح له قلبي وأتجرّأ على إذاعة صيته أيضاً. وقد انتقدت أوساط أخرى الشيخ لأنّه دافع عني في بعض آرائي. قال لي مبتسماً وبطيبة: "قد أوقعني في مأزق يا بني... لو تعرف ماذا أسمع بسببك. حضر أناس وعنفوني لأنّي أستقبلك وأؤيدك في مواضيعك". لقد انفعلت بسبب عقلية هؤلاء الناس. وما ضايقتني أكثر أتهم أزعجوا الشيخ بسببي. أمّا الشيخ، فكان، على عكسي، هادئاً يبتسم للإدانات في حقّه. أمّا أنا فقد اهتممت برأي الآخرين، لأنّي من الذين "يطلبون مجداً بعضهم بعضاً"، بينما بقي الشيخ غير مهتم، لأنّه ينتمي إلى الذين يطلبون "المجد من الله وحده". وطبعاً كنت أختلف بهذا عن الشيخ. كان اختلافاً ملحوظاً بين من يرضي الناس وبين المتواضع، بين الممتلئ بالأهواء وبين من وصل إلى اللاهوى. ولسوء الحظ، لم تكن هذه هي الحالة الوحيدة التي انتقد فيها الشيخ. لقد تقبل بتواضع ملائكيّ ومحبة حملات واضطهادات كثيرة جائرة، وفي بعض المرات من أناس كان من المفترض أن يفهموه ويقفوا إلى جانبه. وقد كشف لي القليل من هذه كلّها خلال سني معرفتنا الكثيرة، كاتماً الكثير منها بصمته إذ كان يفضل، بدلاً من ذلك، أن تتكلّم محبة الله، مسامحاً الجميع على كل شيء.

والحقيقة أن كل مسيحي، بمحبته التي تُفهم غالبًا كضعف، يُصبح في بعض الأحيان هدفًا للنقد من جهة أناس مستعدين لاحناء الرأس أمام من هم أقوياء بحسب العالم ورفعهم أمام من هم ضعفاء بحسب العالم. والفريسي المعاصر- سواء أكان من دعاة الأخلاق أم لا - يطرب إذ يُنتج حوله مذنبين، ظانًا أنه بهذا يخدم الحقيقة. ولكونه هو نفسه متكبرًا ومذنبًا، لا يتقبل ذنبه، بل يقصيه ملقيًا بالتهم على الآخرين. وقد علّم الشَّيخ بحياته أن على المسيحي أن يتحرك في الاتجاه المعاكس: أن يقبل بهدوء الإدانات الموجهة إليه من دون أن يتحداها، وألاَّ يتهم أحدًا شخصيًا، وأن يتوب بصلاة "هب لي أن أعرف ذنوبي وعيوبي وأن لا أدين إخوتي"، ويتخلَّص من كل ذنوبه الشخصية، مسامحًا منتقديه بصدق.

❖ إن شاء الله

ترك الشَّيخ الله يقوم بالدور الأول في كل شؤون حياته، قاصرًا نفسه على القيام بالدور الثاني، وصائرًا خادمًا متواضعًا لأوامر الله، في ما يختص بذاته وبالآخرين. فحقيقة أن "لا شيء يتم من دون عون الله" كان ينطبق بشكل مطلق على حياته التي ما كان يحدث فيها شيء من باب الصدفة، إذ كانت كل الأمور تجري وفقًا لمشيئة الله. وكان تصرّفه الروحي يذكّر بكلام المسيح: "لا أستطيع أنا أن أعمل شيئًا من عندي. كما أسمع أدين ودينونتي عادلة، لأني لا أطلب مشيئتي أنا، بل مشيئة الأب الذي أرسلني".

لقد أثر في نفسي حادثٌ جرى في أوّل زيارة قمت بها إلى كاليسيا: حين وصلنا إلى هناك أنا وصديقي وجدنا المكان مقفّرًا. طرّقنا باب قلّاية صغيرة، فخرجت راهبة (هي أخت الشَّيخ، كما علمنا فيما بعد). سألتها: كيف نستطيع أن نرى الأب بورفيرْيوس. فأجابت أنه غائب. (وقد لاحظتُ أن تصرّفها كان

بسيطًا ومقتضِبًا وغير متكلف، بلا مجاملات عالمية أو اصطناع تواضع تقوي). سألناها إن كنا نستطيع رؤيته في المرة القادمة، فأجابتنا باختصار: إن شاء الله. وهكذا انتهى حديثنا قبل أن يبدأ. وفيما كنا منصرفين كنت أفكر بانزعاج: "إن شاء الله"، إنه تملّص حسن. فبدل أن تقول لنا إنه سيكون هنا في اليوم الفلاني وسيكون في إمكانكم مقابلته، لم تحدّد لنا متى سيعود، ملقية الأمر على الله.

وفيما بعد تأكدت أنني أخطأت بتفكيري، وأنّ الأخت تكلمت بما يجب. لم يكن الشيخ ينظّم برامج، بل ترك لله أمر تنقلاته ومقابلاته مع الزوّار، كما فعل في كلّ شؤونه. ترك الله يحدّد له برنامج حياته. وبعد سنين، ولما كان يطلب منّي أشخاص (لا يعرفون الشيخ ويعلمون بعلاقتي به) أخذ موعدهم منه، كنت ابتسم، ولكّني كنت أعذرهم متذكّرًا ما جرى معي.

لم يستند الشيخ بموقفه هذا على الإيمان فقط، بل على المنطق أيضًا. ذات يوم، في بدء معرفتنا، حدّثته عن رغبة صديق كثير الانشغال ومن منطقة بعيدة في المجيء لمقابلته في وقت معيّن، كي لا يسافر سدى. فقال لي الشيخ بأسف: "لا أستطيع أن أحدّد له متى يحضر. هل أقول له في اليوم الفلاني؟ لكنني أنا لا أعلم أين سأكون حينها وكيف سأكون، الله يعلم. أنت ترى كثرة أمراض، أحيانًا أكون بحالة جيّدة، وأحيانًا لا أكون. هل أقول له أن يأتي في ذلك الوقت وأسخر منه؟ هذا لا يجوز. لذلك، قل له أن يأتي متى سنحت له الفرصة ولئُصلّ، فإن شاء الله أراه، وإن لم يشأ لا أراه. هكذا أقول للجميع، وأعرف أنّ البعض يسيئون فهمي، ويظنّون أنني أريد التهرب منهم. ولكن ماذا أفعل؟"

❖ الانضمام إلى الكنيسة الأرضية غير المخلوقة

في أيّ حال، كان الشَّيْخ يقوم بكل ما ينبغي له القيام به وأكثر. كان يستقبل، وهو مستعد للتضحية بالذات، الكثير من النَّاس من الفجر حتَّى منتصف اللَّيْل، ويخفِّف عنهم أحزانهم الأرضية، ويهتمّ بإعطائهم أجنحة ليطيروا بها، ولو للحظات قليلة، نحو الأفراح السَّماوية الَّتِي عرفها هو. وفي بعض الأحيان، كان يتحمَّس وينقل حماسه إلى محدِّثه، ولا سيَّما عندما يكون هذا، في حالات نادرة، قد استوعب، ولو قليلاً، إعلاناته الإلهية. وكانت هذه اللحظات الَّتِي لا تنس كلية البهجة، إذ يبدو لك وكأنَّ باب الفردوس قد فُتِح لك، حيث ينتظرك المسيح، ليحوطك ببهجة محبَّته الَّتِي لا تحدّ. وبينما أنت تحفظ في لحظات حياتك الأخرى العادية الَّتِي يغلفها غبار اليوميَّات صورة للمسيح في داخلك تقليديَّة وشكلية وبعيدة، تشعر فجأة بأنَّ مسيحاً حقيقياً تعرفه للمرَّة الأولى يقترب منك، وسط نور بهيٍّ، بحيث لا تجد كلمات بشرية أو أرضية ملائمة لتعبّر بها عن جماله الرُّوحيّ. وهكذا، إن حاولت أن تكتب شيئاً عنه، فستتوصّل إلى أن تقول ما ليس هو، ولن تقول ما هو. وهذه الملامسة الإلهية الَّتِي لا يُعبّر عنها تجعلك تشعر، ولو قليلاً، ماذا يعني هذا الَّذِي شدّد عليه الشَّيْخ بشوق إلهيٍّ: "المسيح هو الكلّ". وهذا الَّذِي أكَّده الرّبّ عن ذاته: "هوذا ملكوت الله في داخلكم". وفي هذه اللحظات المغبوبة والممتعة، كان الشَّيْخ يتصرف "كالأطفال" الَّذين احتضنهم الرّبّ. وخصوصاً عندما كان "يرى" أنَّك بلغت، ولو ذهنياً، معنى خبراته السَّامية. كان يرتكض من الفرح، ويقفز في سريره حتَّى ولو كان مريضاً، ويهتف مبتسماً بظفر: "هذا هو يا ولدي، لقد وجدته، لقد فهمته! سامحك الله، بل باركك، هيّا إلى جانبي لأمنحك صفة. خذ هذه، وغيرها وغيرها". وبعد ذلك، كان يعبّر أكثر عن حماسه، فيبدأ بمداعبة شعرك قائلاً بصوت منخفض وبفرح: "اصمت، لا تتكلَّم، لا تقل شيئاً عن هذا الَّذِي قلته لك، لأننا سنضيع". وتشعر إذًا وكأنك تتدرب على انتفاضة محبة إلهية سرّية، هدفها إماتة كلِّ ما هو

مظلم وتعييس وخاطئ في داخلك، كي تقيمك متجليًا في نور "كنيسة المسيح الأرضية غير المخلوقة" الذي لا يغرب، كما كان يقول.

❖ هل فهمت هذا؟

وعلى العكس، عندما كان يرى أنك لم تفهم، كان يسأل بأسف: "أفهمت ما قلته لك؟" وعندما كنت تجيب أنك لم تفهمه، كان يعيده عليك بتفصيل أكثر. أو إذا لاحظ أن محاولته ستذهب سدى، يقول لك: "ماذا أصنع لك، هيا تعال في مرة أخرى". بينما، إذا كنت لا تدرك جهلك وتجيبه: قد فهمته، كان الشيخ يفعل بسرعة لطيفة: "كيف تقول إنك فهمت يا بني، وأنت لم تفهم؟" فتدرك أن الشيخ، كعالم بالقلوب، على حق. وكانت أمنيته الكبرى أن يرفعك إلى مستويات عالية عمليًا ونظريًا، إلا أنه كان يأسف عندما يرى كسلك الروحي. لكنه كان يحترم شخصيتك، ويتميز يتركك هناك حيث أنت، من دون أن يتحامل عليك، مصليًا سرّيًا من أجل ارتقائك. تمى الشيخ أن يجعل منا نسورًا، وأما نحن فقد بقينا عصافير دورية.

❖ اجلس! لا ترحل

مع هذا كله، كانت محبته قوية إلى درجة أنها كانت تتخطى كل تهاوننا وضعفانا وتُمنح لنا بكرم وفيض: كنّا نتحدّث مرة، وكان الشيخ يكلّمني على نحو ملهم. في تلك اللحظة، دخلت إحدى الرّاهبات وقالت له إن وقتًا طويلًا مرّ وإنّا

عنده ويجب أن أنصرف: فهضت للانصراف، فأمسكني الشيخ بسترتي قائلاً لي: "إجلس، لا ترحل". وقال للراهبة: "إذهبي أنت ودعيه". وتابعنا حديثنا الحلو. بعد قليل، دخل أحد التقنيين وبدأ يحدثه بمواضيع تخص بناء الكنيسة. عندها نهضت وخرجت من القلاية طوعاً، مدرّكاً أنّه يجب أن أَدعِهما لوحدهما. وحالما شاهدتني الراهبة في الممرّ، حدّرتني ألاّ أشغله كثيراً. وبعد توصيتها هذه رحلت. في زيارتي التّالية، أعلمتني أنّ الشيخ عاد وطلبني حالما انصرف ذلك التقنيّ من عنده. وعندما علم أنّي رحلت بتحريض منها، وبخها وقال لها إنّها لم تتصرّف تصرفاً حسناً. إنّ تصرّفه هذا أثّر فيّ أكثر مما لو بقيت في قلايته لوقت أطول.

❖ محاربون وجاحدون

كان الشيخ بمحبّته ومواهبه مغناطيساً قوياً يجذب كثيراً ولكن ليس الجميع. إذ كان هناك أشخاص معيّنون يتجاهلونهم عمداً على الرّغم من سماعهم عنه. كانوا عطشى، مرّوا بجانب النبع الرقراق ولم ينحنوا ليشربوا، فذهبوا عطشى. لماذا؟ أما كانوا يمتلكون رؤية روحية كي يروا جمال النبع؟ أو سماعاً روحياً ليسمعوا خيره؟ الله يعرف. في أيّ حال، لقد فات أوان ادّعاء هؤلاء جميعاً. فحتّى لو انتقل النبع، فانه مع ذلك لم ينضب. إنّهُ ينبع الآن في السّموات، بنقاء أكثر، ويؤهّب للجميع، بفيض، بنعمة الله. في أيّ حال، إنّ منطقته أتيكي، وبالأخصّ العاصمة، لا يمكنها الاعتراض. فعلى الرّغم من أنّها موجودة وسط أزمة مبادئ أخلاقية متعاطمة في السّوء إذ يزداد فيها التفلّت والعنف والطمع والأنانية وكلّ خطيئة، فقد كانت لها البركة أن تحوي في أحضانها قديساً عظيماً، خفياً ومثابراً، روى بمياه مواهبه المنعشة آلاف النفوس على مدى خمسين سنة تقريباً. ويتحقّق هنا قول الرّسول بولس: حيث تزداد الخطيئة تكثر النّعمة".

كتب دوستوفسكي: "إن أثبت لي أحد أن المسيح بعيد عن الحقيقة وأن الحقيقة بعيدة عن المسيح، فأنا أفضل البقاء مع المسيح على البقاء مع الحقيقة". أستطيع أن أكرّر هذه العبارة لا بالنسبة إلى المسيح فحسب، بل بالنسبة إلى الشيخ أيضاً. هناك أشخاص شكّوا به ورفضوه، وحاولوا إقناعي بأنهم محقّون. وطبعاً كانت حججهم جائزة منطقياً، لسبب بسيط، وهو أنّهم كانوا يتكلّمون على إنسان يجهلونه. ولكن حتّى لو عرفوه وأثبتوا لي بتفكيرهم الخاص أنه بعيد عن الحقيقة، فسأبقى من جديد إلى جانبه، لأنّ براهينهم محوراً بشريّ، بكلّ ما في المنطق الإنسانيّ الذاتي من ضعفات، بينما برهان تفوّق الشيخ، بخلاف "حقيقتهم"، سيستند على شهادة خبرتي الشخصيّة، هذه الشهادة الّتي تفوق المنطق. فقد اختبرت قداسته الّتي في نعمة المسيح، وهي قادرة على أن تقنع فكري وقلبي وارادتي وشيئاً ما أعمق في داخلي يعبر عني ويتجاوزني. وسيستطيع آخرون كثراً أن يردّوا بالمثل على أولئك المشكّكين بالشيخ: "الذي رأيناه وسمعناه، نخبركم به، حتّى تكون لكم شركة معنا".

❖ الملجأ

لم يكن الشيخ يشكّل بقداسته الّتي تدلّ على ذاتها مجرد قيمة روحيّة لا شكّ فيها، بل أضحي مقياساً مميّزاً لكفاءة الآخرين الروحيّة، من دون أن يسعى إلى ذلك. ذات مرّة، حدثت مع أحد أصدقائي مغامرة غير منتظرة: فقد اختلف مع أحد معارفه على موضوع مهمّ. وفي محاولته للتصالح معه، فكّر في أن يعرض الأمر على الأب الرّوحيّ لذلك الشّخص ولم يكن قد رآه من قبل قط. ومن دون أن يسأل عن طريقة تفكير ذلك الأب الرّوحيّ، ذهب من دون تردّد لمقابلته، وفتح له قلبه بروح الثقة ولوم الذات. إلا أنّ ذلك واجبه بقسوة وشرع

يجري له تحليلًا نفسيًا جاريًا. وفي حين أن خصمه كان قد بجلّه على فضائله، راح الأب الروحيّ ينعتّه بالشقيّ بسبب هفواته، حاكمًا عليه من جهة آرائه، ومؤكّدًا له أنّه يكلمه من أجل منفعتّه. وهكذا نجح لا في سدّ الثغرة، بل في تحويلها إلى هوّة عميقة. وانتفض صديقنا من محنته غير المنتظرة، والتجأ إلى الأب بورفيروس الذي "رأى" بوضوح، منذ اللحظة الأولى، حالته الفعلية فقال له عن خصمه: "أتعلم يا بنيّ كيف يراك هذا الآن؟ مثل نملة". وعن الأب الروحيّ: "آه! كم ضلّ المبارك!!! إلى أين ذهب عقله. لقد ارتكز على المعلومات التي أعطاه إياها خصمك فجعلك معابًا. في مواجهة كهذه يمكن أن تؤذي الآخر كثيرًا. واعلم أنّ بعض الآباء الروحيّين يدعون أنّهم أطباء نفسانيّون".

إنّ هذا الحدث المؤسف الذي جرى لصديقي جعلني أفكر: إذا لم يشأ المسيحيّ أن يسمع من أجل نفسه كلام أشعياء النبي: "بسببكم يجدف على اسم الله في الأمم"، فإنّه يترتب عليه أن يقبل كلّ إنسان بتواضع كأيقونة لله، وألاّ ينظر إليه بتكبر "كأنّه نملة". وإذا أراد الأب الروحيّ ألاّ يتحوّل إلى راعٍ زائف يؤذي حملانه، عليه أن يكون ذا تمييز، رؤوفًا، غير محابٍ للوجوه، لأنّه إن تحيّز "لأخصّائه" ضد "الغرباء"، فانه سيقع في ضلالات شيطانية تنال منه أولاً ثمّ من "أخصّائه" ("والغرباء" سيجد الله طريقة ليحفظهم). كما يجدر به أن يتحاشى الادّعاء أنّه طبيب نفسيّ. فطريقه هو تقدّسه بالمسيح، حتّى يتوصّل بتنقية نفسه تدريجيًا واستنارتها إلى معرفة ذاته والآخرين.

وبخلاف ذلك، إن التجأ إلى أساليب التطبيب النفسيّ، ولا سيّما عن قلة جدارة، سيحيد عن الهدف ويفشل، فالأطباء النفسيّون أنفسهم يواجهون عوائق كبيرة في معرفة النفس وشفائها.

ولذا، فإن اختيار أب روحيّ متقدّس، وغير متأثر بهذا الدهر، هو العمل الأكثر أهميةً وضرورةً ومسؤوليةً. وعلى كلّ مؤمن مستقيم الرأي أن يقوم به. فعندما نبحث عن الطيّيب الماهر، الذي نعهد إليه بجسدنا الفاسد، نتكلّف تعبًا ووقتًا ومصاريف ومسافات؛ فكم بالحري علينا أن نعمل للبحث عن أب

روحِي جيّد نعهد اليه بنفسنا الخالدة؟ ولا يزال هناك آباء رُوحِيّون جيّدون، إلا أنّهم لا يظهرون لكونهم متواضعين مثل الأب بورفيريوس. ولكي نجدهم، يلزمنا أن نتواضع كثيرًا، وأن نتعب كثيرًا، كما يفعل الغطّاسون الذين يفتّشون في أعماق البحار عن اللآلئ الثمينة. إنّه تفتّيش يجلب في التّاية فرح العثور الكبير، كما يؤكّد لنا المسيح: "يشبه ملكوت السّموات تاجرًا يطلب لآلئ حسنة، وعندما وجد لؤلؤة واحدة ثمينة، ذهب وباع كل ما له واشتراها".

❖ جمال اللطف

كان الأب بورفيريوس مثل هذه اللؤلؤة الثمينة والجميلة. كان أحدهم يقول في صلاته: "اجعل يا ربّ الأشرار صالحين، واجعل لطف الصالحين جميلًا". لسوء الحظ، البعض صالحون، لكنّ لطفهم بشع. ربّما يعكس هذا مظهرًا غريبًا، إلا أنّه يعبر عن واقع. هذا شأن أناس لديهم لطف، إلا أنّهم يسمحون لعوامل غريبة ومعاكسة بأن تدخل عليه فتفسده وتبشّع شكله. لقد كان الشّيخ ذا طبيعة نقيّة ولهذا كانت جميلة. كتب دوستويفسكي أيضًا: "الجمال سيخلص العالم". طبعًا ليس الجمال الحسيّ، وهو بلا روح ويذبل بسرعة، بل جمال اللطف الذي فيه روح لا يذبل. إنّ جمال لطف الشّيخ خلص كثيرًا من النّاس وسيخلص أيضًا.

❖ بساطة الكلام

إنَّ أحد مظاهر جمال الشَّيخ هو حديثه. كانت لغته بسيطة ظريفة وصحيحة. وبما أنَّه عاش ما كان يقوله، لم يكن يحاول، كالممثل، أن يتصوَّر دورًا ما كي يقوم بإلقائه بطريقة مقنعة، لكنَّه كان يعبر طبيعياً وبلا تصنَّع عن حقيقة نفسه. ولم يشأ بكلامه أن يبتدع فنًّا، لأنَّ حياته بجملتها كانت ابداعاً فنيًّا إلهيًّا. لهذا السَّبب، كانت كلماته عميقة المعنى في مضمونها وجذابة في شكلها. وعلى الرِّغم من كونه شبه أُمِّي فإنَّه لم يكن يرتكب أخطاء بيانيَّة، لكنَّه كان دائماً يستعمل كلمات وتعابير مناسبة للمعنى جميلة ومسرَّة، وغالبًا مبتكرة ومؤثِّرة، على صفاء ووضوح في النطق، حتَّى أنَّك لا تشبع من سماع سرده مهما طال. فقد كان "أحلى من الشَّهد والعسل"، وينشر حوله شذى قداسة. لم يكن كلامه يحوي جمالاً وقوَّة فقط، بل رسائل رؤيويَّة بالغة الأهمية أكثر مما كانت تبدو خارجيًّا. وكان عليك أن تبذل انتباهًا وصبرًا وتُظهر ثباتًا صلبًا كي تبحث عميقًا وتحاول كشف المعنى. فإن كانت الكلمات تشكِّل بالنسبة إلينا نحن الرُّوحانيين السطحيين رموزًا ورسومًا لحياتنا الداخلية، فكم بالحري بالنسبة إلى الشَّيخ الذي كانت عيشته، بالنسبة إلى الأكثرية، سامية وصعبة المنال. حتَّى كلمات الشَّيخ الخارجية كانت "دائمًا مملَّحة بالنعمة"، وكان في مقدور كثير من الشَّباب اليونان العصريين، ولا سيَّما المتعلِّمين، أن يتَّخذوه مثالاً يُحتذى.

❖ جهاد هادئ

كنت دائماً أتعجَّب من جهاده الهادئ. فقد تعوَّدنا أن نرى مجاهدين عصبيين، مخوفين، عدائيين، أو نساكًا ذابليين، خاملين، وسليبيين. أمَّا شخصيَّة الشَّيخ النادرة فكانت تضمِّ، بانسجام، فضائل مختلفة متحرِّرة من كل

الضعفات الفطرية. كنت تدرك أنّ قوّة هادئة تفيض من داخله، فيستطيع أن يتصدّى بسلام وشدة للهجمات الموجّهة ضده، والتي كان يقمعها ويسحقها بهدوء، حتّى أنّنا لم نكن نشك قطّ في وجود أيّ صراعات جبارة تجري في داخله. هذا لأنّ الشّيخ، على عكسنا نحن الذين نعيش باضطراب داخليّ وخارجيّ مع الآخرين، كان يعيش هادئاً "في المسيح والمسيح فيه". ولهذا شابه "الرجل العاقل" الذي بنى بيته على الصخر. فنزل المطر وجرت الأنهار وعصفت الرياح وصدمت ذلك البيت فلم يسقط، لأنّه كان مؤسّساً على الصخر.

❖ اهتمام بكلّ شيء

في جهاده الرّوحيّ الكبير، كان الشّيخ يرى المسيح قبل كلّ شيء وفوق كلّ شيء. أتذكّر الدّير الهدويّ الذي كان حبّه الكبير. جاهد بكلّ قواه كي يؤسّسه من لا شيء. كان يرعاه كما ترعى الأمّ ابنها. اهتمّ بأن يكون موقعه نموذجياً حتّى، كما كان يقول، "تدخل الشمس من النوافذ إلى القلالي في الشتاء، ولا تدخلها في الصّيف". كانوا يأخذون بركته مسبقاً من أجل الخرائط وكلّ أعمال البناء. وكان يدير كلّ شيء ويشرف عليه بنفسه. إلّا أنّ ولعه الأكبر كان كنيسة الدّير. كان يكلمني ساعات بأكملها بانذهال عن كنيسة تجلّي المخلّص وعن رسالتها المستقبلية. وغالباً ما كان يحدث هذا الأمر المستغرب: بينما أكون مصغيّاً إليه باهتمام بالغ وهو يشرح لي آراءه في مسائلٍ خاصّة، كان فجأة يترك هذه المسائل ويتحوّل بالحديث إلى كنيسة الدّير. وكان يكلمني عليها بتسامٍ وحماس بالغين، حتّى أنّي كنت بسرعة أتخطّى نفاذ صبري الداخليّ المكتوم بسبب إهمال مشاكلي الشخصية، وأفرح لفرحه محاولاً أن أتابعه في ارتقاءاته الرّوحية. وطبعاً، لم يكن الأمر بالنسبة للشّيخ بالأمر الغريب.

لم يكن يضع اهتماماتي جانباً ليقدم اهتماماته عليها. بالنسبة إليه لم يكن هناك ما هولي وما هولا بل ما هولنا. فقد أراد، ببساطة، أن ينتزعي من اهتماماتي الأرضية الباطلة، كي يرفعني نحو خبراته السماوية الأبدية التي كان يجاهد من أجل أن يجعلني شريكاً فيها، لأنه رأى أن داخل هذه الشركة الروحية المقدسة ستجد كل مشاكل حلها المثالي. قال لي يوماً: "سيصبح ديرنا جميلاً جداً. ستبنى الكنيسة في الواجهة والقلالي خلفها كما يحدث في الحرب. القائد في المقدمة، والجنود في المؤخرة. في المقدمة المسيح ونحن خلفه".

❖ مدرباً على الأسرار

بالحقيقة، كان الشيخ يتبع خطى المسيح الذي سار في المقدمة "ناكراً ذاته وحاملاً صليبه". وبتكريس حياتي شامل كهذا كان لا بد من أن يؤثر ويقنع، وخصوصاً، عندما كان يقيم الخدمة الإلهية التي كان ينتقل خلالها بالفعل "من الموت إلى الحياة ومن الأرض إلى السماء". ولا أستطيع أن أنسى سهرانية صيفية في كنيسة القديس نيقولاوس القديمة في كاليسيا، حيث كان الشيخ يقوم بالخدمة. فعند تلاوته الأفاشين كان يتلفظ بها كلمة كلمة، بوضوح وتأثير ظاهر. أما ترتيله فكان ناعماً وضعيفاً، لكنه معبر، ينشر تخشعاً عميقاً.

وقد بلغ تأثيره الإلهي ذروته في الدورة الكبرى حين بدا الشيخ وهو يخطو بوقار أسرارٍ ويرتل باتضاع ممسكاً الكأس والصينية المقدسين بانتباه فائق وورع، وكأنه أم حنون تحمل رضيعها بكل حنان في أحضانها، ومماثلاً والده الإله الحاضنة الطفل. وكان واضحاً أن الشيخ يعيش في تلك اللحظة مسيرة المسيح نحو الجلجلة كي يقدم ذبيحته الكبرى لأجل خلاص العالم. كانت الكنيسة صغيرة ولا تسع الكل، والخدمة طويلة دامت حتى الصباح، وأمكنة الجلوس على

المقاعد قليلة. إلا أن المصلّين كانوا يقدّمون بانتباه أمكنتهم للواقفين، ويخرجون قليلاً إلى الساحة المجلّلة بضوء القمر، والتي تشعر وكأنك تعيش حلمًا إلهيًا.

كان الشّيخ يفرح جدًّا بالخدم المقدّسة، لكنّه حُرّم من هذا الفرّح في سنيه الأخيرة. وإذ سُمّر في السرير بسبب الأمراض، لم يعد في وسعه السير للذهاب إلى الكنيسة، فاضطر إلى الاشتراك في القدّاس الإلهيّ بسماعه إيّاه من مذياع صغير. وقال لي يومًا بشكوى: "آسف جدًّا لأنّي لا أستطيع الذهاب إلى الكنيسة، ولكيّ أنعزى بهذا المذياع، فعبره أستمع إلى الخدم الإلهيّة. لقد سألت أحد الأساقفة إن كان ما أفعله خطيئة، فأجابني أنّه ليس خطيئة لأنّي مريض". ولكن، كم واحد منا، نحن الذين نظنّ أنفسنا أصحّاء ونذهب إلى الكنيسة، يشترك في العبادة الإلهيّة بكل كيانه كما يفعل الشّيخ وهو في سريره يستمع إلى المذياع الصّغير؟

❖ رؤيا من أجل الكاتب

لم يكن الشّيخ يشارك في حياة المسيح نفسيًّا فقط، بل جسديًّا أيضًا. بالنسبة إليه، لم تكن حياة المسيح تشكّل ماضيًّا، بل حاضرًا مستمرًّا. كان مريضًا في القلب، وقد فقدت أثره لفترة طويلة. وبعد حين، اكتشفت مكانه، ضيقًا على أحد المنازل. أخذت بركة لأقوم بزيارة قصيرة له. دخلت غرفته بتأثر. لم أشأ أن أتعبه بالحديث؛ كان يكفيني أن أقبل يده بصمت. حالما رأني أشرق وجهه مبتسمًا بمحبّة. ركعت أمام سريره، أخذت يده وقبّلته وأسندت جبتي إليها وغرقت في صلاة حارة للمسيح. وفي لحظة ما رفعت رأسي، وإذا بي أمام مشهد غريب: الشّيخ جالس في سريره لا يتحرّك وقد تغيّرت كل ملامح وجهه، كان ينظر باندھال إلى الحائط قبّالته فشملتني رهبة. لم أقل له شيئًا. انتظرت.

وفجأة، استدار نحوي، وقال لي بصوت متأثر: "أرايته؟" فسألته: مَنْ أيُّها الشيخ؟ فقال: "المسيح. كان المسيح يمرّ أماننا. كان حاملاً صليبه ويسير متقدماً نحو الجلجثة مترنحاً من ثقل الصليب. كان ذلك قبيل ظهور سمعان القيرواني. رأيتُه في اللحظة التي كنّا نصلي فيها معاً. رأيتُه بوضوح، رأيتُه جميلاً جداً. ترى ماذا يعني هذا؟ هل هي التضحية التي علينا أن نتحملها بمحبة؟ من أجل من كانت؟ من أجلي؟ من أجلك؟ من يعلم؟" جمدت في مكاني متأثراً. إنها المرّة الأولى التي أسمع فيها عن رؤيا كهذه. ولما بدأت استفيق قليلاً من ذهولي، قلت له محاولاً الرد على أسئلته: لست انا يا أبانا من يعرف ماذا يعني هذا الذي رأيتُه، أنت تعرف. أجب: "لست أعلم". قلت له: ربّما تعني ان القيامة النفسية دنت بحيث أنه بلا الصليب لا يوجد قيامة. وربّما تعني قول المسيح إلى الرسول بولس الضعيف "إنّ قوّتي في الضعف تكمل". أجب الشيخ: "من يعلم؟" بعد قليل، هممت بالانصراف فباركني الشيخ بوجه مشرق، ورسم إشارة الصليب ثلاث مرات على رأسي، قبّلت يده وانصرفت. وقد بقيت متأثراً برؤية الشيخ التي لا سابقة لها حتّى زيارتي التالية له، التي تمّت بعد وقت طويل. ولما عدت والتقيته، كلّمته على الرهبة التي شملتني، فأجابني وهو يبتسم بحنان: "لا تخف، إنّ هذه الرؤيا هي لأجل شيء جيد. فسألته: ماذا تعني يا ترى؟ أجابني: "تعني ذبيحة محبة من أجل المسيح ومن أجل القريب". عدت وسألته: من أجل من كانت؟ من أجلك أم من أجلي؟ قال: "لما رأيتها، كنت أنت فقط في الغرفة، هذا يعني أنّها كانت من أجلك".

مرّت أعوام بعد ذلك، ورؤيا الشيخ تلك لم تفارق فكري. لست أدري، هل هي تخصّ الماضي أم الحاضر أم المستقبل؟ أو الكلّ معاً؟ إنّ المسيح والشيخ يعلمان. ما الذي أستطيع معرفته أنّي مدين للمسيح ولل قريب بذبيحة المحبة التي لم أقدمها لهما.

غبّطني كثير من الأصدقاء لكوني استحققت أن أكون على صلة بالأب بورفيريوس على مدى سنين طويلة. كنت أجيب: أشكر الله على هذه المعرفة التي

تشكّل أكبر نعمة في حياتي، لا سيّما أنّها حصلت بعد تعرّضي لتجربة كبيرة. وإني أعتبر صلتي بالأب بورفيرْيوس شرفاً لي، بل أكثر من ذلك، فأنا أعتبرها دُيْنًا في سند غير مسدّد. ووحدها صلواته تقدر على مساعدتي كي أفي ولو جزءاً صغيراً من هذا الدين الكبير. فلصلواته الآن قوّة أعظم، إذ إنّهُ موجود بالقرب من المسيح، ويسبّحه مثل ذاك البلبِل الأثوسيّ الذي أخبرني عنه مرّة.

❖ شاعر

ذات يوم من أيّام الصّيف، التقيته في غابة أوروبو. تذكّر الشّيخ حياته الرّهبانّيّة عندما كان شابّاً في الجبل المقدّس أثوس، وروى لي: "في صبيحة أحد أيّام الرّبيع، انطلقت قاصداً أحد الأديرة المجاورة. كنت أسير في ممّر مقفر وسط الغابة. وفي تلك السّاعة، أشرقت الشمس من وراء الجبل، وتخلّلت بعض شعاعاتها أوراق الشجر الكثيفة ووصلت إلى الممر. وعند منعطف الدرب، سمعت فجأة تغريد بلبلٍ جميلاً جدّاً. توقّفت وتطلّعت، فرأيت البلبِل على غصن إحدى الأشجار. مدّ عنقه الصّغير وغرّد تغاريد حلوة جدّاً، لم أسمع أحلى منها في حياتي. تأثّرت كثيراً. بسطت يديّ نحو الطائر الصّغير وقلت له: يا بلبلي الصّغير، من علّمك أن تغني بهذا الجمال، حتّى أنّ أفضل مغنٍّ لا يستطيع أن ينافسك؟ لماذا تضع كلّ قوتك وكلّ مهارتك لتغرّد هنا في القفر، حيث لا يسمعك أحد؟ ربّما ترتل لذاك الذي جبلك وتشكره؟ كنت أسأله هكذا. هل تعلم ماذا فهمت في تلك اللّحظة؟ أن البلبِل في الواقع كان يسبّح الله، كان يقوم بخدمته السّحريّة". كنت أنظر إلى الشّيخ مندهشاً ومأخوذاً بروايته الحسّاسة للغاية. كان أمامي، في تلك اللّحظة، شاعر حقيقيّ. عندها أدركت أنّ الشعراء الأكثر رهافةً وجمالاً هم القديسون الذين لا يحاولون أن يبتكروا

أشعارًا لأنَّ حياتهم بأكملها تجري تلقائيًا كقصيدة إلهية. هي قصيدة عشق إلهي
ينشدونها ويرتلونها كلّ يوم وكلّ ليلة ممجدين خالق الكل، مثل البلبل الصّغير.
وفي الحقيقة يستحقّ أحد الرّسامين أن يخلّد بريشته صورة الأب بورفيروس
الفريدة وهو يتحدّث إلى البلبل الجميل الصوت، فجرربيع في غابة آثوسية.

نحو الأبدية

❖ يتطايّر بالعشق الإلهي

كان الشيخُ بلبلَ قفرٍ يمجد الله بحياته من أجل العالم الذي جبله، ويشكره على محبته التي منحنا إيّاها. وكان يذكرني بما قرأته في كنيسة القديس نيقولاوس في كاليسيا عندما زرتَه للمرة الأولى: "مغبوطة عيشة أهل البراري، فإنّهم يتطايرون على الدوام بالعشق الإلهي". فيما بعد، في إحدى زياراتي له في البيت الذي نزل عليه ضيفًا عندما كان مريضًا، وجدته جالسًا في سريره وإلى جانبه أحد الأصدقاء، وهو ابن رُوحِي له، وكان يكلمه في تلك الساعة على ذكر الموت. عندها قال لنا الشيخ: "ليس هذا هو طريق الخلاص الوحيد. البعض يريد الاقتراب من الله لا بذكر الموت، بل بذكر المحبة. يحوّل نفسه إلى العلاء ويسأل الله (وقام بحركة مميزة رافعًا يديه وعينيّه) أن يمنحه محبته، كي يستطيع هو أيضًا أن يحبّ، وهكذا يجد طريق خلاصه". لقد أَرانا الشيخ طريقًا سنيًّا للخلاص، ومن الواضح أنّه سلكه هو نفسه. وبجهداته النّسكية تخطّى الخوف من الموت والعذاب، وتجاوز أيضًا انتظار مكافأة الفردوس، لأنّه قد سبق وذاق الفردوس "متطايّرًا بالعشق الإلهي" وهو بعد هنا.

❖ كن أرلّيّا (لا تموت) منذ الآن

في زيارة أخرى له، كنت حزينًا جدًّا. فقد أُمّت بي محن متتالية خلال فترة وجيزة مهدّدة بأن تضعف قدرتي على التحمّل. وسط ذلك الغمّ، عزّنتني

فكرة وشجعتني جداً، فعبرت عنها للشيخ حالما دخلت قلايته. قلت له: "أنت تعرف من دون أن أكشف لك، أنني أمر بتجارب. ولكن، لو تعلم كم تعزيني الفكرة أن كل شيء باطل وعابر في هذا العالم الترابي الذي نعيش فيه. ويكفي القليل من الصبر، لكون الأفراح والأتراح ستزول بسرعة، وستأتي الساعة العظيمة، حين يقودني الموت إلى الخلود، وإن شاء الله بصلواتك أوهل أنا غير المستحق لأحيائها بالقرب من المسيح. انتظرت موافقته على تلك "الأفكار" التي قلتها. لكنني فوجئت عندما سمعته يُبدي رد فعل شديد، قائلاً: "لا تفكر يا بني، أفكاراً كهذه، أنك ستموت وبعدها تذهب إلى الأبدية. جاهد لتكون أزلياً منذ الآن، ومت هنا على الأرض عن ذاتك الشريرة. وهكذا لن تحزن، بل ستفرح كثيراً لأنك تحيا مع المسيح. ولن تخاف لا المحن ولا الشيطان ولا الموت لأنك ستغلب عليها كلها هنا على الأرض، إلى أن يأتي الوقت الذي تصبح فيه مستعداً للأبدية". نظرت إليه بدهشة فرحاً وقلت له: إن ما تقوله لي أيها الشيخ جميل جداً، ويرychني أكثر بكثير من الأفكار التي قلتها لك من قبل، لقد رفعت معنوياتي وفرحتني. وقد ذكّرني أيضاً بكتابة على مدخل دير في الجبل المقدس: "إن مُتَّ قبل أن تموت، فلن تموت عندما تموت".

حالما سمع الشيخ هذا تأثر وقال لي بصوت حاد: "اكتب لي هذا بسرعة على مذكرة هاتفي، على صفحة بيضاء". كتبتها، وذكرت له أيضاً قولين آخرين يتعلّقان بالفكرة ذاتها، للقديس يوحنا السّلي، وقد أعجابه جداً وهتف: "اكتب هذه أيضاً في الحال على مذكرة الهاتف". كتبتها. وإذًاك أوصاني: "ستأخذ دفترًا وتكتب لي كل ما تجده جميلاً في الكتاب المقدس وفي الكتب الأبائية التي تطالعها، وتجلبه معك من أجل أن تقرأه لي كي أفرح أنا أيضاً. وما أقوله أنا مكتوب في الإنجيل". أذكر أن لقاءنا ذاك قد تحوّل إلى عيد روحي. كان الشيخ قد تأثر كثيراً، حتّى أنه كان يتصرف كولد صغير. وقد شابه المتباليين من أجل المسيح، الذين من شدة فرح عشقهم الإلهي، كانوا يسكرون "سكرًا صحيًا" ويحيون "اندهالاً عاقلاً"، حتّى أنهم بنظارات المنطق القصيرة النظر كانوا

يظهرون غرباء وغير عاقلين. وفي تلك السّاعة، بذلت جهدي أنا الشقي، متكئاً على المنطق، لأبلغ مستوى الشّيخ الذي كان يخلّق بأجنحة عشقه الإلهي. وما استطعت أن أفهمه من كلامه أنّه كان يحثني على أن أتسامى على المعاناة في التجارب وتوقّع الموت كمنقذ نهائيّ، إلى الجهاد في إماتة ذاتي القديمة والخطيئة الموجودة فيها، وإلى قيامة ذاتي الجديدة، في المحبّة التي بالمسيح والتي ستغلب التجارب والشّيطان والموت، مرشداً إتياني إلى الخلود "منذ الآن، من هذه الأرض".

في لقائنا التّالي، عاد الشّيخ وكلمني عن خلود الإنسان. كان يحاول أيضاً أن يجد المقطع الإنجيلي المتعلّق بهذا الموضوع، قائلاً لي: "أعلم أنّ الإنجيلي يوحنا كتبه في الإصحاح الثامن، ولكيّ لست أذكر كلماته بالتحديد. هيّا ساعدني، ربّما نتوصل إلى إيجادها". وحاولت أن أتذكّر، وطبعاً لم أجد شيئاً. عندها سمعت صوته المتهلّل: "قد وجدتها، إنّها هذه، يقول المسيح: الحقّ الحقّ أقول لكم، إنّ من يحفظ كلامي لن يرى الموت إلى الأبد". وبعدها، قام بتحليل لاهوتيّ للإنسان المتجدّد، المتجلّي، المائت عن الخطيئة والقائم من أجل المسيح، الذي يبدأ بعيش عدم الموت في هذه الحياة، منذ الآن.

❖ أن ينتهي بناء الكنيسة فأرحل

كانت ظهيرة أحد أيّام الصّيف، وكنت أجلس وحدي مع الشّيخ تحت شجرة صنوبر نحتي من الشمس المحرقة. وكانت تُسمع على مسافة منّا أصوات البناء في أحد أجنحة الدّير. كان الشّيخ منهكاً من أمراضه الملمّة به، ولكنّ عقله وقلبه كانا متيقّظين وكان يتابع العمل الذي يتقدّم ببطء وصعوبة. وإذا به، في لحظةٍ ما، يلتفت ويقول لي: "يا ولدي، لا أدري ما هو الأمر! لقد حدث شيء ما في اللّحظة الأخيرة وآخر العمل بعد أن كنّا قد ابتدأنا نتقدّم بسرعة، وأتانا أناس

ليساعدونا". عندها قلت عفويًا: إِنَّكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ تقوم بعمل الله. فهل سيبقى الشَّيْطَانُ مكتوف اليدين من دون أن يعمل عمله؟ نظر إليَّ الشَّيْخُ باهتمام وقال: "هل تعلم؟ إِنَّكَ على حقٍّ، الأمر هو كذلك. إِنَّ العقبات الَّتِي تظهر، من وقت إلى آخر، شيطانيَّة. ولكن مهما يفعل الشَّيْطَانُ، فنحن سنبني الدَّير، وسنبني الكنيسة أيضًا. أتمنَّى كثيرًا أن تنتهي من بناء الكنيسة وبعدها أرحل إلى السَّماء". وعند سماعي كلماته الأخيرة، اضطربت. كنت أعرف أَنَّ الشَّيْخَ في سن متقدم، وكنت أعرف أَنَّ حياته "معلَّقة بخيط" بسبب أمراضه، وأنَّه يومًا ما ستأتي ساعة الفراق الصعبة الَّتِي لا مناص منها. لكنني، في أعماقي، كنت أرفض هذا المنتظر، ولم أشف أن أَرْضَى به. لهذا، كان ردُّ فعليَّ المباشر قولِي له بين الجدِّ والمزاح: إذا كان الأمر كذلك أَيُّهَا الشَّيْخُ، فلنؤخِّر العمل في الكنيسة على قدر ما نستطيع. فأتبني قائلًا: "لا تقل، يا بنيّ، أشياء كهذه. يجب أن ينتهي بناء الكنيسة، وأنا أرحل بعد ذلك".

إلاَّ أَنِّي أصررت، بقيت على إيماني بأنَّ شيئًا ما، في النِّهاية وبشكل خاصٍّ، سيحدث مع الأب بورفيرْيوس ويمنع موته ولو كان ذلك غير منطقي. فقبل سنين أسرَّني أحد الرُّهبان الَّذين عرفوه أَنَّ الشَّيْخَ مريض جدًّا وهو مشرف على الموت. كنت في ذلك الوقت بحاجة ماسَّة إليه (ومتى لم أكن بحاجة إليه؟) وكان ردُّ فعليَّ مباشرًا واحدًا ومفعَّمًا إيمانًا. قلت للراهب بصوت حازم، هذه الأمور غير المعقولة: إن مات الأب بورفيرْيوس، فالمسيح لن يموت، ولهذا حتَّى الأب بورفيرْيوس لن يموت. فنظر إليَّ الراهب بتعجُّب وابتعد. الأشهر والسنون الَّتِي توالَتْ كانت وكأنَّها تحقِّق ما أكَّدته. وسرَّت إشاعة مرضية وغير محدَّدة بين أولاد الشَّيْخِ الرُّوحِيِّين أَنَّ الشَّيْخَ "لن يموت".

فيما بعد قبلت بمعلومة أكثر واقعيَّة: زار الشَّيْخُ شابَّ لا علاقة له بالحياة الرُّوحية، فأثر فيه الشَّيْخُ إيجابيًا. فسأله ماذا عليه أن يفعل، فأشار عليه بإيجاد أب رُوحِيٍّ جيد كي يعترف. أجابه الشاب ببساطة أنَّه لن يذهب إلى آباء آخرين. فقال له الشَّيْخُ إنَّه يستطيع أن يأتي للاعتراف عنده. واعترض

الشَّاب قائلًا: نعم، ولكن، أنت شيخ وستموت عاجلاً. لن أموت عاجلاً، أجابه الشيخ. فأصّر الشاب، نعم، أريد أن تعيش مئة سنة. من أجلك سأعيش مئة سنة، أجاب الشيخ. فبسبب هذا الإعلان أُشيع بأنَّ الشيخ سيعيش إلى سن المئة. ولكن، حتَّى لو عاش مئة عام، فالمشكلة لن تحلَّ بالنسبة إلى زوّاره الذين لا يحصون.

❖ في خدمة قدّيس

زرت الشيخ عصر أحد الأيام، فوجدته في سريره مريضاً. تحدّثنا قليلاً، ثمّ سمعته يقول لي: "أرجوك، ارفعي قليلاً كي أجلس وأرتاح من خَدري، فقد مرّت ساعات وأنا مسمر على السرير بلا حراك". انحنيت وأمسكته من كتفيه بانتباه ورفعته على مهل.

في تلك اللَّحظة، راودتني فكرة جعلتني أقشعر. تساءلت: ترى، هل أنا واعي ما أفعله الآن؟ لقد أهلني المسيح، أنا غير المستحق، لأنّ أحتضن جسداً حيّاً لأحد قدّيسي الغد، الذي، بعد سنين، سيطلب آلاف النّاس شفاعاته، ويسجدون لبقاياه التي ستُجري العجائب. عندما جلس، رتّبت له سترته، وغطّيته بحرام كي لا يبرد، ووضعت رجليه في الخفّ. كان الشيخ صامتاً، مستثقلاً خدماي، وكان يشكرني بين الحين والآخر بابتسامة متواضعة. أمّا أنا فكنت أشكر المسيح سرّاً لأنّه، من محبّته التي لا تحدّ وتواضعه، منحني شرفاً مميّزاً أن أخدمه، ولولليل جداً، في شخص أحد خدّامه المتقدّسين الذي يؤلّف عضواً حقيقياً في جسده. كم أكون محظوظاً لو أشعر بأنّ لي الشرف المميّز ذاته في كلّ مرّة يمنحني المسيح الفرصة لأنّ أقدم خدماتي "لأحد إخوته الصغار"، وهم كلّ إنسان مساوٍ لنا، حتّى ولو كان أكبر الخطأة. وقد استطاع الشيخ خلال

حياته كلها، وحتى عندما كان عاجزًا بسبب أمراضه وشيخوخته، أن يميّز المسيح ويخدمه بتواضعه ومحَبّته المقدّسين في وجه كلّ "أخ صغير" بلا محاباة.

❖ صلّ لأجلي

قبل أشهر من رحيله إلى "الجبل المقدّس"، زرتّه في قلايته. وعلى الرّغم من أنّه كان مريضًا جدًّا، أبقاني وقتًا طويلاً وأعطاني بصوت خافت نصائح شخصيّة مؤثّرة. من جملة ما قاله لي هذا اللّغز: "صلّ من أجلي أيضًا إلى الله، لا من أجل أن يشفي أمراضي، بل فقط من أجل أن يرحمني". وبدا ذلك تمهيدًا للفراق. إلا أنّي لم أشأ أن أعطي كلماته هذا التفسير. فقد ربطتها بتعليمه الخاصّ عن "القانون" الرّوحيّ في حال الأمراض الجسديّة. ولكن، يظهر أنّ الشّيخ كان يعني شيئًا آخر. وعندما توقّف عن التكلّم معي، قبّلت يديه ورجليه، فباركني. وفيما كنت متّجّهًا نحو الباب، وكأنّ شعورًا ما دفعني، فاستدّرت قليلًا ونظرت إليه. كان ممدّدًا في سريره مضئ، وجفناه مغمّضان وفمه نصف مفتوح، ويتنقّس بصعوبة. بدا لي وكأنّه على وشك الموت فاقشعرّ بدني. إلا أنّي بتغصّب أبعدت هذا الفكر وتركت خيالي يسرح في لقاءاتنا الّتي لا تنسى في غابة كاليسيا، حين كان أكثر شبابًا ويستطيع أن يسير بثبات ويكلّمني بعزم، قاطعًا حديثه، غالبًا، بتلك الضحكة المقدّسة اللطيفة المشعّة. دمعت عينا، وقلت في داخلي، وأنا أستعد للانصراف: أه أيّها الشّيخ، أين ذهبت تلك الأيّام الجميلة؟ في تلك اللّحظة رفع يده قليلًا، وأشار إليّ أن أقرب. وأخذت شفّته تتمتّان شيئًا ما. ركعت وأدّيت أذني من فمه فسمعت: "أه، أين هي الأيّام القديمة؟ أتذكّر حين كنت في صحّة جيّدة، وكنا نتمشّى معًا في الغابة وتخبرني بما عندك وأنا أعزّيك؟" قلت له على مهل: أتذكّر. واختنق صوتي بغصّة. ولم يتكلّم الشّيخ بعد

ذلك. رفع يده ببطء واحتضن رأسي وأخذ يداعب شعري. وبالكاد استطعت أن أنطق بكلمات قليلة: يا أبت، أودّ كثيرًا أن أبقى بالقرب منك، ولكنك مريض جدًّا ويجب ألاّ أتعبك أكثر. صلواتك، يا أبانا. عدت وقبّلت يده وخرجت بسرعة ورأسي مطرق كي لا يرى الزوّار دموعي. كان هذا آخر لقاء بيننا.

❖ الوداع

في نهاية تشرين الثّاني السنة من ١٩٩١، زرت الدّير مع اثنين من أصدقائي. علمت أنّ الشّيخ غائب في "الجبل المقدّس" وأنّهم ينتظرون عودته حالما تتحسن صحّته. وبعد الاستعداد للانصراف، شعرت في تلك اللّحظة بقوة لا تقاوم تجذّبي إلى قلّاية الشّيخ. أخذت بركة الشّيخة الرّاهبة وفتحت الباب. بدا لي وكأنّي أدخل معبدًا شريفًا. سجدت لأيقونة والدّة الإله الكبيرة، ثمّ دنوت من سرير الشّيخ، انحنيت وقبّلت وسادته ووسط السرير ونهايته، حيث كان يسند رجله. وفجأة انتابني شعور حادّ لم يسبق أن أحسست به من قبل. وخرجت منفعلًا من القلّاية، وبالكاد استطعت أن أنطق ببعض الكلمات أمام أصدقائي للتعبير عن محبّة الشّيخ الّتي لا تقدّر. قلت لهم إنّهم لم يحبّني أحد في العالم بكلّ صدق ونقاء وقداسة، لا أهلي ولا إخوتي ولا أصدقائي ولا أحد، بقدر ما أحبّني الأب بورفيرْيوس. حاولت أن أتابع الكلام كي أخبرهم عن كلّ تلك الأحاسيس الّتي فاضت في نفسي كالسيل، لكنّي لم أستطع. فقد خنقني الدّموع. ولأوّل مرّة أجهشت بالبكاء أمام قلّايته الخالية مثل ولد صغير أضحى يتيّمًا. في السّابق وفي كثير من الأحيان، عندما كان يتغيّب كنت اسجد لقلّايته ولكن بهدوء فرح. إلا أنّي في تلك اللّحظة المميزة شعرت بأنّي أتلقّى سرّيًا جواب محبّة أبي القديس الّذي كان يستعد لسفرته الكبيرة، وبأنّي أتلقّى آخر "مداعباته

الرَّوحِيَّةَ" لابن رُوحٍ له غير مستحق، تجرّأ أن يقترب منه ليودّعه الوداع الأخير. ولم أستطع أن أفسّر الأمر منطقياً، إلا أنّ للقلب منطقَه الخاص، لأنّه يستعمل عينيه الخاصّتين ليرى ما لا يُرى، وأذنيه الخاصّتين ليسمع ما لا يُسمع. وقد رأى الشّيخ وسمعه، وكأنّه بالقرب منه، كما قال لي في الماضي: "ما هذه العجيبَة! الأجساد بعيدَة أمّا النفوس فمجتمعة". لقد عانقت نفسيّ نفسه بحنان في وداع سرّي أخير.

وقد استمرّ هذا الانفعال في اليومين التّالين وبأكثر هدوء. وفي اليوم الثّالث تلقّيت مخابرة من صديق: هل علمت بشأن الشّيخ؟ فسألته: ماذا جرى؟ وحزرت للحال الجواب القاسي: رحل، لقد رقد ليلة البارحة، ودُفِن فجر هذا اليوم. تركت السّماعة، وخبّأت وجهي بكفّي اللذين تبلّلا بالدموع. لم أبدأ البكاء عليه في تلك اللّحظة بل تابعت نوحى الجنائز الصامت الذي بدأ هناك، خارج قلايته الفارغة المتواضعة، قبل ثلاثة أيّام.

شبه خاتمة

❖ شيخي الوقور الحبيب

قبل قليل من رحيلك إلى الوطن السّماويّ، تركت لنا رسالة محبّتك الّتي لا تنضب: "عندما أرحل، سأستمرّ في التكلّم معكم، ولكن هل ستسمعونني أنتم؟" لا أستطيع أن أعرف إن كنت أسمعك، إلا أنّي أستطيع أن أعرف أنّك تسمعني.

أخذت على عاتقي، لا بمبادرتي الخاصة، أن أكتب مذكراتي عن فترة تلمذتي بالقرب منك. إنّهُ عمل صعب عندما يحاول شخص وضع أن يكتب عن شخص عظيم جدّاً، أو يحاول خاطئ أن يكتب عن قدّيس.

أشكرك لأنك ساعدت ذاكرتي الضعيفة. ولكن على الرّغم من مساعدتك، تعرف أنّ الّذي كتبته ليس جديراً بمواهبك الّتي نلتها في سنّ مبكرة جدّاً وحافظت عليها بجدارة حتّى آخر نسمة من حياتك على الأرض. وأشعر بأنّ كلّ ما قدرت أن ألاحظه فيك صغير جدّاً أمام عظمة قداستك، وأنّ كلّ ما كتبته وحاولت أن أفسّره فقير جدّاً أمام غنى محبّتك. أغفلت الكثير ممّا يخصّني شخصياً أو يخصّ الآخرين، ونسيت أشياء، ولم أجد الكلمات للتعبير عن أشياء أخرى.

أتعلم إنّ كلّ ما كتبته عنك يشكّل نقطة ماء في محيط، ومصباحاً خافتاً أمام الشمس، ومعالجة موضوعيّة سيّئة بدل انعكاس منظور لشخصيّتك اللطيفة. كما أنّه لا بدّ من أن تجتمع شعلة مصابيح كثيرة كي تضيء، ولو قليلاً، صورة نفسك الحقيقيّة. وعلاوةً على ذلك، لا بدّ من أن يرسل الله قدّيساً آخر مثلك، كي يكتب بشكل حقيقيّ سيرة حياتك. حتّى ذلك الحين،

نتعزّي بأن يروي الواحد منا للآخر ما رآه بقصر نظره وما سمعه بسمعه الثقيل.
وأطلب مسامحتك عن كلّ ضعفات هذا النصّ وأخطائه ومبالغاته ونواقصه،
وأطلب إلى الربّ ألاّ يسمح بأن تتعزّر آية نفس من قراءته.

أيّها الشّيخ، أنت تعرف أفضل ممّي كم يكلفني تيّمي الرّوحيّ، لأنّك تعلم
كم كان يعني حضورك في حياتي. وأتجرّأ على القول إنّك قسمتها إلى قسمين:
حياتي قبل معرفتي بك، وحياتي بعد معرفتي بك. لقد عرفتكم متأخراً. فلو
عرفتكم في وقت مبكر، لكنت انعتقت من فخاخ كثيرة. وطيلة الفترة الّتي عرفتكم
فيها كنت أحزنك بتهاوني وترددي الجسديّ والرّوحيّ أمام اتّباع نصائحك ومثال
حياتك المقدّس الّتي كانت تضيء وتدفع وتدوب مثل شمعة وهّاجة فوق ذبيحة
المحبّة.

لقد عشتَ بمحبّة القديسين وتواضعهم ورحلت كما عشت. ولما علمنا
برقادك، كنت أنت تستريح في آخر مسكن أرضيّ لك. ومحبّتك العطوفة لم تشأ
أن ينتقل آلاف أبنائك في الشتاء ليشاركوا في جنازتك. وتواضعك ذو التميّز لم
يقبل ان تُلقَ كلمات التأيين في مدح فضيلتك في مكان عبادة علمانيّ. فقد طلبت
من تلاميذك الّاثنوسيّين أن يعلنوا رقادك بعد دفنك. لقد رحلت كما حللت:
عطوفاً ومتواضعاً وهادئاً.

لقد حلّقت من التلال الجبليّة المقدّسة في أثوس وانحدرت إلى سهل
أثينا الخاطئ، متحمّلاً بصبر شجاع، أمراضك المتتالية. فأدفأت قلوباً باردة،
وأنرت عقولاً مظلمة، وشدّدت ركباً مخلّعة. لقد حملت صليبك الثقيل بمحبّة،
من دون أن تكفّ، ولو دقيقة واحدة، عن تشجيع الآخرين كي يستطيعوا أن
يحملوا هم أيضاً صليبهم. ولما أتممت عمالك إلى النّهاية، وسبقت فأحسست
بنهايتك على الأرض، عدت فطرت إلى قلّاية توبتك حيث استحققت أن تقول
قولك المأثور: "قد تمّ". كنت تقول لي غالباً: "أريد أن أذهب إلى الجبل المقدّس
فهناك أشعر بالراحة". وقد قيلَ المسيح رغبتك وأراحك للأبد وسط بستان أمّه

الكلية القداسة. والآن أنت تحيا القيامة، كما نتمنى جميعنا ونرجو ونؤمن لأنك سبقت وذقت القيامة ههنا.

عندما كنت تعيش على أرضنا، كانت لدينا دائماً مشكلة: متى نستطيع أن نلتقيك؟ أما الآن فإن مشكلتنا قد حُلَّت. إذ كنت تقول لنا: "إننا عند المسيح وقدسيه الراقدين يُرحَّب بنا أكثر في الأوقات غير المناسبة". والآن لم تعد لدينا مشكلة متى نلتقيك، بل كيف نقتني سمعاً روحياً لنستطيع أن نسمعك عندما تكلمنا.

أنت تعلم أن تجاربنا تستمر حتى بعد انفصالك عنا. ونحن على يقين من أنك لا تريد أن تساعدنا الآن أكثر من ذي قبل وحسب، بل أنت قادر على ذلك. ففي شخصك حصلنا على شفيع سماوي قوي. ونؤمن بأنك تصلي من أجلنا كما فعل المسيح من أجل تلاميذه: "أيها الأب، إن الذين أعطيتني أريد أن يكونوا معي حيث أكون أنا". ونحن لا نجرؤ أن نفكر في أننا سنوجد وقتاً ما هناك في الأعالي، حيث توجد أنت. ومع ذلك لسنا نريد الابتعاد عنك. ويؤكد لنا القديسون أن الموت لا يستطيع أن يقطع الرباط الذي يجمع الشيخ بأولاده الروحيين. نحن نتمنى أن نبقى على الدوام أولادك، لا أن نكون مساوين لك، بل أولادك. يكفينا بشفاعاتك وتوبتنا أن نستطيع الاقتراب ولو قليلاً من قلايتك السماوية كي ننال تعزية وقوة في جهادنا.

لدي صورتك بالقرب من بيت الأيقونات، وعلى سريري المسيحية التي باركتها، وفي عنقي الصليب الصغير البسيط الذي وهبني إياه. إنها علامات حسية على حضورك. ولكن أكبر علامة حسية هي في القلب، الذي يبتهج في كل مرة تتمم فيها الشفاه "يا قديسي الله تشفعوا فينا". لأنك حاضر الآن بين كل قديسي الكنيسة، وأنت الإنسان الذي يخلصنا هناك أكثر من الكل. وإنك مع "جميع القديسين" تمجد الله، كما تفعل البلابل الأثوسية، وتبتهج معهم مستمتعاً بلا انزعاج بالمسيح "الذي هو الكل" ومتشفعاً معهم من أجل أعضاء الكنيسة المجاهدة حتى يستطيعوا أن يحصوا في الكنيسة الظافرة...

تأتي لحظات تغرق العينان فيها بالدموع ويغمر النفس هدوء حين أفكر فيك. لست أدري ما هذا الذي أشعر به: حزن أو فرح أو حزن بهج؟ مهما يكن، أعرف أنه جميل ولا يعبر عنه. أعلل شفاعاتك عند الربّ، في هذه اللحظات المباركة، تقوّي سمعي الروحي وتضبطه؟ لأنك أنت لم تتوقّف عن التكلّم معي منذ انفصالك عنا ورحيلك إلى السّماء. وفي هذه اللحظات الخاشعة، أتساءل برجفة: أؤمن الممكن أن يتردّد معك أنت أيضًا كلام المسيح لتلاميذه "من الأوفق لكم أن أنطلق". أو لعلّ هذا الحزن والفرح الصّليبيين – القياميين معًا يردّدان صدى وعد الربّ بطريقة غير مباشرة، "لا أترككم يتامى، فإني آتي إليكم" و "لن يكون عندكم حزن؛ أعود وأراكم فتفرح قلوبكم، ولن ينزع أحد فرحكم منكم؟"

في كلّ مرّة أحيّا فيها هذه الانفعالات السّامية، أتمنّى بحرارة لو أستطيع أن أسمعك بوضوح أكثر. أن اسمع أقوالك، كي أعلّم شيئًا فشيئًا أن أتهجّأ لغتك الخاصّة، لغة محبّتك المتواضعة. أن أتشبه بالراهب البسيط الذي تكلّم مع القديس نيقولاوس وكأنّه حيّ لأنك حيّ. المشكلة هي موت الروحي الذاتي الناتج من حياتي الخاطئة. وهذا، لأنّي لم أصمّم بعد على أن أتبع ما قلته لي هنا على الأرض: "كن خالداً منذ الآن بموتك عن ذاتك الفاسدة". لقد علّمتني إيّاها، لا بالكلام فقط، بل بعيشتك أيضًا. لأنك، بجهدك المخلص والمستمرّ "متّ قبل أن تموت". ولما وافى الموت، احترمك، ولم يمسّك، إذ وجدك "خالداً منذ الآن"، من هنا، من على هذه الأرض. إنّ محبّتك التي في المسيح غلبت الموت. وليس صدفة أنّنا لم نرك ميّتًا. سنتذكّرك حيًّا على الدوام. لقد حفظت قول المسيح بأمانة ولهذا "لن ترى الموت إلى الأبد".

إنّي ممسك بيدي الكتيّب الذي يحوي رسالتك إلى أبنائك الروحانيين. في الصفحة الأولى، أرى صورتك وأنت على شرفة الدّير خارج قلايتك تمسك بورع وبابتسامة أيقونتك الكبيرة المحبّبة إليك، أيقونة والدة الإله الحاضنة الطفل، التي سجّدت لها مرات كثيرة. كنت تقول لي: "أسجد لوالدة الإله، وبعدها قبّل يدي". وعلى الصفحة الأخيرة أرى قبرك البسيط وعليه الصّليب الخشبيّ

البسيط حيث كُتب اسمك. وأرى التراب الذي يغطّي هيكلك الترابيّ الموقر وحولك أزهار برّية ترمز إلى الأزهار السّماوية، أزهار محبّة قلبك العطوفة. وفي الصفحات الداخلية أقرأ رسالتك. كم هي حكيمة نصائحك، وبأيّ لوم للذات تتكلّم على حياتك، وبأيّ ثقة تنتظر حكم محبّة الله، وبكم من التّواضع تطلب أن نسامحك "من أجل كلّ ما أحزنتنا به"، نحن الذين أحزّناك بخطايانا. فان كنت أنت الذي ضحّيت من أجلنا، تطلب المسامحة منّا، فكم يجدر بنا نحن الذين جعلناك ذبيحة أن نطلب إليك الغفران؟ إلا أنّه مهما كان هذا الغفران كبيراً، فأنت ستهبنا إيّاه طوعاً، مع محبّتك الكبيرة التي لا تعرف حدّاً.

لقد قلتَ عن أبي الرّوحيّ: "قد عاش المسيح، فذهب إلى المسيح". أوّمن بأنّ الشّيء نفسه قد حصل معك. فهنا على الأرض، لم تكن تحيا أنت، بل كان المسيح يحيا فيك. فكلّ عجب تكلمت به وفعلته كان كلمات المسيح وأفعاله "بوساطتك". كنت تختفي أنت لكي يظهر المسيح جليّاً "فيك". لقد جذبتنا إليك لتصبح وسيط عرس يجمع نفوسنا مع المسيح الختن.

قد توجّعت وتعبت كثيراً بحبّك المسيح والنّاس "في المسيح". والآن تفرح وتستريح بعدل داخل "خدر المخلّص المزيّن"، "حيث ينتفي كلّ حزن ووجع وتهد". فأنت تشارك الآن "بأوفر حقيقة" في الفصح العظيم "في نهار ملكوت المسيح الذي لا يعرفه مساء" "حيث لحن المعيّدين الذي لا يفتر واللذة التي لا نهاية لها، لذّة المشاهدين جمال وجهه الذي لا يوصف".

أرجوك، أيّها الشّيخ، تقبّل كتاباتي الهزيلة هذه بمثابة ردّ شكر بنويّ على رسالتك الوداعيّة الأبويّة، وكتعبير حقير عن عرفان بالجميل من أجل الأمور العظيمة التي قدمتها لي، وكاتبها للصفح عن الأحزان التي سببتها لك، وكتوسّل إلى محبّتك التي لا تفرغ كي لا تنساني هناك في الأعالي، في السّموات، ولا تنسى أبناءك الرّوحيين، وأن تذكّر دائماً العالم بأكمله.

كم أودّ، يا أبانا، لو كنت قادراً على الكلام معك جهاراً وبإيضاح أكثر، ولكنني لا أستطيع، فلهذا أفضّل الصّمت، لأنّ رغباتنا الأكثر نبلاً وأفكارنا الأكثر

استنارة وأحاسيسنا الأكثر رهافة لا يُعبَّر عنها بكلمات، بل بصلاتنا الصامتة إلى المسيح، الذي يوحدنا جميعًا، باستيعاب سرّي، داخل محبّته الإلهيّة الأبدية التي لا تحدّ.

النهاية

والمجد لله الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين، آمين.

"لقد منحتني معرفتي بالأب بورفير يوس الفرصة في
التعرّف على مسيح جديدٍ وبهيٍّ وجذابٍ، لم أصادف مثله
طيلة السنوات الثلاثين، التي كنت قد بلغتُها آنذاك، والتي
سمعت فيها الكثيرين ممّن يتحدّثون عن المسيح"
قسطنطين يانيتسيوتيس

أجابني أبي الروحيّ: "... كلُّ ما أقوله لك يبقى ساري
المفعول، حتى يقول لك الأب بورفير يوس شيئاً آخر مختلفاً
حول هذا الموضوع. وابتداءً من تلك اللحظة، تنتهي
صلاحية رأيي ويبدأ سريان مفعول رأي الأب بورفير يوس"
قسطنطين يانيتسيوتيس

"ألا تعلم أنّك أنت وأنا واحدٌ؟... في إحساسٍ وحدتنا
هذا مع الآخر يختفي سرّ الحياة الروحيّة في المسيح"
الشيخ بورفير يوس

